

زهير الماردينى

الأستاذ

قصة حياة ميشيل عفلق



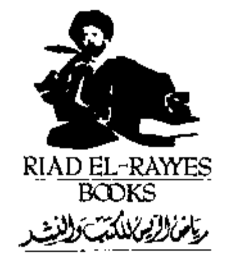
زهير الماردينى
الأستاذ
قصة حياة ميشيل عفلق



زهير المارديني

الأستاذ

قصة حياة ميشيل عفلق



4 Sloane St. London SW1X9LA

4 Sloane Street, London SW1X 9LA



British Library Cataloguing in Publication Data

Mardini, Zuhair.

THE TEACHER
The Story of Michel Aflaq

by

ZUHAIR MARDINI

First Published in Great Britain in 1988

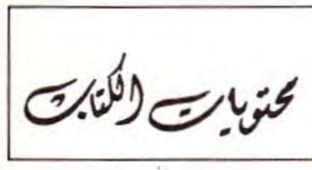
4 Sloane Street, London SW1X 9LA

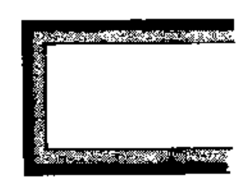
British Library Cataloguing in Publication Data

Mardini, Zuhair.
The teacher: the story of Michel Aflaq
1. Syria. Politics. Aflaq, Michel
I. Title.
956.91'042'0924

ISBN 1 - 869844 - 79 - 3

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd., London
Printed & Bound in Great Britain By: Biddles Ltd., Guildford & King's Lynn





هذا الكتاب

ما أشقّ الحديث عن الاستاذ (ميشيل عفلق) وحزب (البعث العربي) الذي أضيف الى اسمه فيما بعد كلمة (الاشتراكي).. وما أصعب الخوض في سيرة الرجل للوصول الى العوامل التي أدت الى نشوء الحزب، فمن ذا الذي يعرف الخطوط الاولى التي نسجها المؤسس، أو الخطوط التالية التي دفعته إلى العمل على تحويل الافكار الى عمل متحرك؟

ومن ذا الذي دارى في عتمة الافكار والناس هذه النبتة الفكرية التي اضحت اليوم من أبرز ألوان العقائد في الساحة العربية، ومتى كان ذاك؟ وكيف كان النمو والغذاء والثمر الاخير؟

انّ المؤرخين والمؤلفين أهملوا، وحتى عهد قريب، الكتابة عن الاستاذ، والحزب، إما خوفاً من العواقب فأغمدوا السنتهم واقلامهم في نحورهم وشعارهم: (ما كلّ ما يعلم يقال)، وإما لصعوبة لملمة الاحداث ونسجها في إطار شامل فضاع علينا بهذا الشكل حتى تسجيل اهم الاحداث التي حفل بها التاريخ العربي الحديث.

ولعل من الاسباب التي ادت الى عدم صدور أي كتاب عن الاستاذ والحزب، حتى الآن، كون هذا اللون التاريخي (كتابة السيرة الذاتية) غربي الينابيع، حديث البراعم. فكان من العُسر، كل العُسر، على المؤرخين العرب الوصول الى الحقائق وسط هذا الخضم من التباين في الآراء حيال الاستاذ والحزب معا، من أجل هذا تركوا مهمة التسجيل لغيرهم من الكتّاب الأجانب الذين اعتادوا الخوض في تاريخنا القديم والحديث وفق

اهوائهم واهدافهم.

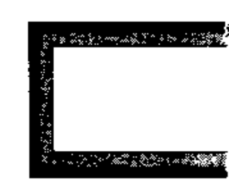
كثير من المؤرخين الاجانب تناول قصة الاستاذ والحزب من خلال اقوال انبثقت من هنا وهناك وهنالك، ومعظمها منتزع من الخيال المجنّح الذي يتعمد الاساءة أكثر من أعتماده على النية الحسنة، فراح هؤلاء يلتقطون الكلمات عن الاستاذ والحزب من ثرثرات مقاهي التنظير المنتشرة بكثرة في الساحة العربية، وعندما جرّب هؤلاء الكتاب الاقتراب من سيرة الاستاذ اصطدموا بمغارة الاسرار، وببابها الذي لا يفتح، الا اذا تمتم الاستاذ بكلمة السر، فسرعان ما يرتدُّون على أعقابهم.

أقول ما أشقّ الحديث عن الاستاذ المحاط بهالات ملونة من الاحاجي التي تسللت من الوطن لتستقر هناك كحقائق في الساحة الدولية.

انني هنا لا أجدّف في بحور التناقضات التي طوقت الاستاذ والحزب، فليس سراً على أحد أن الحزب لم يعد حزبا متماسكا ينظر اعضاؤه الى الاستاذ المؤسس نظرات متقاربة، ولو نسبيا. فهناك فئات عديدة أصبح الكلام على الاستاذ، عندها، لا يصحّ ولا يجدي. فمع قيادتهم لا كلام عن هذه المرحلة، لأنها حزمت أمرها وتركت الاستاذ بعيدا عنها، وعن مفاهيمها العقائدية. كذلك فان قاعدة الحزب لم تعد واحدة، فهناك اعضاء الساعة الاولى، وهناك، ايضا، اعضاء الساعة الاخيرة، هؤلاء الذين انضموا الى الحزب، أو عادوا اليه بعد الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٣. فهؤلاء اضحت لهم مفاهيمهم في الاستاذ والحزب، وكل بما لديه فرح!

ومع ذلك، وفوق كل ذلك يبقى هناك، وبين بحور التناقضات، (بحيرة) صغيرة هي التي أجدّف فيها، وتجدّف معي مجموعة من الشباب تفتح وعيهم القومي مع نشوء الحزب، وعمقت تعاليمه تمسكهم الشديد بالحرية وبالخلق النضالي، فآمنوا حقا بشعاراته، وحملوا هذه الشعارات اهدافا في عقلهم، وتطلعات في ضمائرهم، منذ ولد الحزب. ثم حملوا الحزب على أكتافهم من أجل تلك الاهداف والتطلعات، فناضلوا به ومن أجله والاستاذ أمامهم. فقد يجهل هؤلاء سيرة حياة استاذهم، أو ربما تناسوها تحت ضغط الاحداث الدامية، بكل ما حملت من مواقف.!

وقبل الاقتراب من هذا الحصاد المتراكم عن الاستاذ والحزب، لا بد من تمهيـد تفصيلي لوضع الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية في سورية في مكانها الطبيعي من الزمان والمكان والناس، ومن القاء النور على الفترة الزمنية التي قلما عُرفت ودرست من تاريخ سورية العربية، وذلك بين عام ١٩١٢ وهـو العام الذي ولد فيه الاستاذ ميشيل عفلق، ومنتصف الاربعينيات حيث ظهر حزب البعث. ولا بد مما ليس منه بد!



تمهيد

لعل إلمامة قصيرة بالأوضاع العامة السورية منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، تضع الحياة السياسية والفكرية في مكانها الطبيعي.

فهذا الكيان السياسي الذي نعرفه اليوم باسم سورية أو (الجمهورية العربية السورية) لم يكن معروفا حتى العام ١٩١٢ وهو العام الذي ولد فيه الاستاذ ميشيل عفلق كما اسلفنا الذكر. وأعمق جذوره في التاريخ لا يعود الى ما قبل نصف قرن! وفي القرون الثلاثة الاخيرة كان هذا القطر العربي أحد الربوع التي تجتر النوم والتثاؤب، في ظل العلم العثماني، وقبة الباب العالي، وباشوات المابين. لقد لمع من حكام المنطقة آل العظم، الذين ربطوا ما بينها وبين السلطان العتيق برباط الولاء. ثم وهن حكم العظميين مع بروز فكرة الاصلاح التي تبناها السلاطين سليم الثالث ومحمود الثاني وعبد المجيد، الواحد بعد الآخر دون كبير اقتناع، ومرت على جهاز الدولة ـن كبير أثر، وتلقاها الناس دون أي انفعال.

ولعل هذا كـن أحد أسباب وصول نابليون الى الشرق، ووصول الحضارة الغربية الى أبواب سورية، ثم بقاء الحكم المصري فيها تسع سنوات (١٨٣١ـ١٨٤٠) بما رافقه من نظم وأعمال تعبر عن مفهوم حديث للدولة مخالف، حتى الجذور، لمفهومها العثماني، كان ذلك تمهيدا حسنا لدخول الافكار السياسية الحديثة الى سورية. وعلى الرغم من أن خط شريف كلخانة قد أعلن سنة ١٨٣٩، ثم تلاه الخط الهمايوني سنة ١٨٥٦، فيجب ألا يخطر في بالنا أنه كان لهما من الأثر ما هو اكبر من تلك الضجة التي احاطت بهما يوم اعلانهما المشهود، الا أن يكون ذلك في نفوس الطوائف غير المسلمة التي خُصَّت من خلال (الخطين) ببعض

الحقوق والحرية.

ومنذ اواسط القرن التاسع عشر، بدأت العيون، بعض العيون، ترى تداعي المؤسسات السلطانية، وتفكك نظم الحكم العثماني، القائمة على الاقطاع والادارة العسكرية وجباية الضرائب.

غير أن هذا الوعي كان من الوهن الى درجة أنه لم يستطع أن يمنع الدسائس الاستعمارية الانكليزية ـ الفرنسية من أن تنجح، مع قصر نظر الحكام العثمانيين، في ايقاع طوائف الشعب السوري في اعمال التذابح سنة ١٨٦٠. لكن الدماء المراقة هزت الضمير الشعبي في سورية هزا عنيفا قاسيا. والتعصب الأعمى الذي استغل اسوأ استغلال احداث عام ١٨٦٠ عاد هو نفسه، وبسبب المذابح نفسها، فتحول الى نوع من التسامح، ادركته ونادت به الرؤوس المستنيرة.

وقد نتج عن تلك الحوادث، وعن التسوية التي اعقبتها نتائج خطيرة جدا، ابرزها ان السلطة السياسية للكهنة او المشايخ قد تحددت، وان النظام الاقطاعي قد انهار، وان سورية دخلت ـ طائعة أو كارهة ـ في التيار العالمي الحديث.

وعبرت بعد ذلك فترة من الزمن لا تزيد عن خمس عشرة سنة استطاعت خلالها الافكار الحديثة أن تجد قبولا ومتسللا الى بعض الناس. وقد كان اعلان الدستور سنة ١٨٧٦ أبعد من ان يمسّ سورية أو يهزّها عن قرب، لولا ان الظروف ساقت (أبا الدستور) مدحت باشا فجعلته واليا على الشام، مستقطبة بذلك حركة (التمدن) ـ كما اطلقها بعض المعاصرين ـ على مدحت وعلى الفئة التي جمعها من حوله، وعلى ألوان الاصلاح التي حققها بسرعة في الشام، قبل أن يختطفه الطغيان الحميدي.

ثم عادت سورية، خلال ثلاث وثلاثين سنة من حكم عبد الحميد بعد ذلك، فانطوت على نفسها كما لم تنطو من قبل. فأما ذوو الأفكار الحديثة من سياسيين وفنانين ورجال دين وتجار، فكان عليهم الهجرة، للنجاة برؤوسهم، وبما في تلك الرؤوس. ونظلم الحق اذا لم نذكر أن سورية أو بعض رجالها قد نالوا الحظوة، كل الحظوة، لدى السلطان الاحمر. ولقد

كان ساعداه في السياسة والدين احمد عزت العابد الدمشقي وأبو الهدى الصيادي الحلبي في السنوات الرهيبة الاخيرة من عهده وهما من ابناء هذا البلد.

على أن سورية دفعت ثمن تلك الحظوة، جزاء ذلك، بتشرد العدد الكبير من ابنائها الاحرار. وبينما كانت الحركة السرية التي تتجمع تحت اسم (الاتحاد والترقي) لمناهضة عبد الحميد تتجه نحو تبني الفكرة (القومية التـركيـة)، كان رجـال سورية في مصر، خصوصاً، وفي باريس ولندن والامـيركيتـين، بل وفي سوريـة نفسهـا يكونون طليعة الرواد للقومية العربية، فان افكار الحرية والمساواة والعدالة التي دخلت الى السلطنة العثمانية لم تنه طريقة الحكم الاقطاعي ـ العسكري فحسب، ولكنها أدخلت معهـا أفكـار القـومية التي لا مناص معها من انشطار العالم العثماني الى شطرين: عربي وتركي.

واذا انتثرت الزينات في سورية عند اعلان الدستور سنة ١٩٠٨، ثم يوم الانقلاب على عبد الحميد سنة ١٩٠٩، فسرعان ما تبين رجالها أنهم لن يظفروا من وراء الدستور واصحابه غير السراب. وأن القوميين الأتراك يسيطرون، تدريجيا، على الدولة، ويتخذون من الازدراء بالعرب وسيلة سلبية لتكوين الشعور القومي التركي.

ووقف رجال سورية دون ذلك النهج، ونادوا باللامركزية، خصوصاً، وبالاستقلال. فكان منهم رجال مؤتمر باريس سنة ١٩١٣، ثم شهداء المحـاكم العرفية سنة ١٩١٦ وعدد كبير من قواد الثورة العربية التي سارت ما بين مكة ودمشق منذ سنة ١٩١٦ حتى سنة ١٩١٨.

وحين سكتت القنابل على الجبهة الغربية في تلك السنة، ومشى المحراث على الخنادق والأسلاك الشائكة، كان قدر سياسي جديد يرسم لهذه المنطقة.

لقد كانت الامبراطورية العثمانية قد تمزقت التمزق النهائي. وشاءت سورية أن تستقل. وارتسمت فيها خيوط الفجر الحر، فعلا، في ٨ آذار (مارس) ١٩٢٠. لكن مخالب الاستعمار الفرنسي خنقته في ميسلون في ٢٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠!

ولم يكن سكان هذه الرقعة السورية بالعدد الكثير. فهم لم يقدَّروا بأكثـر من مليـون، يومئذ، يتجمع منهم عشرات من الألوف في بعض المراكـز المدنية. ففي دمشق مائة وخمسين ألفا، وفي حلب مثلها، وفي حمص عشرون ألفاً وفي حماه ثلاثون ألفاً، وفي اللاذقية اثنا عشر ألفاً فقط.(١)

ضعف المراكز المدنية كان يعني أن جمهرة السكان إنما تعمل في الريف والزراعة، ويلازمها ما يلازم المجتمعات الزراعية من محافظة وميل للاستقرار وثروة محدودة، ولا يبدو أن هذا المجتمع قد تأثر تأثرا كبيرا أو صغيرا بالاجواء السياسية أو الثقافية الحديثة. فالجهل وصعوبة المواصلات وطراز الحكم العثماني كل هذا وسواه كان يحول بينه وبينها.

أما المدن، فكانت لها الصناعات التقليدية تجترها وتعيد، ولا سيما صناعة الثياب المحلية (وكانت تصدر الى البلاد المجاورة ايضا) ونسائج المنزل. ولم يكن اتصال البلاد بالحياة الحديثة واسعا، فكانت الحاجات اذن محدودة، ونفقات المعيشة، بالتالي، قليلة.

وكـانت للمـدن، التجارة ايضاً. وطبقة التجار كانت أرفع شأنا من الصنّـاع، على الرغم ممـا يتميـز به السلوك التجـاري من حب للنقلة وللجديد، اي التطور، فقد كان التجار في سورية قد ارتضوا منذ ثلاثة قرون، قبـل القرن التاسع عشر أن يقتصروا في التجارة على العلاقات المحدودة في نطاق الجوار والملك العثماني، مراوحين في فلكهم التقليدي الموروث.

ولعل أول ما اصطدمت تشور هذا المجتمع المتكلس، بالحياة الحديثة كان اثنـاء الفتـح المصري لسورية سنة ١٨٣١. فقد اطلت أوروبا، ببضائعها وأسواقها على الناس، مع جيش الحملة. وأطلت معها الافكار السياسية الحديثة التي زعزعت أساليب الاقطاع والحكم العسكري.

وقد سجل لنا مؤرخ معاصر سنة ١٨٧٨ ما نستطيع أن نسميه بدء اتصال سورية الداخلية بالغرب الحديث يقول:(٢)

(وسنـة ١٨٣١ ابتـدأت الحـوادث المهمـة والانقلابات العظيمة في سوريـة، فكانت نتيجتها انتقال البلاد الى حكومة مصر، وادخال انوار

التمدن اليها. وكان الاجانب يُمنعون، قبلا، من الدخول الى دمشق، ولكن لما تولّى البلاد ابراهيم باشا أخذ يتقاطر اليها السياح. وفي أيامه أتاها أول قنصل اجنبي، وكان انكليزيا. ومن ثم أخذ يتقاطر قناصل الدول والتجار ويأتون بالبضائع الفرنجية ويبيعونها بدون أن يصادفوا معارضة).

وقد ألحت الحاجة بعد ذلك، فمدت دمشق أول طريق بينها وبين البحر والغرب سنة ١٨٦٠، عندما فتح طريق العربات (الديلجانس) بينها وبين بيروت، ونصبت أسلاك البرق معه.

على أن الاتصال مع الغرب، كان منذ لحظاته الأولى فاجعا، واذا نحن أهملنا المشاكل السياسية العميقة التي اقترفها وأثارها الغرب (بحق الرجل المريض)، فانه على المستوى الاقتصادي كله كان نكبة، وفي النطاق الاجتماعي كزان انقلابا جذريا قوبل بالكثير من الريبة والهجوم عليه.

يقول القساطلي: (... منذ انتصاف هذا القرن (التاسع عشر) أخذت تجارة الشام تنحط انحطاطا سريعاً لأن قوات خارجة صادتها وتغلبت على مركزها التجاري وسلبته. وأول نكبة دهمتها تسببت عن سير سفن التجار في البحار، فخسرت تجارتها البرية مع الآستانة والروم وبرّ الاناضول وغيرها. وتحول ذلك الى الموانىء البحرية. وعندما فتحت ترعة السويس حلت بلية عظمى وطامة كبرى على تجارة دمشق، لأنها سلبت كل ما بقي لها من التجارة البرية، وفتحت باباً قريبا للحجاز، فامتنع الحجاج عن الاتيان اليها، فخسرت جداول الذهب الغزيرة التي كانوا يسكبونها فيها ذهاباً واياباً (يأتيها كل سنة ٨ آلاف ونيف) وقد كملت هذه السنة (١٨٧٦) أضرار ترعة السويس بتجارة دمشق لأن ما بقي لها من تجارة العراق فتح له طريق على السويس فتحول الى موانىء سورية...) ومع ذلك فلم يزل لها تجارة متسعة بمنسوجاتها وغيرها (وبالبضائع الاجنبية) التي أخذ يدفعها الى أسواق الشرق تطور الصناعة الغربية نحو الآلة والاستعمار.

وهكذا بينما كانت الدسائس الاستعمارية والارهاب الحميدي

يعملان، كل على طريقته، على هدم النظام السياسي القائم، كان التسلط الاقتصادي الغربي يعمل من جانبه على هدم الاسس الاقتصادية لذلك المجتمع الهادىء وعلى ايجاد تنظيم جديد له.

وبـين هذا وذاك جاءت النكبات الطبيعية لتضيف الى آثار العوامل الاقتصادية والسياسية نوعاً من الحدة والقسوة. فمن جراد الى وباء الى مَحْل الى فيضان. وقد سجل القساطلي نفسه ما شهده من أحداث دمشق خلال خمس عشرة سنة على الشكل التالي:

(... في سنة ١٨٦٤ دهمها الجراد، وسنة ١٨٦٥ أتاها الهواء الاصفر فأخذ عشرة آلاف (وكان جاءها سنة ٥٢ فجرف معه ثلاثين الفا)، وفي سنة ١٨٦٧ كان غلاء شديد (بسبب القحط) استمر حتى سنة ٧١ وسنة ٧٣ انحبست الأمطار فصار غلاء وقحط وأكل بعضهم البقول. وسنة ٧٥ جاءها الهواء الاصفر (ثالثة) فأخذ تسعة آلاف ومائتي نفس. وأواخر السنة كان فيضان بردى، وسنة ٧٦ وسنة ٧٧ تأخرت الاحوال بسبب الحروب الاهلية، وحرب الدولة (الفاشلة) مع الروس. وسنة ٧٨ كان غلاء شديد وجراد).[٢]

وينقطع كلام القساطلي هنا ليس لانقطاع النكبات، ولكن لأنه نشر هذا الكلام تلك السنة، وانما ضربت دمشق مثلا لما وجدت من النص بين يدي. وكل بلد في سورية، هو دمشق إذ ذاك.

واذا انتقلنا الى الجو الاجتماعي وجدنا ان تسلل الغرب الى دمشق وحلب ومـا بينهمـا قد عمـل عملاً مباشراً وغير مباشر على تكوين طبقة (بـورجـوازيـة) جديدة نمت باطراد على حساب الاقطاعية العسكرية والطبقة (الاوتوقراطية) الحاكمة، وتسلمت قيادة المجتمع. وبعد ان كان الحكم والتجارة وملك الأرضين والجيش بل والعلم ملكا لعائلات معينة لا يبـرح فيها ولا تتحول عنه، بدأت عناصر بورجوازية صغيرة تصل الى الرتب العسكـريـة، والى منـزلة الولاية والى درجات العلم، ويظهر ذلك بوضوح اذا نحن استعرضنا اسماء رجال سورية، على اختلافهم، في مطلع هذا القرن.

وهكـذا تغير، حتى الجذور، تركيب المجتمع السوري باتجاهه نحو

التنظيم البورجوازي تدريجياً. واذا كانت الطبقات الزراعية الريفية ابطأ المجموعات تأثرا، فقد أسرعت الطبقة التجارية في المدن الى الاستجابة للتطور والاتصال بالغرب، وفشلت الصناعات التقليدية في الحفاظ على عالمها المغلق أمام الصناعة الآلية الغربية. وظهرت مع تطور الحياة وتعقّدها طبقات جديدة في المجتمع تملأ حاجاته الى الموظفين والمحامين والأطباء وذوي المهن الحرة الأخرى.

ومع تقدم الطبقة البورجوازية من زمام القيادة في المجتمع، تقدمت مثلها ومبادؤها الاجتماعية، فتطور تكوين الاسرة من الطراز الابوي (الروماني) الى الأسرة الصغيرة التي لا تجمع اكثر من جيلين.

وبعد، فما حديث الثقافة في سورية في هذا المعترك؟

يتحدث تقرير انكليزي وضع سنة ١٨٣٨ عن الحياة العلمية في سورية فيقول:[٤] (.. ويمكننا ان نتصور درجة انعدام التعليم عامة اذا علمنا أن الاقبال على طلب الكتب في الشام قليل جدا الى حد لم أستطع معه ان اجد بائعا للكتب في دمشق أو حلب. إنّ بعض الكتب التي تطبعها الحكومة المصرية في مطبعة بولاق تأتي الى الشام وتباع فيها. ولكن الرغبة في مطالعتها قليلة. ومع ذلك فقد نفذت هذه الكتب الى بعض المدارس، وبعض الأسر..).

وفي هذا النص، رغم صدقه في ذكر انتشار الامية وانخفاض المستوى الفكري، بعض الوهم. فذلك الأجنبي التاجر الذي كتبه لم يكن في إمكانه، أن ينفذ الى البؤر العلمية التي لم تخل منها مدينة سورية قط. كان اجنبياً عن دين المنطقة ولغتها وتراثها الثقافي كما كان ينظر من الزاوية التجارية فحسب. ولو قدر له أن يكون أكثر (موضوعية) وأطلاعا في الأمر لجاء في كلمته ذكر: (العلم) التقليدي ورجاله ومدارسه.

فقد كانت الحياة الفكرية تتجلى في الحفاظ على ذلك التراث الديني العريق، المخطوط خطاً في الكراريس لدى رجال الدين. لا يختلف في ذلك: اصحاب العمائم عن اصحاب القلانس. فللمسلمين منهم علوم القرآن والحديث واللغة العربية وما يتبع ذلك من تاريخ. ولكهنة الكنائس علومهم الدينية الى جانب بعض اللغات كالسريانية واليونانية واللاتينية او اللغات

الأوروبية الحية. على أن هذا (العلم) التقليدي كان محدود النطاق سواء في موضوعاته وطرائقه، أو في الرجال الذين يحملونه والأماكن التي يشعّ فيها. أما العلوم الغربية فكانت حديثة العهد في بلادها نفسها، فلم يحن لها أن تصل الشرق العثماني، ووسائل النشر والتعليم محدودة فلم يكن بدّ من أن يُحتكر (العلم) في أسر معينة تُعرَف به. وانك لتعد من هذه الاسر العـدد الوافر: ففي دمشق آل: (الكزبري وحمزة والخاني والطنطاوي والميداني والعطار والمنير والنابلس والقاري والشطي والعمري والصمادي والمرادي والسبكي والبيطار والمارديني) وفي حلب: (آل الجابري والمدرس والكـواكبي والهبـراوي)، وفي حمص آل (الجندي والاتاسي والسباعي والجمالي)، وفي حماه بعض آل العظم.. وبعض هذه الاسر كانت تنفس على الناس ان يشاركوها (العلم) لانه كان لها في الأغلب مورد رزق عميم! وكان الأمر على النهج نفسه لدى الطوائف المسيحية التي لجأ العلم فيها الى بعض كبار الكنيسة. فلا تكاد تجد عالماً يشتهر منها الا وعلى رأسه القلنســوة. أو كان ذلك على الأقل في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وعـلى الرغم من ان هؤلاء جميعاً كانوا جزر العلم وسط الخضم الجاهل، الا انهم لم يكونوا يؤلفون في الواقع حركة فكرية حية نامية، بل كانوا مجرد ممثلين أحياء لفكر قديم.

ولقد تأثر بعضهم بتسلل الافكار والعلوم الحديثة الى الناس، وكان المسيحيون منهم أقرب الى هذا التأثر من المسلمين لما لهم من سابقة في تعلم اللغات الاجنبية وفي الصلة بالغرب. ولقد عمل بعضهم عمل البناء والاندفاع، في نهضة البلاد الثقافية، لكن هذه النهضة لم تكن على أي حال من عملهم الذاتي، ما كانت فيضا من أصالتهم ومبلغ جهدهم فيها، جهد الرافد لا النبع الأصيل. ولم يبلغ أي منهم من الأثر والقوة مبلغ القادة والائمة، مبلغ الافغاني، ومحمد عبده مثلا، وان كان بعضهم في منزلة التابعين والرواد.

ونستطيع القول إن حركة اليقظة والنمو في الفكر العربي بسورية انما بدأت منذ بدأت البورجوازية تتعلم وتشكل طبقة جديدة تحل محل تلك الطبقات التقليدية من سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وعلمية،

وبدأت منذ بدأ التكوين الاجتماعي ينقلب الانقلاب الجذري ليتلاءم مع تطور العالم الحديث. وانما كان ذلك مع تباشير الأثر الغربي في سورية.

واذا شئنا أن نكون أكثر دقة في تحديد الزمن جعلنا الفتح المصري (١٨٣١ ـ ١٨٤٠) نقطة الانطلاق.

نعم! لقد كان لسورية علاقات، على نحو ما، مع الغرب. وكان بينها وبينه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، سياح وتجار ورجال دين. ولقد وصل عدد من المبشرين اليسوعيين واللعازاريين حوالي سنة ١٦٢٥ وأسسوا بعض المدارس بدمشق وحلب[٥] ولكن جمعياتهم ألغيت سنة ١٧٧٣ كما أنهم انصرفوا الى التبشير الديني فلم يكونوا سببا في خلق صلة ثقافية مع الغرب أو بعث حركة فكرية. وانما بدأ التنوير في البلاد بتأثير عوامل عدة: كانت تبدأ كلها وتنتهي عند تلك الحركة العميقة التي تعمل على قلب نظام المجتمع في سورية من مجتمع طبقي (وسيط) الى مجتمع متساو حديث. وهذه العوامل هي:

١ـ نظام التعليم وافتتاح المدارس الذي وضعه ابراهيم باشا، فقد عمل هذا القائد سنة ١٨٣٤ على تطبيق برنامج واسع للتعليم الابتدائي والثانوي مستوحى مما انشأه محمد علي في مصر. (واستطاع نظام التعليم) الذي ادخله على الرغم من عمره القصير ان يحدث يقظة شديدة في التعليم القومي ولا سيما بين المسلمين. وكان لهذا الدافع اثر بعيد المدى لأن ذلك النظام كان يستهدف بصورة لا تقبل الشك تنبيه الوعي القومي[٦] بين الطلاب، وكانت الحركة التي بدأت في الشام سنة ١٨٣٤ تجربة اساسية بما قدمته من المقاييس الجديدة في المدارس والكتب المدرسية.

وأخذ التعليم ينتشر ويتقدم منذ تلك الساعة. لا سيما بين المسلمين، (لأن طلاب المدارس الأميرية كانوا كلهم منهم). وبالرغم من أنّ هذا النظام لم يدم أكثر من ستة اعوام ثم انهار مع انسحاب الجيش المصري سنة ١٨٤٠، إلا أنه ترك أثراً باقياً بدفعه الناس الى فتح المدارس.. فراراً من الخدمة العسكرية في الأقل.

وهكذا تابعت عناصر أخرى، غير الادارة المصرية، عمل تلك الادارة

وجعلته عميقاً ناجحاً.

فقـد جاءت التنظيمات الخيرية[٧] التي اعلنها السلطان عبد المجيد سنـة ١٨٥٦، فبـدأ عصر تعليم المـرأة، ثم كانت حوادث سنة ١٨٦٠ بمآسيها سبباً في ردة فعل واسعة ضد الجهل والتعصب جددت النشاط لفتح المدارس، ثم ولّي مدحت باشا سورية سنة ١٨٧٨، فعمل في هذا السبيل ورعى في دمشق (الجمعية الخيرية) التي انشأت في وقت قصير مدارس عديدة للذكور والاناث. وعمل على تأسيس مثلها في باقي انحاء ولايته الواسعة.

فلما ذهب عبد المجيد، بقيت الفكرة ونمت المدارس، حتى ليؤخذ من احصــاء سجله نعمان القساطلي سنة ١٨٧٨ ان عدد الطلاب كان في دمشق (١٣٠٠) طالب ما بين المسلمـين والمسيحيـين، وعدد الطالبات (١٤٥٠) طالبة، وعدد المدارس (١٤٨) مدرسة[٨]. وفي احصاء آخر سنة ١٨٩٠ ان عدد الاناث في المدارس الدمشقية (٤٠٦٠) طالبة يتوزعن على (٣٩) مدرسة[٩].

ولم يَحُلْ الطغيان الحميدي دون التوسع في التعليم. وقد مهد ذلك، في آخـر عهـد عبـد الحميد، ومن بعده لتموين عدد متزايد من المدارس الثـانـويـة والعالية بالطلاب ولانشاء كلية الطب بدمشق سنة ١٩٠٣. وبـالرغم من اهتمام معظم المدارس بتخريج طبقة الموظفين، والضباط، ومن لجـوء أكثـر الاحـرار في الشام الى مصر (التي اخرجها الاحتلال الانكليزي من يد السلطنة) فقد تخرج من هذه المدارس الحميدية قواد حركـة التنـور والتحـرر في العـالم العـربي. وقد زادت بعد الانقلاب الاتحادي سنة ١٩٠٩ قوة، وسعة، رغم السياسة التركية، بل اتخذت شكـلا قوميـاً نضالياً احيانا قبيل الحرب العالمية الاولى[١٠]. وبلغ عدد الطلاب في سورية اوائل الحرب العالمية الاولى (١٤٤٧٠) طالبا يتوزعون على (٢٦٦) مدرسة منها مدرسة للطب فيها (٢٨١) طالبا، ومدرستان للمعلمين فيهما اكثر من (٢٠٠) طالب[١١].

ولا بد ان نشير الى أن مدارس لبنان وكتبه وصحفه كانت مرتعاً وموئلاً للسوريين جميعا. ولا سيما من النصارى. فالصورة الكاملة في الواقع،

لحركة العلم والتعليم في سورية لا تتم بغير مدارس بيروت وبعض مدارس جبل لبنان.

٢ـ البعثات التبشيرية: وقد بكرت منها الاميركية والفرنسية (اي البروتستانتية، والكاثوليكية) اذ وصلت لبنان سنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٠ ومارست عملها باذن الادارة المصرية، وأثرت في تكوين بعض المثقفين في سورية قبل أن تمتد أعمالها الى دمشق وحلب وتؤسس فيهما المدارس.

ولئن كان بعضها قد وصل سورية الداخلية كراهبات المحبة والآباء اللعازاريين قبل حوادث سنة ١٨٦٠، فان هذه الحوادث قد فتحت الباب للعديد من البعثات التبشيرية ..ومن غير الفرنسيين والاميركان، فوصلت دمشق بعثة (بوين طومسون) الانكليزية سنة ١٨٦٣، ثم البعثة الروسية من راهبات كايزروت، وجاءت مسز موط الاميركية سنة ١٨٧٠ وجاء المرسلون الايرلنديون سنة ١٨٨٠، وانشأ اليسوعيون المدارس الابتدائية للجنسين في حوران، وأنشأ اللعازاريون عدداً من المدارس في حلب سنة ١٨٧٣ وما بعدها، وفي حمص سنة ١٨٨٠. ولحقت بهذه البعثات بعثات اخرى ايطالية والمانية عدا ما كان للروس ايضا (فتألف من ذلك شبكة واسعة من المدارس في طول البلاد وعرضها[١٢]).

وقد بعث هذا النشاط التبشيري الاجنبي روح المنافسة لدى رجال الدين المسلمين والمسيحيين على السواء. فقد تنبهت لديهم، في وقت واحد، غريزتا حفظ الذات وحب الخير بجانب الحافز الديني القويّ، فأقبلوا ينشئون المدارس في مجال المنافسة. واذا كانت مدارس المسلمين أكثر من أن تحصى، فقد انشأت مختلف الطوائف الدينية المسيحية، لا سيما في دمشق وحلب ما يوازي عددها من المدارس، فلكل طائفة مدرسة أو أكثر من مدرسة، ووراء هذه المدارس إما بطريرك أو مطران أو جمعية طائفية!

وما من شك في أن أثر البعثات التبشيرية كان، في المجال الديني، محدودا ولكنه ساهم أعظم المساهمة في المجال الفكري بما وصل من الروابط الثقافية بين أبناء سورية وبين بلد البعثة، وبما هزّ من الأسس الاجتماعية والعلمية التقليدية في النفوس، وبما فتح من العيون على الغرب وحضارته، ممهدا بذلك للاستعمار ولمقاومة الاستعمار، في وقت

واحد.

والذي يمكن ان نخلص اليــه من ذكــر مختلف عوامــل النهضـة ومـظاهـرها في سورية منذ أواسط القرن الماضي، حتى الحرب العالمية الاولى، هو أن التأثر الغربي بمختلف أشكاله قد هاجم سورية، الهجوم الذي لا فكاك منه. دخلها بشكل حركات وأفكار سياسية، وبشكل ازمات وتطورات اقتصادية، وبشكل صدمات وانقلاب اجتماعي.. ودخلها فوق ذلك، وقبل ذلك كله، بشكل ثقافة حديثة وصلت بالاطلاع المباشر في الكتب والصحف الاجنبيــة، أو عن طريق السيــاحة والتجارة، وبالاطلاع غير المباشر عن طريق ما عرفت مصر وعرف لبنان من فكر الغرب وحضارته. وكان من ذلك ظهور طبقة بورجوازية جديدة، استطاع المتنورون فيها ان يفهموا روح العصر ويعملوا على التلاؤم معه. والملاحظة التي لا بد منها في الموضوع هي أن الاتصال بالغرب كان في مصر، من عمل السلطات الحكومية، بينما في سورية ولبنان نتيجة الجهد الفردي، غير الحكومي. ولعله لهذا كان أعمق أثراً وأقوى جذوراً.

على هذا النحو كانت الاوضاع السائدة في سورية يوم ولد الاستاذ ميشيل عفلق في حي (الميدان) الشعبي، فكيف كان الوضع السوري بين الحربين: ١٩١٨ ـ ١٩٤٠ منذ أن انطلقت حركة البعث؟

من المصــادفـات الموفقة أنه حين وقعت الهدنة مع العثمانيين سنة ١٩١٨ كان آخر جندي تركي يغادر سورية، ويغادر في الوقت نفسه آخر ارض عربية في يد الحكم العثماني، وانطوى عهد من التاريخ المشترك مع الترك ما زالت عقابيله تقرض كياننا الى اليوم. على ان الترك خرجوا من الشمال ليدخل (الحلفاء) من الجنوب والغرب على الرغم من كل المبادىء التي أعلنوها خلال الحرب، ومن العهود التي قطعوها لزعماء العرب. ولم يصدق سكان سورية وهم في غمرة من العاطفة، خلال العهد الفيصلي، ان اتفاقيات سايكس بيكو السرية يمكن أن تفرض عليهم فرضا. ولكن الحلفاء جهروا بأطماعهم في مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٠، وخرجوا منه بمقررات مخجلة أخلاقياً. ولا يمكن تطبيقها الا بالقوة. وقد فعلوا، وخنق استقــلال سوريــة بفــاجعــة ميسلون ٢٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠،

وبدخول الجيش الفرنسي دمشق.

في تلك الفترة وضع إطار الحدود السياسية الذي يطوق سورية، كما وضعت حدود لبنـان الكبـير، وجعلت فلسـطين من نصيب الانكليـز والصهيونية، وكذلك شرقي الاردن.

وانصرف الفـرنسيون رأسا الى (فَرْنَسَةِ) الحكم والفكر والاقتصاد والناس في سورية ولبنان: بتجزئة البلاد ونشر الفرنسية وابراز الطائفية. وقد قابل السوريون سياسة فرنسا بأعنف العناد وأقواه. سجلوا عشرات الثورات في كل مكان، حتى قامت الثورة السورية الكبرى ما بين ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧.

وعلى الجثث والأنقاض حاولت فرنسا أن تفتتح مع سورية عهداً من التفاهم لم يثمر بعد مفاوضات عقيمة دامت تسع سنوات، سوى ثمرة واحدة هي وضع الدستور السوري سنة ١٩٢٨ ثم اعلان الجمهورية سنة ١٩٣٢.

كانت فرنسـا تعتمـد في التعـاون على طبقة الملاكين الكبار، وأبناء العـائـلات القديمة، وبعض رجال الدين. بينما وقف في الطرف الآخر المـلاكـون الصغـار، وابنـاء العـائلات المتنورة والتجار والبورجوازية الصغيرة والمثقفون. ولم ينجح عهد المفاوضة والتفاهم، فلجأت سورية الى سلاحهـا السلبي والاضراب والتظاهر سنة ١٩٣٦ واستطاعت أن ترغم السياسة الفرنسية على القبول بعقد معاهدة تحدد العلاقات بين سورية والدولة (المعتدية)، (معاهدة ١٩٣٦).

وقد حملت سورية الأمر محمل الجد. فأقامت الحكم الوطني الأول، وعـاودتهـا رؤى الاستقـلال من أيام فيصل، الاّ أن الفرنسيين كانوا يكيدون داخلياً ودولياً معا، للعهد الوطني. فلا صدقوا المعاهدة رسميا ولا سلّمـوا صلاحيـات الحكم للبـلاد، ثم حرضـوا تركيـا وأهـدوها لواء الاسكندرونة سنة ١٩٣٩ في غمرة الاحداث السورية والعالمية معا.

وما كادت نذر الحرب العالمية الثانية تظهر في الافق الغربي حتى زحف الحكم الفرنسي المباشر فأطاح بالعهد الوطني كله.

كان سكان سورية في نهاية هذه الفترة قد بلغوا الثلاثة ملايين. ولكن

الصراع المـريـر الذي قادوه مع الفـرنسيين جاءهم بتطور اقتصـادي ـ اجتماعي عميق، وبانقلاب واضح في الاسس الفكرية الاولى!

فالحـدود السيـاسية التي ضربت حول سورية اجبرتها على اقامة (اقتصاد سوري) خاص، يغاير في كثير من النقاط، الحياة الاقتصادية التي اجتـرتهـا عدة قرون سابقة. ففصلها عن الدولة العثمانية وعن المناطق المجاورة أدخل تغييراً جوهرياً في نوع العلاقات الاقتصادية بينها وبين عملائها التقليديين. وارتباطها بالانتداب الفرنسي حول مركز تلك العلاقات الى ما وراء البحر. فانقطعت صلات سورية بالعراق والاناضول ومصر والحجاز، واتصلت عن طريق النقد والشركات الفرنسية بفرنسا وامبراطوريتها، وتعرضت البلاد بنتيجة هذا الارتباط لا الى تحول ثقلها التجاري من حلب ودمشق الى بيروت فحسب، ولا الى اضطراب علاقات تجـارهـا، ولكنها تعرضت فوق كل هذا لعدد من الازمات الاقتصادية ليست لها علاقة مباشرة بها وأهمها تخفيض النقد سنة ١٩٢٢. والأزمة العـالميـة بين سنـة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢، وأزمـة الفـرنـك الفـرنسي سنة ٩٣٦ ـ ٩٣٧. واذا كانت ثروة سوريـة تقـوم في الأصـل على أسـاس زراعي، فان الفرنسيين أهملوا العناية بالزراعة السورية فلم تستصلح أرض، ولم ينشأ سوى مشروع ريّ واحد، وكان دخل الفلاح السنوي قبل نشوب الحرب العالمية الثانية لا يتجاوز ٨٠ ليرة سورية، دون حساب الضرائب التي تستنفذ ٦٠٪ منها.

وما عرفت الصناعة إلّا اضعف النشاط بين الحربين. وكان حدثا من الاحـداث أن تقوم منذ سنة ١٩٣٠ شركة لصنع الاسمنت، وأن يرى الناس أن المال الموظف في الصناعة يمكن ان يربح. وظهرت بعض معامل النسيج. ولكن الرساميل الصناعية ظلت من الضآلة بحيث لم تزد في سنة ١٩٣٩ عن سبعة ملايين ليرة سورية.

ولقد أصاب الحياة الاقتصادية بعض الانتعاش منذ سنة ١٩٣٢، إلّا ان الوضـع السيـاسي القلق الذي عاشتـه البلاد أيام الحكم الوطني، وتدهور النقد الفرنسي منذ سنة ١٩٣٦ ذهب بثمراته.

انعكست الاحوال السياسية والاقتصادية، انعكاساً مباشراً في الحياة

الاجتماعية. لم يكن بدّ، في مجتمع كالمجتمع السوري، من ذلك. فانتقال حكم البلاد من العثمانيين الى الفرنسيين، اذا كان أدخل الشعب كله في الصراع السياسي مع السلطات الحاكمة، وسمح للطبقة البورجوازية التي كانت تتكون، قبل الحرب، من أن تحتل مركز القيادة الوطنية[١٣]، فانه، على الصعيد الاجتماعي فتح الباب واسعاً للتأثر بالغرب، في جميع نواحي الحياة. وبين السلبية البتي يقتضيها النضال ضد الفرنسيين، والايجابية التي كان يحتمها الاحتكاك المستمر بالحضارة الغربية، تمزق المجتمع السوري، وكانت سرعة التأثر فيه أشد من قابليته للتطور. فأخذ تحوله القاسي الفاجع في بعض الاحيان. واذا كان من المألوف أن ترى الجمل يمشي مع السيارة في شوارع المدن، وأن تتنوع الازياء وأغطية الرأس أوسع التنوع بين الناس[١٤]، فمن المألوف ايضا أن يأبق الابن من أبيه، وأن ترى في البيت الواحد أماً بالملاءة وابنة سافرة!

لقد تطورت الى الرقي، دون شك، علاقات الزواج وعادات المجتمع.. وتعددت ألوان اللهو الاجتماعي، وارتفع مستوى المعيشة، وعمّت بالتدريج الملابس (الافرنجية) وتنور الرأي العام وتكون. وأهم من هذا كله أن المرأة خرجت من ملاءتها السوداء، تركتها للعجائز في البيت، بعد معركة نظرية حول السفور والحجاب، ملأت أعمدة الصحف وألسنة الناس حوالي سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٢٩.. خرجت الى المدرسة لتتعلم، والى الحياة العامة لتعمل، وتطالب بحقوقها، على أننا يجب أن نسرع الى القول أن هذا التطور كان متفاوت الأثر، فقد ظهر في المناطق الساحلية اكثر منه في المناطق الداخلية، وبرز في المدن أكثر من بروزه في الريف، وتغلغل في الطبقات العليا والبورجوازية المتوسطة اكثر من تغلغله في الطبقات الشعبية والبروليتاريا. وكانت الرجعية المحافظة تدافع عن نفسها ـ وهي تتراجع ـ بحجج النضال السياسي والزندقة! ولكن دون كبير نجاح.. سوى ما قد تتركه في كل صدر من هوة وقلق! حتى لقد (... غدا كل عربي مثقف من سكان المدن مدفوعا الى العيش في عالمين لا في طريقة التفكير فحسب، ولكن حياته الاجتماعية اليومية قد أصبحت أكثر تأثرا باوروبا وأميركا مع أنه في شعوره لا يزال عربياً ومسلماً.)[١٥]

ولعل العامل الذي لعب الدور الأساسي في الانقلاب الاجتماعي، هو تطور التعليم الى جانب التطور الاقتصادي.

كانت الطبقـة المتوسطة قد أعلنت، منذ ما قبل الحرب، الزحف الى العلم! صوّرته على انه الوسيلة الى المجتمع السعيد. وكان شعار (العلم) من القوة بحيث لا تستطيع أنساب العائلات، ولا ثروات الاقطاع أن تقف له في النضال الاجتماعي. ولم يكن اصطلاح (العلم) حوالي نهاية الحرب الاولى مفهوماً بمعناه الحديث، بل كان محجوباً بمعنى الكلمة التقليدي في التاريخ الاسلامي، فلما اجتمع عدد من اللغويين والضالعين في الدين والتاريخ سنة ١٩١٩ على تأسيس مجمع لهم أطلقوا عليه اسم (المجمع العلمي العربي). على أن المعنى الحديث للعلم خرج، شيئا فشيئا، من ضلع المعنى القديم مع نمو تلك الطبقة من المتخرجين في المدارس الحديثة والدارسين للعلم الحديث.

وقد نمت تلك الطبقة باطراد ـ رغم الاوضاع القلقة التي اقتضاها النضـال الوطني المستمـر، ورغم السيـاسـة الفـرنسية ـ لم يستطع الفرنسيون أن يزلزلوا الايمان الذي كان يتغلغل في الطبقة الوسطى وما دونها بالعلم. لقد جاءت (أكثر المناهج التي طبقت أيام الانتداب خالية أحيـانـا من أية اشارة واضحة تعين وجهة التعليم)[١٦]، وكان التعليم فرنسي اللغة والأسس والغايات، وكان نظريا لا يهتم الا اتفه الاهتمام بالتعليم المهني والعملي. وكان متعدد المناهج بسبب تعدد انواع المدارس وتباين ثقافات المعلمين. ومع ذلك فقد كان نمو التعليم، ابرز ما طرأ على المجتمع السوري بين الحربين، إذ زادت ميزانية وزارة المعارف باطراد، وزاد عدد المـدارس والطلاب، وأحـدث نظام الشهـادة الابتدائية، ثم أحـدثت البكـالوريـا سنة ١٩٢٩، ووجدت في هذه الفترة، المؤسسات العلميـة الكبـرى في سورية، فقد تأسس المجمع العلمي العربي سنة ١٩١٩ وما زال من بعد ذلك ينمو ويتوطد. وجمع معهد الطب العربي الى معهد الحقوق العربي ليكونا سنة ١٩٢٢ نواة الجامعة السورية. وافتتح سنة ١٩٢٨ معتهد عال للآداب، وخرجت أعداد من الشباب في أسفار تعليمية، الى فرنسا خصوصاً.

وبديهي أن السياسة الفرنسية كانت تنظر بعين الريبة وعدم الرضى الى هذا التوسع التعليمي، لا سيما وهو يحمل الطابع العربي، ولهذا مثلا لم يزد عدد تلاميذ المدارس الابتدائية سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠، عن (٧٢) ألفا وتلاميذ المدارس الثانوية عن ثلاثة آلاف فقط. ولهذا ايضاً جمد المجمع العلمي عند حده (اللغوي). وبقيت الجامعة السورية كليّتين فقط، حتى جلاء فرنسا عن البلاد، ولم يكن عدد طلابها يزيد سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ عن (٢٧١) طالباً فقط.

وأغلق معهد الآداب بعد خمس سنوات من افتتاحه، ولم يزد عدد الموفدين في بعثات تعليمية عن (٣٧) حتى سنة ١٩٣٥، بينما ارتفع زمن الحكم الوطني (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) الى (١٤٩) موفدا[١٧]، واقتصر تعليم هؤلاء الموفدين للدراسة في فرنسا، على الأمور النظرية حتى في العلوم. الا أن هذا التضييق نفسه دفع الطبقة المثقفة الى قلب المعركة ضد الاستعمار، وجعلها على قلة عددها، تشعر أنها في حالة نضال دائم مفروض عليها فرضاً معه. ومن هذه الاعداد المحدودة من خريجي الجامعة السورية والجامعات الفرنسية، كان قواد الحركات السياسية والفكرية والاقتصادية في سورية منذ حوالي سنة ١٩٣٠ حتى مطلع الاربعينيات عام ظهور حركة (البعث).

وهنا يجب أن نتذكر تلك المقولة الادبية التي تزعم أن الآلام العظيمة تصنع النبوغ العظيم. على ان سورية، في الحرب العالمية الاولى، ركلت تلك المقولة، وردتها الى شفتي (موسيه)! لقد سحقتها الآلام سحقا فاجترت تلك الآلام في صمت رهيب عقيم. الباحثون في القمامات وورق الشجر عن لقمة، الخدود التي ألصقها السل بعظام الوجوه، الاطفال الذين يعضون الحجارة من الجوع. العيون الغائرة مزقها ألف كابوس، والنساء يشددن ويشددن المحراث، وجزمة العسكري، ومضغ الصقيع والليل في ارتقاب نور بباب الفرن، ودبيب الارهاب في الضلوع، واعواد المشانق، وصرير السياط، وقوافل السائرين الى القيود والنفي. كل ذلك عرفته سورية خلال الحرب الكبرى الأولى. ولكن سرعان ما غدا كل ذلك ذكريات باهتة كأنما مرّ على كثيب من الرمال. ما من أثر أدبي برز للناس

يخلد تلك اللحظات الانسانية العنيفة. قد يكون السبب في ذلك ان الطبقة التي تجرعت الحرب صاباً ودماً كانت أُميّة جاهلة، فضاعت انطباعاتها في التراب الذي تدب عليه، وأن الطبقة المتعلمة لم تعش تلك الويلات، أو لم تكن من الثقافة بحيث تعي، وتستطيع التعبير عنها... حتى أولئك الذين تجاوزتهم الحرب اطفالا، ثم عاشوا الثورات والهزات الوطنية بعدها، ضد الفرنسيين، وقاسوا الكوارث الاقتصادية، وما اكثر الهزات والكوارث، والذين اخذوا يكتبون عن انفسهم فيما بين سنة ١٩٣٠، وسنة ١٩٣٩ (نحن... شباب ما بعد الحرب)، حتى اولئك لم يكتبوا شيئا من تجاربهم المريرة.. كانت دوامة الحياة الغربية الجديدة قد أغشت كل العيون!

على أنه اذا لم تظهر الحرب بين الناس أدبا، وأثراً مخلداً، فقد زحفت آثارها وعقابيلها الى كل شيء في سورية، كما في البلاد العربية الاخرى.

ان انقلابا حاسما قد تم فيما بين سنة ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ في تاريخ المنطقة كلها، فضرب الحدود السياسية حول سورية لم يكن من اعمال الجغرافية السياسية فحسب، ولكنه انعكس في أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية انعكاسه في أوضاعها الفكرية. وانتداب الفرنسيين ـ بالذات ـ على سورية ولبنان، دون فلسطين وشرقي الاردن والعراق، وتغريبة الاتراك في عهد أتاتورك، كل ذلك حدد من صلات سورية بالبلاد العربية والمجاورة، في الوقت الذي وطّد فيه، رغم الابعاد، علاقاتها مع فرنسا مما جعل من سورية ولبنان (جزيرة) عربية للفكر الفرنسي، كما كانتا سوقا للاقتصاد الفرنسي، ورأس جسر في الستراتيجية الفرنسية بين أوروبا والشرق الاقصى، وكان من نتائج ذلك ان عاشت سورية، في شبه عزلة إجبارية، عن المحيط العربي الاوسع، ربع قرن كامل، نما خلاله فيها جو ثقافي خاص، كان ينهل من جهة من ذلك الرافد العريق القديم من الثقافة العربية التقليدية، ويتأثر من جهة اخرى بالثقافة الفرنسية.

على أنه من الخطل، ومن التنظيم الهندسي الآلي أن نتصور ان تطور الحياة الفكرية والسياسية في سورية قد سار بشكل مطرد ومتسق من

طور الى طور. فالواقع انها كانت اطوارا متداخلة، كما في كل ظاهرة حية، وفي هذا الجو العبق كان الشعور بأهمية التطور يملأ وعي النخبة المثقفة، ومن هذه النخبة الاستاذ ميشيل عفلق واخوانه الذين اندفعوا بعد عودتهم من فرنسا الى املاء الفراغ الفكري والسياسي. فقد كانوا من جيل يريد أن يلتهم ويقرأ أكثر مما يلذ له أن يفرغ ويكتب، كان على هذا الجيل ان يقرأ باديء ذي بدء أدب الميثولوجيا الاغريقية وهي ينابيع ثرّة، وكان عليه تغذية هواه الادبي بقراءة الاسفار التي لفظ الدهر حكمه بخلودها كرسالة الغفران والكوميديا الالهية ودون كيشوت والفردوس المفقود وبعض الرذاذ من بحر شكسبير و (فاوست) في الاقل وبنتا غروئيل، وكان عليه أيضا أن يمرّ ببعض راسين وكورني وموليير، فهل يجوز لمفكر عربي ان يطمح الى ولوج حركة التغيير في مجتمعه دون أن يحيط ببعض تاريخ الآداب العالمية!

ان كل ما كتبه ابناء هذه النخبة في مطلع شبابهم انما عكسوا فيه الانطباعات التي تركتها تلك القراءات في نفوسهم، هنا في بلدهم، أو هناك في باريس، خصوصاً، من الآداب الاجنبية.

وحين عاد الاستاذ ميشيل عفلق من دراسته في باريس، وراح ينشر باكورة انتاجه رأى الناس في ما كتبه طعماً غريباً جديداً عمّا ألفوه من كلمات. وتلقوها بين أقسى التنكر وأشد الاعجاب. هكذا شقت طريقها الى الناس قصص (ميشيل عفلق).

وقد يجهل الكثيرون ان الاستاذ ميشيل عفلق الذي ولد بدمشق سنة ١٩١٢، ودرس في ثانويتها الارثوذكسية ثم اتم دراسة الحقوق والتاريخ في باريس بين سنتي ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣ وعاد استاذاً في التعليم الثانوي بدمشق، هذا الشاب المنطوي على نفسه، الصموت انما بدأ اطلالته على الساحة الفكرية كمفكر من نوع غير مألوف، وأديب ينفرد بأسلوبه، وسرعان ما برز بتحرره الفكري وأدبه العميق الحديث وانتاجه المبدع. ودخل معارك الادب، وشارك في تأسيس (ندوة المأمون)، وساهم في اخراج مجلة (الطليعة) في السنوات الاولى من عمله التدريسي، ثم اتصل عن قرب بالنضال السياسي، عن طريق طلابه، وأسس مع زميله الاستاذ

صلاح الدين البيطار منظمة سرية باسم «شباب الاحياء العربي» أواخر سنة ١٩٣٩ والحرب الثانية في مطلعها. وكان أبرز أعمال هذه المنظمة انها أسست أيام ثورة العراق على الانكليز سنة ١٩٤١ (شباب نصرة العراق)، وقد أرسلت الكثير من المتطوعين للمشاركة في الثورة، ثم استقال الاستاذان من التعليم احتجاجا على تعسف السلطات مع الطلاب سنة ١٩٤٢ وأسسا «حزب البعث العربي» في سبيل الوحدة والحرية والاشتراكية، وخاضا معا منذ تلك السنة جميع المعارك السياسية في سورية سواء مع القوى الاجنبية الاستعمارية، أو مع السلطات المحلية، وعرفا في نضالهما، الاضطهاد والسجن والنفي والتشريد والفقر، وقد تولى الاستاذ عفلق وزارة المعارف في سورية سنة ١٩٤٩.

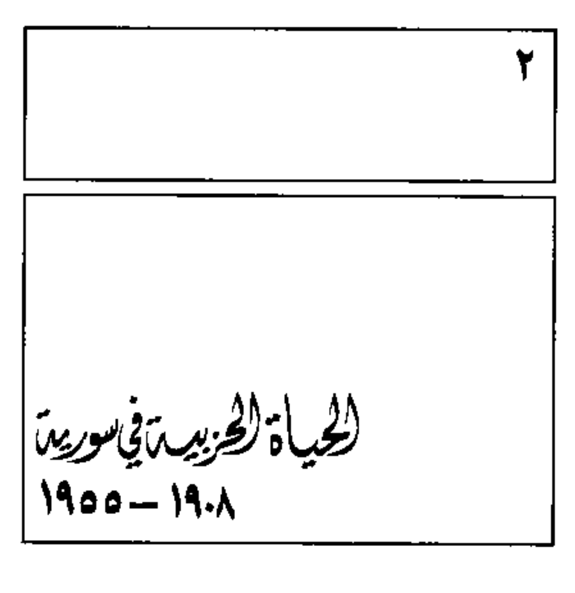
ويظل السؤال الاول في حياة الاستاذ ميشيل عفلق معلقا فوق جميع رؤوس المؤرخين، وهو:

ـ لماذا اختفى انتاج الاستاذ عفلق الادبي الذي سبق عمله السياسي؟



هوامش الفصل الأول

(١) نقلا عن احصاء نشرته مجلة اللطائف (ص ١٦) من العدد الاخير من سنتها الاولى (١٨٨٥).
(٢) نعمان القساطلي، الروضة الغناء في تاريخ دمشق الفيحاء ص ٨٩
(٣) الروضة الغناء ص (٩٠) وما بعدها
(٤) روى جورج انطونيوس في كتابه (يقظة العرب) هذا النص، وقد نقله عن (باويرينغ) في تقريره عن (الاحصاء التجاري في الشام) وكان أوفده اللورد بالمرستون في هذا الشأن سنة ١٨٣٨ (الوثائق البرلمانية الانكليزية لسنة ١٨٤٠).
(٥) انطونيوس ـ الترجمة العربية (ليقظة العرب) ص ٢٢
(٦) المصدر نفسه من ص ٣٠ ـ ٣١
(٧) سلمى قساطلي ـ من مقال في مجلة اللطائف سنة ١٨٩٠ (جزء ١٥ تشرين الثاني سنة ١٨٩٠ ص ٢٦٠).
(٨) الروضة الغناء ص ١١٧ وما بعدها.
(٩) سلمى قساطلي مجلة اللطائف سنة ١٨٩٠
(١٠) للتوسع في بحث المدارس يمكن مراجعة مجلة الهلال في المجلدات ٩، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦ و ٩١ ومجلة المقتطف في المجلد ٧ خطاب طويل مهم لشاهين مكاريوس عن التعليم في سورية، بمختلف مدنها، وقد ذكر جرجي زيدان في (آداب اللغة العربية) الجزء ٤ ص ٥٢ كلمة عن مدارس حمص يتبين منها انه كان فيها سنة ١٩١٤ بضع عشرة مدرسة اسلامية فيها (٢٥٣٠) طالبا وخمس دوائر تعليمية ارثوذكسية واربع مدارس اميركية، عدا مدارس اليسوعيين والسريان.
(١١) جولة الثقافة العربية ـ ساطع الحصري ج ١ ص ٧٦
(١٢) يقظة العرب لأنطونيوس ص ٩٥
(١٣) تأليف حزب الاستقلال وحزب الشعب (القديم)، ثم الكتلة الوطنية من عناصر التجار والملاكين، والمثقفين، وابناء العائلات الكبيرة.
(١٤) الشرتوتي يشير الى ذلك عام ١٩٣٧ في كتابه ص ٢٨ ـ ٢٩، وكذلك الرحالة المصري محمد ثابت. في (رحلة في ربوع الشرق الادنى) ص ٣٤ عام ١٩٣٦.
(١٥) الحوراني ص ٧٤
(١٦) مصطفى الحاج بكري: العقلية العربية بين الحربين ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ ص: ١٦١
(١٧) بلغ عدد الموفدين خلال العهد الفرنسي كله (١٩٢٠ ـ ١٩٤٥) فقط ١٨٨ موفدا منهم ١١٢ في العهد الوطني ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩.


٢
الحياة الحزبية في سورية
١٩٠٨ – ١٩٥٥

الحديث عن حزب البعث يقودنا تلقائياً الى تسليط الاضواء على النشاط السياسي في سورية قبل وبعد قيام هذا الحزب، ودور الاحزاب في هذا النشاط.

ان التشريع المنظم للحياة الحزبية في سورية منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى قيام العهود الاستقلالية، انما كان يعتمد على قانون الجمعيات العثماني الصادر عام ١٩٠٨ ومن ثم مراسيم المفوض السامي الفرنسي حتى ايلول (سبتمبر) ١٩٥٣ حين صدر القانون رقم (٤٧) الخاص بالجمعيات والاحزاب الذي ما لبث ان ألغي في جملة ما ألغي اثر حركة ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٥٤ وعودة الحياة الدستورية الى البلاد وذلك بعد سقوط عهد أديب الشيشكلي بانقلاب عسكري.

من المؤسف حقا ان موضوع الحياة الحزبية في سورية لم يسجل، لذلك استأنست بمعلومات شخصية ممن لهم الاطلاع والذين رافقوا الحركات النضالية ومنهم: الاساتذة (عزة دروزة، نزيه المؤيد العظم، فهمي المحايري، أمين سعيد، علي ناصر الدين).

نشطت الاحزاب في سورية في مطلع عصر النهضة الحديثة قبيل الحرب العالمية الاولى، ولما كانت الدولة العثمانية خاضعة لنظام حكم يرأسه السلطان وتديره جماعة من القصر، فقد أسْتُبْعِدَ المواطنون (الرعية) عن المشاركة في شؤون الحكم، لذلك لم تقم التكتلات الشعبية الحزبية التي تمثل اتجاهات الرأي العام، وحين اعلن الدستور عام ١٨٧٦، وظهرت بوادر النهضة، عمد فريق من أحرار العرب الى تأسيس أول (جمعية سياسية سرية عربية)[1] اطلق عليها (حزب العَشْرة). والسبب في هذه التسمية يعود الى ان عشرة من احرار سورية تنادوا الى

عقد اجتماع في بيروت عام ١٨٧٥، واسسوا هذه الجمعية السرية، وكان على كل فرد من هؤلاء العشرة الالتزام بضم عشرة اعضاء يكون مسؤولا عنهم، بحيث لا يعرف العضو الاّ العشرة الذين كفلهم، وهكذا[٢]. وسرعان ما أصبح لهذه الجمعية السرية من يمثلها في بيروت، ودمشق، وطرابلس، وعمان.

بدأت هذه الجمعية نشاطها السري بلصق نشرات مغفلة على الجدران ضد الاستعباد التركي، والتنبيه الى خطر الاستعمار الأوروبي، والمطالبة بالحكم الذاتي، ومنها نشرة الصقت على جدران بيروت ليل ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨٠ تتضمن برنامجا يحوي اربع نقاط:

١ ـ منح الاستقلال لسورية متحدة مع لبنان.

٢ ـ الاعتراف بالعربية لغة رسمية في البلاد.

٣ ـ الغاء الرقابة والقيود التي تحول دون حرية الرأي وانتشار العلم.

٤ ـ عدم استخدام الوحدات العسكرية المجنّدة من أهل البلاد الاّ ضمن حدود بلادهم.

رافق قيام هذه الجمعية السرية ارتفاع صوت جمال الدين الافغاني منبها الى خطر الاستعمار، وعلت صيحة الكواكبي في وجه الاستبداد والاستعباد. ومن مفاخر الارث والتراث انه حين قبض جمال باشا على العشرة المؤسسين وأخضعهم للتحقيق والتعذيب، لم يستطع أن ينتزع منهم اسماء اخوانهم، مما اضطره الى اطلاق سراحهم، وكانوا قاب قوسين من حبل المشنقة، وذلك بفضل نباهة أحد المؤسسين الاستاذ محمد الشريقي الذي اقنع جمال باشا بأنه مع رفاقه التسعة كانوا يعملون في حقل كتابة التاريخ العربي ـ التركي المشترك.

بعد قيام جمعية الاتحاد والترقي في استنبول بالانقلاب على السلطان عبد الحميد ١٩٠٨ بمشاركة عدد من الضباط العرب، آملين أن يوفر لهم العهد الجديد حفظ كيانهم العربي، وافساح المجال امامهم للعمل السياسي، ولكن سرعان ما خاب ظن الضباط العرب بعد اعلان الدستور (المشروطية ـ حرية، عدالة، مساواة، ياشاسون ملة ـ في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٠٨). عندها انفصل الضباط العرب عن جمعية الاتحاد والترقي

وأسسوا تنظيما سريا خاصاً بهم تحت اسم (جمعية العهد)، وكان صاحب هذه الفكرة الضباط العرب في الجيش العثماني ومنهم: (نوري السعيد وكان مصدوراً، ياسين الهاشمي، تحسين الفقير، رضا الركابي، عزيز المصري).

في تلك الفترة قام السوريون بنشاط سياسي واسع في المجال القومي كان من مظاهره تأسيس تجمعات سياسية وفي طليعتها:

ـ جمعية الاخاء العربي العثماني، وقد تم افتتاح مقرها في الثاني من ايلول (سبتمبر) ١٩٠٨ في الآستانة، ونص قانونها الاساسي على أن لا تضم غير العرب، فهي جمعية قومية مخلصة للدولة العثمانية، تسعى للمحافظة على احكام الدستور، بالتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي[٣]. وترمي الى رفع شأن الأمة العربية من النواحي الاقتصادية والثقافية، والدفاع عن مصالح العرب في الآستانة. وكانت تمارس نشاطها علنا وبصورة صريحة. فقد هيأت أول مظاهرة عربية شهدتها الآستانة،. عند استقبال النواب العرب بعد انتخابات كانون الاول ١٩٠٨. ثم سرعان ما تلاشت بسبب فقدان الانسجام بين اعضائها، بعد أن قامت بدور مهم في بث فكرة القومية العربية في صحيفتها (الاخاء العثماني)، وصحف المهجر، أشار اليه جمال باشا في بيانه المطول الذي نشره غداة السادس من أيار (مايو) عام ١٩١٦[٤].

ولما ألغت الحكومة التركية جمعية الاخاء العثماني، وهي اول ثمرات تنظيمهم السياسي انفصل النواب العرب عن جمعية الاتحاد والترقي، وألفوا كتلة (برلمانية) ضمت اكثر من ستين نائبا[٥]، في آذار (مارس) ١٩١١، وأسهموا مع العناصر التركية المعتدلة في المجلس، ومع النواب غير الاتراك في تكوين حزب (الحرية والائتلاف العثماني)، الذي وقف موقف المعارض من الاتحاديين، وكان مما يهدف اليه تحقيق اللامركزية الادارية، التي ستصبح شعارا للهيئات السياسية العربية في ما بعد، ثم أسس:

المنتدى الادبي:

عندما أسفرت الحكومة الاتحادية عن نياتها اندفع النواب العرب الى

العمل السري لنشر الفكرة القومية وتحقيق اهدافهم السياسية، فعندما قام: (عبد الكريم الخليل، وسيف الدين الخطيب، ورزق سلوم) بتأسيس المنتدى الادبي، عاضدهم: (الشيخ رشيد رضا وعبد الحليم الزهراوي، وطالب النقيب، وعزيز علي) وقد تستر المنتدى وراء نشاط ثقافي ظاهري، يرمي الى جمع الطلبة العرب في العاصمة، والعناية بهم، وقام بدور سياسي فعـال، فمثلت لجنته الادارية الجانب العربي للمفاوضة لاجل تسوية الخلافات مع الحكومة حول المطالب العربية، وأسهم في الدعوة للفكرة القـوميـة، وتـوسيع مداها[٦]. فضم المئات، وافتتح فروعا له في الشام والعراق، وكان ينشر افكاره القومية العربية عن طريق اعضائه المتجولين، ونشراته السرية التي كانت توزع بعد طبعها في مطبعة (المفيد) ببيروت، كما كانت له جريدة تنطق باسمه، تصدر في الآستانة، واسمها (لسان العرب).

ولكن اهم منظمة سياسية أسسها العرب في العهد العثماني هي حزب (اللامركزية الادارية العثماني).

حزب اللامركزية الادارية العثماني:

ظلت اللامركزية شعار العاملين في حقل السياسة من السوريين حتى قيام الحرب العالمية الاولى، وظهور نيات الاتراك تجاه العرب، فتبلورت فكـرة الاستقـلال التـام، وقـامت الثورة العربية. وقد تأسس الحزب (اللامركزية) في القاهرة اواخر عام ١٩١٢، ومن مؤسسيه:[٧] (الشيخ رشيـد رضا، عبد الحميد الزهراوي، رفيق العظم، حقي العظم) ونشر برنـامجـه المكتـوب الذي يهـدف الى اقناع الحكومة والشعب بفوائد اللامـركزية، وضرورة اتخاذها، اساسا، للادارة في الدولة العثمانية في مختلف اقطارها. وكان على صلة بحزب الحرية والائتلاف، وهو يتفق معه في المبدأ الاساسي (اللامركزية)، واعتمد عليه في تحقيق اغراضه، وتم بمسعى الاحرار السوريين تأسيس شُعب لحزب الحرية والائتلاف في لبنان، ولكن عندما حل هذا الحزب بصورة رسمية بقيت شُعب الحزب تابعة لحزب اللامركزية في القاهرة[٨].

وعلى الرغم من ان منهاج الحزب يعني الدولة العثمانية جميعا، فانه ظل حزبا عربيا، لم يضم اليه غير العرب، وهو لم يكن حزبا خفياً، ولكنه لم يكن مرخصاً له. وهو لم يجنح الى العمل في السر والخفاء لظهور ضعف حزب الحرية والائتلاف[٩]، بقدر ما دفعه الى التكتم وقصر مساعيه على مصلحة العرب، سلوك الاتحاديين العدائي.

وعندما اقتنع الحزب بعدم جدوى السعي للامركزية في ظل الدولة العثمانية اخذ يعمل للانفصال التام، وقد كان يمهد لذلك منذ البدء.

ففي رسالة من رئيس اللجنة العليا للحزب في مصر الى احد الاشخاص في سورية يوصيه بالعمل على (اعداد النفوس لقبول مبادىء الحزب واشعار المتمكنين من مبادئه بأن تعديلا كثيرا سيدخل في برنامجه بحيث يصبح حزبا عمليا ذا قوة ومكانة في البلاد)[١٠].

وفي بيان نشره بعنوان (الصرخة الثالثة الى ابناء الامة العربية) جاء فيه قوله: (وليعلمن العرب ان حركتهم لن تقف دونها دسائس الساسة، وانهم ضاربون هذه الدولة من اركانها حتى تخفق في البلاد راية العرب على سكانها)[١١]. وختم البيان بهذه الجملة: (فسلاما على الامة، سلام برّ أمين، يظلله في سواد الليل بياض الضمير، وخضرة الأمل اليقين). وهذه الالوان الثلاثة التاريخية تمثل شعار الحزب.

وكان تنظيم الحزب يفوق تنظيم ما سبقه من الحركات العربية، وأوكل الاشراف عليه الى لجنة قوية من عشرين عضوا من المقيمين في مصر، انتخب ستة منهم للقيام بمهام اللجنة التنفيذية. واسست له فروع في اكثر المدن السورية وأهم المدن العراقية. وكانت تتألف اصغر وحدة حزبية من عشرة أشخاص، يرأسهم عريف، وكل فئة يقوم عليها (دليل)، وتتألف الهيئة الادارية لكل فرع من اربعة اعضاء، وتتصل مباشرة بالمركز الرئيسي للحزب في القاهرة.

وفي رسالة مهمة من سكرتير اللجنة العليا للحزب حقي العظم الى محمود المحمصاني في بيروت[١٢] ينصح فيها بتوسيع التشكيلات السرية واتباع بعض النظم العسكرية فيها (والاجتهاد في أن لا تكون في البلاد قوة عاملة الا وهي منقادة الينا ولو في جماعات مختلفة الاسماء) ويوصيه

فيها بالحرص على التكتم والتنظيم حذراً من الوشايات).

اما موارد الحزب المالية فكانت تتجمع مما يجبى عن طريق المرتبات الشهرية على الاعضاء، والتبرعات غير المحدودة من الحزبيين الاثرياء.

وكان الحزب على صلات مع منظمات عاملة اخرى في البلاد العربية كجمعية النهضة اللبنانية في بيروت، وكانت تسعى لتحقيق لبنان الكبير، معتمدة على فرنسا ممهدة السبيل الى النفوذ الاجنبي[١٣].

وتعاون الحزب مع الحركة الاصلاحية البيروتية التي تأسست اوائل عام ١٩٣١، وبرنامجها هو البرنامج الاصلاحي المركزي الذي تقدم به بعض اعضائها الى حكومة الدولة العلية في كانون الثاني ١٩١١، ولكنه رفض واغلق مكتب الحـركة في نيسان (ابريل) ١٩١٣، وادى ذلك الى هياج كبير في البلاد العربية جمعاء[١٤].

وهكذا يتضح ان حزب (اللامركزية) هذا قد ساهم في نقل القضية العـربية الى الصعيد الدولي وشرح مطالبه امام الرأي العام بالمشاركة الفعالة في مؤتمر باريس العربي ١٩١٣، وكان اوسع حركة سياسية قام بها العرب في العهد التركي، فقد جمع النشاط العلني مع النشاط السري، وعمـل على ضمّ جهود المنظمات العاملة تحت شعار اللامركزية، ومهّد السبيـل لفكـرة الانفصال ولكن تباين الآراء، واصطدام الآراء أبعدا الحزب عن الاهداف الحقيقية للقضية العربية، فكان ان تسللت بريطانيا وفرنسا الى صفوفه ومزقته شرّ ممزق.

مؤتمر باريس العربي ١٩١٣

في تلك الظروف الدولية الحرجة التي كانت تحاك فيها المؤامرات حول بلاد الدولة العثمانية، دعا عدد من الشباب العربي كانوا قد اسسوا جمعيـة سرية اطلقوا عليها اسم (الفتاة)[١٥] الى مؤتمر عربي يعقد في باريس، وتـألفت لجنـة تحضـيرية من ثمانية شباب، اربعة منهم من مؤسسي الفتـاة هم: (عبـد الغني العريسي، عوني عبد الهادي، جميل مردم، محمد المحمصاني). وجهت بيانا بالدعوة الى عقد مؤتمر ـ يقوم به السوريون ويمثل به العرب جميعا، يبسط فيه للأمم الأوروبية بأن الامة العـربيـة متمـاسكة، ذات وجود حيّ لا ينحل، ومقام عزيز لا يضام،

وخصائص قومية لا تنزع، ومنزلة سياسية لا تقرع، وهذه الامة تصارح الدولة العثمـانيـة بأن اللامركزية قاعدة حياة هذه الامة، وان حياتها اقـدس حق من حقـوقها، وان العرب شركاء في هذه المملكة، شركاء في الحرية، شركاء في السياسة، وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء انفسهم.(١٦)

لبت الدعـوة وفـود حزب اللامركزية في القاهرة، وجمعية الاصلاح البيروتية، والمنتدى الادبي، ومندوبون من السوريين في اميركا، وبعض شباب العراق، وعقد المؤتمر جلساته التي بدأت في ١٨ حزيران (يونيو) ١٩١٣ في القـاعـة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع (سان جرمان) برئاسة عبد الحميد الزهراوي مندوب حزب اللامركزية، وتضمن جدول الاعمال اربع نقاط هي:

١ـ الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال وحقوق العرب في المملكة العثمانية.

٢ـ ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية.

٣ـ المهاجرة من سورية.

٤ـ حق العرب في الحرية.

دام المؤتمر ستة أيام تقرر فيه مبدأ الاصلاح على قاعدة اللامركزية، والمحافظة على وحدة المملكة بشرط المحافظة على حقوق العرب كشركاء(١٧). وحظر فيه على المؤتمرين قبول أي منصب حكومي في حال عدم الاستجابة لهـذه المطالب، الا بموافقة جمعياتهم، وجعلت مقرراته منهجا سياسيا يلزم به العاملون في سبيل القضية العربية.

وقد صرح رئيس المؤتمر في باريس بقوله: (نحن لا نتمسك بالوحدة السياسية لأجل الرابطة الدينية، بل رغبة منا في ايجاد مجموع عثماني قويّ يرتقي فيه مجموعنا العربي بدون حائل يقف في طريقه، واملا في قيام حكومة رشيدة تكون لنا مشاركة في امورها)(١٨).

ولـمـا ظهـر للمشاركين في المؤتمر ان فرنسا ارادت استغلال المؤتمر لاغراضها ذهب وفد يمثله الى وزارة الخارجية الفرنسية ليقول لها: (اننا نحترم الفرنسيين، ولكننا لا نرضى ان يكونوا رؤساء علينا، بل نرغب في

معــاضــدتهم لاصــلاح احوالنا بشرط ان نبقى عثمانيين)، فكتب وزير الخارجية الفرنسية يقول: (ان الحركة العربية قد انقلبت علينا) ونصح بالتظاهر بمساعدتها والسعي بالخفاء للقضاء عليها.[١٩]

واذا كانت الغاية من المؤتمر هي الاعتراف بحقوق العرب كعثمانيين، في الاشتــراك في ادارة الدولة والمحافظة على كيانهم الخاص، وإسماع صوتهم للرأي العــام، كمــا حدد هذه الغــاية الزهراوي لجريدة الطان الباريسية[٢٠]، فان المؤتمر نجح في توحيد وجهات نظر المنظمات العربية امام الحكومة العثمانية. وقد اضطرت جمعية الاتحاد والترقي الى ارسال سكــرتيرها مدحت شكري بك الى باريس لمفاوضة رجال المؤتمر، فاتفق معهم على عدة امور وافقت الحكومة الاتحادية على قسم منها في قرار صدر في الآستانة آب (اغسطس) ١٩١٣ ينص على ادارة الاوقاف محليا، وان تكون الخدمة العسكرية في منطقة المجند اثناء السلم، وان يكون التدريس بالعربية الى جانب التركية، وضرورة إلمام الموظفين بالعربية، كما نص على نوع من الاستقلال المالي. وقد قبل العرب الاتفاق متساهلين حسما للخلاف، وأظهروا حسن نيَّاتهم تجاه الدولة بإعرابهم عن تعلقهم بالعرش العثماني. ولكن اتضح ان الحكومة العثمانية خدعت العرب، واوقعت الخلاف في صفوفهم فعينت الزهراوي وستة آخرين في مجلس الاعيان ومناصب اخرى بمرسوم صدر في ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٤ قبل تنفيذ المطالب وخلافا لمقررات المؤتمر، وعمدت الحكومة للتملص من اتفاقها بحملها عدداً من الرجال العرب، وبينهم بعض رجال الدين، على مهاجمة الاتفاق، والدعوة الى صرف النظر عنه، وتأييد الحكومة حفاظا على وحدة المملكة أمام الأخطار.[٢١]

كان مؤتمــر باريس ونتــائجه مرحلة حاسمة في العلاقات بين الترك والعرب، ودفع الترك لرفع القناع، واوضح للعرب طريق الخلاص، ورد على ألاعيب المستعمــرين وسيــطر على المؤتمر جو قومي وطني وابعدت عن زعــامتــه العنــاصر النفعية المتساهلة. على ان الشباب القوميين الذين اقتنعوا بثقل المهمة ندبوا انفسهم لتحملها، وشعروا بحراجة الظروف الداخلية فلجأوا الى العمل سراً.

النشاط السري

اللجوء الى العمل السرّي ادى الى قيام منظمتين قوميتين عربيتين، قُدِّر لهما أن تلعبا دورا مهماً في سورية زمن العهد (الفيصلي)، وكانت هاتان الهيئتـان مظهـرا من مظاهـر سرعـة تطور الفكـرة القـومية العربية، ورسوخها. وكانتا بمثابة رد فعل على الحركة القومية التركية التي سار عليها جماعة الاتحاديين، وقد اعتمدتا النشاط السري وحده في العهد العثمـاني، مسترشدتين بالجمعيات القومية الاوروبية والتركية الاولى التي سلكت هذا السبيـل لتحقيق اهـدافهـا في الوحـدة والحـريـة والاستقلال، أو الكفاح ضد الطغيان القائم[٢٢] أولهما:

(جمعية العهد) من العسكريين العرب كما سبق واوضحنا، وجمعية اخرى كانت مرحلة اولى في قيامها هي:

الجمعيـة القحطانية: تأسست في الآستانة عام ١٩٠٩ من مدنيين وعسكريين بينهم الزهراوي وعزيز علي المصري، وسليم الجزائري. وكانت تعمل في سبيل الملكية المزدوجة العربية ـ التركية. ومارست نشاطها سراً وبصورة شفهية فقط. واتبعت في ذلك طرقا دقيقة في الادخال والتعارف بين الاعضـاء، وقـد اهتم بعض اعضائها بالدعوة بين المدنيين، بينما قصرت (جمعية العهد) نشاطها على الدعوة في صفوف الضباط العرب في الجيش، مما مهد السبيل لقيام (جمعية العهد).

تم تأسيس هذه الجمعية في الآستانة عام ١٩١٣[٢٣] على يد نوري السعيـد، وعزيز علي المصري، وقد حافظت في البداية على مبدأ الملكية المزدوجة. ولكن برنامجها صيغ بلغة عسكرية، واقتصرت على العسكريين فقط زيادة في الحرص على سريتها، بعد ان تسببت وشاية احد اعضاء الجمعية القحطانية بها باعتبارها منحلة من تلقاء نفسها.

كانـت جمـعيـة العهـد قوميـة عربيـة عملت بكتمـان وتنـظيم شديـدين،واسست لها فروعاً في مدن الشام والعراق الرئيسية، وفي ٩ شبـاط (فبـراير) ١٩١٤ اعتقل عزيز المصري في الآستانة، وحكم عليه بالاعدام بتهمة الخيانة. ولكن لم تعزُ اليه المحكمة أية تهمة بالعمل في جمعيـة سرية لجهلها اي شيء عن الجمعية، ولكن الاتحاديين، وكانوا

يصفونه بأنه بيت الفكرة العربية في الجيش[٢٤] ارادوا القضاء عليه. وقد ادت محاكمته الى هياج الرأي العام العربي، وكانت سببا في النفرة بين العرب والترك، كما كان لها صدى في الصحافة الاوروبية، فاطلق سراحه، فسافر الى القاهرة تاركا نوري السعيد وحده في الاشراف على جمعية العهد[٢٥]، وبقي المصري في القاهرة حتى اعلان الحرب العالمية الاولى، وهناك أسس (الجمعية الثورية العربية) كرديف لجمعية العهد، التي دعت صراحة الى الاستقلال التام وتأليف دولة عربية لا مركزية[٢٦] وكانت على اتفاق تام مع حزب اللامركزية في القاهرة.

أمـا المنظمة القومية السرية الأخرى التي نشأت في هذه الفترة الى جانب جمعية العهد، وكان لها دور رئيسي في سورية بعد الحرب الماضية الاولى فهي:

جمعيـة العربية الفتاة: اسست في باريس عام ١٩١١ ومؤسسوها سبعة من الشبان العرب السوريين وواحد منهم عراقي[٢٧]، وكانت تهدف بادىء الامر، الى النهوض بالامة العربية وعدم الانفصال عن الترك، وكان أهم اعمـالها تهيئة المؤتمر العربي في باريس، دون أنْ يُعرَف من أمر الجمعيـة شيء، ولكن بعـد اعـلان الحرب صارت تدعو الى الانفصال والاستقلال الناجز.

كانت هذه الجمعية عربية قومية تعمل في نطاق امة العرب، وتدعو الى اقـامـة كيان عربي موحد، لا يُقبل فيها الا العرب عسكريين كانوا او مدنيـين، (سرّيـة) لا يتم الانتسـاب اليها الا بعد اجتياز أدوار أولها الترشيح، أي ان يرشح أحد الأعضاء شخصا دون علمه أمام الهيئة الادارية، فاذا دُرس الترشيح وقُبل، فوتح المرشح بذلك فيدعى الى حلف اليمين بالاخلاص لمبادىء الجمعية واهدافها التي تنص على بذل الجهد لايصال الامة العربية الى مصاف الامم الراقية الحرة المستقلة الكبرى.

انتقل مركزها الى بيروت عام ١٩١٣ ثم الى دمشق عام ١٩١٤. وقد امتـازت بعـدد من الصفـات اللازمة لنجاح الحركات السرية والقومية خصـوصـاً، منها متانة ايمان اعضائها واخلاصهم، وشدة فعاليتهم، والكتمان الشديد، حتى انه لم يعرف عن وجودها شيء حتى في محاكمات

١٩١٥ ـ ١٩١٦ التي جرت في الديوان العرفي في عاليه وأدت الى الكشف عن نشاط الجمعيات واسرارها، وعلى الرغم من اعدام اثنين من مؤسسيها هما: (محمد المحمصاني، وعبد الغني العريسي) فان اسماء الاعضاء الاخرين بقيت سراً.

وقد لعبت (جمعية العربية الفتاة) دورا مهماً في تطورات القضية العربية ابان الحرب، وقد اتصل بعض اعضائها بفيصل الاول في دمشق في ٢٦ آذار (مارس) ١٩١٤ وهو في طريقه الى الآستانة، فلما اوضح لهم ان تفضيله للترك هو بسبب خشيته من اوروبا وظهر للوفد المفاوض ان هذا الشعور يتفق مع قرار سري للفتاة اتخذ قبل اشهر تقرر فيه انه في حال ظهور مطامع اوروبية في البلاد العربية ينبغي ان تعمل الى جانب تركيا في مقاومة النفوذ الاجنبي مهما كان نوعه وشكله، وتم التفاهم بعد ذلك بين فيصل الاول والجمعية، عندها اقسم فيصل الاول يمين الاخلاص للجمعية.(٢٨)

وفي ظروف احتمال دخول تركيا الحرب ارسل عزيز علي المصري كتابا الى الاعضاء في (جمعية العهد) يؤكد لهم ان من واجب العرب الوقوف الى جانب تركيا ما داموا غير حائزين على ضمانة قوية تبدد مخاوفهم من اطماع اوروبا، فجاء هذا الموقف مؤيداً لموقف هيئة الفتاة.

ولعل من المفيد هنا ان اذكر ما قاله لي المؤرخ الثقة الاستاذ عجاج نويهض بأن اعضاء (الفتاة) و (العهد) لم يكونوا مطلعين حتى ذلك الوقت على المفاوضات التي كانت قد بدأت بين الحسين وكتشنر المقيم البريطاني في مصر في عام ١٩١٤، وعندما عاد فيصل الى دمشق في ٢٤ ايار (مايو) ١٩١٤ سلمه أقطاب الفتاة والعهد متفقين بيانا تضمن المطالب العربية التي يتوقف على القبول بها التعاون بين بريطانيا والعرب، وطلبوا اليه حملها الى والده الشريف حسين ليستوضح رأي بريطانيا بها، بعد ان علموا بأمر المفاوضات الدائرة. ويتضح أثر هذا البيان في الرسالة التي وجهها الشريف الحسين الى (مكماهون) في ١٤ تموز (يوليو) ١٩١٥(٢٩) شارحا قضية العرب في الاستقلال محدداً الدولة العربية العتيدة، عارضا مشروع معاهدة عربية انكليزية من خمس مواد

تمنح انكلترا امتيازات اقتصادية، وتنص على تعاون عسكري لمصلحة الفريقين وذلك لمدة خمسة عشر عاما قابلة للتمديد. ويتضح هذا الأثر كذلك في الرسائل الاخرى التي يتمسك فيها الحسين بالمطالب العربية، وفي منشور اعلان الاستقلال للعرب في ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩١٦.

وقد طالب الشيخ رشيد رضا وعزيز علي المصري، باسم (حزب اللامركزية) والجمعية الثورية العربية في القاهرة بضمانات من الانكليز باستقلال العرب كشرط اساسي للدعوة الى الثورة.[٣٠]

وكان من ابرز نشاط السوريين السياسي، المذكرة التي رفعها سبعة من اعضاء الفتاة المؤسسين بواسطة الدوائر البريطانية في القاهرة الى المراجع المسؤولة يستوضحون فيها عن موقفها من استقلال البلاد العربية ومستقبلها وحصلوا بنتيجتها في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩١٨ على تصريح فيه تأكيد للوعود البريطانية السابقة.

وأصبحت الثورة ضرورة قومية، بعد ان حصل العرب على ضمانات لمستقبلهم السياسي، ووثقوا بها، وبعد أن أطاح ديوان الحرب العرفي بعدد من الوطنيين المخلصين من السوريين، وبعد ان نقل الضباط، والافواج العربية الى الجبهات الساخنة لاحباط ما كان يدبر من الاعمال الثورية في صفوف الجيش، هذه الاعمال التي بلغ من خطورتها ما دعا جمال باشا الى التصريح بأنها (لو خطرت لها فكرة التمرد لما كان لدي وسيلة لمنع الثورة وتسكينها).[٣١]

وعند اندلاع نار الحرب واشتراك الاتراك فيها، كان الضباط العرب يفرون الى صف الحسين لعلمهم باتفاقهم مع الشريف حسين، وعندما تألفت اول حكومة عربية في الحجاز في ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٦ كان عزيز علي المصري وكيلا للحربية فيها، ولكنه سرعان ما استقال بعد ان نظم الجيش مع الضباط الآخرين وبينهم نوري السعيد على تأسيس تنظيم عسكري خاص بهم، وقام (محمد شريف الفاروقي) وهو ضابط من اعضاء العهد والفتاة بمهمة المعتمد العربي في القاهرة، التي كانت تصطرع فيها وجهات النظر.

الحياة الحزبية
في العهد الاستقلالي

يتضح من الشرح الذي اوردناه عن الاحزاب العربية في العهد العثماني، انها لم تكن احزاباً بالمعنى الصحيح المتعارف عليه، ولكنها كانت حركات ومنظمات في اشكال مختلفة، عملت في سبيل التحرر القومي عن طريق (السرية)، والتستر وراء اهداف علنية ظاهرية، حتى أنه لم يكن لبعضها برامج مكتوبة، ومع ذلك فقد اثبتت وجودها ما بين ١٩٠٨ ـ ١٩١٦ حين استطاعت الانتقال من مرحلة التنبيه الى تحديد الحقوق القومية والمطالبة بتحقيقها في نطاق الدولة العثمانية، فكانت عاملاً في بعث الفكرة القومية العربية ونشرها، ونقل هذه القضية الى الميدان الدولي كقضية مميزة مستقلة لأمة تتطلع الى بناء كيان حديث لها بين الأمم.

ولكن ارتجال التنظيم، واتساع رقعة التآمر الدولي ضد الدولة العثمانية، وضراوة الاحداث التي مرت اثر انتهاء الحرب العالمية الاولى، لم تمكن رجالات سورية من التفكير فيما ينبغي عمله بعد الاستقلال، وهذا ما سبب البلبلة والتعقيد اللذين لازما هذه الفترة الحرجة من تاريخ سورية المعاصر.

لقد مرت البلاد العربية عامة والسورية خاصة باحداث صاخبة أهمها:

- اتفاق فيصل ـ وايزمن
- اللجنة الاميركية ومطالب البلاد
- بدء الاصطدام بالفرنسيين
- اتفاق فيصل ـ كليمنصو
- اعلان الاستقلال.

واذا كانت هذه الاحداث قد سُجِّلتْ وشُرحتْ في العديد من الكتب والمذكرات فانها اهملت الحديث عن أثر هذه الاحداث في الحياة الحزبية بسورية، ولعل السبب في ذلك يعود الى الانقسامات العربية التي كانت وما تزال المُسبب الاساسي لتعثر الامة العربية واعاقتها عن تحقيق اهدافها الكاملة، ولأن الحاضر الذي نعيشه هو ابن الماضي القريب، فقد

رأينا أنه لا بد من تسجيل الحياة الحزبية في العهد الاستقلالي الاول، ولأن معظم المؤرخين قد اهملوا هذا الجانب المهم من حياة سورية العربية الحزبية فقد عدنا الى العديد من رجالات العرب الذين رافقوا هذه المرحلة وعاشوها بكل تناقضاتها ومنهم: (عارف النكدي، عجاج نويهض، عزة دروزة، وجيه الحفار صاحب جريدة الانشاء الدمشقية، الحاج امين الحسيني، نجيب الراوي).

لقد اجمع هؤلاء على أن سورية دخلت مرحلة خطيرة باعلان الاستقلال وملكية فيصل الاول بقرار اتخذه المؤتمر السوري في ٧ آذار (مارس) ١٩٢٠ تنفيذا لخطة (الفتاة، العهد، الاتحاد السوري) المطالبة بالجلاء عن الاراضي السورية رافضة المزاعم الصهيونية التي بدأت تظهر بشكل جلي في تلك الفترة. وقد اعتبر المؤتمر نفسه هيئة تأسيسية ومجلسا نيابيا، معلنا حق العراق في الاستقلال، على أن يكون بينه وبين سورية اتحاد سياسي واقتصادي. ولم تكن هذه الخطوات تقل خطورة عن الخطوات التي قطعتها الاحداث الوطنية الكبرى في التاريخ، ولكن الظروف السيئة، والعقبات التي قامت في الطريق، قدر لها أن تصبح في حيّز الاماني بعد أن دخلت في نطاق الفعل أمداً قصيراً.

وقد حملت جمعية (الفتاة) وهي الجبهة المتطرفة من الاحزاب يومئذ حكومة رضا باشا الركابي المسالمة التي تألفت اثر خروج الترك على الاستقالة بالتطابق مع الملك فيصل، والف هاشم الاتاسي في ٣ ايار (مايو) وزارة جديدة يكون اول همها المحافظة على الامن والراحة في الداخل والدفاع عن حقوق هذا الوطن ازاء كل من يريد به سوءاً، او الوقوف في سبيل استقلاله المقدس من الخارج، كما جاء في كتاب التكليف الملكي، واشترك فيها الدكتور عبد الرحمن شهبندر وزيرا للخارجية ـ كان الشهبندر ينتمي الى الاتحاد السوري المتسم بسمة المعارضة ـ ويوسف العظمة وزيرا للحربية، وكان هذان الوزيران يمثلان فكرة الدفاع.

وكان أول اعمال الحكومة عقد قرض وطني، وتوسيع نطاق التجنيد. وارسل رئيس ديوان الملك رسالة الى وزير الخارجية البريطانية، طالبا اليه الاعتراف بفيصل ملكاً، قبل ذهابه الى اوروبا، بناء على دعوة الحكومة

البـريطانية للتفاهم معه.[٢٢] ولكن هذا الاعتراف لم يتم، وكانت لجنة خاصة من المؤتمر قد هيأت مشروعا للدستور لم يتمكن المؤتمر التأسيسي من ابرامه لانتهاء العهد الفيصلي، وقد نص المشروع على ان الحكومة هي حكومة ملكية مدنية وراثية نيابية. وتدير البلاد ادارة لا مركزية، وان الملك غير مسؤول ونص على احترام الحريات الشخصية والدينية وحق تأليف الجمعيات ضمن القانون.

واشتـد الخلاف في عهد وزارة الاتاسي بين العناصر الوطنية الممثلة بالفتاة والعهد، والملك الميال الى العناصر المسالمة في الوزارة التي كان من رأيها الاتفاق مع فرنسا، على اساس (اتفاقية فيصل ـ كليمنصو) وكان الملك يدرك ان فرنسا تعمل للغدر به ومع ذلك فقد القى خطابا في السادس من آذار (مارس)، أي قبل اعلان الاستقلال بيوم واحد قائلا: (فرحلاتي الرسمية العديدة الى اوروبا والاحاديث والكتابات التي جرت بيني وبين ساستها لم تبق في نفسي مجالا للشبهة والتردد في نيات حكوماتها الحرة).

وتـأزمت الامور بعد الانذار في ١٤ تموز (يوليو)، واستغل الجنرال غورو تسرع الحكومة بقبوله تنفيذ خطواته التالية بعد ان لمس ضعف الملك وحكـومتـه. بينمـا كان الفريق الدفاعي يرى في امكانات القوى الرسمية والثورات القائمة، وتصميم يوسف العظمة املا بتدخل العالم الاوروبي، وإيجاد حلّ مشرف.

وكان وزير الحربية العظمة قد القى بالنيابة عن الحكومة بيانا في ١٢ تموز (يوليو)، في المؤتمر اعلن فيه انها لا تريد الا السلم والمحافظة على شرف البـلاد واستقلالها. وتتبرأ من كل تهمة تفيد الاخلال بالعلاقات الودية مع (حليفتنا وحلفائنا) وعدم رفض المفاوضات، ورفض أي حل يمس الاستقـلال، والاستعـداد والتصميم على الدفـاع عن شرفنـا وحقوقنا.[٢٣] ثم اصدرت الحكومة بلاغاً عاماً بتأييد الادارة العرفية. ولكن الحكومة مالت مع الملك الى سياسة عدم الدفاع، بينما كان رأي يوسف العظمة الدفاع مهما كانت الظروف، وقدر امراء الجيش امكان الدفاع لمدة عشرين يومـا، وعـلى الاثر تقدمت الحكومة باستقالتها، ولكن بعد اعتذار ياسين الهاشمي عن تأليف حكومة جديدة، تقرر بقاؤها فعلقت

جلسات المؤتمر في ١٩ تموز (يوليو) وأُمِرَ اعضاؤه بالانصراف، بينما كان الشعب في هياج وبلبلة، والمظاهرات قائمة بتأثير اللجنة الوطنية تطالب بالدفاع، وقد استطاع المؤتمر اذاعة بيان على الشعب في اليوم نفسه، وسلمه الى معتمدي الدول، وكان آخر بيان له اعلن تمسكه باسم الامة بالقرارات التاريخية ويعتبر الحكومة لاخلالها بعهدها، غير شرعية، وصك قبولها للانذار الفرنسي غير صحيح، وكتب فيصل في ما بعد يبرر قبوله الانذار برغبته في تفادي (المصيبة) وثقته بأخذ العدل مجراه بعد عرض القضية على الراي العام الدولي.

وانتهى العهـد الاستقـلالي الاول على روابي ميسلون في ٢٤ تموز (يوليو) ومغادرة الملك فيصل دمشق في ٢٨ منه، وما كانت الوقائع التي انتهت بيـوم ميسلون، في حقيقة الامر الا حركات عسكرية استهدفت القضـاء على المقـاومة الفعلية التي بدأت في المنطقة الشرقية مع ازمة الاستبدال وظهر للعيان ان فرنسا لم تكن مستعدة للتنازل عن الغنيمة التي كسبتها في اتفاقية سايكس ـ بيكو، ومؤتمر سان ريمو، في الوقت الذي كانت فيه حليفتها بريطانيا تشهر السلاح بوجه الشعب العراقي لكسب حصتها المقررة.

في غمرة هذه الاحداث كانت الهيئات السياسية المهمة، بمثابة هيئات نشأت في دور النضال ضد الحكم التركي كجمعيتي الفتاة والعهد، او انها كانت تطورا عن حزب سابق كحزب الاتحاد السوري (عبد الرحمن الشهبندر، حسن الحكيم، سعيد حيدر) او ظهرت في تلك الفترة كحزب الاستقلال، والحزب الوطني، واللجنة الوطنية العليا.

جمعية العربية الفتاة: ظلت هذه الجمعية سراً مكتوماً حتى أذاعته هيئتهـا المـركزية في الخامس من شباط (فبراير) ١٩١٩، وأعلنت انها ستمـارس نشـاطها العلني باسم: (حزب الاستقلال العربي).[٢٤] وقد استطاعت التحرك بسرعة وتأسيس فروع لها في المدن السورية والعراقية واللبنـانية، خصوصاً وانها تضم كبار المسؤولين، فالملك فيصل منها، ورضا باشا الركابي، وياسين الهاشمي رئيس مجلس الشورى الحربي، ويوسف العظمة وهاشم الاتاسي من اعضائها المؤسسين، كما كان ينتمي

اليها، ايضا، العديد من الشخصيات العربية بينهم (عوني عبد الهادي سكرتير الملك الخاص) وفئة مثقفة.

وفي خلال العهد الفيصلي القصير توالت على قيادة جمعية الفتاة ثلاث هيئات مركزية تألفت الاولى بعد دخول القوات العربية والحليفة دمشق من ستة اعضاء، وكان سكرتيرها العام رفيق التميمي، ومن اعضائها الركابي والهاشمي والدكتور احمد قدري، ولكن بعد عودة الملك الاولى من اوروبا، وظهور التيارات السياسية المختلفة قبل وصول اللجنة الاميركية استقالت هذه اللجنة وتألفت لجنة جديدة استبعد منها ثلاثة من اللجنة الاولى ممن وصفوا بالمسايرة والاعتدال، ودخلها اربعة غيرهم وهم: (عزة دروزة وأصبح سكرتيرا عاما، وشكري القوتلي، وسعيد حيدر، وأحمد مريود) فأصبحت اللجنة أشد تماسكا وأشد ميلا نحو الحزم والشدة، واستمرت هذه الهيئة تعمل حتى آذار (مارس) ١٩٢٠، فاستقالت بضغط التيارات المعادية لها داخل الفتاة، على اثر الصراع بينها وبين حكومة رضا ركابي، وانتخبت الهيئة الثالثة في اجتماع عقد بدار الركابي وبرئاسة الامير زيد، وكان اكثر اعضائها من الصف المهادن لفيصل، واختير (محمد الشريقي) سكرتيرا عاما لها. وكانت هذه الهزات الانتخابية تعود الى ضعف التماسك بين الاعضاء وتباين وجهات نظرهم.

وقد نشأ عن هذه الجمعية (الفتاة) هيئات حزبية قامت بوحيها وعملت بتوجيهها وهي: (حزب الاستقلال العربي، النادي العربي، حزب التقدم).

حزب الاستقلال العربي: أُسِّسَ ليكون مظهراً خارجياً لنشاط الجمعية السرية، وليتسع لضم المؤيدين والمناصرين الذين لم يكن من المستحسن انتسابهم الى الجمعية السرية. وقد اتخذ مقراً له الى جانب اوتيل فيكتوريا. وهدفه هو هدف الفتاة الاول: استقلال العرب، حريتهم، وحدتهم الشاملة. وله نظام داخلي ينظم الاجتماعات الدورية ومراسم الدخول التي اتبع فيها ما اتبع في الجمعية، وكانت تشرف عليه هيئة ادارية عامة خاضعة لتوجيهات الهيئة المركزية للفتاة. وقد تمتع الحزب

بشهـرة كبـيرة وانتشر انتشاراً واسعاً احتجبت وراءه شهرة (الفتاة)، وأُسست له فروع في المدن السورية. ولجأت اليه الاحزاب العراقية لدعم مطالب العراق.

النـادي العربي: وتشرف عليه هيئة (الفتاة)، وفكرته مستوحاة من المنتدى الادبي، وأصبح نادياً قومياً سياسياً ثقافياً، وقد القى فيه الملك فيصل بعض خطبه، وعقد فيه المؤتمر السوري اولى جلساته قبل انتقال المؤتمر الى بناية العابد في المرجة.

اما المؤتمر السوري فقد تألف من خمسة وثمانين عضوا منتخبين، وخمســة وثـلاثـين مندوبا عن القبائل ورؤساء الاديان يمثلون جميعا المنـاطق السورية الثلاث: الشرقية والغربية والجنوبية. وقد ظهرت فيه كتلتان برلمانيتان إحداهما تسمى:

حزب التقدم: وكان مظهراً برلمانيا لجمعية الفتاة وحزب الاستقلال، وقد أُوجِدَ لتحقيق أهداف الفتاة داخل البرلمان، وكان اعضاء هذه الكتلة هم المتشبثون بالاستقلال وخطة عدم التساهل تجاه المطامع الاجنبية من جهة، ويحملون مبادىء اجتماعية واصلاحية من جهة اخرى. حتى انهم تبنـوا اقتراحا تقدم به عضو المؤتمر مندوب (غزة) الشيخ سعيد مراد بالمساواة بين المرأة والرجل في الحقوق السياسية.

جمعية العهد السوري: بدأ نشاط هذه الجمعية في العهد العثماني، واصبح مقرها دمشق اثناء العهد الفيصلي، ولكنها سرعان ما انقسمت في اواخـر عام ١٩١٨ الى (جمعيـة العهد السوري) و (جمعية العهد العراقي) يعالج كل منهما المسألة القطرية الخاصة به، وكان انقسامها اول انقسام اقليمي لمنظمة قومية شاملة، وكان اكثر اعضاء هذه الجمعية من العسكريين بينهم بعض المدنيين من امثال: (حسني البرازي، حسن الحكيم) وكان موقف هذه الجمعية منسجماً مع موقف (الفتاة).

حزب الاتحـاد السوري: تابع العرب السوريون العاملون في نطاق حزب اللامركزية والهيئات السياسية اللبنانية نشاطهم في القاهرة اثناء الحرب العالمية الاولى، وانتخبوا منهم لجنة مؤلفة من سبعة اشخاص وهم: (رفيق العـظم، الدكتـور عبد الرحمن الشهبندر، فوزي البكري،

الشيـخ كامل القصاب، خالد الحكيم، مختار الصلح، حسن حمادة)، وتقدموا في ربيع ١٩١٨ الى وزير الحربية البريطانية بكتاب طرحوا فيه سبعة اسئلة تتعلق بحدود البلاد العربية وموقف بريطانيا من استقلال العرب واعربوا عن رغبتهم في تطبيق نظام اللامركزية الادارية في المملكة العربية الاتحادية العتيدة، وأعلنوا ثقة العرب ببريطانيا واعتمادهم عليها واستعـدادهم لمناصرتها. وطالبوا مساندة الحكومة البريطانية للشريف حسين، واهابوا بها ان تحقق الاهداف العربية وان تفي بوعودها. ورغم ما في الكتاب من روح الثقة الاتكالية بالانكليز، فانه اثمر تصريحا هو التصريح المعروف بالعهد البريطاني للسوريين السبعة الصادر في ١٦ حزيران (يونيو) ١٩١٨. وقد تسلمه الشهبندر من مدير المكتب العربي البريطاني في القاهرة في ٢٢ حزيران (يونيو)، وهو يحوي اربع مواد تنص على تأييد بريطانيا من جديد، للأماني العربية بالاستقلال والتحرر.

ويصف (جورج انطونيوس) هذا التصريح بأنه أخطر بيان اصدرته بريطانيا لتوضيح سياستها نحو الثورة العربية، وتعود قيمته الى انه يؤكد تعهدات بريطانيا القديمة للعرب بصراحة فاقت كل ما أذيع على الناس في السـابق، وانه يعطي إيضاحاً رسمياً بالمبادىء التي ارتكزت إليها تلك التعهدات، ويمتاز عن اتفاقية الحسين ـ مكماهون بأنه كان مجردا من التحفظات الاقليمية وبعلانيته، خصوصاً انه جاء بعد اتفاقية سايكس ـ بيكو ووعد بلفور.[٣٥]

وبعد الحصول على هذه الوثيقة اجتمع عدد كبير من السوريين في مصر وأسفرت ابحاثهم عن تأليف حزب يمثل جميع الهيئات السياسية في المـطالبـة بحقوق الوطن العامة مع المحافظة على مبادىء كل حزب، ووضعوا برنامجا[٣٦] من أربع عشرة مادة تهدف الى تكوين دولة سورية بوحـدتهـا القـومية من طوروس شمالا الى العقبة جنوبا، ومن الفرات والصحراء شرقا الى البحر المتوسط غربا، على ان تكون مستقلة استقلالا تاما بضمانة جمعية الامم تحكمها حكومة ديمقراطية استناداً الى مبدأ اللامـركـزيـة بقـوانين مدنية، ما عدا ما يتعلق منها باحكام الاحوال الشخصيـة، فانهـا تبقى على ما هي عليـه، ونصّ على حمـاية حقوق

الاقليات، وتعيين مقر الحكومة الاتحادية في دمشق صيفا وبيروت شتاء، كما نصت على وجوب توحيد برامج التعليم وقبول الانضمام الى الوحدة العربية عند قيامها مع المحافظة على (كيان البلاد القومي).

وقد اختير الأمير ميشيل لطف الله اللبناني لرئاسة الحزب، والشيخ رشيد رضا وكيلا، والدكتور شهبندر وسليم سركيس سكرتيرين وانضم اليه رفيق العظم والشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم وغيرهم.

ويمكن القول ان برنامج هذا الحزب هو تطور عن حزب اللامركزية السـابق، وقد تابع نشاطه السياسي في القاهرة، وقد وقف رجاله موقف المعارض من الفتاة والحكومة، وبقي شكل الحكم غامضا في برنامج الحزب.

اللجنة الوطنية العليا: كانت هذه اللجنة مظهراً من مظاهر النشاط الشعبي، فقد تألفت من مختلف الهيئات والاحـزاب في ظروف أزمة الاستبـدال في تشرين الثـاني (نـوفمبـر) ١٩١٩ برئاسة الشيخ كامل القصاب، بعد أن عقدت اجتماعات متعددة في احياء دمشق، وبلغ عدد اعضائها مائتين وخمسين رجلا في كانون الاول (ديسمبر) يمثلون احياء دمشق، وقررت جمع الاموال بنسبة ٢٪ من ثروة كل فرد لمؤازرة الثوار في تل كلخ والقنيـطرة، وأيَّـدها رجال الدين من مختلف الطوائف. وقررت تجهيـز الف متطوع للقتال. واقتصر نشاطها على دمشق وحدها. وكان يمكن ان تتسع هذه الحركة لو أُحسِنتْ قيادتها، وأُحكم تنظيمها، فقد كانت تصرفاتها الشعبية مرتجلة تعتمد على الحماسة الجماهيرية الآنية. وقد سقطت هذه اللجنة بعد سقوط ميسلون مباشرة.

الحـزب الديمقـراطي: وكـان يؤلف الجبهة البرلمانية المقابلة لحزب التقـدم في المـؤتمـر السوري، ويضم ثلاثين نائباً تقريباً من أصحاب الاملاك والمحافظين والمعتدلين، والمعارضين للفتاة والناقمين على الحكومة، ولكن لم يكن في برنامجهم ما يعاكس الفكرة الوطنية عامة. وانفرط عقد هذا الحزب بعد دخول الفرنسيين دمشق.

الحزب الوطني السوري: نشأ في دمشق في ٢٥ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٠ نتيجة للتيارات التي قامت في صفوف جمعية الفتاة، وبسبب

الدعايات الاقليمية، والصراع القائم بين الشباب القائمين على دفة الفتاة، والشيوخ، وبين التقدميين والمحافظين، وهكذا ضم هذا الحزب عند تأسيسه ذوي الوجاهة الموروثة، واصحاب المصالح والاثرياء، حتى عرف باسم (حزب الذوات)[٣٧] وانتسب اليه عدد من مؤسسي الفتاة ومنهم سكرتيره محمد الشريقي، وقد نص نظامه الاساسي على أن تُشرف عليه هيئة ادارية من ستة عشر عضوا وهيئة استشارية من خمسة وعشرين آخرين. وقد اشترك فيه عدد من الحجازيين، اما منهاجه فينص على استقلال سورية الطبيعية، كحزب الاتحاد السوري، ولكنه يرمي ايضاً الى تقوية الصلات القومية والادبية بين الشعوب العربية، والتساوي في الحقوق المدنية والرياسية بين جميع ابناء (الوطن السوري) على اختلاف المذاهب والعناصر، وهو يؤيد المبدأ الملكي الديمقراطي برئاسة الامير فيصل الاول، ويتميز عن الاحزاب الاخرى بالنص على السعي لتحسين النظام الاجتماعي بتأسيس صناديق التعاون الاقتصادي والخيري وتنشيط النقابات التجارية وجمعيات العمال.

وقد اعتمد عليه الامير (الملك) فيصل الاول في خطته المسايرة للفرنسيين، ولكن لم يكن باستطاعة هذا الحزب ان يحول التيار او ان يؤثر في اتجاه الرأي العام الذي استولت عليه فكرة الدفاع والمقاومة.

هذه هي الاحزاب التي قامت في العهد الفيصلي، وقد وجدت هناك احزاب اخرى قليلة الشان والاهمية، منها الحزب السوري المعتدل وقد تألف من بعض السوريين بمصر، وحزب الاتحاد العربي، وحزب سورية الجديدة في اميركا ويضم بعض رجال الجالية السورية، وقد عملت هذه الاحزاب للترويج لانتداب اميركا على البلاد، وفي تموز (يوليو) ١٩٢٠ ظهر حزب في دمشق سمي بالحزب السوري، وكان من اعضائه المؤسسين (محمد كرد علي)، وقد قال عنه في مذكراته ان معظم من دخلوا فيه، كان دخولهم لمقاصد شخصية.

ونلاحظ هنا تعدد الاحزاب في ظرف لا تحتمل فيه مصلحة البلاد الجدل او التنافس او الخصومات، واكثر من ذلك هو ضعف الانضباط الحزبي، حتى لقد يكون المرء منتمياً الى اكثر من حزب واحد في آن.

وخضع السلوك الحزبي للاجتهادات الفردية، ولم تكن في البلاد صحافة حزبيــة بالمعنى الصحيــح، ولكن كانت هناك صحف تنحو ناحية هذا الحـزب أو ذاك، كما كانت تمثل جريدة (المفيد) مثلا حزب الاستقلال وجريدة الدفاع حزب الاتحاد السوري.

النشاط الحزبي خارج سورية ١٩٢٠ ـ ١٩٢٥

انهار العهد الفيصلي الاستقلالي الاول، ودخلت البلاد بعده في معركة طويلة دامت اكثر من ربع قرن. توالت عليها في البداية ثلاثة اشكال من الحكم كان المنـدوب السامي الفرنسي يقيمها، ويهدمها دون ان يكون للشعب رأي في ذلك او اهتمام.

وقد قبلت وزارة (علاء الدين الدروبي) التي تألفت قبل رحيل الملك فيصل التعاون مع الفرنسيين على أساس الانتداب، على الرغم من أن قائد الحملة الفرنسية صرح أمام هيئة الوزارة تصريحا مهينا حَمَّل فيه فيصل الاول مسؤولية الحوادث، وحدد مسؤولية الحكومة وصلاحياتها تحديداً سلبها كل سلطة، وانذر باستعمال القوة عند عجزها عن توطيد الامن.[٢٨]

وبعد حادث خربة الغزالة ومصرع الوزيرين (الدروبي، واليوسف) في ٢١ آب (اغسـطس) ١٩٢٠ حين تصـدى لهما من اتهمهما بالخيانة، تألفت وزارة برئاسة جميل الالشي في ٦ ايلول (سبتمبر) اعقبتها حكومة ترأسها حقي العظم في مطلع كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٠ بلقب (حاكم دولة دمشق)، وكان قد تم تجزئة البلاد الى (دول):

ـ لبنـان الكبـير، حلب، العلويين، دمشق، جبل الدروز ـ بعد سلخ كيليكية وفلسطين وشرق الاردن.

كانت الوحدة هي المطلب الاول للبلاد في ذلك الحين، فأراد الجنرال غورو أن يعدل وضع البلاد باقامة نظام ظن انه يرضي الشعب، فأصدر في حزيران (يونيو) ١٩٢٢ قرارا بانشاء اتحاد بين (دول) دمشق وحلب والعلويـين باسم الاتحاد السوري، واقيم مجلس اتحادي ضم خمسة

اعضاء عن كل دولة من الدول الثلاث، واختير (صبحي بركات) رئيسا للاتحاد منذ ١٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٣.

في هذه الاثناء اقر مجلس عصبة الامم المنعقد في لندن في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٢ صك الانتداب الذي وضعته الحكومة الفرنسية لسورية ولبنان، عملا بمقررات سان ريمو، وحدد الصك سلطات الدولة المنتدبة، ونصت بعض مواده على سن دستـور للبلاد، خلال ثلاث سنوات من تنفيذ الصك، يصاغ بالاتفاق مع السلطات الوطنية، ويراعي مصالح السكان.

واقيمت مجالس تمثيلية لدول الاتحاد بناء على قرار المفوض السامي، حددت صلاحياتها بالنظر في الميزانية والضرائب، والتشريع والادارة، وانتخاب اعضاء المجلس الاتحادي. ولكن لم تكن لها اية سلطة فعلية في الواقع.

وعلى الرغم من احتجاج دمشق واضرابها مدة عشرة ايام، ومقاطعة الانتخابات، فان السلطة اخرجت النواب الذين اختارتهم. وقد بلغ من ازدراء الناس بهم ما حدا بالحكومة الى تعيين شرطيين لمرافقتهم خوفا من فتك الشعب بهم.[٣٩]

ولكن المفـوض السـامي الجـديـد الجنـرال ويغـان، الغى النظام الاتحادي في ٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٤ واصبح صبحي بركات رئيساً للدولة السورية المؤلفة من دمشق وحلب، ورئيسا للحكومة، وفك ارتباط لواء الاسكندرون بدولة حلب السابقة، فأصبح اللواء خارجا عن نطاق دولة سورية. وفي عهد هذه الحكومة نشبت الثورة السورية.

في تلك الفترة بدأت الاحزاب السورية تواجه وضعاً مأساوياً، كما ان النشاط الحزبي لم يعد ممكنا في البلاد، فالهيئات السياسية السورية متواجدة بمصر، والاردن، او في اوربا، وأهم الاحزاب هي:

حزب الاستقلال في الاردن، وحزب الاتحاد السوري في مصر، واللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني موزعة بين هذا البلد وذاك.

حزب الاستقـلال: لجـأ كبار اعضاء هذا الحزب الذي كان الهيئة السياسية الاولى في العهد الفيصلي الى شرق الاردن واستأنفوا من هناك

نشاطهم السياسي، ثم سرعان ما انتقل بعض الاعضاء الى مصر.

حزب الاتحـاد الســوري واللجنـة التنفيـذيـة للمـؤتمـر السوري الفلسطيني: بعد الاحتلال الفرنسي انتقل مركز النشاط الى القاهرة، اذ لم تعد الاحزاب تمارس نشاطها في صفوف الشعب، فانتقل سعيها الى الصعيـد الدولي والسيـاسي باذاعة البيانات والنشرات وكتابة المقالات وارســال الوفـود الى مقـر جمعيـة الامم والاحتجاج على تجزئة البلاد والتنكيل بسكانها.

تحت تأثير هذا الوضـع اضطر الشعب بمجموع فئاته واتجاهاته الى سلوك دروب السياسة السلبية حتى عام ١٩٢٦. وظلت سورية تعيش في جو مضغـوط حبست عنهـا الحريات ومنع تشكيل الاحزاب حتى جاء الجنـرال ويغـان اواخـر عام ١٩٢٤ فحـل القيد قليلاً وافسح المجال للاتصال بالشعب، واستمع الى مطالب الوفود واهمها وفد دمشق الذي عرض عليه مطالب في ثلاث عشرة مادة تطالب بالوحدة السورية، ودعوة جمعية تأسيسية منتخبة انتخاباً حراً لوضع القانون الاساسي، وحصر حق التشريـع بالمجلس النيـابي، وتأمين الحريات الشخصية، وتوحيد القضاء، واعادة ادارة الاوقاف الاسلامية الى المسلمين، ومنع الهجرة الارمنية الى سورية، وجعل التعامل على اساس الذهب. ولكن المفوض السامي نصح رجال الوفود بأن يحققوا الوحدة في انفسهم أولاً ثم يطالبوه بها.

قامت الثورة السورية، كما هو معلوم، وتبدلت الحكومات نتيجة تبدل المفوضين الفرنسيين، وجاء بونسو المفوض السامي الجديد الى دمشق في ١١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٦، وكانت البلاد ما تزال تحت الحكم العرفي، واطلع على مطالب الوفود التي لم تتبدل، وأذاع بياناً بعد عودته من رحلتـه الى باريس في ٢٦ تمـوز (يوليو) ١٩٢٧ اوضح فيه بقالب ديبلوماسي تمسّك فرنسا (بواجباتها) الانتدابية على البلاد، فقطع بذلك سياسة التفاهم التي بدأت في عهد سلفه.

وفي هذه الأثناء ظهرت على مسرح السياسة (الكتلة الوطنية) لتحل محل حزب الشعب الذي تشتت بعد قيام الثورة السورية.

حزب الشعب: هو اول حزب سياسي انشىء في سورية بعد الاحتلال الفرنسي، وذلك بعد اطلاق حرية تشكيل الاحزاب، وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في مذكراته التي اطلعت عليها بصفة شخصية وانا اعـد دراسـة خاصة عنه، ذكر ان الحكومة لم تأذن للحزب بعقد اول اجتماع له الا بعد جهد جهيد في ايار (مايو) ١٩٢٥، وكان القصد من تأليفـه جمـع الصفـوف الوطنيـة في هيئة سياسية تنطق باسمها. اما مؤسسوه فهم سبعة من رجال دمشق بينهم:

الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، فخري البارودي، احسان الشريف، نزيـه المؤيد. وفي يوم الجمعة الخامس من حزيران (يونيو) أُعلن عن تأسيس الحزب رسمياً في دار الاوبرا العباسية بدمشق في جمع ضم ما يزيـد على الف شخص اكثـرهم من المـؤيدين، اذ ان اعضاء الحزب المسجلين لم يكونوا يومئذ اكثر من مائتي عضو.[٤٠]

امـا الهيئـة الادارية للحزب فكانت تتألف من اثني عشر شخصا، ويـرأسهـا رئيس الحـزب المنتخب من قبلها وهو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وكان فارس الخوري نائباً للرئيس والدكتور احسان الشريف امينا للسر، ومن اعضائه:

سعيـد حيـدر، لطفي الحفـار، فوزي الغـزي، جميل مردم، حسن الحكيم. وقد اسست له فروع في حمص وحماه وحلب واللاذقية، وغدا له انصار في صفوف الشعب فأيدته بعض النقابات الحرفية.

برنامج الحزب هو العمل لتأمين استقلال سورية ووحدتها وحريتها، وانتخاب مجلس تأسيسي انتخاباً حراً، لسنّ دستور البلاد وقيام حكومة دستورية تضع اسس العلاقات بين سورية وفرنسا، مع المحافظة على (حقوق ومصالح فرنسا) في وقت واحد، ونصت بعض مبادئه على العمل في سبيل الاصلاح الاجتماعي، وتشجيع الصناعة الوطنية.

أما وسائل الحزب فهي الوسائل والطرق القانونية المشروعة، ولم يكن من خطته المكتوبة، الثورة ولا العنف.

حين قيام الثورة السورية بدأت اسماء الدكتور الشهبندر، وحسن الحكيم، وسعيـد حيـدر تظهر كمشاركين في الثورة منذ بدايتها، وبقي

الشهبندر وسلطان باشا الاطرش يقودانها الى ان غادرا سورية نهائياً في ٢٧ تشرين الثـاني (نوفمبر) ١٩٢٦، غادر الشبندر الى العراق ثم الى مصر، في حين غادر الاطرش الى الاردن.

كانت ظروف الثـورة مجالا لتصدع صفوف الوطنيين وقيام جبهتين ظهرتا في قبول فريق الاشتراك في حكومة الداماد احمد نامي بك (صهر السلطان عبد الحميد) ووضع برنامجها وقيام فريق آخر بوضع ميثاق وطني، كما ظهر مجال الخلاف، خصوصاً، في شأن الاشراف على أموال التبرعات الواردة للثورة، وبسبب رغبة رجال حزب الاستقلال في الانفراد بالتفـاوض مع (دي جوفنيل) باسم الثورة، الحؤول دون تفاوضه مع الشهبندر مهما كانت النتائج، جرى الانشقاق الرسمي، فقامت الكتلة الوطنية، والجبهة الشعبية.

حزب الوحدة: هو الحزب الآخر المرخص في هذه الفترة، وقد ضم لفيفا من رجالات الادارة والموظفين وبين اعضائه المؤسسين: (شاكر الحنبلي، حبيب كحـالة، الدكتـور مصـطفى شوقي)[٤١]، وأشخـاصه اكثر ميلا للتفاهم والموالاة، وكانت تشرف عليه هيئة ادارية من تسعة اشخاص، ويـرأس الحـزب رئيس الهيئـة الادارية. وبرنامجه المكتوب ينص على توحيد سورية تحت حكومة واحدة مستقلة على اساس السيادة القومية ويهـدف ايضـاً الى النهوض الاقتصادي، وتخفيف الضرائب، وايجاد التآلف بين المجموع السوري، وتحسين حال الطبقة العاملة، ولم يكن له نشاط حزبي صحيح، وقد حُلَّ عند نشوب الثورة.

اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني: تابعت مساعيها في القاهرة، فاتصلت بدي جوفنيل المفوض السامي الفرنسي الجديد قبل وصوله الى دمشق، وكادت تتوصل معه الى اتفاق معقول لولا معارضة باقي الاحزاب لهذه الخطوة، وفي اواخر عام ١٩٢٧ انشق مندوبو حزب الاستقـلال عن اللجنة التنفيذية، واتهموا (آل لطف الله) بطلب امارة لبنان، ونشأ عن هذه الحالة ملابسات لم تؤد الا الى اضعاف اللجنة وتفكيكها.

الكتلة الوطنية: وبدأت في هذا الدور تظهر الكتلة الوطنية منذ اواخر

عام ١٩٢٦. فعقب تصريح المفوض السامي (بونسو) في تموز (يوليو) ١٩٢٦ الذي دعا فيه الى التفاهم على اساس مهمة فرنسا الانتدابية، عقد مؤتمر في بيروت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٧ برئاسة هاشم الاتاسي حضره ابراهيم هنانو، الدكتور عبد الرحمن الكيالي، عبد الحميد كرامي، عبد الله اليافي، والامير سعيد الجزائري.

صدر عن المؤتمر بيان رد فيه على المفوض السامي، ودعا الى تحديد نقاط الخلاف واخذ على السلطة ابقاءها القيود على الحريات، واعتبارها سورية شعوباً ودولاً مفككة، ومراعاتها للطائفية، واهمالها مصالح اقتصاديات البلاد، واعلن البيان عن الرغبة في التفاهم،[٤٢] وبدأت الكتلة الوطنية تمارس نشاطها منذ ذلك التاريخ وتألفت وزارة الشيخ تاج الدين الحسني، ودعي الشعب الى انتخابات الجمعية التأسيسية في ١٤ شباط (فبراير) ١٩٢٨.

الحياة الحزبية في فترة النضال الدستوري

كان بيان مؤتمر الكتلة الوطنية في بيروت بمثابة اعلان عن ولادة هيئة سياسية قُدِّر لها أن تمثل أطول دور سياسي في تاريخ سورية الحديث.

اجرى المفوض السامي بونسو مفاوضات مع قطبي الكتلة الوطنية: (هاشم الاتاسي وابراهيم هنانو) سرعان ما انقطعت عندما عَيَّنَ المفوض السامي وزارة الشيخ تاج الدين الحسني (المؤقتة) التي كان من مهامها الاشراف على انتخابات المجلس التأسيسي.

وعد المفوض السامي بأن يتم سنّ القانون الاساسي، بمِلء الحرية ضمن نطاق الاتفاقات الدولية والصكوك المسؤولة عنها فرنسا تجاه جمعية الامم، ولكنه حدد مضمون المعاهدة التي يقترح انشاءها بقوله:

(ان احترام الحقوق والواجبات المتبادلة الناشئة عن صك الانتداب، والتي يمكن تحديدها باتفاقات تُعقد في ما بعد، هو في الحقيقة أساس للرقي السريع الذي يجب أن تبلغ اليه سورية وتساعدها الدولة المنتدبة في تحقيقه بكل قواها).

لقد كان المفوض السامي يريد، دائماً، أن يُظهر سورية بمظهر

القاصر، والدولة المنتدَبة بمظهر الوصي الشرعي. ودعا الاحزاب الى اغتنام هذه الفرصة بقوله:

(وفي الوقت الذي تقيم فيـه فرنسـا للسـوريـين عامة، الدليل على سخائها، والثقة التي تضعها فيهم تحذرهم من تعريض المستقبل المملوء بالوعـود الجميلة، والذي تفتـح امـامهم ابوابه، للاخطار الناشئة عن الاضطرابات والاختلافات او عن جهل الحقائق السياسية).

وصــدر قرار بالعفـو اسْتُثْنِيَ منـه تسعة وخمسون شخصا منهم: (الشهبندر، وسعيد العاص، وسلطان الاطرش، وسعيد حيدر، وشكيب ارســلان، وعـادل ارســلان، وفوزي القاوقجي) وأُلْغِيتْ احكام الاقامة الجبرية عن: (فوزي الغزي، فارس الخوري، سعد الله الجابري).

عقدت الكتلة الوطنية مؤتمرها في دمشق ٢٦ آذار (مارس) ١٩٢٨[٤٢] قررت خلاله دخـول الانتخـابات على الرغم مما في الموقف من غموض وابهام، وبدون ان يتقيدوا بشيء الا تحقيق مطاليب الأمة بوضع دستور يضمن سيادتها ووحدتها، واستقلالها وشكل حكومتها، واسلوب ادارتها وحقوق افرادها، وبررت الكتلة الوطنية دخولها الانتخابات بأن الانتخاب هو من حق الشعب، وان العهد الجديد يفتح بابا للعمل:

(فـالاقدام على تجربة جديدة للتفاهم، والدفاع عن مستقبل البلاد حفظاً لحقوقها، خير من تركه للمأجورين وعباد الانتداب).

واقبـل الشعب على الانتخـابـات، وفازت الكتلة الوطنية فوزا اقلق السلطة الفرنسية. وافتتح المجلس التأسيسي في ٩ حزيران (يونيو) حيث القى فيه (بونسو) خطابا توجيهيا، وتهديديا قال فيه:

(أنـا أعـرف تمـاما رغباتكم وتمنياتكم، فأرجو وانتم تعلمون انكم تجدون دائماً، الاجتماع اليّ سهلاً وان لا تدعوا مجالا لأن تنشأ وتنمو في داخل المجلس حالة قد تذهب بثمرة جهودنا المشتركة). انتُخِبَ هاشم الاتاسي لرئاسة المجلس، وأُلِّفتْ لجنة لانشاء الدستور برئاسة ابراهيم هنانو كان مقررها فوزي الغزي.

اتم المجلس وضــع مشروع للدستــور من مئة وخمس عشرة مادة، صدَّقه الاعضاء بصورة إجمالية، ولكن الفرنسيين اعترضوا في ٩ آب

(أغسـطس) على المواد: (٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ١١٠، ١١٢) وتتعلق هذه المواد بالوحدة السورية، وحقوق رئيس الجمهورية بالعفو الخاص وعقد المعـاهدات، وحلّ المجلس النيابي، والتمثيل الخارجي، وتنظيم الجيش السوري، واعلان الاحكام العرفية، وبعد صدامات بين المفوض السامي والمجلس النيـابي علّق المفـوض السـامي في ٧ شباط (فبراير) ١٩٢٩ اجتمـاعـات المجلس النيابي الذي لم يجتمع بعدها. ومنذ ذلك الحين اضحت الكتلة الوطنية الممثلة لأهداف وتطلعات الشعب في سورية. وقد عرفت دمشق منذ العام ١٩٢٨ حتى ١٩٣٤ ما يزيد على خمسة وعشرين حزباً لم يحتفظ أيٌّ منها بعد ذلك العام بأي كيان سياسي.

كانت الهيئات السياسية في هذه الفترة تسعى الى عقد معاهدة مع فرنسا لا تقل عن المعاهدة التي عُقدَتْ بين بريطانيا والعراق عام ١٩٣٠، وقد مرت المساعي السياسية في هذا الدور الذي أُطلقَ عليه (دور المعاهدة بمرحلتين)، تنتهي الاولى في ٢٢ تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٣٦ جاهدت فيها الكتلة الوطنية جهاداً سلبياً تارة، وايجابياً تارة اخرى لعقد المعاهدة، بينما انقضت المرحلة الثانية في السعي لابرامها.

وفي هذا الدور ظهـر في البلاد نشاط سياسي وشعبي واسع، وقامت احـزاب وهيئـات سيـاسيـة جديـدة، كعصبة العمل القومي، والحزب السـوري القومي الاجتماعي، والحزب الشيوعي، ولكن الكتلة الوطنية هي التي كانت المسيطرة على نفوس الشعب.

قامت الكتلة الوطنيـة بنشـاط واسـع إثر وفاة احد اقطابها الكبار (ابراهيم هنانو) في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥، وقد ظهرت في حفلة ذكرى وفاته بوادر خطة جديدة، اتضحت باعلان الميثاق الوطني الذي يتضمن سبع نقاط في ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٦، وقد نص الميثاق على تحرير البلاد المنفصلة عن الدولة العثمانية من كل سلطة أجنبية، وجمع اراضيها المجزأة في دولة واحدة ذات حكومة واحدة، ورفْض وعد بلفـور، ومقـاومـة الوطن القومي الصهيوني، والسعي لاتحاد الاقطار العربية، على ان لا يحول هذا دون الاهداف الواجب بلوغها في كل قطر، وتأييد الحرية والمساواة للشعب كله على اختلاف طوائفه، واتحاد جميع

قوى الأمة وتوحيد جهودها لتحقيق الأماني القومية، ولذلك تعتبر الكتلة الوطنية تأليف الاحزاب السياسية في هذه الاونة مخالفاً لوحدة الجهود.
وقد نص البند السابع على اعتبار هذه النقاط جوهرية في حياة الأمة وكيانها، وكل مخالفة لها تحرم صاحبها من حق المبادىء الوطنية. وتذكرنا هذه البنود بقرارات المؤتمر السوري في العهد الفيصلي.
وقد تألف للكتلة الوطنية مجلس من سبعة وعشرين عضوا يمثلون المدن السورية منهم: (هاشم الاتاسي، فارس الخوري، جميل مردم، رياض الصلح، سعد الله الجابري، فخري البارودي، فائز الخوري، شكري القوتلي، الدكتور ناظم القدسي، الدكتور منير العجلاني، رشدي كيخيا) وعُقِدَ في الوقت ذاته في بيروت مؤتمر لمندوبي مدن الساحل والاقضية الاربعة، وهي المناطق التي ضُمَّتْ الى جبل لبنان عام ١٩٢٠، رَفَعَ بعد انتهائه مذكرة الى المفوض السامي طالب فيها بالوحدة السورية الشاملة.[٤٤]

جاء اضراب الستين يوما ليكرس حالة جديدة من حالات النضال في سورية، وعلى الاثر استقالت حكومة الشيخ تاج الدين الحسني، والف عطا الايوبي ـ احد اعضاء الوزارة السابقة ـ وزارة جديدة شارك فيها: (سعيد الغزي، ادمون حمصي، مصطفى الشهابي، مصطفى القصيري).
وحدد المفوض السامي الكونت دي مارتيل، الذي كان قد خلف (بونسو) منذ تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٣٣ مهمة الوزارة الجديدة في كتابه الموجه الى رئيسها بأنها:
متابعة المبادىء المنصوص عنها في صك عصبة الامم ضمن نطاق حياة برلمانية تساعد في التوفيق بين فكرة الوحدة واحترام حقوق الاقليات[٤٥]، وطلب اليه العمل على ازالة سوء التفاهم المحتمل بين الرأي العام والسلطة المنتدبة، وتهيئة اعادة الحياة النيابية وسياسة التطور التي تتجه الى ايجاد معاهدة بين فرنسا وسورية مستوحاة من المعاهدة العراقية مع دخول سورية في عصبة الامم.
ذهب وفد سوري الى باريس وعقد سلسلة اجتماعات مع الجانب

الفرنسي دامت خمسة اشهر، تم في النهاية وضع معاهدة صداقة وتحالف، واستقبل الوفد اثر عودته استقبالاً شعبياً. اما مدة هذه المعاهدة فهي خمس وعشرون سنة، وتتألف من تسع مواد اصلية تنص على اقامة سلم دائم بين الدولتين المستقلتين المتمتعتين بالسيادة، وتوحيد سياستهما الخارجية وتبادل التمثيل السياسي، وتبادل المساعدة العسكرية، وان تبرم وتوضع مع ملاحقها موضع العمل يوم قبول سورية في عصبة الامم، اما الاتفاق العسكري فيوضَع بموجبه، الجيش السوري، وامكانات سورية وموقعها الستراتيجي تحت تصرف فرنسا. وتتضمن بعض الملاحق ضم جبل الدروز واللاذقية الى الدولة السورية على ان يوضع لهما نظام اداري خاص.

وبعد فترة اتضح ان فرنسا لم تكن تريد تصديق المعاهدة على الرغم من تساهل المفاوض السوري، فكانت النتيجة عبارة عن فشل الكتلة الوطنية في أول تجربة سياسية خاضتها. واقدمت فرنسا تنفيذاً لسياستها الجديدة على استدعاء المفوض السامي الكونت دي مارتيل، وعينت مكانه (غابرييل بيو) الذي قال في مذكراته ان تعيينه تم على أثر اجتماعات بين موظفي وزارة الخارجية والعسكريين الفرنسيين (بحث فيها ما اذا كان ممكناً الحصول على تعديلات جديدة من حكومة دمشق)،[٤٦] وتكليفه بالسفر الى سورية لوضع تقرير حول القضية في مدة شهرين او ثلاثة. لقد كانت العقلية التي اتى بها السفير الجديد تنبىء تماماً عن اهداف فرنسا الحقيقية. فبمراجعة مذكرات بيو نجده حريصا جداً على (تقاليد فرنسا في الشرق) وهو يرى (أن أقدم هذه التقاليد هي تقاليد مسيحية، وان مهمة فرنسا المحددة من قبل الكرسي البابوي هي حماية الطوائف المرتبطة بالكنيسة الرومانية).[٤٧]

وهو يصف الفكرة العربية في سورية بأنها واقع نفسي قوي يصعب تحديده للفكر الغربي. وانه لم يكن لمقررات ٣١ كانون الاول (ديسمبر) بنظره، الا قيمة رمزية، ما دام الاحتلال العسكري الفرنسي قائماً.

وقد اوضح سياسته القائمة على أساس الانتداب ومهمة فرنسا في الشرق في بيان أذيع من بيروت في ١١ كانون الثاني (يناير)، وكانت

سوريــة في هيــاج، والمـظاهــرات الصاخبة قائمة بتحريض من الكتلة الوطنيــة، وقــد أغلقت دمشق اسواقها يوم وصوله اليها في ١٨ كانون الثاني حتى قال عن هذا الاستقبال بأنه «متقن الاخراج فلم يظهر أحد في الشوارع التي مرّ بها موكبي، ولم يكن يسمع الا صوت الطبول وصوت حوافر الخيل، حتى بدا لي كأني أقود حملة من الفرسان للقاء عدو غير منظور، ولم يظهر في الاستقبال الذي اقيم في دار المندوبية سوري واحد، فقد كانت الكتلة الوطنية تريد ان تثبت لي انها تستطيع أن تخلق فراغاً حول المفوض السامي».[٤٨]

وظلت الحكومة السورية تتمسك بالمعاهدة التي وقعت، وأعلن شكري القوتلي موقف الكتلة الوطنية في مجلس النواب ١٦ كانون الثاني (يناير) فقال:

(ان الكتلة الوطنيــة اخــذت على عاتقهــا مسؤولية هذا الدور وهي ماضية في سياسة التحالف الى النهاية، وهي تعلن موقفها بلا تردد على لسان الحكومات التي تتولى الكتلة الوطنية مساندتها).

ولكن الموقف لم يعد في صالح الكتلة الوطنية لأن الرصيد الشعبي الذي كانت تتمتع به بدأ ينفض عنها، ولم يعد الناس يؤمنون بسياسة التفاهم مع فرنسا، حتى أن وزير المالية لطفي الحفار رفع استقالته الى رئيس الجمهـوريــة في ١٦ كانون الثاني (يناير)، ودعا فريق من نواب الكتلة الوطنية الى وحدة الصفوف، وأوصوا الحكومة بالتفاهم مع الدكتور الشهبندر والبقاء في الحكم الى ان يخرجها منه الفرنسيون بالقوة.[٤٩]

أما آثار كل هذا فتمثلت في قرار الغاء نظام الطوائف الدينية ذي الرقم (٦٠ ل.ع.) فابلغت الحكومة السورية، المفوض السامي أن قراراته لن تنفذ، ما لم تقترن بموافقة البرلمان، وطالبت بتسليم صلاحيات المندوبية، ولكن السلطة الفرنسية رفضت هذه المذكرة واعادتها بواسطة المندوب هوتكلوك والجنــرال كيللر، الذي حرص بيو على ارساله ليكون للجواب معنى الانذار:

(فــالشرقيون يفكرون بطريق الصور المجسمة، وكان من الملائم ان تفرض صورة السيف على ذهن جميل مردم بك)[٥٠].

فاستقال رئيس الحكومة جميل مردم بك في ١٨ شباط (فبراير) (لتعذر الاستمرار في العمل) وألفت الكتلة الوطنية حكومةً ثانية في ٢٣ منه برئاسة لطفي الحفار، ولكنها استقالت قبل ان تتقدم الى المجلس النيابي الذي كان حينئذ في عطلة. ولم تستمر في الحكم اكثر من عشرين يوماً بسبب الانتقاص من سلطة الحكومة في جبل الدروز واللاذقية والجزيرة.

جرت هذه الأحداث أثناء سيطرة الكتلة الوطنية على الساحة الشعبية في سورية، وحين بدأ التعثر يرافق خطواتها ظهرت (الهيئة الشعبية) التي قامت في الأصل على أنقاض الجبهة الوطنية المتحدة، وانضم اليها عدد من السياسيين منهم: (ذكي الخطيب، ومنير العجلاني)، أما رئيسها الدائم فهو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر. ولم يكن برنامجها يختلف عن برنامج الكتلة الوطنية، أما موقفها من حكومات الكتلة فكان موقف المعارض الناقد، اذ لم ترَ في المعاهدة التي تبنتها الكتلة الوطنية ما يكفي لتحقيق أماني البلاد، وكانت تغذّي الخلاف بين الحزبين الخصومات الشخصية القديمة.

على أن الهيئة الشعبية كانت تستمد قوتها، حقيقية، من شخصية الدكتور شهبندر. إذ أنه عندما عاد من مصر في أيار/مايو ١٩٣٧ بعد العفو عنه، هبت دمشق بأجمعها لاستقباله، وكان بين المستقبلين رجال الوفد السوري ولقبه يومئذ فارس الخوري بالزعيم الأوحد.

كانت للشهبندر مكانة شعبية، ولكن لم يكن له حزب سياسي فعال، فقد تفكك الحزب الذي أسسه عام ١٩٢٥ بعد الثورة، ولم تكن الهيئة الشعبية قوية يمكن الاعتماد عليها، ولكن كانت للرجل أفكار ومبادىء سياسية تميزه عن رفاقه الذين أسسوا الكتلة الوطنية، ونستطيع أن نتبين هذه الأفكار من كتابه (القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي) وهو عبارة عن مجموعة مقالات كان قد نشرها في الصحف المصرية.

وقد سبق لي ان اطلعت على مذكراته وانا اعد كتاباً عنه تحت عنوان (كان للشعب زعيماً) ويمكنني ان الخص افكاره بأنه كان يرى ان سورية بحاجة الى التجانس، وان (حكومة النخبة المختارة هي المخرج الوحيد

لصهـر الجماهير العربية وجعلها متجانسة) وهذه المرحلة ضرورية في الفترة الانتقالية، حتى تتهيأ البلاد للحكم الديمقراطي الصحيح. وان الشكل النيابي القائم على الانتخاب الحر هو اصلح اشكال الحكم للبلاد العـربيـة في ظل الاستقلال المقيد بالانتداب او الحماية، ولكن الحكم الاستبدادي العادل هو اصلح لها حيث هم يتمتعون بالاستقلال التام. وهو يبرر رأيه بقوله:

(لقد أيدنا الحكم الاستبدادي العادل للقطر العربي المستقل لأننا اهتممنا بانقاذ مجموع الشعب اكثر مما اهتممنا بانقاذ الفرد).

اما عوامل التجانس في الأمة عنده فهي ان يكون لها (بقعة ارضية منضمة) و (وحدة في النسب والتقاليد العامة)، أما الوحدة الدينية فليس لها، عنده اهمية في التجانس القومي كالوطنية. وبناء على هذه القواعد، وعـلى الرغم من ايمـانــه بالقـوميـة العربية فهو يعتقد أن من الخطأ الاجتمـاعي العـظيم (التـوهم) بامكـان تأليف دولة عربيـة مركـزيـة ديمقراطية، وهو يؤيد الحلف العربي، ولكنه يشترط ان يكون على اساس (قدرة الثقافة العربية بأوسع معانيها على ان تضم تحت جناحيها جميع العناصر التي اكتسبت التماثل والتجانس بفعلها، وأما ما لا تتسع له معدتها فيكون خارجا عن حوزتها)، ويرى امكان اقامة اتحاد مع العراق لوجود التجانس.

ويجهـر الشهبنـدر ببعض الآراء الاجتمـاعية الجريئة فيحمل على استغلال الدين وحجاب المرأة.

ولما عاد الشهبندر الى دمشق زار مكتب الكتلة الوطنية في ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٣٧ وخطب فيه:

(انني أرمي الى توحيـد الصفـوف لا أريـد الاحـزاب ولا أُعنى بالشخصيات)[٥١] ففهم رجال الكتلة انه يعرض بالكتلة الوطنية، فرد عليه فارس الخوري، داعيا اياه الى الاشتراك مع الكتلة الوطنية في تحمل المسؤوليات.

ولما لم يكن لهذه الدعوة أثر ايجابي فان الشهبندر عندما عاد ثانية من مصر نشر بيانا في آخر عام ١٩٣٧ اتهم فيه رئيس الحكومة بالتساهل

مع الفرنسيين في قضية الاسكندرونة، مما ادى الى اعتقال بعض اعوانه وتفاقم الخلاف.

وهكذا انقضت الفترة التي تولت فيها الكتلة الوطنية السعي الى عقد معاهدة مع فرنسا تحدد علاقات الطرفين دون تعاون الفئة الحاكمة والفئة المعارضة، رغم اتفاقهما منذ البدء على مبدأ التعاقد واختلطت الخصومات التي غذاها الطرفان معا، بالخلاف السياسي. ولم يكن لهذه المعارضة نتيجة ايجابية. فلم يفد تأييدها لحكومة نصوح البخاري شيئاً. كما انها لم تستطع ان تتولى أمور البلاد بعد انسحاب الكتلة الوطنية.

عصبة العمل القومي:

وقفت (عصبة العمل القومي) في هذه المرحلة الثانية من فترة المعاهدة، ايضا، موقف المعارض المتطرف. وقد كانت ضعيفة في صفوف الشعب وقوية في صفوف المثقفين والطلاب في دمشق وحمص والاسكندرونة. وقد سبب موقفها من المعاهدة انشقاقا في صفوفها عام ١٩٣٦ فانسحب امينها العام صبري العسلي وانضم الى الكتلة وفاز في الانتخابات في قائمتها.

وقد وقفت العصبة منذ البدء ضد مبدأ التعاقد. فكانت تنظم المظاهرات الاحتجاجية ضد الحكومة لموقفها المتساهل امام الفرنسيين، وخصوصاً بعد اتفاقيات ١٩٣٧، ١٩٣٨. ووالت اصدار النشرات وارسال البرقيات الى المراجع المسؤولة والدولية شارحة مسألة لواء الاسكندرون.

ولقد كانت العصبة نشيطة جدا في الاسكندرونة ومثلت وحدها الجانب العربي الشعبي ضد مؤامرات فرنسا والاتراك، ولم تكن تثق بوفد الكتلة الوطنية الذي فاوض الفرنسيين، ولا بحكومة جميل مردم بك فطالبت بأن يتألف الوفد المفاوض في فرنسا من شكري القوتلي وزكي الارسوزي بدلا من عبد الرحمن الكيالي وحسن جبارة.

وقد كشفت اللجنة المركزية لعصبة العمل القومي بدمشق في بيان وجهته في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٧ عن الاسس المقترحة للنظام

الخاص باللواء في جنيف. وطالبت المجلس النيابي بالتراجع عن تصديق المعـاهـدة (اذا كان ثمنهـا ابتلاع ارض جديدة من الوطن). ونظمت العصبة في انطاكية في ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٧ مظاهرة كبيرة نادت بعروبة اللواء امام المراقبين الدوليين، كما قامت مظاهرات مماثلة في دمشق في ٢٦ منه ورفعت اللجنة الى عصبة الامم في ١٥ شباط (فبراير) عريضة موقعة من العرب والأرمن وهم يمثلون اكثرية السكان، برفض اتفاقية جنيف وطلب المحافظة على اللواء ضمن الدولة السورية، بالابقاء على التشريع السوري فيه واعتبار العربية وحدها هي الرسمية. وكانت المظاهرات التي حركتها العصبة هي وحدها التي اشعرت جمعية الامم في جنيف برفض السوريين للاتفاق. وقد تسبب ذلك في اعتقال كثيرين منهم في الاسكندرون واصطدامهم بالاتراك اصطدامات دامية.

وقد القت عصبة العمل القومي مسؤولية مصير اللواء على سياسة التعـاقـد، وعلى موقف الحكومة السورية (جميل مردم) الاستسلامي، وتهاونها في تنوير الرأي العام بالحقائق وايهامه ان البلاد اصبحت مستقلة.

وعندما أُعلن نظام الانتخاب لتقرير مصير اللواء، وهذا النظام نصَّ على ضرورة معـرفـة النـاخب للقـراءة والكتابة، جد شباب العصبة في تشجيع العرب على تسجيل مكتوميهم (غير المقيدين في دوائر النفوس) وتعليم الاميـين منهم، ولكن السلطة الفرنسية كانت عازمة على تنفيذ خطتها فتسلمت جميع السلطات الادارية والسياسية والقضائية ورفعت العلم الفرنسي بدل العلم السوري على الدوائر، خلافاً لاتفاقية جنيف نفسها.

وقد خاضت العصبة الانتخابات، ورشحت الكتلة الوطنية مرشحين، لمنافسة العصبة لم يكونوا فوق الشبهات، وقد ظهرت خيانتهم في ما بعد بانسحـابهم من مجلس النواب السوري وانضمامهم الى مجلس نواب (دولة هاتـاي) ثم الى مجلس النـواب التـركي. ولم تستـطع العصبة الصمـود امـام الضغط الفرنسي والتركي ومنافسة الكتلة الوطنية لها، فانسحبت من الانتخـابات ونشرت بيانا اعلنت فيه انسحابها (لكي لا

تعطي هؤلاء النواب سلاحاً شرعياً يحاربون فيه تحت قبة برلمان الوحدة السورية واستقلال الوطن السوري).[٥٢] ولكن الحوادث توالت بسرعة في اتجاه مرسوم، فقد فُصِل اللواء عن سورية واعلنت (دولة هاتاي) في ٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٨ وضم اللواء الى تركيا بعد اتفاق بينها وبين فرنسا وبتأييد بريطانيا. فلما وصل المفوض السامي الفرنسي غبرييل بيو الى سورية في اوائل عام ١٩٣٩ كان مدعوا للتنفيذ.[٥٣]

وكانت سورية هي التي دفعت ثمن المساومات الاستعمارية، ولم يكن من مجلس النواب السوري الا ان سجل فقط عدم موافقته على ضم لواء الاسكندرونة الى تركيا[٥٤]، دون أن يتخذ اية تدابير اخرى.

الحزب الشيوعي:

في هذه المرحلة ظهر الحزب الشيوعي كمنظمة لها كيانها ودورها على مسرح الحياة الحزبية في سورية. وقد دخلت الشيوعية سورية مع الثقافة الغربية بتزايد اتصال العرب بالفكر الأوروبي، ولقيت قبولا كعقيدة فلسفية ومذهب سياسي لدى فريق من المثقفين السوريين، كما لقيت صدى لدى فريق من الناس لتلبيتها الحاجات المادية الملحة في ظروف اقتصادية كان يزيد المنتدبون في حراجتها. ووجد آخرون في هذا الاتجاه حلا من الحلول المطروحة، للتخلص من الانتداب الفرنسي.

واذا كان من الصعوبة بمكان الاحاطة بتأريخ الحياة الحزبية في سورية واستخلاص الحقائق عن نشاط الاحزاب، فان تاريخ نشاط الحزب الشيوعي يبدو اكثر صعوبة، اذ ان نشاط الحزب في السر كان اوسع مدى من نشاطه في العلانية.

في المرحلة التي انقضت حتى عام ١٩٣٩ كان للحزب دور ظاهر على مسرح الحياة السياسية تجلى في موقفه من المساعي التي بُذِلتْ لعقد معاهدة مع الدولة المنتدبة، وفي مساهمته مع الاحزاب الشيوعية الاخرى في الوقوف ضد الفاشية والنازية.

امـا في موقفهم من عقد المعاهدة، فقد استفادوا من موقف الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان اكثر الاحزاب الفرنسية الحاكمة آنئذ، تأييداً لعقد المعاهدة السورية ـ الفرنسية، وهي المطلب الرئيسي للكتلة

الوطنية آنذاك، لكسب عطف الشعب على الحزب الشيوعي السوري، وقد عمل خالد بكداش الامين العام للحزب الشيوعي على تقريب وجهات النظر بين الوفد السوري المفاوض في باريس وبين العناصر اليسارية الفرنسية التي كانت تتمتع بنفوذ واسع في حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية. وكان من نتيجة هذه المساعي دعم موقف الوفد السوري المفاوض هناك.

واصدر الحزب في هذه الفترة جريدة جريدة تنطق باسمه في بيروت (صوت الشعب) وكان تأسيسها ذا اهمية بالغة في حياة الحزب، فهي لم تقتصر على جمع الحزب في الميدان الفكري بل ان شبكة أنصاره ومراسليه من ممثلي المنظمات المحلية، اصبحت تكون هيكل الحزب.

وعنـدمـا نشبت الحـرب العالمية الثانية أيد الحزب تدابير السلطة الفـرنسيـة المتخـذة في ظروف الحـرب للمحـافظة على الأمن ولتأمين التموين، ومع ذلك فقد صدر قرار في ٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ بحل الحزب الشيوعي في سورية ولبنان والمنظمات التابعة له وبمكافحة نشاطه.

وهكذا رأينا الحياة الحزبية في الفترة الواقعة بين ١٩٣٣ ـ ١٩٣٩ كيف كان النشـاط مبـذولا لعقد معاهدة مع فرنسا، وقد سيطرت فيها الكتلة الوطنيـة منـذ العام ١٩٣٥ على اكثرية الشعب، واستفادت من تأييدها المطلق لعقد معاهدة عام ١٩٣٦، ولكنها لم تحترم الرأي العام ومشاعره فكان ان خدعها الاجنبي واستغل تساهلها. وقد فقدت الكتلة الوطنية بعد هذه التجربة قوتها.

أمـا المعارضة البرلمانية والشعبية فقد كانت معارضة اختلطت فيها الخصومات الشخصية بالخلافات السياسية، ولم ينجح الشهبندر في اقامة تنظيم حزبي يسانده، وقد انضم اليه كل من خاصم وعادى الكتلة الوطنية. أما دور الاحزاب الاخرى فقد كان محدودا في مجرى الاحداث، وانتهت عصبـة العمل القومي بانتهاء هذا الدور، اما الحزب السوري القومي الاجتماعي فقد استمر نشاطه بفتور، واستطاع الحزب الشيوعي ان يمارس نشاطا فعالا.

كانت استقالة الرئيس هاشم الاتاسي إيذاناً بانتهاء العهد الوطني ولم

تثمر مساعي رئيس مجلس النواب فارس الخوري للمحافظة على الحياة الدستورية ومحاولة انقاذ البلاد من الحكم المباشر، فقد سارع المفوض السامي الى اتخاذ القرار ١٤٤ ل.ع في ٨ تموز (يوليو) بناء على صلاحياته كممثل للانتداب الفرنسي، بايقاف تطبيق الدستور، وحل المجلس النيابي وتأليف حكومة موظفين من مديري مصالح الدولة برئاسة مدير الداخلية العام «بهيج الخطيب» وباشراف المفوض السامي.

مصرع الشهبندر

اجتازت الحياة الحزبية في هذا الدور مرحلتين:

الاولى بين ١٩٣٩ ـ ١٩٤٣ وفيها بقيت الحياة الحزبية مشلولة في البلاد، ولم يسمع فيها الا صوت بعض رجال السياسة والاحزاب.

والمرحلة الثانية بدأت منذ العام ١٩٤٤ فظهرت المعارضة البرلمانية، ونشأت بعض الاحزاب الاخرى.

المرحلة الاولى ١٩٣٩ ـ ١٩٤٤:

خضعت سورية خلال هذه المدة التي ساد فيها جو الحرب العالمية الثانية الى (الحكم العسكري الفرنسي المباشر)، واكرهت الاحزاب على الامتناع عن ممارسة النشاط الحزبي تحت طائلة القوانين العرفية، الى ان احدث الفرنسيون تغييراً في شكل الحكم في ٢٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٤١ عندما اعلن الجنرال (كاترو) انتهاء الانتداب، واستقلال سورية وسيادتها، على ان يضمن ذلك بمعاهدة تقرر فيها نوع العلاقة بين سورية وفرنسا، وفي عهد رئاسة الشيخ تاج الدين الحسني ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٤١ ـ ٢٥ آذار (مارس) ١٩٤٣ تألفت ثلاث حكومات برئاسة حسن الحكيم، وحسني البرازي، وجميل الالشي، انتهت الاوليان منها بالاقالة، بسبب خلاف رئيسهما مع رئيس الجمهورية، وقد اشترك في هذه الحكومات خليط من رجال الاحزاب السابقة التي قامت في فترة المعاهدة، بعضهم من رجال الكتلة الوطنية، والبعض الآخر من الجبهة الشعبية (الشهبندر)، وبعد وفاة الشيخ الحسني في ١٥ كانون الثاني

(ينـاير) ١٩٤٣ اعيد تطبيق الدستور في ٢٥ آذار (مارس)، وعين عطا الايوبي رئيساً للدولة والحكومة فألَّفتْ حكومة انتقالية للاشراف على الانتخابات.

خاض رجال الكتلة الوطنية، بأشخاصهم وليس على اساس حزبي، الانتخابات في تموز (يوليو)، واجتمع المجلس النيابي ولم يكن ممثلا فيه اي حزب من الاحزاب، فانتخب شكري القوتلي في ١٧ آب (اغسطس) رئيسـا للجمهـوريـة وهو احد اقطاب الكتلة الوطنية، واستمر المجلس النيابي يمثل اشخاصا منفردين الى عام ١٩٤٤ عندما بدأت تظهر بوادر المعارضة البرلمانية، الى ان قامت الاحزاب السياسية في عام ١٩٤٦.

في هذه الفتـرة وقعت حوادث مهمـة كانت ذيولا للنشاط الحزبي في الفترة السابقة، تمثلت في ما رافق اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر من المناوشات الحزبية، وفي مساعي شكري القوتلي لاعادة الاوضاع الدستورية.

فوجىء الناس بالحادث في ٦ تموز (يوليو) ١٩٤٠، وهو اول حادث اغتيال سياسي في سورية، وقد اعتبر (مدبرا) من الكتلة الوطنية بسبب الخصومة السياسية انتقاما لها ممن كان العامل الاول في تحطيمها.[٥٥] وقـد اتهم النـائب العـام لدى المجلس العسكري الذي انعقد في بناء المجلس النيابي للنظر في القضية، في قرار الاتهام الصادر في ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٠ بحق اقطاب الكتلة الوطنية: (جميل مردم، لطفي الحفـار، سعـد الله الجـابري) لكونهم (حرضوا على ارتكاب الجريمة بواسـطة مبلغ من المال والوعود والدسائس والحيل وبذلك اشتركوا في جريمة القتل عمدا)[٥٦] وجاء في القرار نفسه: (ان المتهمين لم تكن غايتهم الوحيدة مقتل الدكتور شهبندر فحسب، بل كانوا يرمون من وراء ذلك الى ايقاد نار الفتنة بين الاحزاب ليتمكنوا بعدئذ من الوصول الى بغيتهم، وهي نشوب اضطرابات تؤدي الى حرب اهلية). وقد اضطر رجال الكتلة الوطنيـة الى الفـرار للعراق، واتخذت المحاكمة شكل مخاصمة حزبية، فتولى محامو الجبهة الشعبية الادعاء الشخصي، وكلف الكتلويون عددا من اشـهر محامي لبنان بالدفاع عنهم، وشغلت البلاد والصحافة والرأي

العـام وانقسم النـاس بين فريقـين، ووقعت اصـطدامات بين انصار الحزبين، وتعرض محامو الكتلويين لاعتداء وقع عليهم في ٩ كانون الاول (ديسمبـر) امام فندق (الاوريان بالاس)، واتهم محامو الدفاع رئيس مجلس المديرين (بهيج الخطيب) بتلفيق التهمة على موكليهم، وانه كان يرمي بذلك الى القضـاء على الروح الوطنيـة حتى تضمحل الاحزاب، ويعتري البلاد الوهن ليظل هو على رأس الحكم. ثم طرأت على المحاكمة تبدلات مفـاجئـة قلبت المـوقف رأساً على عقب عندما اعترف مرتكب الجريمة بأنه هو القاتل، وانه ارغم على توقيع افادات باتهام رجال الكتلة الوطنية، مما اضطر النائب العام الى تلاوة مرافعة ثانية في ٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤١ مؤكدا ان الجريمة كانت نتيجة نظرة دينية متزمتة، ورفع الاتهام عن اقطاب الكتلة الوطنية فعادوا من العراق في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٤١.

كان شكـري القـوتـلي في تلك الفترة يمارس نشاطا منفردا، وكانت استقالته من حكومة الكتلة الوطنية في ١٩٣٧ (وزيرا للمالية في حكومة جميل مردم) ووقوفه موقف المتطرف آنئذ امام الفرنسيين، ثم نجاته مما اصاب الاقطاب الآخرين في قضية اغتيال الشهبندر، كل هذا مهد له ان يكـون محور النشاط السياسي خلال الحرب، وكان قد بدأ مع المفوض السامي (بيو) باتصالات لتسوية اوضاع البلاد في عام ١٩٤٠، انقطعت عندما وقع حادث اغتيال الشهبندر، وفي آذار (مارس) ١٩٤١ نشر القوتلي بيانا طالب فيه باعادة حقوق البلاد دون مماطلة أو تسويف، فاستقبل الشعب هذا البيان بالاضراب مؤيدا.

وكان القوتلي يسعى لاعادة الاوضاع الشرعية كحد ادنى خلال فترة الحـرب، ولكن السلطة المنتـدبـة، عمـدت الى حل آخـر، فأنهت حكم المديرين، وتألفت حكومة برئاسة خالد العظم منحت سلطة التشريع بدون موافقة المفوض السامي. ولكن الشعب بقي مصراً على الاضراب الذي كان يغـذّي شدته سوء الاوضـاع الاقتصادية بسبب الحرب. ولم ينته الاضراب الا عندما وجه القوتلي نداء طالباً حله.

ودعـا منـدوب الجنـرال ديغول، الجنرال كاترو، هاشم الاتاسي الى

العودة الى منصب رئاسة الجمهورية، ولكنه رفض لانه قيّد العودة ببعض الشروط، فعيّن الشيخ تاج رئيساً وأيد هذا التعيين فيما بعد خمسون نائبا من المجلس المعطل.(٥٧)

في الانتخـابـات التي جرت عام ١٩٤٣ فاز رجـال الكتلة الوطنيـة بالاكثرية الساحقة، وانتخب شكري القوتلي لرئاسة الجمهورية، بعد ان رفض هاشم الاتـاسي ترشيـح نفسه للرئاسة. وانتخب فارس الخوري لرئاسة المجلس النيابي، وألّف سعد الله الجابري الوزارة، والقى رئيس الجمهورية خطابا قال فيه:

(ان اعادة الاوضاع الدستورية الى هذه البلاد، ان هي الا مقدمة لتنفيذ شروط الاستقلال، والتمتع بمزاياه)، وقد اعتبر هذا الدور عودة لعهد الكتلة الوطنية، عندها بدأت المعارضة تظهر.

وأخذت الاحزاب تعود الى نشاطها، خصوصاً، بعد الانتخابات التي جرت عام ١٩٤٧ وظهـر في بادىء الامـر حزبان هما: الحزب الوطني، وحزب الشعب، ثم ظهرت فيما بعد الكتلة الجمهورية.

اما الحزب الوطني فقد قام على سمعة الكتلة الوطنية السابقة بعد ان تصدعت اركانها، فقد حاول بعض رجالها الذين شاهدوا انفراط عقدها بعد انشقاق الكثيرين عنها، أن يجددوا كيانها بمظهر جديد فدعوا الى مؤتمر عقد في نيسان (ابريل) ١٩٤٧ في دمشق انبثق عنه الحزب الوطني واختير لرئاسته سعد الله الجابري ثم خلفه بعد وفاته نبيه العظمة، ولكن هذا ما لبث ان استقال عام ١٩٤٨ فاسندت الرئاسة الى الدكتور عبد الرحمن الكيـالي، والامـانة العامة الى صبري العسلي، ومن جهة ثانية اجتمع نواب الكتلة الدستورية ومؤيدوها في مؤتمر في لبنان عام ١٩٤٨ انبثق عنـه حزب الشعب، وكان مؤسسو هذا الحزب كمؤسسي الحزب الوطني من اعضاء الكتلة الوطنية السابقة. وقد انقسموا عن الكتلة عام ١٩٣٩ على اثر الحوادث التي مرت في ذلك العام.

وبـدأ صراع الحزبين يأخذ اشكالا متباينة كانت تصل احيانا الى القـطيعـة والصدام، ولعل من ابرز الاحداث التي مرت ظهور جماعة (الاخـوان المسلمـون) ودخـولهم المعترك السياسي، وقد انقضت هذه

المــرحلة بانقـلاب ٣٠ آذار (مــارس) ١٩٤٩ حيث قام حسني الزعيم بانقلابه وادخل سورية في دوامة الانقلابات العسكرية.

هوامش الفصل الثاني

(١) جورج انطونيوس «يقظة العرب» الطبعة الانكليزية ص ٧٩
(٢) التفاصيل عن هذه الجمعية مستقاة من المؤرخ العربي الاستاذ عجاج نويهض.
(٣) الصحافي السوري امين سعيد في كتابه (الثورة الكبرى، المجلد الاول ص ٧) مصر ١٩٣٤.
(٤) القائد العام للجيش الرابع العثماني، رئيس الديوان العرفي ص ٧ الاستانة ١٣٣٤هـ.
(٥) انطونيوس يقظة العرب ص ١١١، وامين سعيد: الثورة العربية الكبرى الجزء الاول ص ٦، وقد اضاف بان عدد النواب سبعين لا ستين كما روى انطونيوس.
(٦) القائد العام للجيش الرابع العثماني: ايضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المشكل بعاليه ص ٤٥ الاستانة مطبعة الطنين ١٣٣٤هـ.
(٧) انطونيوس يقظة العرب ١١٧.
(٨) عزة دروزة: حول الحركة العربية ص ٣٥
(٩) ايضاحات عن المسائل السياسية ص ٤٨
(١٠) ايضاحات عن المسائل السياسية ص ٧١
(١١) هذه الرسالة اطلعني عليها المناضل العربي عارف النكدي ـ لبنان عبي ـ.
(١٢) الرسالة محفوظة في مكتبة عجاج نويهض.
(١٣) محمد طاهر العمري الموصلي: تاريخ مقدرات العراق السياسية المجلد الاول ص ١٦٧ بغداد ـ المطبعة العصرية ـ ١٩٢٥.
(١٤) انطونيوس: يقظة العرب ص ١٢٢.
(١٥) امين سعيد: الثورة العربية الكبرى ص ٩.
(١٦) عزة دروزة: حول الحركة العربية = ١:٣٨.
(١٧) من حديث للزهراوي نشر في جريدة الطان الفرنسية ١٠ حزيران ١٩١٣، نقلا عن مجموعة الطان في مكتبة الجامعة الاميريكية.
(١٨) ساطع الحصري: محاضرات في نشوء الفكرة القومية ٢٠١ ـ ٢٠٢.
(١٩) العمري: تاريخ مقدرات العراق السياسية ١:١٧١.
(٢٠) مجموعة جريدة الطان الفرنسية، الجامعة الاميركية.
(٢١) العمري: تاريخ مقدرات العراق السياسية ١٧٥.
(٢٢) عزة دروزة: حول الحركة العربية ١:٢٦.
(٢٣) انطونيوس: يقظة العرب ١٢٦.
(٢٤) المعلومات عن جميعة العهد مستقاة من حديث خاص افضى به إليّ الاستاذ اميل الخوري رئيس تحرير جريدة الاهرام وسفير لبنان في الفاتيكان في ما بعد.
(٢٥) و (٢٦) عزة دروزة: حول الحركة العربية ١:٢٨.
(٢٧) هذه المعلومات عن العربية الفتاة مستقاة من احاديث خاصة مع كل من عزة دروزة، عجاج نويهض، اميل الخوري، عارف النكدي، عزيز علي المصري.
(٢٨) انطونيوس: يقظة العرب ١٧١.
(٢٩) و (٣٠) عزة دروزة، العمري مقدرات العراق السياسية ١:١٧٩ (نص الرسالة).
(٣١) العمري: مقدرات العراق السياسية ١:٢٠١.
(٣٢) ساطع الحصري: يوم ميسلون ٢٧٠

(٣٣) عزة دروزة الحركة العربية ١٢٨:١ ـ ١٢٩ جريدة الدفاع: وقائع الجلسة سنة ١٩٢٠ العدد ١٥٢

(٣٤) انطونيوس: يقظة العرب هامش ص ٣٢٢

(٣٥) انطونيوس: يقظة العرب ٢٩٩

(٣٦) امين سعيد: الثورة العربية الكبرى ٤١:٢ مبادىء الحزب.

(٣٧) جريدة الدفاع العدد ١٥ سنة ١٩٢٠

(٣٨) وجيه الحفار: الدستور والحكم، بيان القائد غوابيت ١٦٠ دمشق مطبعة الانشاء ١٩٤٨

(٣٩) امين سعيد: الثورة العربية الكبرى ٣٣٥:٣ ـ ٣٣٩

(٤٠) محمد سعيد العاص: صفحة من الايام الحمراء ص ٢٦ عمان ١٩٢٨

(٤١) النشرة الرابعة من نشرات حزب الشعب السوري: الصحائف السوداء ٣٠ و ٣٥ مصر ـ شباط (فبراير) ١٩٢٨ العاص: صفحة من الايام الحمراء ١٩٢٨ ٤٨ و ٥٥

(٤٢) امين سعيد: الثورة العربية الكبرى ٥٣٢ ـ ٥٣٦ نص البيان.

(٤٣) عبد الرحمن الكيالي: رد الكتلة الوطنية على بيان المفوض السامي ٦٦ ـ ٦٧

(٤٤) مؤتمر الساحل والاقضية الاربعة: ٤٩ ـ ٥٢ كراس صغير طبعه المؤتمر في بيروت ١٩٣٦

(٤٥) بيان الجبهة الوطنية الى الامة العربية: نص البيان ٣

(٤٦) غابرييل بيو: سنتان في المشرق (١٩٣٩ ـ ١٩٤٠) ص ١١٢

(٤٧) المصدر السابق ٣ كانون الثاني ١٩٥٤

(٤٨) المصدر السابق ١٩٥٤

(٤٩) مذكرات المجلس النيابي جلسة ١٦ كانون الثاني ١٩٢٩

(٥٠) غابرييل بيو «سنتان في المشرق» ١٩٥٤

(٥١) خباز حداد: فارس الخوري ٩٠

(٥٢) عصبة العمل القومي: لواء الاسكندرون الشهيد ٩٣

(٥٣) بيو: سنتان في المشرق ١٩٥٤

(٥٤) غابرييل بيو: سنتان في المشرق كانون الثاني ١٩٥٤، ١٨٧

(٥٥) مذكرات محمد كرد علي ٤٤٢:٢

(٥٦) من نص قرار الاتهام الصادر عن النيابة العامة مترجم الى العربية في ٢٦ تشرين الاول ١٩٤٠

(٥٧) عزة دروزة: حول الحركة العربية ٩٣:٢

٣

ميشيل عفلق أديباً

اذكر ذلك ولا انساه.

كنت في قلب الاحداث التي مهدت لظهور الاستاذ ميشيل عفلق معلم التاريخ في مدرسة التجهيز. ويكفيني القول إني كنت تلميذا له، وكان في نظر طلابه سيمفونية لم تتم، فيه إهاب شاعر حالم، وثقافة لا أعمق ولا أصفى، ومثالية في الايمان القومي تحسبها من غير هذا العالم!

فهناك، في حيّ (الميدان) الشعبي بدمشق على امتداد خط الترام، وفي منطقة (باب مصلّى) المنطقة التي تضم العديد من العائلات المسيحية المتآخية مع العائلات المسلمة حيث يستحيل التفريق بينهما. هناك كان يقوم البيت العربي القديم الواسع الذي شهد جميع مراحل حياة ميشيل عفلق، وتطور تفكيره السياسي، ومن ذلك البيت انطلقت البداية لـ (حزب البعث العربي).

فمن غرفة الاستاذ البسيطة الأثاث، التي تحتوي على سرير حديدي، ومساند من قشّ ملفوفة بقماش سميك، ومدفأة حديدية قلما كان الحطب يشتعل في بطنها لتشقق جدرانها، ورفوف تحمل الكتب، من هذه الغرفة انطلقت البداية.

لقد كانت غرفة الاستاذ بمثابة المقر لمجموعة من الشباب اليافع، درس بعضها في دمشق والقاهرة، والبعض الآخر في أوروبا، وكانوا جميعا يصغون الى كلمات الاستاذ التي كان يرددها أمامهم وهو في شبه غيبوبة حالمة:

(نحن في دور المهدين، مهمتنا نزع الأشواك لا زرع الرياحين، لن ندخل الحكم آجلاً، وفي صف النضال سنبقى طويلاً).

كان ميشيل عفلق في نظر مريديه يومئذ استاذهم اليومي، بل كان أكثر

من استــاذ، وكــانوا له اكثر من تلاميذ. كانوا الظل الذي يتبع خطاه، يتعلمون من أقواله ويرافقون حديثه القصير المتقطع، وصمته الطويل، وكانوا يعتقدون أنه إنْ يكن في نفوسهم بعض الخير فهو من صنعه!

وشهـدت (غـرفــة المريدين) حلقات متزايدة كان المعجبون خلالها يقرأون ويدرسون ما قرأوا، وينقد بعضهم دراسات بعض.

كما شهدت هذه الغرفة ولادة (الزعيم) السرّي للمنظمة (السرية) التي انـطلقت منشـوراتهـا الحمـاسية المكتوبة بالأيدي، او المنسوخة على (الستانسل)، والتي حملت اسماء متعددة:

(شباب الإحياء العربي)، (الشباب العربي القومي)، (حركة الاحياء العربي)، (حركة نصرة العراق).

كانت هذه المنشورات تدعو صراحة الى الثورة على الواقع، والعمل من اجل (الحرية) و (الوحدة).

في مطلع ١٩٤٧، وكـان الاستــاذ وحـده في (غرفة الالهام) كما كنا نسميها، قال لي:

(لقـد آن الاوان لكي ننتقـل الى مقر رسمي، فاختر بنفسك المكان، واستــأجـره، لقد جمعنا بعض التبرعات من الاعضاء واودعناها لدى صلاح الدين البيطار فخذ منها أجرة المقرّ عن سنة).

في منتصف شهر نيسان (ابريل) من ذاك العام، شاهد سكان حي القنوات بدمشق، رجلا نحيلا، مربوع القامة، هادىء الخطى، يتردد على منزل قديم علّق على بابه لوحة قماشية كتب عليها: (حزب البعث العربي).

ثم اخذ سكان هذا الحي المحافظ الذي كان يمثل معقلاً من معاقل الكتلة الوطنيـة التي قادت النضـال الضاري ضد الانتداب الفرنسي يسمعون اصواتا تصدر من باحة المنزل الفسيحة تردد بأصوات عالية:

أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة

ولم يخـطر على بال أحـد، وخصوصاً حكام ذلك العهد الوطني أن مصرعهم سيكـون على أيدي هؤلاء الشباب الذين لا يملكون اكثر من بضع شعارات، واستاذ اطلق عليه رئيس جمهورية الاستقلال (شكري

القوتلي) لقب: (معلم الاولاد الصغار)!

في هذا المقـر بدأت الحلقـات تتسع، وتتكاثر. ثم سرعان ما اصبح الطلاب اساتذة والبعض الآخر دخل الكلية العسكرية في حمص ليتخرج منها ضابطاً.

لم يستـطع النـظام الوطني الذي قام بعد الجلاء انقاذ الدولة من نفسـها، فسرعان ما تساقط الحكم بعضه على بعض بسبب الخلافات التي دبت في صفوفه، فقام الزعيم حسني الزعيم بانقلابه عام ١٩٤٩، لم يعمر هذا الحكم الانقلابي اكثر من (١٣٥) يوما، فسرعان ما وقع انقلاب آخر قاد الى سلسلة انقلابات عسكرية متتابعة، ثم جاءت الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨، وعقبها الانفصال.

لم تكن ولادة حزب (البعث العـربي) حادثا عرضيا في تاريخ الأمة العربية. كانت الدعوة الى تحرر اقطار الأمة، والى وحدتها قد بدأت منذ اواخر القرن الماضي تأثرا بالاتجاهات القومية الزاحفة من الغرب، وعرف الوطن العربي في اواخر العهد العثماني عدة جمعيات سياسية شعارها (الحرية، والوحدة) وحين أطلّ عام ١٩٣٤ انشىء أول حزب عربي على الصعيد القومي لا الاقليمي هو: (عصبة العمل القومي).

على أن ميثـاق (العصبة) لم يكن اكثر من مجرد الدعوة الى وحدة عربيـة متحـررة من الاستعمـار القـديم، فجاء حزب البعث اثر جلاء الانتـداب كخطوة مميزة في مجال النضال العربي واضعا لهذه الدولة المتحررة محتوى اجتماعياً تطور في ما بعد باتجاه (الاشتراكية)، ولو انه لم يفعل ذلك لنشأ اي حزب تقدمي آخر داعيا الى ذلك، تمثيلا لمرحلة من النضال الشعبي حان وقتها.

اعتقـد الطلاب الذين التفّوا حول الاستاذ ميشيل عفلق في البداية بأنهم سيملأون الفراغ العقائدي والسياسي الذي فشل الحكم الوطني في إقامته، وأملوا بتمكنهم من اعطاء القضية العربية المحتوى الاجتماعي والاقتصادي والفكري، بحيث يصبح في امكانهم ان يدخلوا على الحياة السياسية السورية ديناميكية علمية جديدة تختلف جذريا عما عرفته البلاد من قبل.

كانت احــداث سنــوات: (١٩٤٦، ١٩٤٧، ١٩٤٨) هي العــامـل الاساسي في توجيه تفكير الحزب، وكان الطلاب في عمر الورود، شباب بلا مسؤوليات، ولا تجارب مجرد براعم تفتش عن نوافذ لطموحها من خلال العمل السياسي. وكانوا يعتبرون استاذهم ميشيل عفلق مدرستهم الفكرية.

كان الاستاذ (صلاح الدين البيطار) الرفيق الدائم للاستاذ ميشيل عفلق، فهو الصديق اثناء الدراسة في باريس، والرفيق لكل خطوة خطاها عفلق، معه في التعليم بعد التخرج، ومعه في الاقصاء عن التعليم. معه في المعارضة والى جانبه في السجن. ثم ظهرت فيما بعد اسماء الاساتذة والدكاترة:

(جلال السيد، مدحت البيطار، بديع كسم، بدر كسم، عبد الحميد دركـل، سامي الدروبي، شاكر مصطفى، نزيه الحكيم، مظهر وصفي، عبد الله عبد الدائم و.. و..).

رأت هذه الطليعـة المتقدمة من رواد الحزب الاستاذ ميشيل عفلق يدخل الجو الادبي من ابوابه المشرعة، فكان في نظرهم ثورة في كل شيء. ثورة في الفكـر والادب والسياسة. كما رأت في سلوكه اسلوباً فريداً في الاخلاص، وحين راحوا يتحدثون في ندواتهم عن الاستاذ ميشيل عفلق، كانوا يرددون:

(.. ان تاريخ ميشيل عفلق الحقيقي، هو تاريخه الفكري، لقد التقى فيه على الانسجام والوفاق اخصب تيارات الفكر الانساني من (ماركس) الى (نيتشيـه)، ومن (جيد) الى (دستويفسكي واهرنبورغ) مع اعمق الوعي للتراث العربي.

وصفه أحد اوائل مريديه في محاضرة القيت في النادي العربي بدمشق بقوله: (..ان الاستاذ ميشيل عفلق من ابرز أولئك الرواد الذين أقاموا الجسر بين الفكـر العربي النامي في سورية، وبين القيم الانسانية في الفكر، فهو من أعمق اولئك القادة الذين أعطوا النضال القومي العربي معنـاه الثوري المثالي، واذا كانت الثورة المؤمنة بالعروبة، والحرية قد قادها في سورية الاساتذة، فالاستاذ ميشيل عفلق استاذ الطليعة الاولى،

انه في تاريخ البعث الحديث ظل ممدود، ليس تكفي في تعريفه عدة ريش تنسل من جناحه).

والحديث عن ميشيل عفلق في مطلع حياته الادبية حديث طويل، متشعب الدروب، متعرج المسالك. لقد كان يوحي لمريديه بأنه مفكر اكثر منه سياسيا.

تحت مطارق هذه الاقوال أخذ (حزب البعث) ينتشر ليس في سورية فحسب، بل في الاقطار العربية المجاورة، وخصوصاً في العراق والاردن ولبنان. كان الرواد الجدد ومعظمهم من خريجي الجامعات يلتفون حول الاستاذ ويصغون اليه بصمت واحترام وهو يردد:

(.. لست اصدق أن القرن الكامل من السنين يعجز عن انتاج اكثر من فرد، أو فردين يمثلون الانسانية، لقد طال الأمد على الناس وهم يعتقدون الحياة فرنا وحشيا توقد فيه الملايين لاستخراج حبة من الذهب، اني افكر بكل الذين يتململون في زوايا القبور من ثقل الآمال التي لم يُتح لهم المجتمع تحقيقها، ومن كنوز الخير والمحبة التي ما تسنى لهم اظهارها. ما نظرت الى الاشتراكية يوما كواسطة لإشباع الجياع، ولا يهمني الجائع لمجرد كونه جائعا، بل للممكنات الموجودة فيه، والتي يحول الجوع دون ظهورها، واذا سئلت عن تعريف الاشتراكية فلن أنشده في كتب (ماركس) و (لينين)، وانما اجيب انها دين الحياة، وظفر الحياة على الموت.).

هذه العبارات ليست مدونة في كتب أو نشرات دورية، او غير دورية، وقد حفظها الرواد عن ظهر قلب وهم يصغون الى الاستاذ وهو يرددها بأسلوب فريد، ومقنع في آن واحد.

ولم يكتب الاستاذ ميشيل عفلق الكثير من القصص الادبية، إذ ليس له سوى قبضة من الصور القصصية ما تزال غافية في أوارق الصحف الادبية القديمة التي يعبث فيها الغبار. لم يجمعها احد، وحين كنا نسأل الاستاذ عن اسباب اهمالها يفتر ثغره عن ابتسامة حائرة، وبصمت، ولعل صمته يعود الى ان هذه القصص من الماضي، ولا يحب ان يذكّره احد بهذا الماضي الذي يتعمد نسيانه، وحين اكتشف الاستاذ أنني أجمع

ما أعثر عليه من كتاباته كان ينصحني أن لا أنشر اي شيء قبل اطلاعه عليه.

كانت عبـاراتـه القليلة المنتقـاة مملوءة نداء ودعـوة، كانت تحدث العابرين عن لذات اخرى غير التي تعود الناس عليها في الادب، كانت تعكس لدينـا نحن الذين سمعنـا بأنـدريه جيد، وسيمون دي بوفوار، وسارتر ولم يسعفنا الحظ بملاقاتهم، بينما الاستاذ قد سبق له، اثناء الدراســة في باريس، أن حاورهم، كانت تعكس متعـاً في الفكـر والفن تحسبها هاربة من عالم مسحور!

(لا يفهمنا الا المتألمون)!

هكذا كان يردد، فنسمع في صوته بعض أصوات الرهبان.

ولم يكن يكتب في الجو الباهر المزوّق، ولكن القيم الجديدة التي عبّر عنها كانت كالجنات المجهولة تغري بالمغامرة.

ومع هذا فليس لنا هنا الا الحديث عن الأديب ميشيل عفلق.

والحديث عنه حوالي سنة ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ حين كان النضال عنده نضال الكلمة. لم يكن قد اختار طريق الشوك بعد، ولا تحدد لديه الهدف العمـلي. ولكنه بالنسبة الى مريديه كان فيضاً من المثل الجديدة، كله، وجـرحـاً على الأدب التقليـدي. ولا يدرك الهزة التي ادخلها على الجو الأدبي، الا من قرأ آثاره يومذاك، كانت مملوءة نداء ودعوة.

كان يقول فيسمع مريدوه في صوته بعض اصداء المصلحين.

كتب يدعو (نحو حياة مفجعة)![1]:

(.. هؤلاء العقـلاء ـ الذين تجسم فيهم الضعف فصـار عقلا ـ لا تسمـع لهم، يريدون ان تهرب معهم (من الحياة). زعيقهم ليس خوفا عليك، بل خوفا منك، لأنك تخيفهم بوقفتك وحيدا تصارع العاصفة. ولم لا تكون الحياة فاجعة، وتكون انت شهيدها؟ ان السادة (العقلاء) آثروا التفرج على التمثيل، والهدوء على النضال، (مع انك) ترتفع الى اسمى المعـاني في الدقيقـة التي تقبـل فيها أن تدخل ضمن الدائرة، في قلب الحيـاة، وتعـرض، في هذه المقامرة الالهية، كل نفسك للخسار. هذا لا يدخل في حساب العقل. والعاقلون تمنعهم فضيلتهم من الجلوس على

الموائد الخضراء! لندعهم وشأنهم، لانهم موتى من قبل ما ولدوا، ولنتطلع دومـا الى البـطل الذي لا يحب الحياة بل يحترمها، لا يشتم القدر بل يحاربه، ويرى في الفشل سر بطولته ...).

وقـال: (ان سعـادة البـؤس خرافـة[2]، يتلمـظ بها الاغنياء لتهدئة وجدانهم القلق، فالذي لا يملك ان يأكل لا يستطيع المحافظة على إبائه. ان النظام الاجتماعي لم يسلب اكثر البشر قوتهم، بل نفوسهم ايضا.. ويقولون ان للبؤس قيمة فنية، كأنما الفن وحش قذر لا يتغذى الا من أوساخ الفقر ونتن الفحش. انا نطلب انسانية خالصة من البؤس).

ورأى في الشعر رأيا كان صفعة لكل شعر الناس قال:

(.. وجـد الشعر ليرجع الانسان في بضع كلمات مسحورة الى عهد الوحشية العريق، في القدم وحيدا على الارض، وحيدا بين الجبال التي تتحفز، والبحار والكواكب. وأبلغ الحالات التي يصل اليها الشاعر هي التي تصبـح عبـارة عن كلمـات معـادة او علامات تعجب واستفهام، وأصـوات لغو وابهام مثل اصوات الحيوانات).[3] أي فضيحة في هذا الرأي، لكل شعر.

وهاجم التجديد الزائف،[4] عند بعض الخلعاء. وتحدث عن تولستوي كفيلسوف ونبي، وروى عن (سرّ باريس[5]) ما لم تتحدث به باريس الى غيره.. وكتب غير هذا وذاك. وكان كل مقال له مفاجأة، مغامرة، كأنما هو مطل على دنيا ثانية من الفكر والمتع، قيم الناس لا وزن لها فيها ولديها موازينها الاخرى.

ومـا كان بامكـان ميشيـل عفلق ان يضرب بقـدميه مستنقع الفكر التقليدي دون ان يثير ركوده الكبير. على انه كان من الجرأة، ومن الثقة بقيمه الفكرية بحيث مد رداءه للأنياب التي أثارها. بذاءة الرجعية، عضة الغوغاء، تهم الالحاد والمروق، حتى حجارة الرجم.. كل ذلك عرفه عفلق وهو بعد على الصعيد الأدبي.. فالقليل الذي نشره، ووصية (الكلمتين) التي كان يوصي بهـا تلاميـذه ان (أخلصـوا لانفسكم) كان كافيا لأن يكشف خطر الأدب الذي في ضلوعه.

على ان كل يوم يمضي كان يسكت في ميشيل عفلق كلمة ويحيي فيه

رغبة في عمل. أخذ يشعر بعدم جدوى الكلمة، انها ترن وتفتن، ولكنها لا تناضل! انها الهية جميلة ولكن بينها وبين الاخلاص الحقيقي خطوة، هي: أن تعاش! وهكذا جعل يتحول منذ سنة ١٩٣٧، عن الانتاج الادبي الى التربة القومية. أراد ان يعيش فكره ويمتحن آراءه بين مد الحياة والجزر.

وكسب العمل القومي شيئاً فشيئاً هذا الفكر الخصب، وأوغل به في كل مذهب، بينما ابتعد ما بينه وبين الأدب من سبب، وابتعد... كأنما لم يكن الجو الادبي بالنسبة اليه، سوى مرحلة التأهب والتلمس، والكشف عن أصالة التيار وصدق التجاوب معه!

وماذا عن القصة عند ميشيل عفلق؟

لا تستطيع ان ترى له تلمذة معينة على علم معين من اقطاب القصة. ولكنَّ كتب (جيد) و (دستويفسكي) كانت كتب (المخدة) عنده. ولم يكن يجد في أدب العرب الحديث ما يغريه.

ولقد سئل في ذلك مرة فقال:

(.. قلما اقرأ القصص العربية لأني لا أجد فيها ما يتجاوب مع نفسي ويروي ظمأ فكري.. فاذا ما قرأت قصة لتيمور مثلا اجد فيها اشخاصا ظرفـاء، نادرين، يضحكونني تارة ويستثيرون دهشتي تارة اخرى. ولكنهم لا يستفزون حماستي ولا يدخلون الى قلبي لأني لا أجد فيها الانسان..).

(أما اذا اشتقت أن اسمع صدى نفسي، فالغريب أني لا أنشده في قصـة عربيـة، بل في قصـة روسية او افرنسية. هكذا تصور لي كتب (دوستويفسكي) و (جيد) نفسي بصدق وأمانة اكثر من الادباء الذين أعيش واياهم في بلد واحد، وأشعر بنفس الشعور..)[٦]

ونستطيع ان نستشف مفهوم القصة عند الاستاذ عفلق من قوله:

(.. منـذ أن بدأ الادباء في العالم العربي يعالجون القصة.. نظروا اليهـا كشيء طريف خاص يقصرونـه على حوادث الحب او على وصف بعض الحالات الاجتماعية الخاصة (كحياة القرويين أو المتآمرين...) فهم في ذلك يسعون وراء الموضوع القريب الشيق ولا يهمهم الموضوع

الانسـاني الصادق... ان الادباء لم يعترفوا بعد أن القصة يجب ان تشمل كل نواحي الحياة وتنفذ الى اعمق اعماقها كالشعر والفلسفة. ولا اعتقد ان القصة العربية تنجح الا اذا بطلت تلك الفكرة السائدة بأنها نوع خاص من الأدب، وأصبحت شاملة لكل حياة الانسان، تدخل في السيـاسـة والاجتمـاع والفلسفة معا فلا تعود تقرأ للذة والطرافة، بل لاستشفاف الحياة الانسانية العميقة)[٧].

(والفـن القـصصي في سوريـة ما يزال في دور المـحـاولة. ولكـن القصصيين يتراوحون بين نزعتين: نزعة خيالية تبعد عن الواقع حتى لتكـاد تصبح غريبة عن الحياة، ونزعة واقعية تقتصر على اخذ صورة جامدة من الحياة.. لا حياة فيها! والمفصلة هي أن يبقى القصصي ضمن الواقع ويحفظ في الوقت نفسه حرية خياله وقوة شعوره..).

الاستاذ عفلق، بهذا التعريف، يصحح مفهوم القصة لدى الناس، وهي لما تزل في حبوها الاول: لقد بكرت في الضياع عن صراطها الصحيح اذ ظنها الكتاب إشرافاً من خارج الحياة، على الحياة. فجاء يردها الى قلب الحياة الانسانية نفسها.

ولم يكتب الاستاذ عفلق الكثير من القصص. ليس له سوى قبضة منهـا ما تزال نائمة في اوراق الجرائد القديمة، لم يجمعها أحد. ولقد يبتسم الاستاذ ابتسامة الخجل اذ تذكّره بها. هي من الماضي الذي يحب ويكره في وقت معا. أما في تاريخ القصة فهي نماذج الطليعة الاولى. وعلى الرغم من أنها عسيرة على التلخيص الا اننا يمكن أن نُلمّ بأجوائها في السطور التالية:

انسان جديد[٨]:

في صبـاح يوم من أيـام الربيـع خرج الاستـاذ شاكر الى الروض ليستريح. لا يذكر الروض انه رأى الرجل اكثر من مرتين او ثلاثاً.. قلع نظارته وهو يمشي ثم رمى بها ولكنه عاد فالتقطها ومسحها ووضعها في جيبـه وجلس على العشب يفكر بموضـوع محاضرته عن (الاخلاق عند شوبنهـور)، ولكن عصفورة زرقت على ورقته فغضب، ثم عاد فأسلس

القياد وتدحرجت العصفورة امامه:

ـ يا سيدي الاستاذ لقد أضعت حياتك!

واغضبتـه الفكـرة ولكن الساقية ناصرتها. وأطار النسيم طربوشه فاستسلم للربيع واستلقى على الارض تاركا نفسه نهب النسيم والساقية وأشعة الشمس. فتح صدره للهواء وتنهد، فكأنما اصبح صدره مضخة سحبت بهذه التنهدة من شخصه كل حياته الماضية وملأته بحياة جديدة.

قد تكون العصفورة على صواب وانه ليذكر أن شيئا في صدره كان في صباه يصرخ ويتقد، قلقا لجوجا كالسؤال، ولكنه كان يؤجل الجواب عليه من يوم الى يوم ومن سنة الى اخرى حتى فقد حرارته. وخرجت ضفدع تنقنق:

ـ انظرن يا أخواتي. انه جميل رغم بلاهته!

وقفزت الى الماء. وانحنى على الماء بوده لو يخنقها ولكنه وجد صورته مترنحة مع مويجات الماء السكران. صورة غريبة لم يعرفها. أهي المرة الاولى التي ينظر فيها الى صورته في حياته؟

ـ نعم انه جميل.

ونهض يســير. وأحس بحـرارة فخلع معطفه وقميصه، وسار عاري الصدر. ورفع ذراعه بملء قوته، وتأمل عضلاتها وعروقها، ثم ضمها الى صدره كمعشوقته.

وسمع استغاثة فركض. وأخرج من النهر فتاة تكاد تغرق. ولكنه شعر وهو يضمها سائرا بها الى ضفة النهر، انها حياة جديدة تتسرب الى دمه ملتهبة كالخمر، سريعة كالسم.

في اليوم التالي تلقى زميل شاكر في المدرسة، كتابا يخبره انه الآن يعمل على ظهـر احدى البواخر الايطالية. يبدأ حياة جديدة. بتر الماضي من كيانه. وقال: (لينشد اولادي طريقهم. أما طريقي أنا فوجدتها... هي تلك الجزر العجيبة التي أتخيل أني سأحط فيها رحالي عند المساء)..

ولقد عينه قبطان الباخرة طاهياً، لأن لحيته تدل على أنه طاه ماهر!

راس سعيد افندي:[٩]

خرج سعيد افندي من بيته مستأنسا بالظلام. فكل نور يطفأ في الشارع كأنه عبء يسقط عنه. كان شديد الرغبة في العزلة فاستأنس بالطريق الموحشة والحوانيت المغلقة والبيوت النائمة.

لم يكن يقر لها بأي قيمة من قبل وهي الآن أشياء حية تؤنسه.

توقف وبصق، وذلك عنده علامة التفكير. انه أمام مفصلة.. كانت كل حركة في الشارع تثيره وبصق مرة اخرى يفكر: كيف يهرب من فكره؟ لم تخطر له المشكلة من قبل ولكنها تبدو معقولة جدا!

وأطل القمر، فامتد لسعيد أفندي ظل بعيد في الشارع، أخذ يدلف معه. يتسلق الجدران تارة ويزحف على الارض اخرى كانما يهزأ منه.. وتضخم رأسه حتى بدا غريبا عنه، وتمنى لو يخلص منه. وهربت الحياة الى قدميه فأخذ يسرع. ويتنقل من شارع الى شارع لعله يهرب من ظله ورأسه... وكاد سعيد افندي يجن. وأمسك راسه بين يديه كأنما هو قنبلة تكاد تنفجر. وخطرت له فكرة الخلاص: السكر! لم يكن قد ذاق الخمر بحياته، ولكن الخمر تنسي كما يقولون. ودخل الحانة فعل ثم نهل، وشرب مغمض العينين كمن يشرب الدواء. ولكن فكرته ظلت تنسجم في كل ما حوله... وحين خطر بباله أنه أتعس انسان استراح قليلا. ولكن حديث بعض السكارى حوله أهاج فيه الشوق للجريمة. فنظر الى يديه يريد أن يتبين فيهما آثار الدماء... كان أحدهم ـ وهو البدين الضاحك ـ يقول:

ـ ... وفتح الباب ووجد زوجه مع عشيقها! فماذا فعل؟

قتلها؟ قَتَلَهُ؟ قتلهما وانتحر؟.. لا بل صرخ ماذا يقول الناس لو عرفوا ذلك؟ وانتصب سعيد افندي وسط حلقة السكارى يصرخ.

ـ بأي حق تتكلم بهذه الوقاحة عن الآخرين؟

وامسك بعنق المتحدث فأمسك رفاقه به وانهالوا عليه.. وحين أفاق سعيد افندي من اغمائه كان أول ما عاد اليه رأسه، ومع الرأس الماضي، ومع الماضي... الفكرة، وشعر بلهفة الى صفعة تثيره.. ويدخل الحانة اثنان في تلك الاثناء، يقول اولهما:

ـ يشغلني الآن كتابي عن (الاسكندر). اني ابحث فيما اذا دعي ذا

القرنين لأن امرأته كانت تخونه أم...

واهتـز سعيـد أفنـدي ثم أسرع يدفــع حسابه وانصرف... ورأسه ما تزال تؤلمه.. وتذكر كلمة البدين (قتلهما وانتحر...) وبما أنه لم يقتل أحدا فلم يبق الا أن ينتحر... ولكن أين؟

مرّ الظل معــه أمــام نهـر المدينة فقفز للضفة الاخرى ثم مرّ أمام صيدلية مفتوحة، فزحف على الارض كي لا يدخلها. ثم وجد نفسه أمام حيّ المومسات.. وبين يدي احداهن، في الظلام، استراح من ظله ولم يعد سعيد افندي يشعر بوجود رأسه.

الصفعة[11]:

عوني بك مدرس منذ تسع وعشرين سنة. طبعته الوظيفة بطابعها فهو يكاد يكون مجموعة قطع خشبية لحم بعضها الى بعض. من فوقها كرة مشـوهـة تشبـه رأس انســان وفيـه بقايا ارادة تفتح فمه ليتقيأ منه الدروس... يعرف من سيماه أن الوظيفة مرت عليه كما يعرف مرور العدو في الارض الخراب. تعود أن ينحني ويرفع يده بالسلام لرؤسائه، وأن يتجمع كالكوز في حضرة الوزير أو المفتش، فهو يرفع يده بالسلام دون سبب ويتكـون، حتى في غرفتـه. واذا كان بعض المـوظفـين ينتفخـون بالوظيفـة، ويتلقون الشتيمة من الرؤساء ليردوها اضعافا للمرؤوسين، فعوني بك ليس من هذا النوع! واذا كان استمر في الوظيفة فليس ذلك لرغبته بها. ولكن لرغبة زوجته الحسناء صفية.

تزوجها وهو في الخامسة والعشرين فذهل بها عن كل شيء. وكانت ابنة ضابط قديم، يزهو والدها كلما رأى طبائعه العسكرية تظهر في ابنته. فما مضى بعض الوقت على الزواج، حتى كان الزوج امـامهـا أشبه بقلعة مهدمة الاسوار. كان أبوها يعاونها على تهديمه.. ولقد كان عوني بك كبير الآمــال يحلم أن يكـون مختـرعـا كبـيرا... فانتهى بأن يكون استاذ رياضيات له لقب بك و ١٤ ليرة في نهاية الشهر.

أما عند صفية فلم يكن عوني بك أكبر من آلة تأتيها بهذا المبلغ آخر كل شهر، وكل عطفها عليه انما كان لأنه آلة تنتج. فاذا سألته عن صحته

شعر كأنها مزارع يستفهم عن حالة أرضه، ويبتلع طعامه كما تمتص الآلة الزيت وينام كما تهدأ الآلة في الليل...

خيوط الارادة التي كانت تفتح فمه في المدرسة بالدرس، كانت تتعطل في البيت خوفا من الصفعة التي تنتظره عند كل معارضة. بدأت الصفعة له مداعبة، ثم صارت عادة، ثم حين عجز عن مقاومتها اصبحت جزاء وانتقاما، ثم اصبح يلتذ بها لذة وحشية غريبة كأنها موجهة الى شخص يكرهه، الى الشخص الذي ضحى مستقبله من اجل امرأة.

وكان طيف الصفعة يلاحقه فاذا تذكرها غامت عيناه.

قضى تسعا وعشرين سنة بين الوظيفة وامرأته، كأنه بين فكي تمساح.. وكان بقي له عدة أشهر قبل الاحالة على التقاعد.. حين ذهب ذات صباح ربيعي الى المدرسة بعد ان تزود بالصفعة.. وكان يلقي درس الجبر فتذكرها.. لم ينس الدرس ولا غامت عيناه، ولكنه اندفع فجأة يهاجم النظام في المدرسة وينتقد المدير ووزير المعارف، ويذمّ المفتش والوزير ويتعرض للسياسة فيشتم الحكومة.. كان يتكلم بحماسة مخيفة كأنه مُنوَّمْ أو مجنون.

واستغرب الناس تسريحه، وحرمانه راتبه التقاعدي، لأنهم ما سمعوا مرة أنه انتقد رؤساءه أو اهتم بالسياسة. وحين عاد مساء يوم التسريح الى البيت، لم تصدق زوجته أن المعجزة يمكن ان تقع، وتنقلب تلك الآلة الى شخص حي. كان ينظر اليها بارتياح لا خوف فيه حتى ذعرت... لكنها استعادت شجاعتها وصفعته فابتسم ابتسامة شيطانية. ان الغبي ينتقم منها. ولكنها لن تدعه يفعل. ستعمل على اعادته للوظيفة بأي شكل.

على أن عوني بك بدأ في الايام التالية يهزل ويتحطم. تلك القوة السحرية التي ربطت القطع الخشبية بعضها مع بعض ثلاثين سنة، فارقتها بعد أن أدت تلك القطع رسالتها، كانت الرسالة الانتقام لكرامته... ودب المرض في عوني بك فلم تستسلم المرأة. ان فيها طباع أبيها العسكري الذي لا يستسلم. وجاءته بالاطباء وأرادت أن تجبره على استرجاع الحياة اجبارا كما كانت تجبره في الماضي على قتل كل حياة فيه... ولكنه كان يزداد مرضا رغم ذلك، وهو ينظر هادئا ساخرا الى

جهودها.. سيموت منتصرا..

ومــات! ونــظرت صفيــة الى وجهه المقدد وساورتها شهوة لا تقاوم، وأوقفت الجثة وصفعتها صفعة وقف لها شعر الميت، وابرقت عيناه، كأنما عادت اليه الحياة..

موت السندباد:[11]

هي قصــة حوارية: يرفع فيها الستار عن حي من بغداد القديمة، والسندباد شيخ مهترم بالي الأطمار، عاد من رحلته الاخيرة خاسرا كل ثروته فيجد أن أهله ماتوا ومنزله بيع. فيرتمي خائر القوى أمام المنزل الذي لم يعد يملكه. ويجتمع حوله الجيران وصبية الحيّ، ينهالون عليه بالاسئلة أو بالحصى... ويدور الحوار:

شاب بغدادي: سندباد قص علينا أخبار البلاد. والصعاب التي لقيت..

ويقول بعض الشيوخ: تكلم يا سندباد قل لهؤلاء ما يحل بالذي لا يقنــع بمــا قسم الله.. قص على هؤلاء نصيب الذي يعبث بالتقليــد والنظام... قل كلمة نافعة. انكر حياتك وماضيك وانصح هؤلاء الشباب أن يقنعوا بما هو ثابت مضمون ولا يلاحقوا مثلك اطياف المستحيل.

السندباد: كلمة نافعة؟ كيف يستطيع النفع من قضى عمره هازئا بما ينفع.

الشيوخ: يهزأ بالنفع وقد فني في حب المال وفي ملاحقة الثروة؟

الصبية: انظروا يديه لقد بليتا من كثرة ما جمع، وقدميه فنيتا من طول ما مشى، وعينيه لقد أكلت وحوش البحر عينيه.

السندباد: لم تبل يداي من الجمع، ولكن من العطاء، ولم يفن المشي قدمي لكنــه الشوق والقلق، وما أكلت وحوش البحر ناظري، لكنه وهج الضياء. لكي تتلامس يداي طوقت الارض بذراعي وسحت من قطب الى قطب لأسمع صدى صوتي، وركبت أبعد البحار لأنظر لون عيني!

ـ لون عينيه؟ لون عينيه؟

ـ أردت أن تعبد نفسك فغلبت. ان العين لم توجد الا لترى الناس.

الشيـوخ: خير لك أن تمـوت ففي موتك عبرة لهؤلاء الشباب الذين يشوقهم ما شاقك! قل لهم قد عميت من هول الخيبة.

السندباد: عميت من وهج الحقيقة!

الشاب: وهج الحقيقة؟ حدثنا يا سندباد عن الحقيقة التي تعمي العيون.

السندباد: رحلت الى أبعد نقطة في الأرض لأعرف اقرب نقطة مني لأعرف نفسي!...

ويستمر الحوار على هذا السبيل، الى أن يقول بعض الشباب:

ـ قل لنا كيف اخذت ورميت وكيف غنيت بالعطاء؟

شيخ: انظروا الآن غناه. لا يملك غير المال والهواء.

السندباد: ذهبت أنشد عالما جديدا، من الحرية والجمال، كلمة سر، جديدة تعيد لأبناء الأرض السعادة. ذهبت باحثا عن نقطة سحرية تعيد للناس الرجاء. عن لفظة؟

شاب: ماذا وجدت؟ قل! تكلم.

شيخ: صه لا تتكلم. لا تقل ما حرم الله!

الشباب: قل يا سندباد ما هي الكلمة؟ ما هي الحقيقة الوضاءة؟

ويهم بالكـلام فيسقط على الارض بلا حراك وتخرج من فمه أفعى سوداء ويقول شاب:

ـ لقد قتله السكوت، فيقول أحد الشيوخ:

ـ لقد أحيانا!

هذه بعض قصص الاستاذ ميشيل عفلق، ومن السهل أن نلاحظ، بعد أن لخصتها، كم يشوه التلخيص منها. كم يمحو، لا من الاسلوب الرفيع الملون فحسب، ولكن من خصب تلك الاعمـاق التي تطوف فيهـا. ان القصـة لديه، ليست حوادث تمتد الى عقدة الختام، وليست في الوقت نفسه، اشعاعا نفسيا يعزل ويملأ بالتوتر والاحاسيس الصغيرة، ولكنها (حدث) ذو قيمة نفسية كبيرة. انها قصة (الفكرة) بكل ذلك المهرجان من التوتر النفسي الذي يهزج، لها ومعها، في الاعماق.

والاستاذ عفلق. كان يكتب قصصه عفو القلم. ينتزعه أحد المريدين

من البيت الى ادارة الجريدة. وبينما أسنان المطبعة تنتظر، كانت القصة تستقيم وتتكامل، وتلقى اليها ورقة ورقة. وليس بامكان هذا النوع من الكتابة أن يجري ضمن مخطط، هندسي الاطراف والطريق. ليس بامكان (التكتيك) المقدور الصارم أن يفرض على القصة اللمسة الثانية والثالثة، فهيكل القصة عند عفلق هو ابن اللحظة التي توضع فيها على الورق، ولهذا فان قصصه تمثل التقنية العفوية. منطق الذوق وحده هو الذي كان يلتقط هذا، ويدع ذاك فيها، ويشرد عند هذا الدرب، أو يهرول في ذلك المنحى. وهو الذي يشيع فيها الوحدة الفنية ويمنحها التوازن العميق الآسر.

لم يكن عفلق يهتم باعطاء القصة السير التاريخي، او بالتقاطها من الزاوية الحادة، في لحظتها اللاهبة. الطريقان سواء عنده. قد يمشي، مع القصة خطوة خطوة، وقد يلتقط الأزمة، قطاعا مثقلا بالأحاسيس، فيمشي معها الى النهاية. فالذي يهمه في الحالين، هو التوتر الذي يحمله الحدث ليصبح ذا قيمة انسانية كبرى. انه ينقل (التجربة) القصصية من مجرد صورة او حادثة عابرة، الى قلب الحياة نفسها، ويحولها الى تجربة حية. كل قصـة، من قصصـه، يسلها، ويشد بعضها الى بعض، خط بياني مستمر الصعود والتركيز حول (أزمة) انسانية. وكل قصة من قصصه تتجه في تصميم مطرد العمق والسعة، نحو توترها الأعلى، ونحو الموقف الانساني الذي ينبثق عنها. لفتات الأسطر، وخفقات الحس، كلها تحشد في الطريق، لا لإيضاح الأزمة ـ فهي ليست المقصودة ـ ولكن لتكثيفها وتركيزها حول ذلك الموقف. والأنوار لا تتوجه الى داخل الأزمة بل تتوجه منهـا كمـا تنتشر الأشعـة من خلال محرك. وقد تبقى الأزمة غامضة الأسباب والعقد. ولكن ظلالها التي ترتمي وتنعكس، في داخل الاضلاع، وعلى قارعة الطريق، هي التي تكشف قيمة الموقف الانساني النموذجي الذي تمثله، وتقود، في عنف، اليه.

وتتضاءل هاهنا قيمة الزمان والمكان في القصة، والاستاذ عفلق لا يقيم لهما كبير وزن، وقد يأتي بهما عرضا، بلمسة خفيفة تشيع الواقع المحلي في الجو... غير انه يفضل الانطلاق في الأفق الذي لا تربطه أية جذور

بأرض معينة أو زمن محدود. وإن كان بينه وبين الواقعية خطوة ما تنفك ابداً قائمة!

وهكذا يخرج (الاستاذ شاكر) في (انسان جديد) من عتمة المجهول الينا، دون أي اطار يضعه في مكان وزمان معينين، أو في ملامح واضحة سوى أنه استاذ، وأن الوقت ربيع... غير ان القصة تسير، في خط سمفوني متصاعد، مطرد التوتر، ينقل (شاكرا) من استاذ فلسفة في الكلية العربية الى طاه على ظهر باخرة ايطالية صغيرة، انه يدخل الروض، في صباح ربيعي فيفاجأ باحساس بالحياة جديد عليه. فما يزال يتحول من مستوى في الاحساس الى مستوى آخر، حتى يقرر الدوس على الماضي كله، وبتره من كيانه، وبدء الحياة في إنسان جديد. كانت حياته في الأربع والثلاثين سنة التي قضاها من عمره، زائفة، ولذلك سهل على دفقة من الربيع ان تجرفها، فتساقطت عنه كأنها أقنعة من الجص المهترىء. ويبدأ خط التوتر بأن يرمي الاستاذ نظارته على الارض رمية عفوية ما يلبث ان يتراجع عنها فيعود الى التقاط النظارتين واعادتهما الى جيبه. ثم يقرر أنه لا يستطيع إتمام محاضرته فيترك العمل بعد ان تزرق عصفورة على اوراق المحاضرة... ثم تهاجمه فكرة انه اضاع حياته. وبينما هو يناقشها يلقي النسيم بطربوشه فيستلقي على العشب فيتقاسمه الروض: نسيمه، وشعاعه... فيتنهد تنهد الانقلاب، كأنما حياته القديمة قد استلت من صدره وحلت محلها حياة جديدة. ويتذكر أنه لم يعتبر حياته في يوم من الايام الا شيئا موقتا، سوف يبدله عند سنوح الفرصة، ويتذكر ان شيئا في صدره كان في صباه يصرخ ويتقد، ولكنه فقد الآن حرارته فهو ثقل فقط! وتذكر أنه جميل. ونظر الى صورته في الماء فتعرف الى شكله، كصديق طال اغترابه عنه. وتعرف الى جسمه حين تعرى، فوجد الدم الحي يملأ عروقه وعضلاته. ثم فوجىء، حين أنقذ الفتاة من الغرق، بحياة جديدة ملتهبة كالخمر سريعة كالسم تهز كيانه... وكما تمزق دودة القز قميصها، حين تتحول فراشة، كذلك مزق الاستاذ شاكر ماضيه... داس عليه كما داس الانسان الاول على آخر صلة تربط شكله بالحيوان. على ذنبه، وتحول طاهيا.

وفي (رأس سعيد افندي) يخرج الرجل مهتريا من بيته الى الظلام. وهيكل القصة يتسلق كله الى الهرب ويعكسه، كما يتسلق بعض الهنود الحبل الذي ينصبونه في الهواء. القوة التي تمسك الحبل غامضة والأزمة التي تملأ رأس سعيد افندي غامضة.. ولكنها ملحة مرهقة: يستأنس أولا بالظلام والطريق الموحشة. فاذا مر بوق سيارة او عوى كلب بعيد احترق الصوت رأســه بعنف يثـيره. انه يفكر فقط كيف يخلص من تفكيره... كل حركة في الشارع يخشى منها على سره الذي يغلق عليه رأسه.

ويطل القمـر فيبـدأ ظل سعيد افنـدي بالامتـداد أمامه ورأسه بالتضخم لم يبق له الا رجلاه تنقذانه بالهرب، فيسرع. ولكن ظله يلاحقه ساخرا كبعض الجن يقفز على النوافذ ويتثنى على الجدران ويستطيل على الارض ويفرّ وينثر.. والطرقات تفر وكل شيء يفرّ الا... فكر صغير في رأس سعيد أفندي صغير كرأس المسمار لا يفرّ.. ويمسك برأسه كأنه يلمس قنبلة يخشى عليها أن تنفجر!.. ويتذكر الخمر ولكنه ينسى كل شيء، بعد الكأس الأولى، إلا فكره. ويشرب مرة اخرى فلا يرى غير فكرته مجسمة في الزجاجة والكأس وفي صاحب الحانة! ويصطدم سعيد أفندي ببعض السكـارى الذين يمـرحون ويكاد يصطدم باثنين آخرين. إن أصابعه تنبض بالجـريمة وقدميه تدفعانه اليها. وبما أنه لم يتسن له أن يقتل احداً فلم يبق أمامه الا الانتحار... ويمرّ سعيد افندي مع ظله امام نهر المدينة ثم أمام صيدلية ثم... يقتل ظله وهموم رأسه عند أول مومس!...

في هذا البناء الفني المتوازن، الذي يتسق فيه ويتجاوب، عواء النفس الداخلي مع صلابة الواقع ومقاومة الاشياء المادية، لا يفتح الاستاذ عفلق غير نافذتين على الأزمة تكشفان غامضها: النافذة الاولى حديث السكارى عن ذلك الذي فاجأ امرأته وعشيقها فماذا فعل؟ والثانية حديث المؤلف لصديقه عن الاسكندر ذي القرنين هل أعطي اللقب لأن زوجته خانته؟ ان الحـديث الاول يهيج الجريمة في يدي سعيد افندي، حتى لتمتزج أنفـاسه برائحتها وتنفضه كالمجنون. وأما الحديث الثاني فيدفعه الى التفكير في الانتحار!...

وتفتضح الأزمة من هذا الباب الخلفي البارع، فعار الخيانة هو السر في استئناس سعيد افندي بالظلام، ورأسه الذي كاد ينفجر. كان يلوك مقولة واحدة: كيف يخلص من التفكير في الخيانة والجريمة؟ وذلك الظل الذي كان يرقص حول سعيد أفندي هو... العشيق! ان البراعة الفنية التي حبكت القصة في قطاع نفسي من الهرب استطاعت أن تقول كل شيء في الفاجعة دون أن تقول شيئا!.. استطاعت أن توحي، دون مونولوج، ودون فضيحة، بل دون تعيين اشخاص الخيانة، بكل ما في أزمتها من عنف ومن قسوة شيطانية!

وتقـدم قصة (الصفعة) نموذجاً ثالثاً للوحدة الفنية المتوازنة: انها تسير أولا في خطين: الخط الاول صورة (عوني بك) الموظف الذي أحالته خدمة الوظيفة تسعا وعشرين سنة، الى قطع خشبية مضموم بعضها الى بعض، والذي صار الانحناء والسلام الذليل والتكور أمام الرؤساء عادة عنده يمارسها، ولو لم يكن أمامه رئيس. أما الخط الثاني فزوجته صفية، التي ورثت عن ابيها خصاله العسكرية، والتي طوقت عوني بك بسخرها واوامرها حتى اضحى كالقلعة المهدمة الاسوار. وقد ربط الاستاذ عفلق بين الخطين برابطة (الصفعة) الصفعة التي تسيّر عوني بك، وفق رغبات زوجته، وحسب الطريق التي ترسم.

والصَغَـارُ الذي يصـل اليه عوني يبلغ دركه السحيق، لا في هيكله المشوه أو إراداته المشلولة او (صفعته)، ولكن حين لا يكون، في صورته الأخيرة، اكثر من (آلة) يبتلع طعامه كما تمص الآلة الزيت اللازم، وينام مثلما تهدأ الآلات في المعمل في الليل، ويأتي آخر الشهر بأربع عشرة ليرة! انه لم يعد انسانا. فالمضغ بين فكي التمساح: الوظيفة والزوجة، جعله نفاية.

وتجتمع لعوني بك عناصر الانتقام تدريجيا: كانت آماله أن يصبح مختـرعـا فحولت الصفعة آماله الى رماد، ثم صار يلتذ بالصفعة لذة وحشية غريبة كأنها موجهة الى شخص يكرهه ويحقد عليه، الى الشخص (الآخر فيه) الذي أذلته امرأة، وكان شبح الصفعة يلاحقه وكثيرا ما كان يحسب ان أثرها ظاهر للناس على خدّه... ووجهه كله! النزاع الوحشي، في

اعماقه بين شخصيه: شخصه الذي (قولبته) الوظيفة والمرأة، وشخصه الآخر الذي يريد أن يمرقه في سكون. وكان يزيد التمزق شدة وقسوة كلما تأكد عوني بك أنه ليس عند زوجته، اكثر من آلة انتاج وان سؤالها عن صحته، ان سألته، لا يحمل من العطف اكثر مما يحمل استفهام المزارع عن حالة ارضه...

وفجـأة، ثار الشخص الثـاني في (عوني بك)، عند ذكرى الصفعة الاخـيرة. كسر الأقنعـة والمواصفات التي تكلست حول شخصه تسعا وعشرين سنـة وثـار... ولكنهـا كانت الثورة الذليلة السلبية. لم يطلّق زوجته. ولم يستقل من الوظيفة ولكن صبّ غضبه عن طريق آخر... شتم الوظيفة والوزارة والوزير والحكومة والسياسة! ثار نصف ثورة وعاد الى البيت ليتلقى الصفعة من جديد، ولكن بارتياح رهيب وابتسامة شيطانية. انتقم! فقـد سرحته الحكومة، وحرمته راتبه التقاعدي الذي يجعله آلة منتجة. وشعرت الزوجة ان هذه (الآلة) أصبحت الآن تشبه انساناً حياء فيجب ان تعـود آلة، يجب ان يعود الزوج الى الوظيفة! ولكنه يبدأ في الانحـلال والهـزال... والمرض. تلك القطع الخشبية التي كانت تشكل (عوني بك) كانت لها رسالة تؤديها: أتنتقم لكرامته، فلما ادتها فارقتها تلك القوة السحرية، تراخت الخيوط التي كانت تربطها فانهارت بسرعة مريعة. وتحاول الزوجة ان تقاوم المرض فيه، ولكنه يستسلم للمرض، ويصل انتقامه الى اوجه حين يتمكن من... الموت! ان الزوجة لن تستطيع ان تظفر من حطام هذه (الآلة) المفككة بغير (صفعة)!

ومن يقرأ ما نشر من قصص الاستاذ ميشيل عفلق وما لم ينشر يدرك ان شخصياته في القصص ليست شخصيات مادية، محدودة الخطوط والملامح. انها مواقف انسانية. كل كلمة حولها، كل صورة، انما هي للفكـرة التي تتصـور فيهـا، وانمـا هي باب من الصلة والتجاوب بين الشخص وأزمتـه، من جهـة، وبينهما وبين القارىء من جهة اخرى. والاستاذ عفلق يبني شخصياته في داخل القصة، لأنه انما يبني بذلك الموقف الانساني الذي يريد. ويبنيها بالقدر الذي يحتاجه من الملامح (المـاديـة والنفسيـة) ومن التفـاعل الكامل مع (الأزمة)! فالقصة هي

(الشخصية) من خلال أزمتها الراكضة! ولا تأتي العواطف والمناظر الا كجزء من تلك الشخصية، كشيء لاصق بها، كعضو من الاعضاء له وظيفته في جوقة القصة. وعلى الرغم من أن قصص عفلق قائمة على مهاد نفسي، فان (المونولوج) الذي يلجأ اليه الكثيرون، في تحليل الحاضر او كشف الماضي يكاد يغيب عنها، فليس ثمة من لحظات يقف فيها (البطل) على مسرح القصة ليتحدث. ان حركاته، وصور العالم الخارجي من خلاله، هي التي تتحدث عنه!

وهكذا فشخصية (الاستاذ شاكر) لا نعرفها الا تارة بعد تارة، وفي مواضع متفرقة من (انسان جديد) نعرف أنه يدرِّس الفلسفة وأنه في الرابعة والثلاثين وله لحية سوداء وزوجة واولاد... ولكن لكل من هذه التفاصيل انعكاسه ومعناه في القصة، وفي الوقت نفسه لا يظهر (الروض) الذي يسير فيه الاستاذ شاكر الا من خلال ازمته: فالربيع لاثارته، والعصفورة لتزرق على الورق، وتحرك لديه المشكلة والنسيم ليرمي طربوشه، والضفدع والغدير تذكره بجماله، والحر ليعرّي صدره، وانقاذ الفتاة ليذكر الدم في عروقه. وتتحقق ثورته على حياته الماضية، دون أي مونولوج يكشف ثورة نفسه. ذلك الحشد المتتابع من الأحاسيس، بعضها وراء بعض، كان كافيا لنتقبل، التقبل المنطقي، هربه الى حياة اخرى وتحوله الى (انسان جديد).

وأما (سعيد أفندي) فإنا لا نعرف من ملامحه أي شيء.. ولا لون عينيه الثائرتين! وليس لدينا أي فكرة عن علاقاته الاجتماعية، ولا حتى عن أزمته. ليس من حديث يكشف لنا هموم ذلك الرأس. وانما نبني فكرتنا كاملة عن تلك الهموم، من خلال الظلام والوحشة وتضخم الرأس، ومن خلال الظل الذي يطول ويقصر، والكأس والخمر وحديث السكارى. وتكمل القصة، بناء وأزمة وموقفا انسانيا، دون أن يكون سعيد أفندي اكثر من (رأس).

وبالعكس من ذلك (عوني بك) فان شكله الخارجي (الخشبي) وحركاته (الآلية) انما صورت لتحيله من انسان الى كاريكاتور انسان، كانت وظيفتها أن تمهد لاعطاء (الآلة) شكلها الملائم. أما زوجته فلا نعلم

عنها إلا ما يكفي لاعطائها القوة على توجيه الصفعة لعوني بك! لا نعلم أكثر من أنها ورثت الطباع العسكرية من أبيها؟ وثورة (عوني بك) انما كانت غلطة لحظة، جاءت غير مقصودة تماما، وجاءت متناسبة مع ارادته المنهارة. كل ما مهد لها انه كان يحس بضرورة الانتقام من شيء فاندفع يشتم الحكومة. ولكنه لم يحدث نفسه مرة كيف وممن ينتقم، وظل بعد انتقامه بل بعد موته، يتلقى صفعته التقليدية بالبلادة التي تعودها طوال عمره!

على أن الاستاذ عفلق قد يفسر شخصياته احيانا على قول آرائه. وإنك لتشعر انها تتمرد، لا على روحها، ولكن على الطريقة التي ألقيت فيها عليها. ينسى الاستاذ نفسه فيسترسل، ليس مع الشخصية، ولكن مع رأيــه.. يظهــر ذلك خصوصاً في قصة (شيطان نصف الليل)، وفي ذلك الحوار الممتع عن الحرية والانتحار، والذي لا تغفر له متعته وقوته، المكان الذي وضع فيه. انه يظل لصيقا بجسم القصة لا بد من تشذيب ذيوله وتقصيرها قبل ان يندمج فيها.

وأهم من هذا ان في شخصيـات الاستاذ عفلق، شيئا ما، يباعد ما بينها وبين الواقعية. ان هذه المسافة القصيرة التي تفصل ما بين ردود فعلها وبين ردود الفعل المألوفة لجميع الناس، تبعد ما بينها وبين اغذية الأرض! تلك المـواقف الانسانية المثالية التي يمثلها الشخوص، وذلك التـوتـر النفسي العـالي الذي يضجُّ في كيانهم، يكاد يكون شذوذا، في الاحوال العادية، وان كان في مستويات الفكر العليا، امرا منطقيا، مقبولا، ليس من استــاذ فلسفة هرب ليكون طاهيا، وان كان الكثيرون يتمنون الهرب. والهرب مصير انساني معقول وقابل للوقوع كل لحظة. و (عوني بك) نرى، في كل زاوية من الدوائر الحكومية، مئات النسخ منه ولكنه يتميز عنهم في انه انتقم. بينما بقية المئات قد بلغت من شلل ارادتها أنها لا تفكر في شيء يزيد عن القيد الحيواني! ولقد يقود التفكير في الوجود، عند بعض المفكرين، الى الانتحار (كما قاد سليما في قصة شيطان نصف الليل)، ولكنا نعدّ ذلك، في الحياة العامة، جنونا أو نوعاً من الجنون!

و (سعيد افندي) يهرب من فاجعته بشدة، وكثير من مثله يهرب. ولكن

الحل الذي وجده خاصّ به. وقلائل اولئك الذين ينسون ـ على طريقته ـ فاجعة الخيانة في حياتهم، بخيانة مثلها مع مومس، ويصلون ـ على طريقته ايضا ـ الى ان الانسان، في الحساب الاخير، عبد الغريزة الحيوانية!. وهذه العبودية التي لا مفر منها هي التي تغفر له.

مثل هذه الشخصيات، تحتاج الى عالم اكثر نبلا تعيش فيه، والى مستوى من النظر والفكر لا توقفه آفاق الواقع القريب! ذلك هو (الشيء) غير الواقعي فيها.

ويعتمد عفلق كثيرا على اللقطات الجانبية والصور التي تغني الحدث، وتوحي بكل تعاريجه. ان اسلوبا كأسلوبه لا يمكن أن يقوم بدونها! هي التي تربط عنده، في الواقع، بين الشخصية وأزمتها. وتضع الشخصية في قلب المشكلة. كما انها هي التي تزج القارىء في الوقت نفسه، داخل الموضوع، داخل تجربة القصة، ليحياها. انها جزء من همّ الاستاذ عفلق في ان تحمل قصته اكبر دفقة ممكنة من الايحاء: وهذه هي وظيفته: رمي النظارة واستعادتها من قبل الاستاذ شاكر، وتوسيخ العصفورة لأوراق المحاضرة، ورمي النسيم للطربوش في (انسان جديد). ووظيفته التحية والانحناء والتكور عند عوني بك في (الصفعة). ووظيفة مرور السيارة وعواء الكلب في الشارع المقفر، وركض الظل وتلويه. وأوضح من كل ذلك وظيفة الحديثين اللذين يجريان في الحانة، ويكشفان بصورة غير مباشرة عن ازمة (سعيد افندي). وندر أن تأسر الفكرة الاستاذ عفلق فتجعله يتدخل في أسطر القصة ببعض الملاحظات الجانبية الزائدة، كحديثه عن الوظيفة: (.. بعض الناس، بعكس عوني بك، يسمنون من الوظيفة وينتفخون لأن اللذة التي يجنونها وهم يأمرون وينهون تزيد من الألم الذي يشعرون به وهم يخضعون لرؤسائهم، وهناك من يلتذون بالشتيمة يسمعونها من آمريهم لأنهم سيردونها اضعافاً الى المأمورين) هؤلاء هم أسعد الموظفين.

وحديثه، في مكان آخر من القصة نفسها، عن الذين لا يعرفون عدوهم الحقيقي فيصوبون النقمة على أنفسهم، تلك لقطات معدودة!..

وموضوعات الاستاذ عفلق لا تستقي من مشاكل المجتمع، ولا تتحدث

عن الحب ولا تصف مظاهرة او تعكس بؤس عامل كادح، القضايا الاجتماعية او الخلقية او السياسية لا تهمه الا بمقدار علاقتها بما هو اهم منها: حياة الانسان. فالانسان أولا، والموقف الانساني هو ما يجب ان تعبر عنه القصة. وهو يعالج مشاكل التمرد، الشرف، الكرامة الحقيقية، الحرية من خلال الحياة الانسانية. ويشرف على الافق الميتافيزيقي لمشكلة الحقيقة او الحرية، بالسهولة التي يشرف بها الكتّاب الآخرون على احداث الحياة العادية. ذلك السر الذي تتلفف به مسرحية (شهرزاد) لتوفيق الحكيم، ليس بأعمق ولا أقوى روعة فيها منه في هذه القطعة الصغيرة عن (موت السندباد) وبعض صفحات (الفتيان) او (الحائط) لسارتر قد لا تحمل، في التحليل الأخير، من مشكلة الوجود والحرية، اكثر مما تحمل قصة (شيطان نصف الليل)!

وهو لا يقارب تلك الموضوعات من جانبها الفكري، ولكن من جانبها الانساني الذي عاشه هو نفسه في اعماقه. ان عفلق لا يكتب في الواقع قصصا ولكنه يكتب (اعترافات)، واذا كان الكثيرون من غيره يعكسون تجارب حياتهم المادية في انتاجهم فالاستاذ عفلق يعكس تجربته الفكرية، ومغامراته فيما وراء الكلمة الحية! وقصصه، بل قلمة من الشفافية، والصدق، بحيث لا يستطيع ان يخفي خلجات نفسه الحساسة.

كان يضع قلبه كله على الورق. القيود التي واجهها حوله كانت تورثه شعوراً عميقاً بمأساة الانسان في بلده:

قيود في الفكر (صه لا تفه بكلمة لا تقل ما حرم الله أن يعلم[١٢]..) وقيود في المجتمع والتقاليد، وقيود في السياسة... وقيود من القدر، حتى في انطلاقهما تظل ذراعاي مقيدتين بسلاسل القدر. ألا تسمع صلصلة هذه السلاسل. انها ملء[١٣] أذني..).

وليست القيود بالرهيبة ولكن تطامن الناس للقيود هو الرهيب. انهم لا يخافون الحياة الخصبة فقط، ولكنهم يخافون من يحاولها ايضا (كالسندباد)، تلك هي المشكلة. ولقد كان يرى الى التيار كيف يحاول ان يجرفه من قلب الحياة العرم الى اطرافها الخاملة، فالاخلاق التقليدية تعصر روحه (سعيد افندي) والفكر التقليدي يقطع عليه الطريق كما

قطعها على (السندباد)، حتى الحياة التي بدأها في التدريس هي حياة مستعارة لم يعتبرها في يوم من الايام، الا شيئا موقتا (الاستاذ شاكر)، ونظر في المدى البعيد، فرأى في نهاية طريق الوظيفة صورة (عوني بك) وفي قفاه (الصفعة) بل وجد في نهاية الطريق نفسها شبح (سليم) الذي لم يستطع أن يختار لحظة موته[١٤].. هكذا بدأ كل شيء يصبح مشكلة عنده. وتجسمت المشاكل فاذا بها مشكلة واحدة. وحدة من القيود يجب ان تقابل بموقف انساني موحد: التمرد! كان التمرد، هو الامر اليومي في السياسة يومذاك، ولكن التمرد الذي دعا اليه عفلق، كان اشمل وأعمق. كان التمـرد المبدع الذي يقود الحياة الى توترها الأعلى، ويستنزف كل خصبها. كان عفلق يلوك المشكلة بفكر يريد ان يطلق كل امكانات الوجود الانساني معا، ويتألم حتى لأولئك الذين واراهم القبر قبل ان يستطيعوا بذل ما لديهم لزيادة (ثروة الحياة..[١٥]) فالتمرد ليس على الحياة ولكن على الأقنعـة والقـوالب والأصبغة التي تجفف ينابيع تلك الحياة، على القيود التي تقف في طريقها، وتنزل بالحياة الانسانية الى حياة القطيع.

هكذا جاءت قصص عفلق، كلها، دعوة عنيفة مستمرة الى التمرد، الى ان نعيش الحياة المليئة، الى ان نتصل بالحياة، في قفزة بطولية فاجعة (من مقال نحو حياة مفجعة)، نتمرد فيها على مفاهيم الاخلاق الموروثة (سعيد افندي)، وعلى العمل الرتيب الذي نكره (الاستاذ شاكر).. حتى ولو كنا في آخر الحياة فان باستطاعتنا ان نتمرد (عوني بك). ان الانتحار لا يحل المشكلة (شيطان نصف الليل) ولكن الاتجاه نحو الحياة، الحياة (المفجعـة)، هو الطريق. ومـاذا يهم اذا انتهى الانسان في النهاية الى الدمار (موت السندباد) انه يكون قد وصل الى (الحقيقة) التي كانت منذ الأزل في العيون! يكون قد اخذ من الحياة ما وسعت يداه. أخذ ورمى. اخذ وأعطى. حتى صافحت يداه كل الأشياء وضم صدره جميع الأحياء (موت السندباد).

ان قيمـة هذه الصرخة الانسانية تتبدى بأفضل صورها اذا نحن وضعنـاها في مكانها الفكري، والسياسي والاجتماعي من سنة ١٩٣٥. ولقـد كانت هذه الدعوة بالنسبة الى الاستاذ عفلق، مرحلة من مراحل

فكره، ولم تكن غايته الأخيرة.

كانت الكتابة ـ والقصة بالذات ـ وسيلة تعبير وبث وتبلور، لا عنفوان ادب. الكلمة كانت تنتزع منه انتزاعا، ولم تكن بالنسبة اليه قلقا وهما. كانت حركة تكوين لا نضجا ينتهي بسقوط الثمر في السلال. ذلك أن قلقه كان يتجاوز الكتابة، في آفاق وراءها. كان يومذاك، يفتش عن الحل، عن الطريق. واذا كتب، فما لإيمانه بأن الكلمة هي السبيل، ولكن لتلمس قوة الكلمة، ولإطلاقها، هي بدورها، في البحث عن الطريق. ولهذا كانت دعوة التمرد عنده نداء ذاتياً قبل ان تكون دعوة للناس. كانت صرخة كيانية الى الانطلاق في كل الدروب، لعل دربا منها يقود. لم يكن بعد قد اختار النضال القومي فكان يقول لنا:

(... لينشد أولادي طريقهم في الحياة احراراً، اما طريقي انا فقد وجدتها هي ألوف الطرق التي ألمحها في أفق البحر الواسع. هي تلك الجزر العجيبة التي أتخيل اني سأحط فيها رحالي عند المساء، وتلك الوجوه التي اتصور أنها ستعترض حياتي فتدخل عليها أشهى المفاجآت. ولقد تكون على خلاف ما اتصور فيكون ابتهاجي بها اعظم.

وقد كانت دعوة التمرد مطلع الطرق عند عفلق لأنها وجدت سبيلها القومي في العمل، ولأنه مدّها حتى كانت فلسفة قومية شاملة.

على ان قصص الاستاذ عفلق وان كانت حدثاً عابراً في حياته الا ان قيمتها تتجاوز بكثير، الحدث العابر.

لقد كانت اول النماذج الأدبية التي تخلصت من الاسلوب الرومانتيكي، سواء في فهم الحياة او في التعبير عنها. الآهة، والنظرة الفاجعة، والعبرات من ظلم القدر، انتهت فيها. وبدأت، على العكس من ذلك، روح من المغامرة والتمرد ومواجهة الحياة.

لقد عبرت بذلك عن انتقال الناس، في سورية سنة ١٩٣٥ من مرحلة الانفعال والسلبية، أمام الحضارة الغربية، الى مرحلة الفكرة والتمرد، من السلبية المدافعة الى الايجابية والهجوم (الحياة المفجعة) لم تعد مأساة بل بطولة، ومن هنا كان فجر التحرر عند عفلق.

ثم أن هذه القصص كانت فتحاً جديداً في الأدب، وفي القصة بوجه

خاص. انها النماذج الاولى التي اثبتت ان القصة يمكن ـ بل ويجب ـ ان تكون، جماع الأدب كله. كانت التعبير العملي عن المفهوم الحديث للقصة الأدبية التي (تشمل كل نواحي الحياة وتنفذ إلى أعمق أعماقها، كالشعـــر والفلسفـــة) وتشف عن الانســان العميق. ولقد كان اللون الانساني، الى هذا غريباً على القصة وعلى الأدب العربي كله. كان اتساع القلب والعاطفة والنظرة بحيث تشمل الانسانية كلها من خلال فرد منها، شيئا جديدا غريب الرأي، على الناس. ولهذا كان طلاب الاستاذ عفلق يعجبون ـ يومذاك ـ من ذلك العالم (السندبادي) الذي يحيك من مداه البعيد سطوره.

أكان الاستاذ عفلق فيما كتب، سابقاً لعهده؟

لقد نكون أقرب الى الصواب اذا قلنا انه احتضن كل تلك العواصف التي كانت تعصف بقمم الثقافة في سورية سنة ١٩٣٥ وعبر عنها وعن الموقف الانساني البطولي الذي وقفه، في تلك القصص والمقالات المعدودة التي كتب.



هوامش الفصل الثالث

(١) مقال في مجلة الطليعة العدد الاول من السنة الثانية آذار (مارس) ١٩٣٦
(٢) مقال (خرافة البؤس) مجلة الطليعة العدد الاول السنة الاولى ١٦ آب (اغسطس) ١٩٣٥
(٣) مقال (آراء في الشعر) الطليعة العدد الثاني السنة الاولى ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٣٥
(٤) مقال (الشباب المريض) الطليعة العدد الخامس السنة الاولى
(٥) جريدة القبس سنة ١٩٣٥
(٦) استفتاء جريدة الايام عدد الربيع ايار (مايو) سنة ١٩٣٥
(٧) الاستفتاء السابق نفسه.
(٨) نشرت في جريدة الايام ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٤
(٩) نشرت في جريدة الايام في ٢١ حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٥
(١٠) نشرت في جريدة الايام في ٢١ مايو (ايار) سنة ١٩٣٥
(١١) نشرت في مجلة الطليعة العدد الخامس السنة الثانية سنة ١٩٣٦
(١٢) من مسرحية (موت السندباد)
(١٣) من قصة (شيطان الليل)
(١٤) في قصة (شيطان الليل)
(١٥) من مقال (ثروة الحياة)

٤

بريق السياسة

(..منذ اكثر من عشرين سنة وانا اتابع الحوار مع الاستاذ ميشيل عفلق، وهو من قلة المفكرين العرب الذين وضعوا اصبعهم على الجرح وعرفوا الداء، وجاءوا بدواء.. فالاسلام ثقافة الشعوب المسلمة، وهذا ما صرح به الاستاذ عفلق في كتابه الشهير (في ذكرى الرسول).
لقد وصلت، وبعد مناقشات وتحليلات، الى النتيجة نفسها التي وصل اليها الاستاذ عفلق، واعني بها علاقة العروبة بالاسلام، وعدم وجود اي تناقض بينهما.. واتساءل هنا هل يمكن ان يكون هناك تناقض بين الانسان وكيانه؟
لو كان هنـاك مثـل هذا التنـاقض الذي يحاول البعض خلقه من العدم لحدث نوع من الانتحار... اي انفصال الانسان عن وجوده..)

جاك بيرك

لا أظن احدا يستطيع الكتابة عن مرحلة انتقال الاستاذ ميشيل عفلق من الأدب الى السياسة الا الذين عاشوها. ولقد تردد هؤلاء في الكتابة عن هذه الناحية أما أنا فقد أغراني الحبر كنشوة. لقد اتضح لي ان لا قدرة لي على الصمت الأبدي. كنت وأنا صغير بالبنطال القصير اكتب بعض الخـواطر بعضهـا لدي، وبعضها الآخر ضاع مع ما ضاع من حياتي، وحياة الذين رافقوا هذه النقلة.

معـظم الذين التفّـوا حول الاستاذ ميشيل عفلق من الذين احبوه، والذين كرهوه في ما بعد، يعترفون بأنه منح الحزب كثيراً من رومانتيكيته الضرورية لكل بدء، كما وسم الحزب بطابعه الفكري.

رأيتــه أول مرة عندما كنت اتقدم لفحص البكالوريا، وكان في لجنة التاريخ والجغرافيا الفاحصة. لم يكن جديدا عليّ، فقد سبق أن قرأت له قصصا قصيرة بارعة ثرة البيان تضعه في مستوى الكتاب الكبار، وتقفز به بعيدا عن ادبائنا.

كان ينشر قصصه في جريدة (الايام) كبرى الصحف الدمشقية التي كانت تقود النضال، والتي كانت تصدرها (الكتلة الوطنية)، وكان يرأس تحريرها المناضل العربي (عارف النكدي). ومن كتابها: (ابراهيم هنانو، هاشم الاتـاسي، سعـد الله الجابري، الامير شكيب الجابري وشقيقه الامير عادل). وكان بعض اساتذتنا في الأدب العربي الذين استغربوا

مقالات عفلق تظهر في الجريدة يغمزون من قناة الكاتب العائد من باريس ويقولون ان بعض قصصه نقلها عن (اندريه جيد) نقل التلميذ الذكي، وحين سألت استاذي (اديب التقي) عن الحقيقة اجابني: (ان الذي يتهم الأديب الناشىء ميشيل عفلق بالنقل عن جيد انما يدفعه شعوره بمركب النقص العربي الذي لا يمكّنه من رؤية الومضة الفنية في أدب عفلق، وأرى ان في قصصه افتراقا عن جيد، وان فيها أثرا من نيتشه في مسوح شرقية حالمة).

لم نكن نتصور نحن الصغار الذين كنا نتحلق حول الاستاذ عفلق: (بديع الكسم، عبد الحميد دركل، بدر الكسم، شاكر مصطفى، مظهر وصفي) أن موهبة الاستاذ الأدبية يمكن ان تشرد الى السياسة.

سمعتــه يعلّق على سؤال وجهــه اليــه بديــع الكسم عن (الجبــل السحري)، فكان بطيء الحديث مشعا، لقد حلل (بروست) كأنه يؤلف رواية.

قال لي (شاكر مصطفى) بعد خروجنا من منزل الاستاذ:

(.. أظن ان أكثر الكتاب تأثيرا في الاستاذ.. هما نيتشه واندريه جيد، منحه الاول الثورة، والثاني الاسلوب، وغذيا فيه القلق الذي وسم حياته السياسية بالتأرجح).

في سلوك ميشيل عفلق طيب الفنان، وعصبيته، وقرفه. يصدق ما يقال له اذا جاءه من المريدين المخلصين.. فيه براءة طفولة وحرص شيخ. عنيد في رأيه، حياته الداخلية غنية. كان الحزب تعبيرا عن انسانيته فتجلت منذ الايام الاولى فيه مواهبه.

كان الحزب عنده خلقا فنيا حل محل القصة والمقال والقصيدة. اراده روايته او ملحمته الخالدة، فأحبه كما يحب الفنان ابناءه وروائعه. في حديثه، كما كنا نصغي اليه ونحن ما نزال كبراعم الربيع، حنان ومدى، وفي لفظه وشي منمّق دون صنعة.

ظل الاستاذ عفلق في الحزب معذباً، ذلك أن الخلافات المتوالية بين الرفــاق كانت تمتص قدرتــه، لقد كان يجهد لجعل الحزب على صورته ومثــاله، ابنــا حبيبــا يعيش برضاه وبركته، ويسترشد برأيه ونصحه،

يخطىء معه ويرشد معه، يحزم ويتردد معه، ودّ أن يكون الحزب بضعة منه، خير أبنائه، برّاً بأبيه يتحمل مسؤولية خطأه ويبررها، يحيط أباه بالحدب والعطف.. ولكن (العيال كبرت) وأصبح لها رأي.

ما كنت استطيع الكتابة عن الاستاذ ميشيل عفلق لو أنني انتسبت الى الحزب، وكم كان الاستاذ يقرعني ويؤنبني على هذا العزوف. ولم أكن وحدي في هذا الموقف الذي يجعلني لا مع الحزب ولا ضده، فقد كان معي: (شاكر مصطفى، ومظهر وصفي) وكنا نحن الثلاثة نشكل حركة دائمة تدور حول الاستاذ وأدبه ومواقفه. لقد اتخذنا هذا الموقف بعد فجيعتنا في حركة (عصبة العمل القومي) وانفراطها. لقد انتُخبنا نحن الصغار الثلاثة من قاعدة (العصبة) لنمهد مع الاستاذ لقبول انتساب اعضاء العصبة الى البعث، وكان ذلك عام ١٩٤٧.

كان البعث يومئذ حركة عفوية، وكانت النتيجة ان دخل معظم شباب العصبة البعث وبقينا خارجه لقناعتنا، يومذاك، بأن العمل السياسي في الحزب يفسده، والأفضل للأستاذ وحزبه العمل في اطار تهيئة جيل من المثقفين لقيادة الحزب، ولعلنا كنا نحن الثلاثة متأثرين برأي الاستاذ الذي كان في البداية يفضل العمل الثقافي على العمل السياسي.

من يقرأ سير الأحزاب التي لعبت دوراً كبيراً في التاريخ، يجد أنها بدأت من نواة، ثم امتدت، وكانت نواة حزب البعث العربي مؤلفة من استاذين: (زكي الارسوزي وميشيل عفلق).

لقد رفض الأول أن يكون ثانيا في الحزب، وأصر الثاني على أن يكون الأول، كما سأوضح اثناء سياق البحث.

حدث يوما اننا كنا نتحلق حول الاستاذ في مقهى الكمال، فوجه الينا السؤال: لماذا لا تقدمون طلب الانتساب الى الحزب؟

فسكت شاكر، ولزم الصمت مظهر، فقلت:

ـ ان حتمية العمل السياسي الجدّي لترسيخ الحزب في دمشق تتطلب السيطرة على قوى المدينة الشعبية قبل الانتقال الى مدى آخر، وقد لمسنا ان الاتجاهات داخل الحزب تعمل العكس، لأن العمل في دمشق عسير، ويتطلب جهداً كبيراً، والرفاق (مستعجلين) على قطف الثمرة قبل نضجها.

لا أذكر ان الاستاذ تفوه بكلمة، ألم يعلمنا هو نفسه هذا؟

اعتقـد الآن، وبعـد مرور سنوات على هذا الحوار ان حزب البعث العربي لم يفهم دمشق، ولا يريد ان يفهمها!

لقد كانت الشروط الاجتماعية في الريف مواتية لنشوء الحزب وامتداده فتضخم فيه وتقلص في دمشق، على الرغم من ان نواة البعث قد تشكلت في البداية من العائلات الدمشقية الأصيلة (الكسم، الحكيم، دركل، كرد علي، البيـطار). ان دمشق مدينة التاريخ العربي لا تسلس قيادها الا لعاشق على قد فتنتها. مدينة الانتظار تستأني وتتريث، ثم تتمنع فترفض او تقبل: رفضها يعني استحالة الاستمرار، قبولها يعني دخول التاريخ من أوسع ابوابه، لم تصبح دولة العرب كبرى الا حينما حملت الراية العربية خفاقة، وما كان لفكرة القومية العربية شأن لولا أن دمشق آمنت بها.

هي عاصمـة الشرق الاوسـط عبر التاريخ، تظل تنبض بثرّ الحياة وسرها رغم ما حاق بها من نكبات.. هي، هي، دائما، المشعل الذي يخبو نوره احيانا فلا ينطفىء، وكثيرا ما تعمه العيون عن القبس الحيي، تخاله خبا وهو يجمع خفاياه لوميض تغشى له الأبصار.

لم يدرس الرفاق الذين شكلوا القاعدة للحزب بناء دمشق الاجتماعي الذي تكوّن خلال آلاف السنين فبات ارثا عضويا. قنع هؤلاء ان دمشق لا يمكن أن تكون بعثية فأقاموا بينهم وبينها جداراً من المستحيل، مع انها مدينة رحبت بخطوة الاستاذ عفلق الاولى منذ البداية.

وراء تكـوين هذه المـدينـة التجـاري عفوية عائلية وتقييم أخلاقي للانسان يجعل من العلاقات بين الافراد تقاليد انسانية شبه دينية، اذا زالت، زال معنى دمشق، تنشأ بين الدكاني وخادمه اذا ائتمنه وشائج أسرة تؤول الى الشراكة والقربى بالزواج، له مع عملائه وزبائنه المنتشرين في الريف والبلدان العربية المجاورة طراز من التعامل القائم على الوعد والثقة، تطور فأصبح تراثاً واساساً في علاقة التاجر الدمشقي مع العالم، لم يضعفه الزمن منذ الآراميين، وانما متنه وشدد اواصره، فكان راسمال دمشق والدمشقي.

وراء المظاهر التي يشاهدها العابر العادي في شوارع دمشق ما تخدعه عن حقيقتها وتوهمه انها مدينة قريبة من التحلل، تمسك بالتقاليد بغير تعصب: قد تكون دمشق من اكثر المدن الاسلامية صلاة وصياما، نسبة عدد الحجاج السنوية منها، اكبر نسبة، يدفع فيها التجار الزكاة، وهي تفتح صدرها لكل من يفد عليها، شرط ان يفهمها على حقيقتها بلا زيف. يأتيها عارف النكدي من الشوف مع الملك فيصل الاول، فيذهب الملك فيصل ويبقى النكدي يتبوأ أرفع المناصب، فهو تارة رئيس تحرير جريدة الايام (جريدة الكتلة الوطنية)، وتارة اخرى مدير للعدلية، او مدير للأمن العام، او مدير للاعاشة لتنظيفها.. واحيانا محافظ جبل العرب، يفد عليها عفيف الصلح من صيدا فتنتخبه نائباً عنها، وسفيراً لها في تركيا، ويظهر (سعيد حيدر) القادم من بعلبك الى جانب الزعيم عبد الرحمن الشهبندر، فاذا بدمشق تكرمه بعد اغتيال الشهبندر فتنتخبه نائبا.. ومن ثم رئيساً لمجلس النواب.

ليس سهلا أن تنتزع من دمشق تقاليدها، او تنتزعها من ماضيها القديم لتقنعها بنظرة جديدة للحياة رغم انها عطشى لكل جديد، تتقبله اذا كان صادقا، طبيعتها طبيعة مؤمن حقيقي يُبطىء حتى يقنع، فاذا فعل تشبث فعاش بعقيدته الجديدة ولها.

سهل قياد دمشق صعب، انها تعيش دائما على انتظار إيمان كبير كي تحقق فيه ومعه وجودها ومعناها التاريخي، تظنها ماتت فما تجس نبضها حتى يفاجئك بطاقة عجيبة على الحياة، تهدأ حتى لتظن انها قبر ثم تنتفض فتجد الطغيان تحت قدميها.

لقد استقبلت دمشق تمرد الاستاذ ميشيل عفلق وتطاوله على قادة النضال في كثير من الصبر والحكمة. ولكن المريدين الذين التفوا حوله لم يدركوا سر دمشق، ظنوها حجارة وأبنية وشوارع وسابلة، لم يهتموا بالنواة القوية، وحين اتسع الحزب وكبر قنع بظروفه وامكاناته، لم يتحدّ الصعب، وجد ان عناصره الاولى ريفية وانها عائدة الى الريف بعد الدراسة فترك الامور تسير على هواها دون ضابط.

قد لا نبتعد كثيرا عن الحقيقة حين نقول هنا أن معظم الخلافات

والانقسامات التي تعرض لها حزب البعث في الخمسينات وما بعد كان مبعثها عدم فهم دمشق. وعدم الايمان بفعاليتها.

قاد حزب البعث بين ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ معركة جدية، فقد استطاع على قلة عدد افراده ان يعطي المعارضة لنظام الكتلة الوطنية والرئيس شكري القوتلي طابعا قومياً كلي النظرة شاملها، رغم كل الارتجال. لم تكن تنقصه حرارة العاطفة بل العمق.

كان يجـري ويلهث وراء الاحـداث، ولم تكن ابـدا بسيطة. كانت المشاركة في اكثرها ضرورية. فعندما ندرس الحزب في هذه الفترة نجد الخطوط العريضة صحيحة نابعة من فكرته ووجدانه القومي، حتى اذا تأملنـا التفـاصيـل نجد الطفولة السياسية والرومانتيكية البعيدة عن الواقـع. كان الاستاذ ميشيل عفلق خائفاً من عدد المنتسبين الصغير تزعجه الصعوبات المادية، يلح على ضرورة (بذل نشاط كبير) كي يصبح الحزب جماهيرياً مع انه كان ينمو بطيئا وينصهر شيئا فشيئا.

لا يمكننا التحدث عن الاستاذ ميشيل عفلق وحزب (البعث العربي) دون القـاء نظرة فاحصـة على العلاقة التي كانت سائدة بين الاستاذ ميشيـل عفلق، والاستاذ زكي الارسوزي. أو على الاصح بين القاعدة الطلابية لكل من الاستاذين.

لقد ارتبطت فكرة القومية العربية في الثلاثين سنة الاخيرة بالبعث. ولا أعني انها بدعة منه او وقف عليه. ولكنه استطاع في مرحلة من حياته ان يكـون بين الحركات الاخرى اقدرها على التعبير عنها، وأوسعها مدى. ويجب ألّا يغرب عن بالنا أن الاستاذ عفلق انطلق بفكرة البعث من دمشق وطن العروبة، مدينة الاشعاع العربي التي يتأثر العرب بكل ما جاء منها يرون فيه صدى الأصالة وأرستقراطية الفكر.

لست هنا في مجال البحث التاريخي عن عوامل نشوء فكرة القومية العربية وتطورها ولن أتطرق إلا الى ما له علاقة مباشرة بالاستاذ عفلق الذي اقترن اسمه بنشأة الحزب.

ذهب كثيرون الى ان مؤسس (البعث) هو الاستاذ زكي الارسوزي، وآخــرون الى انهمـا: الاستاذان ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار.

وتعصب لكل من الرأيين فريق من الحزبيين، ودارت مناقشات حادة لا يعرف تفاصيلها الا القريبون من الاستاذ عفلق.

كانت بداية الحزب مع الاساتذة: (ميشيل عفلق، جلال السيد، صلاح الدين البيطار) الثلاثي القيادي لمرحلة البداية، كانت هذه البداية بسيطة وادعة صافية لا تنبيء بما تمخضت عنه، كأنها قصة نسجها خيال روائي. ومهما كان الرأي حيال هذا، فان مما لا شك فيه ان (البعث) هو إرث (عصبة العمل القومي) الى حد بعيد، نواة تنظيمي الاستاذين الارسوزي وعفلق الاولى من هذا الحزب.

كان القوميون العرب سنة ١٩٣٢ بلا تنظيم سياسي فاستطاعت (العصبة) بعد قيامها تلك السنة وخلال عمرها القصير الذي امتد بين ١٩٣٢ و ١٩٤٠ ان تجمع شمل اكثر شباب سورية، حتى بلغت الانتسابات اليها رقما كبيرا (بلغ كما قال لي احد قادتها في مدينة حمص النائب حلمي الاتاسي ثمانية آلاف شاب خلال اقل من ثلاثة اشهر من انطلاقتها).

حظيت العصبة حين قيامها بتأييد الكتلة الوطنية التي كانت تقود النضال الوطني وتتمتع بتأييد مطلق من الشعب. وكان معظم قادة العصبة: عبد الرزاق الدندشي، شفيق سليمان، ابو الهدى اليافي، حلمي الاتاسي، صبري العسلي، احمد الشرباتي، فهمي المحايري، عبد الكريم العائدي.. و.. من شباب الثورات العربية المتلاحقة في سورية وخارج سورية، سواء في فلسطين، او العراق، لقد رأت الكتلة الوطنية في العصبة التنظيم الذي تعتمد عليه. ولكن أزمة فقدان الثقة، التي نشأت بين الكتلة والعصبة اثر فقدان (لواء الاسكندرونة)، وقبول الكتلة الوطنية لمعاهدة ١٩٣٦ مع فرنسا المنتدبة، أدت بالعصبة الى مواقف معارضة للكتلة الوطنية... لقد اخذت العصبة على قادة الكتلة قبولهم لمبدأ (خذ وطالب) واشتد الخلاف حين ألفت الكتلة كتائب (الشباب الوطني) أو (القمصان الحديدية).

كانت العصبة تتخذ موقفا سلبيا من الانتداب، فقد امتنع المنتسبون اليها عن كل تعاون مع حكومات الانتداب حتى التوظيف، وقاطعوا

انتخـابـات المجلس النيـابي، فقد كانت عندهم المشاركة في اي نشاط سياسي مهادن للانتداب نوعا من التعاون معه.

وتشاء الأقدار ان تصاب (عصبة العمل القومي) بعطب كبير حينما استشهد امينها العام الاستاذ عبد الرزاق الدندشي بحادث غبي، وذلك اثناء ركوبه الترام، وإقدامه على مد رأسه منه في حركة عفوية فمرّ الترام المقابل فاقتطف رأسه الذي كان يشع ذكاء ووطنية وفداء من اجل الحرية والوحدة والعروبة.

جاءت الضربة الثانية للعصبة حين قبل امينها الثاني الاستاذ صبري العسلي بدخول المجلس النيابي بضغط من الرئيس شكري القوتلي ففصل من العضوية، ولكنها استمرت وازدادت قوة بعد ذلك حتى جاءتها اقسى ضربــة بانسحــاب الاستاذ زكي الارسوزي الذي منحها خلال المرحلة الممتدة بين ١٩٣٣ ـ ١٩٣٩ كثيرا من القوة، أعني منذ انتسابه حتى انسحابه. بعد ذلك، وفي بداية الحرب العالمية الثانية استطاعت الكتلة الوطنية (أكل) العصبة بجرّ معظم قادتها الى صفوفها، فأوقفت العصبة نشاطها، ثم حاولت ان تعود اليه سنة ١٩٥٤ فما نجحت. فاذا بقاعدتها تتسلل الى (البعث) وتنضم اليه.

كان الاستـــاذ زكي الارســوزي زعيم المقــاومــة العــربيــة في (لواء الاسكنـدرونــة)، قادها بايمان وصبر وشجاعة، أعطاها معنى صوفياً وطنيــاً، واستقطب اعجاب وتأييد شباب سورية، وغدا رمزاً وطنيا. لمع اسمــه كظاهــرة جديــدة تعبــر عن مفاهيم أخرى غير مفاهيم الزعماء التقليـديــين التي آمن بهــا شعب سوريــة خلال مرحلة النضال ضد الأجنبي. كان هزة للقيم السياسية وبداية الشك بالأفكار والأساليب، منطقا مختلفا لا يمت بنسب الى العادي المألوف، فكان اول من كشف عورات التخلّف، وجاء السياسة بتحليل متأثر بالثقافة والفكر الأوروبيين.

بعد فقدان اللواء جاء الاستاذ زكي الارسوزي الى دمشق، وكُرِّم من قبل قادة الكتلة الوطنية اجمل تكريم. وما عتم ان انسحب الارسوزي من العصبة التي كان من اوائل مؤسسيها.. وقليلاً قليلاً تلاشى بريق العصبة

وادخلها قرار قيادتها بحلها الى عالم النسيان.

من يقرأ دستور العصبة يجد فيه بياناً جزلاً ويلمح في التعبير ايمانا بالقومية مطلقا، ولكنه ما كان قادرا على ان يرضي النزعات الجديدة لدى مثقفي سورية الذين كانوا يبحثون جديا عن اطار حزبي يصهرهم.

سنة ١٩٣٩ بدأت الصحف تتحدث عن قيام حركة جديدة يقودها بعض المثقفين القادمين الى دمشق بعد انهاء دراستهم في فرنسا. وأخذت الاخبار تتوالى عن الاجتماعات التي تعقد لتأسيس حركة سياسية تقود النضال العربي، ومن هذه الاخبار قيام الاساتذة: (ميشيل قوزما، زكي الارسوزي، ميشيل عفلق، صلاح الدين البيطار، شاكر العاص، أليس قندلفت) بانشاء منظمة ما عتمت ان انتهت بعد الاجتماع الاول.

ثم طلعت الصحف الدمشقية بنبأ يبشر بقيام حزب اسمه (الحزب القومي العربي) بزعامة زكي الارسوزي، وسرعان ما نشرت مبادىء الحزب:

الحزب القومي العربي - رمزه: النمر.

١- العرب امة واحدة.

٢- للعرب زعيم واحد يتجلى عن امكانات الامة العربية يمثلها ويعبر عنها اصدق تعبير.

٣- العروبة: وجداننا القومي، مصدر المقدسات، عنه تنبثق المثل العليا وبالنسبة اليه تقدر قيم الاشياء.

٤- العربي سيد القدر.

يؤدي بنا تحليل هذه المبادىء السريع الى ادراك الرؤيا الحضارية التي نبعت منها والبون الشاسع بينها وبين المنظمات السابقة لها. هي انفصال فكري نوعي عن مجتمعنا، وتقييم جديد عليه للانسان، ولكن مرحلة التخلف تدفن في لجتها نزعات التمرد الثورية حتى لتبدو طيشاً طفولياً غير قادر على البقاء.

كلمات قليلة حاسمة، يستطيع المنتسب اليها ان يحفظها بيسر ويرددها، صيغت بقالب جديد، يظهر فيه اثر الفكر الحديث، كل كلمة تعني فكرة.

لقــد دأبت التكتــلات التي ظهـرت في سورية على مجانية الحزم في تسمياتها. تختار ما غمض والتبس فتظل هويتها غائمة تحتمل التفسير فلا تصــدم، تفســح المجــال لحــيرة المتردد كي يخطو الخطوة اللازمة للانتساب.. فالعلاقة بين المنتسبين في هذا الحزب عضوية تنظيمية الفرد فيه قومي عربي لا لبس ولا غموض.

رمز النمر: جرت الاحزاب ما بين الحربين، وخلال الثانية على اختيار رمز مثير لخيال الناشئة، تقليداً للنازية والفاشية، مع ان العربي بعيد بطبعه عن الرموز الوثنية، فهو حتى في جاهليته غير طوطمي النزعة على عكس الشعوب الآرية، والنازية، هي عودة الى القبلية الجرمانية بروح حضــاريــة جديدة تستلهم اشكالها الحديثة الاولى من طبيعة شعبها والرموز التي عبر بها عن نفسه بدائيا.

هنا نجد فكر المؤلف يظهر بدون رتوش. لم يختر الارسوزي الأسد، لأنه أقرب الى الرزانة والهدوء، وهو غير ثوري. أما النمر فهو أشد توثبا، يذكر بعقاب عقبة بن نافع الذي لم يختر النسر.

العــرب أمة واحدة: لم يقل أمة عربية واحدة. ذلك انه عرقي يؤمن بالنبالة والأصالة، ارستقراطي النزعة والفكر. العرب عند الارسوزي قوم، الفردية فيهم نزعة انسانية اما الأمة فمزيج تضيع فيه ملامح الانسان التي تسمو على قدر ما تصفو الأعراق.

يبــدو هذا الكــلام غريبــاً على المثقفين، ولكن الذين يعرفون تفكير الارسوزي يعترفون انني استطعت بهذه العبارات تصوير افكاره.

كان الارسوزي يعتبر نفسه ذروة التعبير عن هذا المنحى الذي لم يكن جديــداً على العــرب ـ وفق منطقه ـ بل هو الطابع المميز للفكر والروح العــربيــة بلغ اوجه ـ كما يقول الارسوزي ـ في القرون الوسطى عند المتنبي والجاحظ.

يقول الجاحظ في كتابه (البخلاء) عندما يتحدث عن العرب:

(..روى أن قومــا من العــرب)، يقــول روى لأن الروايــة قصر على المقــدســات: الحديث والشعر والانساب، وقوما لأنهم ذوو أرومة اليها ينتسبون. أما اذا تحدث عن الفُرس قال (حكي ان جماعة خراسانية).

حكي للتسلية، جماعة (أي تجمع لا نسب له)، خراسانية نسبة للأرض، لا أصل لها.

للعـرب زعيم واحد: يعطي الارسوزي الزعامة معنى صوفياً متأثراً بنشأته الدينية. الزعيم ليس سياسيا فقط وانما هو (تجلّ) انساني، قمة فضـائـل الأمة يعبر عن كل طاقتها على العطاء الروحي والبطولي. انه صورة علمانية حديثة (لإمام الزمان) الذي يُقتدى به بالصلاة ويطاع فيما يقضي فيه، فهو الحاكم السياسي الديني. الزعيم مبدع افكار ودولة.

كنا نصغي الى احاديث الارسوزي وكأننا نعيش في دنيا حالمة، الكثير من عباراته لا نفهمها رغم انها تدغدغ احلامنا.. ونسأله عن العروبة كما يراها فيقول: العروبة: وجداننا القومي، انسانيتنا، نحن. انبثقت عنها المقـدسات، الامجاد والبطولة والدين، الفكر والفن، هي نحن الأصيلة المبدعة لعطائنا التاريخي الحضاري، ينبوع القيم الخلقية.

كان الارسوزي يستشهد بالإنجيل قائلا:

ـ لا تسقط شعرة من رؤوسكم الا بأمر أبيكم الذي في السموات.

كان على حزب الاستاذ زكي الارسوزي أن يبدأ من البدء، ان يتحرر ويحرر. ان يثور على كل ما توارثه المجتمع من افكار وتقاليد، ان يرود اليـنابيع فيعود الى الأصالة النبيلة ليبني على قيمها الجاهلية المجتمع الجديد كما رآه.

كان الارسـوزي ارستقـراطي النزعة يؤمن بالفروسية: الاشتراكية عنده كما سبق وقال لي اثناء استجوابي له في تحقيق صحفي عن حياته، هي تكافؤ الفرص: المواطنون متساوون أحرار، تبدأ ملكيتهم وثقافتهم من بدء متساو، كل يربح على قدر ما ينتج، المؤهلات هي مقياس التقدم، والمجتمـع هو المجال الذي تتألق فيه الطاقات تستمد منه نسغ الحياة وتغنيه بابداعها، مبرر وجوده، الابداع فهو أولا وآخرا في خدمة العبقرية لأنها اعلى اشكال العطاء الانساني، بل الغاية من وجود الانسان على الأرض.

هذه المباديء هي بذور نظرة شاملة، ولكنها ظلت مجرد بذور لم تلق المدى الكامل من الشرح الذي يعطيها كل ابعادها.

لم يعمر حزب الارسوزي طويلا، كما ان نشاطه اقتصر على نفر من اللوائيين المثقفين الذين رافقوا الارسوزي في تغريبته. وكانت النتيجة ان ذهب الارسوزي سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ معلما الى العراق يمني النفس بغـزو قومي. فقد كان هذا القطر يستقطب آمال شباب العرب جميعا، خصوصاً بعد قيام الملك غازي بحركته التمردية ضد القديم.

عاد الارســوزي بعد أقل من عام صاخباً شاتماً يتهم القائمين على الحكم بالعمالة وقتل الملك غازي الذي رأى فيه الاستاذ الارسوزي بطلا منقذاً.

كان الشباب العربي في سورية خلال تلك الفترة يتصلون، بعضهم ببعض، يبحثون عن طريق للخلاص، والظروف الدولية قاسية، والمحلية اقسى، آلت المعاهدة السورية الفرنسية الى الفشل، سلخ اللواء، وأعلنت حرب عالمية والعرب خارطة بلا جدوى، كأنها يباب لا بشر فيها.

نشـأت في تلك الفتـرة تنظيمات حزبية محلية،. كلها تدعو للقومية العربية، لا تخرج عن نطاق العصبة الا قليلاً، اكثرها له صبغة اشتراكية غامضــة. بات التنـظيم حاجة وطنية انسانية، مقاومة لخوف جماعي، تأكيدا للوجود.

كنت من بين اليافعين الذين تعرفوا على الاستاذ زكي الارسوزي، وقد شدني اليه سلوكه المثقف، وقدرته على الظهور بمظهر عالم اللغة الصوفي. كان رائع الحديث شاعراً يتألق صوراً، سخي التشبيه والسُخر، لاذع النكتة، تنقلب المفاهيم والرؤيا السياسية والاجتماعية على يد حديثه مرة واحدة

كنـا نقضي ايام الصيف في (بلودان)، وكان الارسوزي الاستاذ في مدرسة التجهيز الاولى يستأجر غرفة صغيرة بأجر زهيد، وكنا نقضي الى جانبـه معـظم ساعـات الحر في الصيف، كان نضر الوجه انيقا، وديع المـظهـر، حتى اذا تكلم بدا ثائـرا متـوحشـا تلتمع عيناه الخضراوان الواسعتان ببريق كاسر هدام كأنه قدٌ من ثورة. وكانت معظم احاديثه في تلك الامسيات تنصب في تعليم مريديه كيف يكرهون الاستاذ ميشيل عفلق. كان يهاجمه بقسوة.. وكان يلحّ باستمرار عقب عودته من العراق

مفجوعا على تأسيس حزب.

جمعنا مرة في منزل ابنه الروحي (صدقي اسماعيل) الشاعر، والاديب. لقد وصل معه من اللواء وظل الى جانبه رغم انتسابه (الشكلي) لحزب البعث. يومذاك ألقى علينا محاضرة عن الديمقراطية والشيوعية والنازية استمرت خمس ساعات متصلة، تحرك فيها في الاعماق، كان بعيدا عن السطح كأنما لا وجود له على الأرض. حارّاً عاطفيا، بدأ من ديكارت وانتهى بتشمبرلين. كان في ساعات الضيق غنيا. انتهى من الحديث الى القول:

يوم ذكرى سلخ اللواء أحزن فأتفاءل. يحفزني الألم للعمل فانهد اليه. أرى أن نؤسس حزبا (ونسميه البعث العربي). واقترح ان يقسم التنظيم الى قسمين: سياسي وثقافي.

بعد ذلك بأيام قليلة عرفنا ان الاستاذ الارسوزي أسس الحزب وولى الاستاذ (عبد الحليم قدور) أمانة سر الفرع السياسي لأنه حسب تعريفه، ألمع الشباب واقواهم حدسا سياسياً، و (يحيى السوقي) أمانة الفرع الثقافي لأنه (اكثر الشباب جدا في قراءاته).

عهد الى (صدقي اسماعيل) بعملية التأسيس على ان يكون منزله المتواضع جداً، مقرا للحزب. كان بيت صدقي خلف مدرسة التجهيز الأولى، وكان يسكنه مع الاستاذ وعدد من الطلاب اللاجئين من لواء الاسكندرونة، أول قافلة من اللاجئين العرب، يمرغهم الشقاء في أسن الفاقة فيعولون عليه بتفاؤل عجيب.

اشترى صدقي اسماعيل من التبرعات التي جمعها (٢٤) ليرة سورية كرسيا عالياً للأستاذ، وكراسي واطئة كلها من القش للأعضاء وعددهم (١٢) طالباً. كتب صدقي اسماعيل بالقلم الرصاص على الحائط: نعيش هنا تحت ظل الوحدة العربية. كان الاستاذ الارسوزي يتحدث الى المريدين القلائل الذين التفوا حوله في الغرفة الصغيرة عن المسيح متأثرا بكتاب نيتشه (منشأ التراجيديا اليونانية)، يرى الجاهلية مثله الأعلى، يسميها المرحلة العربية الذهبية، يذهب مثل نيتشه الى ان سقراط بداية المنطق والدياليكتيك اللذين افسدتهما عفوية اليونان، وفي

(الكـلام) انحـطاط العرب. بل ذهب الى ابعد فتبنى ما كان جاهلياً في الاسلام فقط. كان انسان الرفض، فرفض طلابه معه.

عنـدمـا قام رشيد عالي الكيلاني مع الضباط الاحرار بحركتهم في العراق جن جنون الاستاذ واتهم (المربع الذهبي) مع الكيلاني بالخيانة. كان يرى انه لا يجوز قيام حركة ضد الحلفاء في بلاد العرب قبل وصول الألمان الى طوروس. كان الخطأ ـ في نظره ـ في اختيار الزمن. تنبأ للحركة بفشل سريع، فقد كان على الحركة ان تختار زمن ومكان المعركة: أن يسود القدر. وحصل ما توقع فلم تثبت الحركة الا أقل من شهرين. بدأت في ١ نيسان (ابريل) ١٩٤١ وانتهت في الحادي والعشرين من ايار (مايو). كان رغم عدم إلمامه بالتفاصيل صادق الحدس.

عندما هاجم الانكليز سورية في ٨ حزيران (يونيو) ١٩٤١، وحوصرت دمشق نفتـه السلطات الفيشية عن دمشق فهرب الى حماه، وقد اجبر الارسوزي على السير على الاقدام من مصياف الى تل كلخ، وهناك اطلق سراحه.

ومن المفارقات ان عدد المنتسبين لحزب الارسوزي لم يتجاوز الرقم الاول (١٢). وكان احيانا ينخفض الى النصف، كانت سنة ١٩٤٢ قاسية الى حد لا يتصوره عقل: فقر لا يحتمل ولا يطاق والمغريات متوفرة لمن يريد.

أخذ الشقاء يدمر حياة الاستاذ. كان متوتر الاعصاب يقضم نفسه. وبدأ الشك يسيطر على منطقه حتى غدا مرض اضطهاد: كل من حوله جاسوس. حتى المريدون القلائل الذين ظلوا الى جانبه لم يسلموا من نقده اللاذع.

ذهب الارسوزي الى اللاذقية عام ١٩٤٤ فسكن فيها قليلا ثم انتقل الى طرطوس. كان ينتقل من بؤس الى شقاء. هناك مرضت امه وعادها الطبيب فكتب الوصفة وانقضى يومان ماتت بعدهما دون ان تتناول الدواء.

ما كنت اريد ان ازج بسيرة زكي الارسوزي في معرض تناولي لسيرة الاستـاذ ميشيل عفلق، لولا التصاق السيرتين بعضـهما ببعض. ولولا

الدور الخطير والمهم الذي لعبه الاستاذ الارسوزي في تحطيم سيرة ميشيل عفلق اثر خروجه من سورية بعد حركة ٢٣ شباط ١٩٦٥. وقد يجهل الناس ان حركة ٢٣ شباط (فبراير) أحلت الاستاذ الارسوزي في سورية أبا روحيا للحزب بدل الاستاذ ميشيل عفلق. وانطلق يحاضر في الثكنات العسكرية ضد الاستاذين ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار.. لقد واتته الفرصة لينتقم، فأجاد الانتقام. لقد ظل يختزن انتقامه منذ عام ١٩٤١ حتى عام ١٩٦٥.

اقول في عام ١٩٤١ لأنه في هذا العام صدر بيان مطبوع على الحجر يحمل توقيع (البعث العربي). فجاء به صدقي اسماعيل الى الارسوزي، فلما قرأه قال: (بدأت دسائس الاستعمار. انه يقطع علينا الطريق الى الشعب بحركة تحمل اسمنا نفسه)..

في تلك الفترة أسس الاستاذان عفلق والبيطار حزبا حمل في البدء اسم البعث تارة، والإحياء اخرى. وكان مقر الحزب غرفة الاستاذ عفلق في منزله بحي باب مصلى في الميدان.

ومنذ ذلك التاريخ وعفلق والبيطار يتعرضان لسخرية الارسوزي ونقده اللاذع، بل وهجومه القاسي. وسرعان ما اتسعت دائرة الهجوم لتصل الى الكادرات العسكرية التي بدأت تتشكل حول الحزب وتحت شعاراته.

وظلت قصة البداية، بداية الحزب مجهولة النسب لدى العديد من قدماء البعثيين، وحين كنا نسأل الاستاذ عفلق عن الحقيقة المتنقلة بينه وبين الارسوزي كان يصفعنا بالصمت، انه لا يريد ان يتناول هذا الموضوع لا من قريب، ولا من بعيد، ولعل السبب في ذلك يعود الى أن بعض الرافعات التي قام عليها الحزب كانت تدين للارسوزي بالولاءين: المذهبي، والفكري.

اعود الآن الى اوراقي المبعثرة التي كنت أدون عليها بعض الخواطر والأفكار، والأحداث، فاذا بعدد منها يند عن اخواته وقد سجلت عليها قصة البداية كما سمعتها من الاستاذ (جلال السيد) الرجل الثالث في قيادة حزب البعث العربي عند تأسيسه، ومن ابرز العاملين في الحقل

الوطني في عصر النهضة. كان في بلدته دير الزور وجيها، ونافذ الكلمة، ومحبـوبـا. وحـين كانت سمعـة رفاقه الوطنيين تتساقط تحت ضربات الأحداث كانت سمعة جلال السيد تتألق.

كانت الطليعة من جيل الاستقلال ترى فيه المؤهل لقيادتها، وحين كان يفـد الى دمشق ويتصـدر المجـالس ويتحـدث عن العروبة، والحرية، والوحدة كان الجميع يصغون اليه باعجاب، وكان يعتمر (القبعة) ويتعمد الظهـور بهـا وهي على رأســه ليدلل على ان التحرر انما يبدأ بتحدي العادات البالية ومنها الابقاء على (الطربوش) مثبتا على الرأس!

كنت بحكم وضعي العائلي مؤهلا منذ الصغر للتعرف على الاستاذ جلال السيد واقرانه من قادة النضال، فقد كان يفد الى دارنا كلما جاء الى دمشق ويزور جدي في داره الملتصقة بمسجد بني امية، فقد كانت قاعتهـا المطلة على صحن المسجد تمتلىء يومياً بالعديد من المجاهدين الذين شاركوا في تأسيس الجمعيات العربية السرية الاولى، وكانوا الى جانب الملك فيصل الاول في تحمل المسؤولية. فعلى هذا المقعد كان يجلس الدكتـور عبـد الرحمن الشهبنـدر، والى جانبه سلطان باشا الاطرش، وحسن الحكيم، وسعيد حيدر. وعلى ذاك المقعد المريح كان يجلس عارف النكدي والى جانبه تحسين باشا الفقير، والى جانبه عالم دمشق الشيخ محسن الاسطواني، وشكري القوتلي، وسعد الله الجابري. وكان رفاقي في الدراســة الذين يتحلقــون حول الاستــاذين ميشيــل عفلق وزكي الارسوزي يحرصون على حضور هذه المجالس رغم صغر سنهم، وكانوا يسألونني باستمرار ما إذا كان جلال السيد قد قدم الى دمشق للاجتماع به.

كانت عقولنا في تلك المرحلة مع ميشيل عفلق، وقلوبنا مع جلال السيد. وكان الرجل يبادلنا هذا الحب بسعة صدر، وقدرة هائلة على الاقناع. ولم نكن نخفي حبنا له واحترامنا لآرائه وتصرفاته. وكنا نفاخر امام رفاقنا بأننا نعرف الاستاذ جلال ونحاوره، وكم سعدنا حين علمنا بأنه قد تعرف على الاستاذين ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار.

أعود، الآن، اكثر من ربع قرن الى الوراء لأنقل من اوراقي ما سمعته

من الاستاذ جلال السيد عن القصة الحقيقية لبداية حزب البعث.

قال:

حدث يوماً ان كنت مدعواً لتناول الغداء في دار الصديق الوجيه في حي الميدان (موسى رحمون) والد صديقك ممدوح رحمون في باب مصلى. وقد تعرفت في تلك المناسبة على جاره ميشيل عفلق.

وكنت اسمع عن الاستاذ عفلق وأقرأ له في مجلة الطليعة، وكنت اعرف انه قد قام مع بعض رفاق له بتأسيس جمعية (نصرة العراق) خلال ثورة رشيد عالي الكيلاني. وقد يكون هو سمع عني شيئا. وقد دارت بيننا الأبحاث وتشعبت، وكانت وحدتنا تامة في كل الامور التي بسطناها يومئذ.

وكان هذا اللقاء سببا في تعطش متبادل للقاء ولقاء. واستمرت الاجتماعات، يومياً، وقد تتكرر في اليوم الواحد مرات.

واستمر البحث والكشف عن امور لم يكن يعلمها أحد. وقد عرف الاستاذ عفلق أنني كنت انقل السلاح الى دمشق من العراق، ثم الى ثوار فلسطين، وأنني كنت اتولى تهريب المجاهدين من العراق للانخراط في الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطاني الصهيوني على فلسطين.

وتعددت الاجتماعات بيني وبين الاستاذ عفلق التي تتناول المواضيع الفكرية والنظرية. وكان بعض الاصدقاء يشاركوننا في البحوث السياسية ايضا.

وبعدما عمقت العلاقة الفكرية والخلقية بيني وبين الاستاذ عفلق سألته عما اذا كان يوجد في دمشق شركاء لنا في هذه الاتجاهات فقال:

نعم. ان لي زميلاً هو الاستاذ صلاح الدين البيطار، وهو اليوم غائب عن دمشق، اذ أنه سيقضي في بيروت بعض الوقت ثم يعود الى دمشق. وهو شاب متواضع يتصف بالايثار والتسامح، وكثيراً ما تنسب افكاره الشخصية اليّ وتعرف عنيّ بين طلابنا ورفاقنا، وهو لا يتضجر ولا يعترض ولا يحتج ولا يصحح نسبة هذه الافكار ولا يقول إنها افكاره. وهو مخلص في مشاعره القومية فضلا عن انه ذو فكر صائب ونظر ثاقب. وكنت أنا أيضا قد سمعت شيئا عن الاستاذ البيطار، ولكن هذه الأوصاف قد زادتني شوقا الى لقياه. وما مرّ طويل زمن حتى عاد السيد البيطار من

بيروت والتقينا فكان وصف الاستاذ عفلق له صحيحا.

ولم يلبث الاستاذ البيطار ان اصبح ثالثنا في المنهج والتفكير وسائر النظرات، وتسارعت المودة في ما بيننا نحن الثلاثة، واستحكمت حلقات الثقة، وتسارعت.

ويمضي الاستاذ جلال السيد في التنقيب بين ذاكرته فيقول:

حدث يوما أن التقيت بعفلق والبيطار، فقال لي عفلق:

ما دمنا متفقين، وما دمنا قررنا أن الاحزاب السياسية في هذا البلد لا تستطيع في تركيبها الراهن ان تقوم بالواجبات القومية والوطنية، وما دمنا مؤمنين بضرورة ايجاد تكتل من نوع جديد يحمل على عاتقه عبء القضيـة القومية على طراز افضل مما نرى، فما قولك بتأسيس حزب جديد نكون نحن نواته والمشرفين على تنظيمه، فأجبته بالايجاب بلا تردد ولا إعمال نظر، لأن الفكرة كانت مختمرة عندي من قبل، وكنت أبحث عن العناصر الشريكة في هذا البناء الذي تصورته ضروريا لهذا الوطن.

فسألني عن الاسم الذي يجب ان يعطى لهذا الحزب في حال قيامه، فقلت له ان الوقت متسع لاختيار الاسم. على أن الاسم يجب ان يكون عنواناً كاملاً لمهمة الحزب ومعبرا عن مقاصده الكبرى.

وقد وافق على هذه الملاحظة.

وبعـد اجتمـاعات اخرى اتفقنا على ان يكون اسم الحزب (البعث العربي). ومن المفيد أن تعرف انت بصورة خاصة لأنك تمارس الكتابة ان الاجتماعات لم تكن بيننا متباعدة او متباطئة، فقد نجتمع في اليوم الواحد مرتين او ثلاث مرات. لذلك كان البحث سريعاً ولا يستغرق اوقاتا طويلة. ولاختيار هذا الاسم جرت بحوث لا بد من ايضاحها تصحيحا لما علق في بعض الاذهان من وقائع خلاف ذلك.

لقـد سمعتَ ولا شك من رفـاقـك، وخصـوصاً من صديقك صدقي اسماعيل مقالة تزعم ان الحزب قد اسسه (زكي الارسوزي)، وان الاسم من وضعه الخاص، وان الفكرة برمتها قد انطلقت منه. واريد الآن أن أؤكد لك انه لا صحة مطلقا لهذا الزعم. وان الاستاذ الارسوزي لا علاقة له بحزب البعث. وانه لم يشترك في التحضير له، ولم يكن مطلعاً حتى

مجـرد اطلاع على المبـاحثـات التي جرت بيني وبين الاستاذين عفلق والبيطار بشأن تأسيس الحزب.

وأذكر ان السيد الارسوزي قد شاهدنا نحن الثلاثة خارجين من فندق الشرق وكان هو غير متعاطف مع الاستاذين المذكورين، وانما هو يرتبط معي بصداقة متينة مذ كان مدرسا في ثانوية دير الزور في الثلاثينيات عقب نزوحه من الاسكندورنة. وقد اقترب مني وسألني عن رفيقيَّ وعن علاقتي بهما، فأخبرته أننا ندرس موضوع انشاء حزب عربي شامل، ونحن لا نزال في الأطوار الاولى من البحث. فقال معلقا: لا بأس برفيقيك فانهما لم يصبحا شيوعيين. ولم يزد عن ذلك شيئا.

وقد كنا في بحوثنا عن مبادىء الحزب وعناصر الحزبيين نعرض بعض الأسماء من المواطنين السوريين وسائر العرب، وكان يرد اسم الاستاذ الارسوزي ولكنه كان يُستبعد عن البحث باعتبار انه تكون تكوينا قطعيا، وانه لا يدخل المعاني الاشتراكية في فلسفته السياسية، وانه أقرب الى التفكير النازي بل انه اقرب الى التفكير الروماني في تقسيم الناس الى عبيد وسادة، فهو يقسم الناس الى طبقتين:

النبلاء والأنذال.

وهـو فوق ذلك صعب الانضبـاط، عسـير التنظيم. ومع أن عاطفته القومية متأججة فانه شديد الوطأة على الذين لا يرون رأيه في الحياة. فهو لذلك منفّر بدل أن يكون سبيل تجميع واصطفاء والتفاف. وكانت نظرتنا منذ الأساس الى المواطنين انهم يحتوون كل عناصر النبل والشرف وان كل ما يظهر عليهم خلال ذلك، فانما هو عوامل عرضية وقتية زائلة، وان قليلاً من الصقل والمعاناة للانسان العربي يعيده الى معدنه الشريف، بينما كان الارسوزي يرى اكثر من نصف الشعب سافلاً، وكان يعبّر عن هذا بكلمة فرنسية (Lacke) وبالجملة فانه كان ارستقراطي الفكر ينظر الى الناس ـ من فوق ـ بينما كنّا ننظر الى الناس من مستواهم ومن بينهم، ونعتبر أنفسنا جزءا منهم نحمل كل صفاتهم الخيِّرة والسيئة.

وهذا لا ينفي ان الارسوزي كان يمضغ ويردد كلمة (البعث) منذ كان مدرسا في دير الزور، وكان يقترح تأسيس حزب بهذا الاسم الذي هو

ترجمة حرفية لكلمة (رينسانس) التي تعني الولادة الثانية والتي يعبّر عنها بكلمة (بعث) وكان يردّد مع (البعث) كلمة (نهضة)، وكان هذا كله في حدود البحث النظري المجرد. ولم يتخذ الارسوزي ولا خطوة واحدة عملية في سبيل انشاء حزب سياسي على الطراز الذي قام عليه حزب البعث في ما بعد.

ولكن كل هذا لا يمنع بأنه كان للارسوزي جناح يضم فئة من الشبان انتسبوا الى الحزب، ولكنهم كانوا متأثرين بمنهج الارسوزي، مطبوعين بأفكاره، مترسمين خطاه، ومقلدين له بالارادة والعفوية في كثير من المسالك والافكار.

هؤلاء الشبان كانوا طلابا للارسوزي، وقد استهواهم بحديثه الطلي وعمق نظرته الفلسفية في ميدان (ما وراء الطبيعة)، وقوته على التشبيه والتمثيل وسرعة خاطره وحضور بديهته، ثم عاطفته القومية الملتهبة، والتي هي موجهة بالارادة والتصميم الى ان تكون عاطفة عربية. وأعني بكملة موجهة بالارادة انها ليست مشاعر منطلقة من النفس وانما اوحى بها العقل واتخذ منها ما يشبه الزينة والزخرف يومذاك. وقد حدد عاطفته القومية وجعلها عربية الصراع الذي احتدم في لواء الاسكندرونة بين الفئتين العربية والتركية. ذاك ان تكوين الارسوزي ونشأة صباه قد كانا ضد الأتراك لأسباب قومية وطائفية. فالاستاذ الارسوزي يعتبر اهل المذهب الحنفي كلهم اتراكا. وهو يمزج بين نسب الامام والأتباع. وما دام أبو حنيفة فارسيا فان اتباعه كذلك يجب ان يكونوا من الفرس او الأتراك، أو من سائر الأقوام المسلمة من غير العرب. وان اتباع الأئمة الآخرين هم العرب ما دام أئمتهم من العرب.

هكذا كان السيد الارسوزي يعالج الأمور التاريخية والعلمية والاجتماعية. وهذا العلاج تتحكم فيه العاطفة الجياشة والحماسة القومية حتى تعطلان فيه المنطق والواقع والمعقول احيانا. وان الفئة البعثية التي سبق ان قلت لك بأنها تؤلف جناح الارسوزي تسير هي، ايضا، على هذا المنوال في النظر الى الامور. وغالب هذه الفئة هي من اللوائيين وألف الجميع (عقدة) داخل حزب البعث عرفت بقسوتها

وشدتها ومرارة نقدها للآخرين، تماما كما هو اسلوب الارسوزي.

وعزز مركز الارسوزي في هذه الفئة النشاط الذي قام به والجهد الذي بذله في الاستفتاء حول عروبة الاسكندرونة، فقد كان الارسوزي قائد الجبهة العربية المكافح من اجل عروبة اللواء. وقد استطاع أن يضمّ الى الجبهة العربية اكثر الطوائف من غير الأتراك كالأرمن وسواهم.

ويمكن القول بوجه من الوجوه، أن تضامن الجبهة التي يرأسها الارسوزي في اللواء كان له دافع عميق آخر غير الدافع السياسي والقومي، ذاك هو الدافع الطائفي. فالاتراك معروفون في سلوكهم العنيف ضد الاقليات، وسبب هذا السلوك توليد الكراهية بين الطوائف. وهذه المشاعر العفوية سهلت مهمة الارسوزي في تكوين الجبهة المضادة للأتراك مما جعل منه قائداً شعبياً مرموقاً في تلك المنطقة من الوطن العربي.

ويمضي الاستاذ جلال السيد في حديثه عن المراحل الأولى لتأسيس حزب البعث فيقول: لقد استمر الحوار والمذاكرات بيننا نحن الثلاثة، عفلق والبيطار وأنا، وكانت اجتماعاتنا يومية ومكثفة حتى وصل الأمر الى حد الاعتقاد بأن افكارنا واحدة لا خلاف حتى في جزئياتها وتفاصيلها وتفرعاتها.

وقد حدثني عفلق يوماً فقال ان له صديقا يأنس في الانسجام معنا، وهو طبيب عربي النزعة حرّ التفكير ويريد أن يبحث معه هذه الامور. فكان ذلك الطبيب هو مدحت البيطار الذي تولى الاستاذ ميشيل عرض القضية معه خلال عدة اجتماعات جانبية كانت تعقد من غير حضوري، وقد جاءت النتيجة إيجابية اذ صار الدكتور مدحت هو رابع لنا في مشربنا هذا، وأصبح الاجتماع بعد ذلك رباعيا.

اتخذنا نحن الأربعة من انفسنا لجنة تنفيذية لحزب البعث العربي، وأعلنا المباشرة في التنظيم وقبول المنتسبين. وأعلن الاستاذان عفلق والبيطار ولادة الحزب في بيان أصدراه. وهكذا ولد حزب البعث العربي الولادة الحقيقية، لكنه لم يولد ولادة رسمية الا في شهر نيسان (ابريل) من عام ١٩٤٧ حينما عقد الحزب أول مؤتمر له في مدينة دمشق، وقد

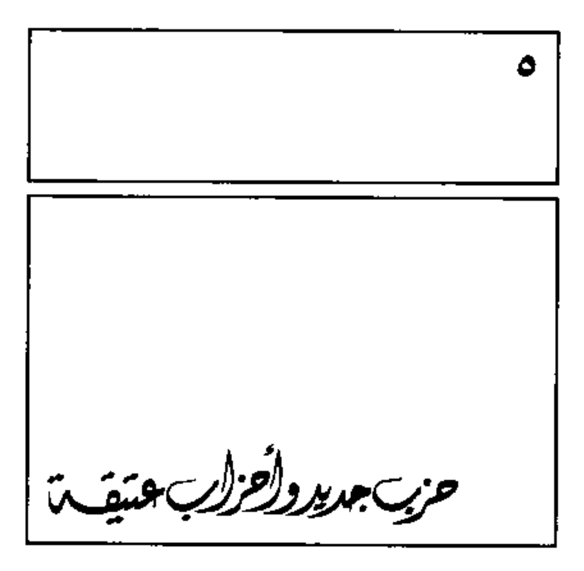
نشرت بيانات عن الحزب ومنشورات تعالج مختلف القضايا العامة وكانت تحمل تواقيع الاربعة:

(ميشيل عفلق، صلاح الدين البيطار، جلال السيد، مدحت البيطار).

ولم يكن في الحزب يومئذ من غير الطلاب الا هؤلاء الاربعة، اما سائر الحزبيين فكانوا اما من تلاميذ الثانويات، واما من طلاب الجامعة. واما سائر الفئات من غير الطلاب فانها لم تنتسب الى الحزب الّا بعد مضي وقت طويل على قيام الحزب. وحتى العمال الذين يُعدّون ركناً من اركان الحزب فقد تأخر انتماؤهم الى الحزب الى ما بعد الطلاب.

ويقول الاستاذ جلال السيد:

هذه هي الحقيقة عن نشأة الحزب وكل ما يقال من اقوال غيرها فانما هو تخرصات، او مقاصد سياسية أو عدم اطلاع.


٥
حزب جديد وأحزاب عتيقة

حين بدأ حزب (البعث العـربي) يتحفـز لينطلق، كانت الأحزاب في سورية عديدة، ولكن الذي لعب دورا اساسيا هي: الكتلة الوطنية التي انقلبت بعـد الجلاء الى حزب باسم (الحزب الوطني)، وحزب الشعب، والاخوان المسلمون، والحزب الشيوعي، ثم العربي الاشتراكي.

لم يكن حزب الشعب غير جزء من الكتلة الوطنية، انفصل عنها نتيجة لخلافات محلية تقليدية، زعامية اولا، وانتخابية ثانيا. تكوينهما ونظرتهما للبنيـة الاجتمـاعية واحد. حمل حزب الشعب بزعامة (رشدي كيخيا) شعار المحافظة على الديمقراطية، والدعوة السافرة الى الوحدة العربية الشـاملة، وظلت بنيتـه الحـزبيـة تعتمـد على علاقات الحيّ والأسرة، وللعشيرة الدور الأول.

امـا الاخـوان المسلمـون فقـد بدأوا يكونون قوة شعبية وجدت في الجمهـور منـاخا ملائماً لأفكارها، جهدت في أن تحتكر تديّن سورية، وخاصة دمشق.

لم يستطع الحزب الشيوعي أن يكون رائد المعركة رغم الحاجة الى ذلك، وظل دوره ثانوياً بعيداً عن صميم شعب سورية لأنه لا قومي أولا.

ومن الانصاف ان نقول إن كفاح الكتلة الوطنية قبل ان تنقلب الى (حزب وطني) كان عنيفاً ضد الفرنسيين حتى أنها لم تعط فرصة للهدوء والراحة لهم طيلة فترة تواجدهم في سورية ولبنان. ولكن حصل بعض الفتور في النهج القومي وتقلص الشعار الى درجة مقاومة الوحدة بين اي قطرين عربيين، فضلاً عن تحقيق وحدة عربية شاملة، وقد وقف زعماء الكتلة الوطنيـة صراحة ضد مشروع اتحادي بين سورية والعراق كان الملك فيصل الاول قد نادى به وتبناه، وعمل على تحقيقه بالوسائل الدولية

والدبلومــاسية، فانبرى من كتب صراحة من قادة الكتلة ضد المشروع بحجج اوردها يومذاك.

والمدّ العربي يومئذ لم يستطع الوقوف عند الحدود الاقليمية الضيقة، فكــان لا بد من ولادة منـظمــة قوميــة. وكان أن ولدت (عصبة العمل القومي)، وهي منظمة عقدت اول مؤتمر لها في (قرنايل) ـ لبنان ـ عام ١٩٣٣، وأعلنت انها حزب سياسي.

لقد ثبت بالتجربة والخطأ ان المد العربي لم يكن يقبل الوقوف عند الحدود الاقليمية، فلمّا لم تحقق الكتلة الوطنية مرامي هذا المد فانه خلق عصبة العمل القومي.

هذا هو الأساس في نشوء العصبة. يضاف الى ذلك شيء آخر قد لا تكــون فيــه غضــاضــة كبـرى على هذه المنـظمة الا من نواح ثانوية. فالافرنسيون اقلقهم نضال الكتلة الوطنية التي خندق الشعب بأكثريته الساحقة حولها، ودعمها الى أبعد الحدود، وبلا تحفظ. بل يمكن القول إن الشعب بمجموعه كان هو الذي يسير الكتلة في الطرق الوطنية. وبدلا من ان تسير الزعامة امام الشعب كانت احيانا تسير خلفه مضطرة حتى لا يفلت زمام القيادة من يدها. فكان ان ارتاح الفرنسيون لقيام فئة تعمل في نتيجة الأمر على شق الصف وتمزيق الوحدة الوطنية. وقيادة العصبة، اجمالا، كانت من رجال الدرجة الثانية في منظمة الكتلة. ومنزلتهم هذه ليست منـزلة سياسية، وانما هي بسبب مرحلتهم الزمنية، ومن صغر سنّهم ليس الاّ.

والبلبلة حصلت في البــلاد، وقــامت منــاوشات فكرية وسياسية لم يتخلص البلد منها، الا بعدما عاد الكثيرون من زعماء العصبة الى مقرهم الاول في صفوفها وبعدما نالوا ما يمكن أن يسمى (الترفيع). اذ حصل عدد منهم على مقــاعــد نيــابيــة او وزاريــة (صبــري العســلي واحمد الشرباتي). او عضوية في مجلس الكتلة، او ما هو شبيه بذلك.

من المعروف ان المنظمات تقوم على ثلاث دعائم:

الهـدف والاسلوب ثم العناصر البشرية التي تقوم بتنفيذ الاسلوب لتحقيق الهـدف. فمــا هو وجه الشبه بين عصبة العمل القومي وحزب

البعث العربي؟

١ـ في ما يتعلق بالهدف هناك تشابه كبير. فالعصبة مثل البعث اعتبرت القضية العربية كلًا لا يتجزأ، وعملت على تحقيق الوحدة العربية، ثم كان ميثاقها واضحا من حيث تحديد الوطن العربي، واعتبار العرب كل الذين يتكلمون اللغة العربية، ثم دمج المغرب العربي في عداد الأمة العربية بعدما كانت منظمات او قل نظريات عربية تشك في صحة هذا الانتماء، ولا تبعد بنظرها الى المغرب العربي في افريقيا.

٢ـ واما الاسلوب فهناك اتفاق في بعض نواحيه، واختلاف في بعضها الآخر. ان المحتوى الاشتراكي في دستور الحزب اعمق واشمل مما هو في دستور العصبة. حقا ان العصبة لامست الى حد كبير حاجات الشعب عامة، وضمنت الحد الأدنى للمواطن من العيش الكريم، وسهلت له التعليم والدفء والصحة والعيش. لكن النبرة التي وردت فيها هذه الامور تبدو سطحية اذا قيست بالنبرة التي وردت في دستور حزب البعث. وكلتا المنظمتين دعتا الى النضال وتفجير طاقات الأمة العربية كاملة، ومحاربة الاستعمار في كل الميادين.

٣ـ وأما العناصر البشرية فانّ هناك اختلافا في النوعيتين اللتين تؤلفان جمهرتهما. فحزب البعث بدأ التحرك (من تحت) بينما العصبة بدأت من فوق. فالعناصر البشرية التي تألف منها البعث، أول الأمر، هي الطلاب بينما العناصر التي تألفت منها العصبة هي فئات ذات مراكز اجتماعية وسياسية وذات وجاهة وغنى ونفوذ بلدي وعربي. ولم يكن الحقد الاجتماعي يعمل عمله في منظومة العصبة بينما يعمل ذلك الحقد عمله ولو بعض الشيء في منظومة البعث.

وقد طال الشوط على البعثيين في وصولهم الى المراكز العليا لأنهم كانوا في الاصل بعيدين عنها جدا. وواضح ان بين طالب في الثانوية مثلاً وبين الوزارة مسافة بعيدة. لكن المسافة بين محام شهير او سياسي قديم او طبيب اختصاصي وبين الوزارة هي مسافة قريبة. والسعي نحو المراكز ـ حتى لو كان هو قصد المنظومتين ـ فان المراكز الاجتماعية والقابليات السياسية هي التي أطالت الطريق على البعثيين وقصرته على العصبويين.

ولو فرضنــا ان السلطة الحـاكمـة يومئـذ قامت بمصـالحة وتفاهم مع العصبـة لكان في إمكان العصبة أن تقدم جهازاً وزارياً كاملاً لا تنقصه الكفاءة ولا المنازل الاجتماعية، ولو ارادت ان تأخذ من العصبويين نوايا لوجدت العشرات. والأمر مختلف بالنسبة الى البعثيين، فان السلطة، لو حاولت ان تعمل مثل ذلك، لما امكنها ان تجد وزراء او نواباً او من هو في مستـوى الوزراء والنواب الا العدد القليل الذي لا يتجاوز عدد افراد اللجنة التنفيذية، اي ثلاثة او اربعة من الاشخاص.

وبهذا يمكن القول ان البعث حزب شعبي جماهيري بينما العصبة حزب ارستقراطي الى حد بعيد ومقتصر على الوجهاء في المناطق السورية والمثقفين.

ان الحديث عن الاستاذ ميشيل عفلق يقودنا تلقائيا الى الحديث عن الحزبيين في أول نشأة الحزب، الذي قام على أكتاف الطلاب في البداية.

كان وجود الاستاذين عفلق والبيطار في التدريس الثانوي هو السبب في ذلك. وقد استهويا طلابهما وجذباهم الى الحزب. كما ان الطلاب يُعدي بعضهم بعضا وتجرّ فئة منهم الفئة الاخرى. والطلاب بحكم طموحهم ومحاولتهم العفوية البروز والظهور والاعلان عن وجودهم وكيانهم، فانهم ميـالون الى التجمـع والتحـزّب إعـراباً عن وصولهم الى مرتبة الرجال العاملين، ان الطلاب بتلك الدوافع قد سارعوا الى الدخول في حزب البعث بتأثير عفلق، الذي كان يمثل، في نظرهم، التحرر من السلوك التقليدي الذي تسـير عليـه الفئـات الحاكمة يومئذ، وتمثل نوعا من الاندفاعية القومية التي ظهر تقصير الحكام في تحقيقها عندما انغمسوا في العمل الاقليمي، وحـادوا عن دروب الوحـدة العـربية. وكانت الحرب العالمية الثانية قد اظهرت عدم الجدوى من قيام وحدات صغيرة، ودول ضئيلة، وذلك عندما تهاوت هذه الدول الصغيرة امام الغزو الالماني وخرّت مضرجة بدمـائها، ولم يثبت أمام النازية الا الدول العظمى. والطلاب بعيدون بحكم اعمارهم عن المصالح الذاتية وهم ليسوا بعد مسؤولين عن أُسَرٍ يعيلونها، لهذا كان سلوكهم أقرب الى السلوك المثالي الاخلاقي من الرجال الكبار. وكان لدعوة عفلق بريق ولمعان أخّاذ يأسر قلوب اليافعين وألبابهم،

وكـان للشعـارات التي اطلقها عبر مقالاته وقصصه مفعول عجيب في نفوسهم، فتدفق الطلاب ينتسبون الى الحزب زرافات ووحدانا بغفلة عن القيادات الوطنية التي كانت حاكمة في تلك الفترة.

واذا كانت المادة الأساسية لحزب البعث هي الطلاب، فهل كان هؤلاء الطلاب من نوعية واحدة ومن طائفة واحدة ومن اقليم واحد؟ أم أن هناك حالات أخرى تلفت النظر وتستحق الدراسة؟

الواقع ان هناك حالات أخرى. فالحزبيون من الطلاب كانوا من ابناء الريف، وكانوا من الأقليات الاسلامية، وكانوا من المسيحيين. وهذا لا يعني انه لم ينتسب الى الحزب احد من ابناء المدن ولا من ابناء الطائفة السنّية، بل يعني أن نسبة المنتسبين من هؤلاء اقل بكثير من المنتسبين من اولئك.

وهـذا أمـر له معنـاه ومغزاه وله أسبابه، وبواعثه وهو أمر لم يقع مصادفة ولا عفواً. فالأقليات الاسلامية في سورية، وسورية منبت الحزب ومكـان انـطلاقتـه الأولى، كانت مضـطهدة في العهد العثماني، وكان المسيحيـون مضطهدين كذلك. ولدى هذه الطوائف نزوع عفوي نحو ايجاد المناخ الملائم لتحررها من الاضطهاد، وبلوغها مرتبة الأكثرية. وفي حزب البعث مجال كما قد تخيلوا لتحقيق هذه النزعة. واذا كان الطلاب قد تفهمـوا مرامي الحزب واغراضه السياسية والقومية، فاندفعوا الى الانضواء تحت لوائه، فان العامل اللاشعوري الدافع الى احتلال المنازل المحترمة في البلد قد كان من أسباب الاقبال على الحزب. وقد ينضم الى الحـزب من لم يتفهم مراميـه بهـذا الدافع. فالدعوة الاسلامية، وهي سماوية إلهية، كان فيها مثل هذا الذي نقوله، اذ دخل الاسلام أناس لم يكونوا مؤمنين به ولا قانعين بجلالة قدره، وانما دخلوا أملاً في أن يصيبوا من دخـولهم فيـه مغنمـا، أو يتخلصـوا من مصـاعب كانوا يلقونها، ومشكلات يعانونها.

وكـل منـظمـة، او حركـة، او حزب، لا بد لها ان تخضع لمثل هذه الحالات. ولا عجب اذا رأينا بعض الناس يهبون الى حزب البعث العربي، ويعلنون له التأييد والولاء. ومن الملاحظ ان التيارات الجديدة التي تقوم

ضد الأنـظمـة القـائمـة انمـا هي تيـارات تضم بعض المستضعفين والحاقدين والبعيدين عن الجاه والنفوذ والسيطرة. وكأنما يكون انضمام هؤلاء الى التيار الجديد هو نوع من التعبير عن شيء من الرفض للحال الراهنة.

لقد وقع الحكم الوطني في سورية في المرحلة التي نشأت فيها دعوة عفلق في أخطاء جسيمة. وقد كان الشعب يمثل ذلك الحكم. ففيه انتهاز وفيه انتفاع وفيه جمود عن تحقيق المثل التي يريدها الشعب. ولما لاح في الأفق شبح حزب يعدد مثالب الحكام، ويرفع شعارات محببة الى الشعب التفت الشعب اليه، ومنحه تأييداً عاطفياً، وقد حصل تجاوب بين الحزب وبين الشعب رغم مقاومة السلطة الحاكمة له.

في البداية كان الانطباع العام عن حزب البعث بأنه حزب ملحد، وكان مصدر هذا الانطباع هو جناح الاستاذ (زكي الارسوزي) الذي كان يستهين بالاسلام ودوره، ويتمسك بالعروبة التي هي الأصل.

كمـا ان هناك فئة من المتحللين اندسوا في صفوف الحزب من غير اعلان عن هويتهم والافصاح عن حقيقتهم. وبعدما سار الحزب رَدَحاً من الزمن اختنقت الفئة المحافظة، وجلها من ابناء دمشق والمدن السورية، بمناخ الحزب الذي لم يمكنها العيش فيه، نظراً للخلاف في البنيان، فتم انسحاب افرادها بالتدريج الى ان اصبح الحزب كليا من اليساريين على تفاوت في درجات تطرفهم وتعصبهم للدعوات الماركسية التي بدأت تطفو على السطح أكثر فأكثر. وكان الصراع محتدما بين هذه الفئات، ولكن بشكل غير مرئي.

وقد لا نبتعد كثيرا عن الحقيقة حين نقول ان هذا الواقع هو الذي أبعد الدكتور مدحت البيطار ابن العائلة المحافظة في دمشق، بينما برز طبيب من داخل الحزب، وقفز الى اللجنة التنفيذية، وهو الدكتور وهيب الغانم من ابناء محافظة اللاذقية.

ولا بد هنا من اعطاء لمحة عن وضع الاساتذة:

(ميشيـل عفلق، صلاح الدين البيطار، جلال السيد) الذين شكلوا القيادة الاولى للحزب.

فالاستاذان عفلق والبيطار من ابناء دمشق، وهما ينتميان الى اسرتين محافظتين. وهما من حيث الغنى يعتبران من الطبقة الوسطى، ولكنهما من حيث المنزلة الاجتماعية يعتبران اقرب الى الوجاهة، والى الطبقة الارستقراطية منهما الى الطبقات الأخرى، فوالد عفلق من تجار الحبوب في الميدان، ووالد البيطار من وجهاء حي الميدان، وعائلة البيطار في دمشق من العائلات الدمشقية العريقة التي عرفت بتدينها، وكان من بينها عالم دمشق الشهير الشيخ (بهجت البيطار).

وقد درسا في فرنسا، بعد الحصول على البكالوريا في دمشق، فقد كانا موفدين الى باريس لدراسة التاريخ بالنسبة الى عفلق، ودراسة العلوم بالنسبة الى البيطار. وقد قضيا الفترة اللازمة وحصلا على شهادتي الليسانس، كل منهما في اطار اختصاصه. وعادا الى دمشق، وأصبحا مدرسين في ثانوية دمشق الكبرى (التجهيز الاولى). ويروي الذين رافقوهما في الدراسة انهما تأثرا، وهما في باريس بالموجة الشيوعية، وعملا مع الشيوعيين. ويظهر ان هذا الاتجاه كان نتيجة تصميم وتدبّر، ولم يكن نتيجة عقيدة وايمان. وقد كان الحزب الشيوعي الفرنسي جذابا. فهو الذي كان يدافع عن استقلال سورية، ويكافح الاستعمار الفرنسي. وكان الطلاب العرب الذين يدرسون في فرنسا مرتاحين جملة لسلوك هذا الحزب. وكان في التعاون معه مناسبة للظهور على المسرح الوطني النضالي.

وبعدما عادا من باريس صدرت في دمشق مجلة عليها طابع اليسار اسمها (الطليعة) وكانا يكتبان فيها. ومن هنا فقد عرفت عنهما اليسارية، وقيل انهما شيوعيان. وكان صاحب هذا القول الاستاذ زكي الارسوزي. اما الاستاذ جلال السيد فكان من بيئة قبلية لها اعرافها ومصطلحاتها وتكوينها الخاص، وليس للطبقية المعروفة اثر فيها، كما ان الوجاهة لا تقتصر على الثروة والمال والمناصب الحكومية. وكان من ملاك الأرض في بلدته (دير الزور) حيث يسيطر النفوذ العشائري، فهو لهذا عربي من اخمص قدميه حتى قمة رأسه، وقد عرف بين اقرانه شيوخ العشائر بصفاء عروبته، وعلاقته المميزة مع قادة النضال العربي، سواء في

سورية، او العراق، وكانت القوائم الانتخابية في منطقة الجزيرة تشكل وهو في وسطها، ولم يكن في سورية من يشك في قوميته العربية، فحين عرف انه يعمل مع الاستاذين عفلق والبيطار لتأسيس حزب قومي عربي، بدأنـا نسمع عن انضمام العديد من شيوخ القبائل ووجهاء الجزيرة (البوكمال، دير الزور، القامشلي) الى البعث، ولكنهم سرعان ما ابتعدوا بعدما ثبت لهم عفويا وبالتدريج استحالة الوئام بينهم وبين الحزب.

وبعـد ذلك يمكن القـول ان الحـزب كان يضـم الأشتـات، ويجمع المتنـاقضـات من العناصر البشرية أول تأسيسه. فقد جذب القوميين المتـطرفين، كما جذب اليساريين، واستهوى الأخلاقيين كما استهوى غيرهم، وكانت كل فئة ترى في الحزب ما يتفق وميولها، ويحقق نزعاتها. والواقع ان حزب البعث يكاد يكون اول امره كذلك. واذا كانت المشاعر القومية ولدت ثورة (ضباط المربع الذهبي) في العراق، والتي عرفت باسم ثورة رشيد عالي الكيلاني تجاوزاً، فان الثورة ولدت مشاعر قومية اخرى، وهي المشـاعـر التي تكثفت وتجمعت فأطلقت الى الوجود حزب البعث العربي في سورية، ومنها انساب الى الأقطار العربية الأخرى، واذا كانت ثورة (المـربـع الذهبي) لم تنجـح ولم تحقق للعرب ربحا ملموسا من امانيهم القومية، فان فيها على المدى الطويل منافع رغم ما قيل فيها وعنها وعليهـا. ومن أهم تلك المنافع شحذ الشعور القومي وتعميقه، ثم انارة الطريق امام قيادات عربية كثيرة لتتمكن من التمييز بين النافع والضار.

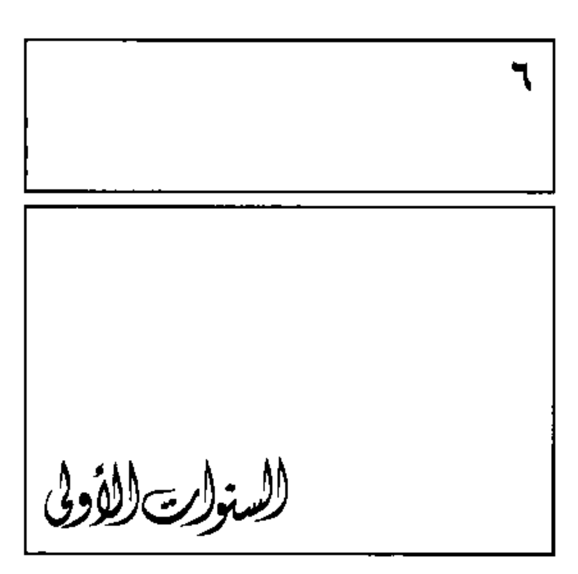
كانت ثورة (المربع الذهبي) العقيد صلاح الدين الصباغ، ويونس السبعـاوي، ويعرب فهمي السعيد ومحمود سليمان اولى الهزات التي عمّت النفس العربية في ما بعد الاربعينيات من هذا القرن، فقد انخرط فيها من اكثر الأقطار العربية مجاهدون ومؤيدون.

وقـد يجهل الكثيرون ان المخطط الأول لهذه الثورة هو الحاج امين الحسيني الذي فرّ الى العراق بعد ان ضايقته السلطات الفرنسية في لبنان، وهناك قام بتجميع القوى الوطنية للثورة على الانكليز الذين سلموا فلسطين لليهود.

كما ان حرب العرب ضد اسرائيل في اواخر الاربعينيات كانت الهزة

الكبرى اذ ان الجسد العربي قد تكهرب كله تقريبا في هذه الحرب. اما الهزة التالية فكانت حرب حزيران (يونيو) ١٩٤٨ التي لم ينطفىء لهيبها حتى الان.

وسار الزمن سيرته وتكاثر الحزبيون من كل الفئات، ومارس الحزب بعض النشاط امام سمع الحكومة وبصرها، ولم تتخذ الحكومة تدابير زجرية بحق اعضائه، الا في حالات نادرة، كنفي الاستاذ البيطار الى الجزيرة، وسجن الاستاذ عفلق فترة قصيرة من الزمن. وكان موقف الحكومة هذا مشجعاً لمن كان خائفاً، فازداد العدد واصبح في الامكان الاعلان رسميا عن قيام الحزب الجديد. وقد اتخذت الاستعدادات لعقد المؤتمر الأول التأسيسي، فعقد في مقره الأول بالقنوات في السابع من نيسان (ابريل) من عام ١٩٤٧، وقد كانت سنة انتخابات نيابية.


٦
السنوات الأولى

انطلق الاستاذ ميشيل عفلق في عمله القومي تحت راية (حزب البعث العربي) وحوله مجموعة من الأدباء الشباب الذين أخذوا يحتلون المكان البارز في الصحف الأدبية التي كانت منتشرة بكثرة في حينه، وقد رافق هذه الانطلاقة الكثير من الآلام التي كان الاستاذ يعانيها بصمت.

كان عفلق يشكو من بعض العقد المستحكمة التي امسكت به.

كان يشكو المرض (الديزانطري المزمنة)، ووجع المعدة الدائم، والتهاب المثانة. والى جانب ذلك كان يتألم من تصرفات الأعضاء (المستعجلين)، الذين يريدون الارتماء في احضان السياسة والابتعاد عن فردوس الفكر الذي يهيم به الاستاذ. شيء آخر كان يحز في نفس الاستاذ ويؤرقه كونه لم يحصل على شهادة علمية عالية اثناء دراسته في باريس (دكتوراه).

وهناك حادثة عائلية سببت له الكثير من الآلام النفسية بسبب استغلالها من قبل خصومه على اوسع نطاق على الرغم من إقدام احد المريدين الأوائل (ن.ح) على انقاذ ما يمكن انقاذه من سمعة عائلة الاستاذ.

يضاف الى هذا وذاك ان تمرده على طائفته في فترة حياته الاولى كان من أشق المصاعب التي واجهها، فقد كان يشكو من تركيبة المجتمع الطائفي ايام الانتداب الفرنسي التي لا تسمح للبارزين منها بتبوّء المناصب الرئيسية في الدولة.

على هذا النحو انتقل الاستاذ من الأدب الى السياسة، ونقل معه تلاميذه، والمؤمنين بأفكاره.

في اوائل شهر نيسان (ابريل) ١٩٤٧ اجتمع في المقر الاول للحزب في

حي (القنـوات) ما يربو على مائة من اعضاء الحزب على شكل مؤتمر لمنـاقشة دستور الحزب، وكانت اللجنة التنفيذية قد عهدت الى بعض الشبان المثقفين من طلاب الجامعة وتحت اشراف اللجنة التنفيذية بوضع دستور للحزب.

وقـد ناقش المـؤتمـر مشروع الدستور، فأقر ما أقر، وأدخل بعض التعديل على بعض المواد. وكانت المواد التي حظيت بالمناقشة الطويلة مواد (الاشتراكية). فقد كان عدد من الأعضاء يصر على ابراز الكلمة في الدستـور، والنظام الجمهوري، واعتبار الحرية من المقدسات التي لا يجوز المساس بها، وكان عدد آخر يُصرُّ على خلاف ذلك.

لكن هذه المقترحات لم تحز على موافقة الأكثرية، فظلت كما وردت في المشروع الأسـاسي الذي وضعـه الاستاذ ميشيل عفلق، بالتعاون مع الاستاذ جلال السيد.

وظل المؤتمر منعقدا ثلاثة ايام أتم خلالها مناقشة الدستور واقراره وسط موجة من الابتهاج والشعور بالوجود، ثم الثقة بالنفس وبالأمل في مستقبل عربي زاهر، مع موافقة المؤتمر على اللجنة التنفيذية كما كانت من قبل.

أعود من جديد الى اوراقي وما سجلت عليها من ملاحظات عابرة حول اعمال المؤتمر. كان حزب البعث العربي قبل هذا المؤتمر (حركة)، وكانت اللجنة التنفيذية تفضل هذا الاسم على اسم (حزب)، فقد كان البعث قبل المؤتمر وفق توجيه عفلق، لا يُعنى بالسياسة الا بعد أمور كثيرة يفضلها. فقد كان البعث حركة فكرية قومية اخلاقية، ثم انسانية. وكلمة حركة تنطبق على هذه الأهداف اكثر من كلمة (حزب). لكن المؤتمر، تحت تأثير المجموعة الريفية المنتسبة حديثا، ابرز العمل السياسي، فجعله الغالب على المقـاصد الأخرى، فتلاشت كلمة (حركة) واستبدلت بكلمة حزب. وأذكر ان الاستاذين عفلق والسيد قد ناضلا طويلا داخل المؤتمر للابقاء على (الحركة) ودافعا بحرارة عن وجهة نظرهما، ولكن الأكثرية تغلبت في النهاية، وقد رافق المؤتمر شيء من الضجيج والدعاية لم يقم بهما الحزب، وانما قام بهما كل الحاقدين على الحكام الوطنيين يومئذ. واصبح خصوم

العهد الوطني الأول يهددونه بهذا الحزب الناشيء ذي المستقبل المجيد. وبلغ الزهو والاعتزاز بالاعضاء ان اقدم بعض منهم على ترشيح نفسه لخوض معركة الانتخابات في تموز (يوليو) من ذلك العام، أي بعد ثلاثة اشهر من اعلان ولادة الحزب.

ولم يكن التأييد الذي حظي به الحزب ضعيفاً، بل ان فيه بذور القوة، وقد ارتكب الحكم الوطني في تلك الفترة غلطة قاتلة حين سمح لبعض مرشحيه في الريف، خصوصاً بتسخير السلطة للنجاح، مما سهل على البعث والفئات الأخرى تشويه سمعة العهد الوطني، وليس أشد حرجا عند الناس من تسخير السلطة لإنجاح المرشحين الرسميين.

ولكن السلطات الرسمية لم تتخذ اي اجراء تعسفي ضد اعضاء الحزب الذين انطلقوا بكل قواهم يندون بالتزوير ويهاجمون الواجهة السياسية الوطنية التي نجحت في الانتخابات، مما ساعد اعداء هذه الواجهة في استغلال الموقف والنزول الى الميدان لمواجهة الحكم الوطني بقسوة. وكان من أهم تلك المنظمات الشيوعيون. لكن حزب البعث هو الذي تصدى للشيوعيين وقاومهم. ويمكن القول ان جزءا مهما من شعبية هذا الحزب الناشيء قد بناها على مقاومته المستمرة للشيوعيين في اول تأسيسه. وان كثيرا من الفئات المحافظة في المدن السورية، وخصوصاً في دمشق قد مالت نحو البعث نتيجة لمقارعته الشيوعيين ومخاصمتهم في مختلف المجالات.

وبعد المؤتمر أخذ طلاب الجامعة من الحزبيين ينهون دراساتهم فتخرج عدد منهم واقتحم الحياة العملية فكان منهم الطبيب والمحامي والمدرس وغير ذلك. وقد رافق هذه الحال من اكمال الدراسة والنفوذ السياسي شيء من الطموح، ونزوع الى الحكم لدى بعض الشبان، وهو امر طبيعي بالنسبة الى من كان في مقتبل العمر ويعتز بعلمه ومقدرته وكفاءته.

الا ان هذا الطموح المبكر قد كان شبيها بالإسفين يُدَق في نعش الحزب. اذ انه لا بد أن يبعده عن المثل والنزاهة والتجرد، ولو لبعض الوقت.

لفت الحزب بعد وجوده الرسمي، أي بعد المؤتمر، نظر بعض الساسة التقليديين، وهم من الطامحين الذين لم تحقق لهم احزابهم مطامحهم على الوجــه الذي يرغبون، فمالوا نحو حزب البعث يتعاطفون معه، فنشأت صداقات بين كبار الحزبيين وبين بعض هؤلاء الساسة.

ولعل من المفيد ان نذكر هنا، وفي كثير من الحذر ان الوهج الذي بدا على الوجود السياسي لحزب البعث قد ادى الى صدى عند بعض ضباط الجيش، وضبــاط الجيش ليسوا الا نفرا من المواطنين يخضعون لكل التيــارات التي يخضـــع لها سائر المواطنين، ويتأثرون بها، ويتفاعلون معهــا. فحصلت نتيجة ذلك اتصالات بين بعض الحزبيين وبين بعض الضباط، وقامت صداقات شخصية واجتماعات بين الفئتين. وهذه ايضا شجعت اعضـــاء الحــزب على التمــادي في المعارضة والمقاومة للسلطة الحاكمة. وتقتضي الأمانة التاريخية التأكيد على ان الاستاذ عفلق لم يكن راضيا كل الرضى عن هذا الاتجاه داخل الحزب، وقد كان يفضل ابتعاد الجيش عن العمـــل السيــاسي، ولا يخفي قلقـــه من خطورة توسيـــع الاتصـــالات بين الأعضاء ونفر من ضباط الجيش، خوفا من المفاجآت التي تسيء الى الحــزب، وكــان يشاركه في هذا التخوف الاستاذ جلال السيد، ولكن موجة الحماسة التي قوبل بها نشاط الحزب قد حدت من نظرة عفلق والسيد، واندفع الأعضاء يوثقون صلاتهم بالضباط ويعملون جهدهم على ضمهم لصفوف الحزب.

ومن المفارقات ان معظم الذين أرَّخوا هذه المرحلة، قد قفزوا من فوق دستور الحزب، ولم يذكروا أي شيء مما ورد فيه. وكان تجاهلهم هذا يدل على النية المبيتة على تشويه منطلقات الحزب.

وتشاء المصادفات ان اسجل في اوراقي الخاصة بعض الملاحظات حيال دستور حزب البعث.

فماذا يتضمن ذلك الدستور، وما هي اهدافه العامة؟

دستور الحزب دستور قومي صرف. فهو لا يشرك شيئا مع القومية العربية ولا يضع أمرا من الأمور على صعيدها وفي مستواها.

و (الاشتــراكية) الواردة في الدستور، ليست الماركسية بل انها على

النقيض من الماركسية، والاشتراكية في خدمة القومية وليس العكس.

(الامة العربية وحدة روحية ثقافية وجميع الفوارق القائمة بين ابنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي).

(المادة ٢ من الدستور).

(حزب البعث العربي حزب عربي شامل تؤسس له الفروع في سائر الأقطار العربية وهو لا يعالج السياسة القطرية الا من وجهة نظر المصلحة العربية العليا).

(المادة ١ من المبادىء العامة)

(حزب البعث العربي قومي يؤمن بأن القومية حقيقة حيّة خالدة وبأن الشعور القومي الواعي الذي يربط الفرد بأمته ربطا وثيقا هو شعور مقدس حافل بالقوى الخالقة حافز على التضحية باعث على الشعور بالمسؤولية عامل على توجيه انسانية الفرد توجيها عمليا مجديا).

(المادة ٣ من المبادىء العامة)

وانك تكاد تجد دستور الحزب مغمورا من اوله الى آخره بهذه الروح القومية التي احتلت سوح الأفكار والنفوس، فانعكست على الدستور تملي فيه وتسجل نزوعها وقناعاتها وعقائدها بشكل لا لبس فيه ولا ابهام.

امـا ما ورد في الدستور من نزوع اشتراكي فانما هو نزوع يتصل بشرف الأمة العربية وكرامة الانسان. وهذا النزوع الاشتراكي هو العدالة الاجتماعية المساعدة على خلق الكفاية التي تمكن الانسان العربي من تحقيق اهداف امته وتسهل له الاستمرار في الكفاح والجهاد ما دام قد أمن العوز والجهل والمرض، وابتعد عن القلق على مصيره ومستقبله بما أمنت له الدولة من شروط العيش ومستلزماته. وهنا لا بد لنا أن نشرح الفرق بين (اشتراكية البعث) وبين الاشتراكية الماركسية من خلال المناقشات التي دارت في المؤتمر الأول للحزب الذي اقر الدستور.

الاشتراكية الماركسية تقوم على دعامتين توصلان لتحقيق هدف اخير في نظرها، اما الدعامتان فهما:

١ ـ التفسير المادي للتاريخ واعتبار كل التحركات وفي مختلف العصور

وبكل اشكال هذه التحركات انما كان مبعثها الأثر المادي وحده. والمطلع على دستور الحزب يتأكد ان الحزب لم يقترب من هذه الدعامة ولا قبلها لا كليا ولا جزئيا. فالروحية التي وردت في الدستور تنفي هذا الاتجاه. كما ان التراث العربي، والحقيقة العربية الخالدة التي يستند اليها الحزب في بناء نظرياته القومية يتعارضان تعارضا كاملا مع مذهب التفسير المادي للتاريخ.

٢ـ الصراع الطبقي. وهذه هي الدعامة الثانية للاشتراكية الماركسية، وحزب البعث قد رفض هذه الدعامة رفضا قاطعاً ما دام يحرص على تجميع طاقات الأمة العربية واستخدامها في سبيل حرية العرب وحفظ كيانهم ومقارعة الاستعمار اينما كان في الوطن العربي الكبير.

أما ما تريد الماركسية ان تحققه بواسطة هاتين الدعامتين فهو الوصول الى حد الغاء الدولة بعد قيام حكم البروليتاريا. وهذا هدف لم يقبل حزب البعث النظر فيه او معالجته او عرضه.

أما ضمان الفرد، والتأمين الاجتماعي، واستيلاء الدولة على المؤسسات الكبرى، وتأميم الصناعات التي يصعب على الأفراد بوسائلهم الخاصة القيام باستثمارها، اما هذا كله فهو لا يعني الماركسية لا من قريب ولا من بعيد. وانه لا يتعارض مع القومية بل انه يسهل لها الانطلاق والتسامي. كما انه لا يتعارض مع التشريع العربي (الاسلام) ولا يصطدم بالخلق العربي.

وفي التشريع الاسلامي ذهب الفقهاء الى أبعد من ذلك، واجتهاد فقهاء الحنابلة وغيرهم من فقهاء المذاهب قد اعطى (الامام) الدولة حق الاستيلاء على اموال الرعايا كلها اذا قامت كوارث او مخاطر تهدد المجتمع، كما جعل هؤلاء الفقهاء المال والملكية وظائف اجتماعية تخدم اهدافا عامة معينة، فاذا لم تستطع القيام بتلك الخدمات فان اصحابها يفقدونها، وتعود بعد ذلك الى الدولة.

(من خطاب عفلق في ختام المؤتمر).

اما سياسة الحزب الاقتصادية فقد نصت المادة ٩ من الفصل الخامس على ما يلي: (التملك والإرث حقّان طبيعيان ومصونان في حدود

المصلحة القومية).

وقد شرح الاستاذ عفلق هذه المادة بقوله:

ان ما ورد في هذه المادة يتفق تماما مع آراء الفقهاء السالفين من مختلف المذاهب الاسلامية. وبديهي ان الدستور هو عصارة آراء القيادة.

ونلاحظ في الدستور، ايضا، ان اصحاب الميول (الليبرالية) وجدوا في دستور الحزب ضالتهم كذلك. فالحزب نيابي دستوري والسلطة التنفيذية مسؤولة امام السلطة التشريعية التي ينتخبها الشعب مباشرة.

(المادة ١ من الفصل الثالث).

كما ان الذين يحملون في نفوسهم بعض التقبل للأنظمة غير الجمهورية قد أنسوا لإغفال النص على النظام الجمهوري.. ووجد العنصريون المتطرفون كذلك ما يدغدغ عواطفهم ويملأ اخيلتهم. فقد جاء نص في الدستور يقول:

(يجلى عن الوطن العربي كل من دعا او انضم الى تكتل عنصري ضد العرب، وكل مهاجر الى الوطن بغاية استعمارية).

(المادة ١١ من الفصل الثاني)

وكانت راية الدولة العربية المرتقبة هي راية (الثورة العربية) التي انفجرت عام ١٩١٦ لتحرير الأمة العربية وتوحيدها.

(المادة ٩ من الفصل الثاني)

ونحن نرى في هذه المادة اعترافا كاملا بفضل الثورة العربية التي قادها الملك حسين بن علي، شريف مكة.

(حزب البعث العربي انقلابي يؤمن بأن اهدافه الرئيسية في بعث القومية العربية وبناء الاشتراكية لا يمكن ان تتم الا عن طريق الانقلاب والنضال، وان الاعتماد على التطور البطيء والاكتفاء بالاصلاح الجزئي السطحي يهددان هذه الأهداف بالفشل والضياع)، فهو يقرر (المادة ٦ من الفصل الثاني):

(الانقلاب على الواقع الفاسد انقلابا يشمل جميع مناحي الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية). (الفقرة ٣ من المادة

السادسة من الفصل الثاني).

ولعل وجود هذه المادة في نص الدستور كان بمثابة المشجع لخصوم عفلق من الحـزبيين في ما بعد، فبعد غياب الاستاذ ميشيل عفلق عن دمشق عقد الحزب مؤتمره الاستثنائي عام ١٩٦٥ وقرر ان حزب البعث العربي الاشتراكي هو حزب ماركسي.

بعد مؤتمر الحزب، وبعد سن الدستور أخذ طلاب الحزب يتخرجون في الجامعات تباعاً. فسرعان ما حدث التبدل في بنية الحزب، فقام صراع ضمني بين القادة والقاعدة. ولكن هذا الصراع لم يظهر الى العلن، رغم اقدام الاستاذ صلاح الدين البيطار على اصدار جريدة (البعث)، ولم يحدث تحلل ولا انزلاق سريع عن المبادىء، وانما كان ذلك ببطء وحكمة. وظلت القيادة تزداد عناداً وصلابة وابتعاداً عن كل شيء يمكن ان يطعن المبادىء الاساسية او يعيبها ولو من بعيد، وذلك بغية إعطاء الأعضاء الدروس الكافية في ميدان التجرد. ويمكن القول إن قيادة الحزب وقتها كانت تعيش على الكفاف او ما هو في معنى الكفاف. وكان جميع المحررين في صحيفة (البعث) لا يتقاضون اجرا. بل كانوا يندفعون في كتابة المقالات التوجيهية التي تتفق وتوجيهات الاستاذ ميشيل عفلق بدون أجر مادي.

ورغم التناقضات التي بدأت تظهر في صفوف القاعدة، فقد ظلت القيادة الثلاثية (عفلق، البيطار، السيد) متماسكة. ولكن سرعان ما تحكمت الخلافات وظهرت آثارها للعلن.

٧

حسني الزعيم
يدق ناقوس التعذيب!

في النصف الثاني من عقد الاربعينيات تبين أن هناك خلافا في وجهات النـظر في بعض الأمور المسلكية بين أعضاء القيادة الثلاثية: (عفلق، السيد، البيطار)، فمن بين المناقشات التي كانت تجري في الحزب والتي سببت هذا الخلاف موضوع تدخل الجيش في السياسة، وهل هو امر مقبول من جانب الحزب أم مرفوض؟

وكان هناك رأيان:

الأول يقول أن تدخل الجيش في السياسة امر مقبول اذا كان التدخل لمصلحة الحزب، وهو مرفوض اذا لم يكن كذلك.

وأما الرأي الآخر فهو يطلب تطبيق قاعدة واحدة على كلا الحالين، فاما أن التدخل مقبول على أي حال واما هو مرفوض على أي حال.

قال الاستـاذ جلال السيـد ان رأيـه الخاص أن تدخل الجيش في السيـاسـة أمـر مرفوض على كل حال، وحتى لو تبنى الجيش ايصال السلطة كاملة الى الحزب فان ذلك لا يمكن أن يكون مقبولا، واقترح عفلق ابقاء هذا الجدل في حدود النظرية (الاكاديمية)، بمعنى ان الجدل لم يقم حول أمر واقع مطروح للبحث، وانما هو افتراض لحدث قد يقع، وقد لا يقع.

ولأن هذا المـوضـوع لم يحسم من قبل القيادة انتقل الى القاعدة واحتدم النقاش بين الأعضاء من ابناء المدن، وابناء الريف، وكان هناك رأيان:

ـ رأي يمنع انتماء العسكريين الى الحزب، فهو يرفض قبولهم وحتى اذا كانـوا في الحزب وانتسبوا الى الكلية العسكرية فانه يجب اسقاط عضويتهم! (ابناء المدن).

- ورأي يرى قبول العسكريين اذ ان العسكريين في نظر الأعضاء من بعض ابناء الريف ليسوا إلا قطعة من الشعب يعيشون قضاياه ككل الفئات، ولهم الحق كما لغيرهم في الاشتراك بتقرير مصير الأمة.

وتزعم الاستاذ جلال السيد فريق ابناء المدن، ودافع عن وجهة نظرهم مدللا على ان الســلاح يتسلط عادة على الأفكـار، ويعطل الديمقراطية ويقضي عليها. وتدخل عفلق مقترحا تجميد البحث في هذا الموضوع، ولم يتخذ الحزب قرارا في هذا الشأن، بل ترك الامور تسير حسب الظروف وحسبمــا تسيرها التقادير. ويبدو من خلال المناقشات الصاخبة التي جرت ان هذه البحوث لم تكن نظرية صرف، وان كانت كذلك في ظاهرها، بل ان هناك مقاصد معينة يحملها بعض اعضاء الحزب، ويقذفها الى القيادة لدراستها والبت فيها، وقد اتضح في ما بعد ان هناك اعضاء في حزب البعث يتعـاطفون مع الحزب (العربي الاشتراكي) الذي أسسه نائب حمـاه الاستـاذ اكـرم الحـوراني، ويريدون صدور (فتوى) من القيادة، وهي المرجع الصالح لاصدار الفتاوى، لتكون تلك الفتوى بمثابة إباحة لإقامة الصلات والعلاقة ليس مع الحزب العربي الاشتراكي فقط بل مع الحزب الشيوعي ايضا.

ولم تكن القيادة تتابع النيات والمقاصد، ولكنها كانت تدرس المسائل المـطروحــة عليها بروح مجردة وخالية من كل الاحتمالات التي يبيتها بعض الاعضاء. وكانت القيادة في تلك المرحلة مسيطرة على الحزب، ولم يكن قد برز الى الوجود العملي من الشبان من يستطيع الاعتراض على القيـادة. ولكن المـوقف سرعـان ما تغـير في ما بعد، حين اشتد ساعد المعترضين على سياسة عفلق والسيد البيطار، وبدأوا في محاولة املاء آرائهم على القيادة.

كانت هذه الخلافات داخل الحزب من الأمور الطبيعية، فلا بد من خلاف في الرأي والاجتهـاد، والا كان الحـزب تابعا لصنم او لمجموعة اصنــام، وكانت الأحداث المتلاحقة تغطي مثل هذه الخلافات، الى ان وصل الحزب الى حال من التباهي فاقت حدود الثقة بالنفس.

بعد هزيمة ١٩٤٨ بدأ العهد الوطني يتعرض لأقسى هجوم يمكن ان

يتعرض له اي عهد، وخاض البعث معركة ضارية ضده عبأ لها كل قواه، كانت الاجتماعات الحزبية تُهاجم، واخذت جريدته تُصادَر، وفي ٢٠ ايلول (سبتمبر) سُجن الاستاذ عفلق لأيام معدودة، وعندما خرج من سجنه نظم الحزب مظاهرة اشترك فيها اعضاؤه الذين توافدوا من كل اطراف سورية.

كانت الحكومة السورية آنئذ برئاسة (خالد العظم)، وبلا مقدمات عرضت الحكومة على المجلس النيابي مشروع مد خط أنابيب البترول لشركة (التابلاين)، فهب الحزب يقاومها، ويتصدى لها، وتلكأ المجلس في اقرار المشروع، وكانت هناك معضلة اخرى واجهت حكومة العظم وهي امتناعها عن توقيع الهدنة في رودس مع اسرائيل.. وانبرى حزب البعث الى الساحة ليتهم كل من يوافق على مشروع التابلاين، ويوقع على الهدنة بالخيانة.

وفي يوم من أيام ربيع ١٩٤٩ أفاق الناس على عملية انقلاب عسكري قام بها رئيس الاركان في الجيش السوري الزعيم (حسني الزعيم)، وكان من نتيجتها حل مجلس النواب والاطاحة بالحكومة ورئيس الجمهورية، وكان حزب البعث من المهللين والمؤيدين للانقلاب اذ قام اعضاؤه بمظاهرات صاخبة معربين عن فرحتهم لانقاذ البلاد من الطغمة الحاكمة المستأثرة الرأسمالية الاقطاعية العميلة، على حد ما ورد في هتافات الهاتفين.

من يقرأ الأوامر السرية الموجهة من قيادة الحزب الى قائد الانقلاب يلمس احتراما وتفاؤلاً كبيرين. يقول الاستاذ عفلق في احد أوامره الى الاعضاء:

(ايها الاخوان، ليس ما حدث في سورية انقلابا، وهو في الواقع خطوة نحو الانقلاب. اننا نستبشر بهذا الحدث ونعلق عليه الآمال، الى العلاء. فالانقلاب الذي يطمح اليه الشعب العربي هو انقلاب شامل. الانقلاب الذي يجب ان نسعى اليه، دائما، وأن نجعل من انقلابنا الحاضر وسيلة وخطوة نحوه هو الانقلاب الذي يحقق للشعب العربي في جميع اقطاره الاشتراكية العربية والوحدة العربية.)

اتخذ الحزب من حسني الزعيم موقف المرشد، وسايره هذا فأذاع المـذكـرة التي قدمها اليه، ولكنه لم يطق وهو (العسكري) هذا (الأب المدني) الذي بدأ منذ الأيام الاولى يشكك برجل التاريخ الذي هو هو.!.

أخذ الحزب يوجه له المذكرة تلو المذكرة، وقابلته القيادة لشرح وجهة نظرها التي تتلخص في:

(عودة الحياة الدستورية، انتخاب حر لمجلس تأسيسي يضع دستورا للبـلاد، اطلاق حريـة العمـل السيـاسي والصحـافة، تعيين وزراء من الأحزاب التي قاومت حكومة القوتلي، عدم التوقيع على اتفاقيتي النقد والتـابلاين، والامتناع عن توقيع الهدنة مع اسرائيل). كان هذا يعني عودة حسني الزعيم الى الثكنة وتنازله عن دور المحرر والمنقذ والغازي، وما كان الزعيم في الأصل ممن يحتملون المزاح طويلا.

اتسمت تصرفات حسني الزعيم بالعنف والتوتر، ركب رأسه، لا يقبل جدلا ولا مناقشة وصمم على ان يحكم بالقوة. ادار ظهره للنصائح فأعطى لنفسـه صلاحيـة التشريع بأمر عسكري، وسرعان ما وقع على اتفاقية التـابلاين، وأوفد أحد ضباطه الى جزيرة رودس حيث وقع باسمه على الاتفـاقية الأولى للهدنة مع اسرائيل. وكأن انقلابه انما كان يستهدف انجاز هذا الأمر بسرعة.

وقعت الواقعـة بين حسني الزعيم وبـين البعث بعد بياني ٣٠ أيار (مايو) و ٩ حزيران (يونيو) ١٩٤٩ اللذين هاجمه فيهما وأنحيا باللائمة لأنه لم يحترم الدستور، ولم يطلق الحريات، ولأنه الغى الاحزاب ووقع اتفاقيتي النقد والتابلاين، فاعتقل عدداً من شباب الحزب وعلى رأسهم الاستاذ ميشيل عفلق.

دخل السياسيون لأول مرة بعد الاستقلال في سورية سجن (المزة)، ودق المشير حسني الزعيم ناقوس التعذيب الذي راح يرنّ على الهضبة الصفراء الباهتة، يشتد قرعه مع الزمن، كأنما السوط هو لسان تاريخ سورية الحديث، تتتابع الحكومات والأنظمة كي ينتقل فقط من يد الى يد، اذا تعبت احـداهـا من حمله سقـطت وائتمنت الأخرى عليه فافتنّت وحذقت كيّ الأجساد بسعيره.

قبض على غالبية الاعضاء واختفى من استطاع. وكانت مفاجأة كبرى لقيادة الحزب تلك المعاملة القاسية التي عوملوا بها، والاهانات التي لقوها في السجن العسكري، فقد حلقت السلطات شعر رؤوسهم ووضعتهم في الزنزانات المنفردة، وحرمتهم من التدخين ومن كل وسائل الترفيه او التسلية، فلا جريدة ولا كتاب ولا راديو.

وكان التعذيب والاهانة والشتائم كلها امورا محتملة لو لم ينجم عن هذا الاعتقال أزمة كبرى هزت الحزب، وكادت تعصف به.

تلك هي الرسالة التي بعث بها الاستاذ ميشيل عفلق الى حسني الزعيم، والتي استغلها خصوم الحزب، فجعلوها سمةً وعاراً سجلوهما على الحزب الى ما لا نهاية.

وجه عفلق من سجن المزة رسالة تتضمن الاعتذار عما بدر من شدة في المنشور وفيها ان ملكة المعارضة للعهود السابقة استمرت من غير تمحيص حتى شملت العهد الجديد. وفيها ما يشبه التعهد بترك العمل السياسي والانصراف الى امور اخرى. هذه خلاصة الرسالة التي احدثت رجة في اوساط الحزب، وفي الميادين الشعبية الاخرى.

ومما لا شك فيه ان هناك مؤثرات اعتملت في نفس عفلق اخرجت هذه الرسالة الى حيز الوجود. والمؤثرات تختلف من انسان الى آخر، فبعض الحوادث تؤثر في شخص ولا تؤثر في آخر. ونحن عندما نستعرض هذه المؤثرات فلا نستعرضها على اعتبار انها مؤثرات عامة يخضع لها كل الناس، ولكنا نستعرضها من وجهة نظر الاستاذ عفلق.

١ـ صدمة لم يكن يتوقعها من الاهانات والازدراء وحلق الشعر والحبس المنفرد.

٢ـ حرمان من التدخين وكل وسائل التخفيف عن السجين.

٣ـ حرب اعصاب مستمرة وارهاق ومنع للنوم بدخول جمعي عسكري مفاجيء خلال الليل بقصد الاخلال بالراحة الى الزنزانات.

٤ـ اطلاق الشائعات والتحذيرات من قبل ضباط كانوا يعتبرون اصدقاء للحزب ويسمح لهم بلقاء القيادة في السجن. وقد تصل التحذيرات الى حد نية المتسلط القيام باعدام عدد كبير من الحزبيين.

٥ـ شاهد عفلق اثناء مروره في باحة السجن عضوا حزبيا صغيرا في الزنزانة فاعتبر ان كل اعضاء الحزب هم قيد الاعتقال.

٦ـ في لقاء بين اعضاء القيادة في السجن، وجه الاستاذ جلال السيد الى الاستاذ عفلق وعلى سبيل المداعبة التهنئة بهذه النتيجة. وكان عفلق يعتبر نفسه المسؤول عن صياغة المنشور وعن الاصرار على اقراره، وكان (المغص) النفسي باديا على وجهه عندما واجهه زميله في السجن جلال السيد بهذه المداعبة.

كل هذه المؤثرات جعلته، كما قال بعد ذلك للأعضاء الذين عاتبوه على توقيعها: بأنه كان مضطرا الى تحرير الرسالة المذكورة لكي ينقذ بها الحزب والحزبيين من المصير الأسود، وكأنما هو قد جعل نفسه الضحية والقربان في سبيل الحزب.

ولقد جرت محاولات مع قادة الحزب في السجن لاستكتابهم مثل هذه الرسالة ولكن المحاولات لم تنجح.

هذه قصة الرسالة (العفلقية) التي يتحدث بها خصوم الحزب واصدقاؤه على حد سواء.

ولم يمض أكثر من ثلاثة اسابيع حتى افرج عن السجناء كافة، وكان أفرج عن الاستاذ عفلق قبل ذلك بما يقرب من عشرة ايام.

لم يصدر الحزب بيانا. اكتفى بـ «اللفلفة» والصمت مع أن تفسيراً صريحاً كان ضرورياً مهما تبلغ عواقبه. وقد خرج البعثيون من السجن ليواجهوا حالة جديدة من البلبلة والقلق الحزبي والنفسي وليعالجوا امر الاستاذ عفلق بل ليداووا هذا الجرح الذي انفتح في جسم الحزب بشكل قد يعرض الجسم الى الهلاك. وكانت هناك تيارات مختلفة تحركت في داخل الحزب، واهم تلك التيارات.

١ـ تيار متطرف لا يرضى الا بفصل الاستاذ عفلق فصلا تاما من الحزب والتنصل من الرسالة واستنكارها شكلا وموضوعا. وكان من بين هذا التيار اعضاء من المؤسسين. ولا شك في ان هذا التيار كان صدى لخيبة الأمل التي لقيها عدد كبير من المعجبين بعفلق، ويمكن وصف هذا التيار بأنه مؤلف من تلاميذ عفلق ومحبيه. وقد انكسرت أخيلة هؤلاء

وتحطم اعتزازهم. فاذا كان الصوفي الاول في الحزب ينحدر الى مثل هذا الانهـزام، فما عسى ان يفعل سائر الاعضاء وهم ليسوا على درجة من التصوف في نظر الاعضاء تضاهي صوفية عفلق، لأن بعضاً من اعضاء القيادة يأخذون حظهم من الدنيا، ولو على نطاق محدود. واذا كان قائد الحزب يصنع مثل هذا، فأي بادرة هذه بدرت من القائد؟

٢ـ تيار أقل عنفا وتصلبا يرى ان المسألة لم تصل الى درجة تبعث اليأس وتدمر الحزب وتهدد القضية القومية في الصميم. ولعل المغالين ضد عفلق كانـوا اكثـر تقديسا له من المتساهلين. فهؤلاء المتشددون اقترحوا العقوبة التي تتناسب مع قدره وعلو منزلته ونزاهته. بينما قد يكون المتساهلون اقل من هؤلاء بقليل من حيث النظر الى منزلة عفلق. وحدث صراع بين التيارين واستمر وقتاً طويلاً كان الحزب خلاله معطلا، بل يمكن القول إنه كان مشلولاً.

٣ـ تيـار مستقـل لم تأخـذ المسـألة عنده من الاهتمام ما يجعلها موضـوع بحث جدّي. وهذا التيار ينحاز الى اقوى التيارين المتعارضين في المستقبـل. حاول الاستـاذ جلال السيـد التحـرك لاخراج الحزب من جموده، فتحدث الى زميله في القيادة الاستاذ عفلق، وتناقشا طويلاً، وكان رأي عفلق أن المسألة لا تقبل الحل الوسط. فاما الفصل من الحزب واما إسدال الستار على الرسالة واعتبارها كأن لم تكن.

والموقفان عنده في درجة واحدة من السلامة والحزم. وكأنه كان يرد بذلك على اقتراح قال به بعض الاعضاء ينص على عقوبة يفرضها الحزب على الاستاذ عفلق لا تصل الى حد الفصل ولا الى قريب من الفصل، بل يرى ان تكون العقوبة رمزية تشير الى ان الرسالة لم تخرج بغير اثر على كاتبها.

ونتيجة تدخل الاستاذ جلال السيد المباشر اسدل الستار على الرسالة مع تعليل نظري يقول:

(ان لكـل نفس حدودا معينـة من المناعة والمقاومة، ومن الممكن أن يتعرض كل انسان في حالات خاصة من الضعف النفسي والوهن العقلي الى مثل ما تعرض له عفلق).

وانتشر هذا التعليل النظري في اوساط الحزب (اذ في الحقيقة لم يتخذ قرار رسمي) فتقبله المتطرفون والمعتدلون قبولاً حسناً، ولعل المتطرفين كانـوا في تطرفهم ينتـظرون مثل هذا الحل ليعودوا بحبهم واحترامهم الكاملين الكامنين في نفوسهم لأستاذهم الذي يحبون (ميشيل عفلق). وكان على رأس هؤلاء (صلاح الدين البيطار).

لقـد كانت هنـاك محرضات ومثيرات لفصل عفلق من حزب البعث العربي، اذ الموقف الصارم (وليس أصرم من فصل عفلق من الحزب) هو الذي يعيد الى الحزب هيبته ويمنع طمع الطامعين فيه من سلطات رسمية وفئات شعبية. وهذه وجهة نظر كان لها ما يبررها ولكنها لم تكن قوية بحيث يمكن الأخذ بها.

ولا بد هنـا من ايضـاح التفسيرات التي سمعتها من جلال السيد وصلاح البيطار حيال هذا الموضوع.

كان العديد من المؤسسين يتساءلون:

هل يمكن ان يكون هناك حزب بعث عربي بدون ميشيل عفلق؟

وحين جاء الجواب بالنفي اتضح لأكثرية المؤسسين أن وجود عفلق في الحزب هو أمر لا بد منه، ولا يمكن الاستغناء عنه، وهذه الضرورة كفيلة بالغاء كل الاتجاهات الأخرى التي يمكن ان تجري ضد عفلق.

وقد رأى جلال السيد ان هناك دعامات في حزب البعث لا يتم وجوده الا بها، فاذا تقلقلت دعامة منها اختل البناء وتحطم مع الزمن. وقد حدث ذلك فعلا، فَفُقِدت دعامة من الحزب عام ١٩٥٥ (استقالة عفلق وسفره الى بون وانتخـاب الدكتـور منيف الرزاز أمينا عاماً للحزب خلفا له)، فأصبح الحزب أعرجاً، وبدأ يتعرض الى الانهيار، ثم ما لبث ان تصدع بعد مضي الوقت الكافي. وهكذا انتهت (مؤقتا) أزمة الرسالة، وكان الزمن عنصرا فعالا في محو آثارها الى حد بعيد. ولكن هذه الأزمة لم تنته إلّا بعدما تركت بعض الآثار في النفوس، ولا سيما في نفس الاستاذ عفلق كما سيـأتي ذكـره، بالاضافة الى ذلك تعقدت الآثار، فنجمت عنها أزمات أخرى، كان الحزب عرضة لها ومتعثراً في معالجتها.

اثنـاء حكم حسني الزعيم، وربمـا قبله بكثير مرت بالحزب أحداث

سياسية كان لها آثارها البعيدة في مسيرته.

ففي خلال تلك الفترات كان يُقذف بين الحين والحين موضوع الاتحاد السوري ـ العراقي، وكان الظرف يستلزم اتخاذ قرار او بيان رأي في الأقل من جانب المنظمات السياسية والقومية وخصوصاً من جانب (حزب البعث العربي) لأنه يرتكز أول ما يرتكز على دعامة الوحدة العربية.

كان الحزب أول الأمر، يتحدث عن الوحدة العربية من حيث هي نظرية، ولم يكن يُعنى بناحية التحقيق أو التنفيذ لها. فكأنما كان يفترض انه قد يأتي ظرف مؤاتٍ، لتعلن الأقطار العربية وحدتها كاملة، وينتهي الأمر.

لكن الحزب عندما نزل الى الميدان العملي ومارس أفانين السياسة تبين له ان الوحدة العربية لا يمكن تحقيقها دفعة واحدة، بل لا بد من مراحل. والمراحل المنطقية هي قيام وحدات قطرية ثنائية او اتحادات، او ما هو في حكم ذلك.

والأمر البدهي ان يتحقق الاتحاد بين القطرين الأقرب احدهما الى الآخر جغرافيا وحضاريا وبشريا. ثم تتوالى الاتحادات الى ان تشمل اقطار العروبة كلها ويتم تحقيق الوحدة العربية. فالاتحاد بهذا المقياس، يجب ان يتم بين سورية ولبنان، ثم بين اجزاء سورية الطبيعية، وبعد ذلك يأتي دور العراق وهكذا الى أن تستوفي الوحدة كل الأقطار.

وكانت الوطنية السورية قائمة أول الأمر على دعامتين: الاستقلال والوحدة السورية اللبنانية، وطغى هذا الشعار زمنا طويلاً. لكنه ما لبث أن خمد وبقي بند واحد هو الاستقلال، لأن لبنان اتخذ له خطاً آخر غير الوحدة مع سورية. وكان الوضع البشري والطائفي في لبنان عائقاً امام تحقيق الوحدة بينه وبين سورية، ولم يكن القائمون على القضية الوطنية من الصلابة بحيث يستمرون في رفع الشعار الوحدوي مع لبنان.

أمّا سائر أجزاء سورية الطبيعية، فإنها أيضا ألفت كيانات خاصة بها، ولم يبد عليها الامكان لبحث الوحدة مع سورية، لا سيما وهي محكومة من دول لا تفتح الباب لمثل هذه القضايا. ولهذا جاء دور العراق أولاً بعدما كان ثانيا في الترتيب الذي ذكرناه. والذي جاء بالعراق الى هذا

المكان ان القطر الذي يسبقه قد سد الباب على الوحدة، وان في العراق حكماً يرفع في كثير من المناسبات شعار القومية والوحدة العربية. ولقد قام تحرك اتحادي في الفترة الزمنية التي نتحدث عنها، وكان التحرك هذا غامضاً، بمعنى انه لم تُعرف جديته على وجه التحقيق. وكان لا بدّ لحزب البعث من اتخاذ موقف من تحرّك كهذا.

جاء الى دمشق وفد من حزب الاستقلال العراقي، وهو حزب يتألف من مجموعة من الشباب المثقف والعامل في الحقل القومي. ولكنه كان معارضاً للحكومات التقليدية المتعاقبة على العراق اذ كان يعتبرها رخوة من الناحية القومية، مطواعة للنفوذ البريطاني. ويبدو ان الحزب (حزب الاستقلال) اتفق مع السلطات القائمة في العراق على العمل لتحقيق الوحدة السورية العراقية، فكان الوفد الى سورية مؤلفاً من حزب الاستقلال لأنه، في نظرهم، يتمتع بثقة الأحزاب القومية والوطنية اكثر من سائر التكتلات السياسية في العراق.

جاء الوفد الى مكتب حزب البعث، ووضع القضية على بساط البحث، وبدهي ان الفكرة من حيث المبدأ لن تلقى معارضة من جانب الحزب، بل انها ستحظى بالتأييد الكامل والدعم الذي لا تقيده قيود ولا تحدّه حدود. وقد زعم الوفد العراقي أنه يحمل وثيقة موقعة من الحزبين الكبيرين في العراق، وهما: (حزب الشعب، والحزب الوطني) يعلنان فيها موافقتهما على الاتحاد بين سورية والعراق. والوفد يريد من حزب البعث ان يوقع على هذه الوثيقة لتكون مرتكزا له في اثارة القضية على الصعيد الدولي، بحجة ان السوريين جميعاً على اختلاف احزابهم قد وافقوا عليها. ولكن حزب البعث في اللحظات الاخيرة امتنع عن التوقيع على الوثيقة بعدما همَّ بعض القادة بالتوقيع.

وأخيرا طلع حزب البعث يقول:

(ان الوحدة هي الدعامة الأولى لحزب البعث وان كل الشعارات الأخرى انما هي وسائل او مرتكزات لها. فحزب البعث ليس موضع شك في هذا، وحزب البعث هو الحزب (الأم). وانه يطلب من حزب الاستقلال ان يوقع على الوثيقة ويودعها عند حزب البعث لأنه اولى منه ومن سائر

الهيئات والمنظمات الأخرى).

وكـان التفسـير لهذا التصرف بأن البعث كان يعلم ان لا وحدة ولا اتحاد، وان المسـألة عبارة عن احداث بلبلة وانشقاق في الصفوف. وأن الحكومة العراقية لا تستطيع تحقيق الوحدة، لأن بريطانيا صاحبة النفوذ لدى حكّام العراق لا تريد هذه الوحدة. واذا كانت بريطانيا تتظاهر أحياناً بالدعوة الى هذه الوحدة او بالموافقة عليها حينما يصدر النداء من جهة عربية، انما كانت تفعل ذلك من أجل إحباط الوحدة لأن الشكوك تحيق بالمسألة لمجرد ان بريطانيا اقترحتها او وافقت عليها.

لم يرتح الوفد العراقي لهذه النتيجة، وانصرف مغيظاً الى أجل آخر. كانت الوثيقة التي يحملها وفد حزب الاستقلال صحيحة، لكن هذا التيار الوحـدوي بين سوريـة والعراق طالما اصطدم بتيار معاكس أشد هولاً وأقـوى. واذا قفـزنا من فوق النفوذ البريطاني والفرنسي والصهيوني يومذاك، نجد التيار العربي الآخر يضع الصخور والحواجز في وجه مثل هذا الاتحاد.

وعلى رأس هذا التيار المعاكس تقف مصر التي كانت تعمل على احباط الاتحاد السوري العراقي، لأن الصراع بينها وبين العراق تاريخيا كان حول سورية. وكل قطر يحاول ان يكسبها الى جانبه.

وتقف السعودية الى جانب مصر ووضعت كل ثقلها لمحاربة المشروع لأسباب لا تخفى على الذين عاصروا تاريخ الحكم السعودي.

ويقف على رأس هذا التيار الحزب الشيوعي واليساريون عامة، ومن المفارقات ان حزب البعث أصدر بياناً حول الاتحاد السوري العراقي يتسم بعدم الوضوح والتناقض، وكانت هناك فقرات واضحة تقف ضد الاتحاد، ومَنْ يقرأ هذه الفقرات يجزم بأن حزب البعث رفض الاتحاد، ولعل من اسباب اتخاذ الحزب لهذا الموقف ان ضباط الجيش السوري بمجملهم قاومـوا فكرة الاتحاد مع العراق لسبب او لآخر. وكان بعض اعضاء الحزب قد ارتبط بصداقات مع هؤلاء الضباط، فكان المناخ يسري على هذا البعض وهو ينقل بالعدوى ذلك الى اوساط حزب البعث. وكأنما كان بيان البعث محاولة لإرضاء هؤلاء الضباط، والحصول على ثقتهم

كسبا للمستقبل. فالليالي ـ حين وضع البيان ـ كانت حبالى، وقد تلد كل أمر عجيب.

ولا بد من التـأكيد هنا بأن اوساط البعث قد انقسمت الى قسمين: فالميـالون الى الاتحـاد رأوا في البيـان اندفاعا نحوه. وغير الميالين الى الاتحاد رأوا فيه رفضاً قاطعاً. والواقع ان في البيان رفضاً قاطعاً وموافقة قاطعة.

ولم يكن مردود هذا البيان في صالح الحزب، فقد رأت فيه الأوساط غير الحـزبية نوعا من التلاعب والتناقض، مما أساء في ما بعد الى سمعة الحزب، بحيث اضطر بعض اعضاء القيادة ممن لهم صلات شعبية مع العالم الخارجي اثناء محاولتهم شرح قضية الحزب الى الدخول في حوار ومناقشات استغرقت وقتاً طويلاً، وذلك كله دفاعاً عن البيان وشرحا لمراميه واهدافه ومعانيه.

وكـان وقـع البيـان على الجهات المتصارعة الدولية، ايضا، في غير مصلحـة الحـزب ـ فالعـراق صاحب المشروع رأى في البيـان رفضا. والجهات المقاومة للاتحاد رأت في البيان موافقة مع الاتحاد واقراراً له، وظلت الألسن تلوك هذه المعاني وتتحدث بها الى ان جاءت أحداث أخرى طغت عليها وأسدلت ستار النسيان من حولها، ولا بد من التنويه هنا، بأن الاستاذ عفلق خرج بخسارة كبيرة من هذه المعركة، فقد برز تيار من قاعدة الحزب يطالب بتنحيته من جديد، وهكذا تنادى اعضاء الصف الثـاني في الحـزب الى عقـد اجتماع في حمص، وأجمعوا على ضرورة محـاكمـة عفلق بسبب ميوله الاتحادية مع العراق، وانتخاب الدكتور وهيب غانم مكانه، ثم تلاه اجتماع آخر دعي اليه الدكتور الغانم فرفض الاقتـراح، متعللاً انه لا يستطيع ترك اللاذقية، فاقترح المجتمعون ان تكون اللاذقية مركز الحزب، ولكن هذه الخطوة سرعان ما انهارت تحت تأثير الاحداث الصاخبة التي واجهت سورية في ذلك الحين.



٨
ميشيل عفلق وزيراً

في صبيحة يوم من شهر آب (اغسطس) ١٩٤٩، وبعد ٤٥ يوما من حكم حسني الزعيم اعلنت محطة الاذاعة في دمشق، نبأ قيام انقلاب جديد سقط على اثره الزعيم حسني الزعيم ورئيس وزرائه محسن البرازي برصاص انقلاب آخر، وذلك اثر محاكمة سرية لم يُعرف عنها شيء تقريبا. كان هذا اول اغتيال رسمي في عهد الاستقلال احيط بهالة مثالية، واعتبره السياسيون جميعاً ثأراً لكرامة الوطن والمواطنين، وثورة الديمقراطية على الدكتاتورية. لم يعترض أحد على شكليات المحاكمة وطريقة تنفيذها. لم يتبادر لأذهانهم انها قد تصبح ذات يوم تقليداً وجزءاً من تاريخ سورية المعاصر.

ويظهر ان موجة الاتحاد مع العراق وعناصرها وركائزها هي التي تغلبت على الموقف، فأحاطت بالزعيم الذي كان يعمل مع مصر والسعودية ضد الاتحاد، وكان يعمل مع اية جهة تضمن له او يقدر لها أن تضمن له بقاءه في سدّة الحكم. ومن قبيل الاستنباط لا اليقين نرى ان وفد حزب الاستقلال والموجة الاتحادية استمرا في محاولتهما الاتحادية رغم عدم الاتفاق مع حزب البعث، واكتفى العاملون على تحقيق الاتحاد مع العراق بتأييد الحزبين الكبيرين التقليديين: (الشعب) و (الوطني)، واستغنوا عن حزب البعث، اذ لم تكن له قوة سياسية ضاربة من الناحية العملية تجعل معها المحاولة الاتحادية مجمدة ما لم يوافق البعث عليها.

فالانقلاب الذي تزعمه اللواء سامي الحناوي ضد حسني الزعيم إنما جاء نتيجة إعداد وترتيب من قبل الحزبين المذكورين للقضاء على حسني الزعيم باعتباره يمثل المعارضة، بل المقاومة لمشروع الاتحاد. ولم يكن لحزب البعث يد ولا أثر في عملية الانقلاب هذه، وأصلح القول ان القائمين

على العملية استبعدوا البعث عمداً، وأخرجوه عند إعداد الخطة.

كان الحزب آنئذ جريحا، وهو مشغول بتضميد جراحاته التي نجمت عن الأزمات التي مر ذكرها، ومن اهمها رسالة عفلق الى حسني الزعيم، ويمكن اعتبار الحزب في تلك الفترة مجمدا نشاطه، اذا ما قيس ذلك الى نشاطاته في مختلف مراحل التحركات السياسية الأخرى.

وعلى اثر نجاح انقلاب الحناوي تألفت حكومة برئاسة السيد هاشم الاتــاسي وكان اعضاؤها من حزب الشعب ومن المستقلين، ومن ممثلي بعض الفئــات السياسية. وكان الرئيس الاتاسي اتحادي المنهج. وكان الطابع العام للوزارة هو الطابع الاتحادي، بصرف النظر عن عدد قليل من الوزراء لم يكونوا موافقين على الاتحاد مع العراق، وكان جرى ضمهم الى الوزارة لاشراكهم في تبعــة ما قد تقوم به الوزارة من احتمال بحث موضوع الاتحاد وامكان تحقيقه.

وكان ان دخل الاستاذ ميشيل عفلق وزيرا للتربية، ودخل الاستاذ اكرم الحوراني وزيرا للزراعة. وكان عفلق يمثل حزب البعث العربي، كما كان الحوراني يمثل حزب (العربي الاشتراكي). وكان الحزبان حزبين تامي الوجود. واعني بذلك انه لم يقم بينهما الدمج الا بعد ما يقرب من ثلاث سنوات. وكان الرئيس الاتاسي عطوفا على حزب البعث، وكانوا هم يبادلونه الود والاحترام. ومن البدهي ـ والحالة هذه ـ أن يصرَّ على إشراك البعث في وزارته، رغم معارضة عناصر اخرى لهذا الاشتراك.

وقبل الاستاذ عفلق منصب الوزارة، مع انه عزوف عن المناصب غير ميال اليها كما كنا نسمع عنه.

ولكن الاستاذ عفلق أصيب ببعض التعقيد بعد رسالته الى حسني الزعيم، وكأنما قد ساقته العفوية الى قبول الوزارة لأن في ذلك معنى (رد الاعتبــار) كما يقولون. زد على ذلك ان العهد الجديد تلوح معه بوادر الأمل، والرئيس الاتاسي موضــع ثقة الحزب.

كما ان الوزارة بمجموعها جيدة العناصر، وكان البعث ميالا الى قبول المنصب، لأن ذلك بمثابة الاعتراف بوجود الحزب السياسي وقوته، وكانت هذه اول مرة تعترف فيها الهيئات السياسية بذلك. وكان المناخ الذي

خلقته الحكومة ديمقراطيا، اذ اعلنت سريعا عن عزمها اجراء انتخابات حرة لمجلس يتولى هو تصريف شؤون الشعب نيابة عنه.

كشفت وزارة الحزب بشخص الاستاذ عفلق عن مجاهيل كثيرة كما يقول الرياضيون. فقد حصل شيء من التكالب والانتهاز في بعض فئات من الحزبيين الكبار الذين انهوا تحصيلهم الجامعي. وظهر بذلك أن نوعيتهم لا تختلف كثيرا عن نوعيات سائر اقرانهم رغم انتسابهم الى حزب يرفع شعار المثالية والنزاهة والتقشف من اجل التفرغ لخدمة الأمة كلها. وهنا أيضا حصل صراع ضمني وعلني بين الفئات الحزبية المختلفة، فمنها من كان يصر على اكمال الشوط بترفع وأنفة وتجرد، ومنها من كان يرى ان من جملة الوسائل لخدمة الأمة أن يتولى بعض المناصب الحساسة أخيار الناس.

اما قيادة الحزب فانها اصيبت بالثنائية، فهي بين تيارين عاصفين يصطرعان من حولها، فتملكها الندم على قرار مبدأ قبول الاشتراك في الحكم. مضت الأيام وعناصر القيادة كأنما تعيش على الجمر. ومن حسن حظ البعث ان هذه الأيام لم تمتد طويلا، فأجريت الانتخابات النيابية واستقالت الحكومة ولم يرجع اليها أحد من البعثيين.

في تلك الفترة تطلع بعض البعثيين الى الاستاذ اكرم الحوراني. فقد رأى هذا البعضُ فيه كفاءة وقابلية للحكم، ورأوا فيه، فضلا عن ذلك، بعض الواقعية والميل الى إشراك الأنصار والأعوان في شتى أجهزة الدولة. وهو في نظرهم لا يحرم ما يحرمه البعثيون من الامور المباحة، ولا يجد بأسا من دفع كثير من الشبان الى اعلى ما يستطيعه من المناصب. ومن هنا برز الاتجاه القوي داخل صفوف البعثيين عن امكان دمج الحزبين وقلبهما الى حزب واحد. وهؤلاء الطامحون لا يريدون أن يتخلوا عن حزبيتهم، ولا الخروج على من ألفوا من رفاقهم في عهود طويلة، كما انهم لا يريدون ان يبقوا في فلك الحرمان والابتعاد عن المواضع التي تصقل قابلياتهم وتنزلهم منزلة كبار الرجال.

وخير طريق للجمع بين المطلبين هو أن يندمج الحزبان، وهو ما يؤمن لهم بقاءهم في الحزب، ويفتح أمامهم الميدان لنيل ما يرغبون نيله. انهم

يجمعــون بذلك بين تشدد البعث يومذاك وبين مرونة اكرم الحوراني، وواقعيته. وقد عمل هذا الشعور عمله، فانبرى عدد من البعثيين يسعون، سراً في أول الامــر، وجهــاراً بعد ذلك، لدمج البعث العربي مع العربي الاشتــراكي، ففي ذلك قوة ومنعــة ونفــوذ سياسي قد يغلب كل الفئات الأخرى. وهذه هي الفلسفة العلنية التي قدموها حينما اقترحوا بحث امكان الدمج.

سقــط الاستــاذ ميشيل عفلق في الانتخابات، وهذه الواقعة أحدثت شرخاً بين الاستاذ، وبين العديد من الكادرات الحزبية سرعان ما استغله دعاة الدمج.

في هذه الانتخابات التي جرت في اواخر العام، والتي سقط فيها عفلق، فاز بعض البعثيين في المحافظات وصاروا نوابا في الجمعية التأسيسية التي انقلبت بعد فراغها من وضع الدستور الى مجلس نواب، واصبح للحــزب ثلاثة نواب يتزعمهم النائب جلال السيد، الذي قاد المعارضة النيابية من ابوابها الواسعة، وكان لوجود السيد على راس هذه المعارضة وجود محترم، وذلك عندما اظهرت فعالية ونشاطا حظي باحترام اعضاء المجلس، رغم الخلافات الحزبية التي كانت بين المعارضة وسائر الكتل والأحزاب.

ومن طريف ما حدث في تلك الاثناء أن جلال السيد (زعيم المعارضة) كُلف بدخول الوزارة في العهد الديمقراطي الجديد، وكان المكلف بتاليفها هو الدكتور ناظم القدسي الذي اصبح عام ١٩٦١ رئيسا للجمهورية السورية.

واستمهــل السيد لدراسة التكليف حزبيا، واجتمعت قيادة الحزب وكانت ثلاثية يومذاك اذ ضمت (عفلق والبيطار والسيد).

وبعــد المــداولة قبــل الحــزب مبدأ الاشتراك في الوزارة بمقعدين. وارسلت القيادة الاستاذ عفلق الى الدكتور القدسي لاتمام البحث وابلاغه مطلب الحزب، لكن الدكتور القدسي رفض اعطاء اكثر من مقعد واحد. وقال انه يفهم ان يكون نائبان في المجلس يطلبان مقعدا وزاريا، فهذا امر مألوف، لكنه لا يفهم ان يكون في المجلس نائب واحد ويطلب مقعدين (كان

هذا قبل ان يعلن نائبان من العشائر انضمامهما الرسمي الى الحزب).

وتوقفت المفاوضات ورفض الحزب الاشتراك في الوزارة بعدما رُفِضَ طلب آخر له، ذلك ان يقدم الحزب مندوبه الى الوزارة، وكان المتفق عليه ان يكون الوزير هو الاستاذ صلاح الدين البيطار لا النائب جلال السيد.

وكان طلب الحزب هذا كسبا اذ انه يربح صوتا في مجلس الوزراء ووزيرا يطلع على شؤون الدولة الى جانب نائب له حريته في المجلس، وقد حدث بعد ذلك بقليل انقلاب جزئي قام به بضعة عقداء في الجيش السوري يتقدمهم العقيد اديب الشيشكلي.

اطاح هذا الانقلاب الجزئي بقائد الجيش اللواء سامي الحناوي، وكذلك منع الدكتور ناظم القدسي من الاستمرار في وزارته، فاستقالت وهي لم تعمر اكثر من ٤٨ ساعة، وكان القائمون على الانقلاب يعتبرون وزارة القدسي هذه امتدادا لوزارة الرئيس الاتاسي التي قامت بعد الانقلاب على حسني الزعيم. وهذه الوزارة التي كان البعث ممثلا فيها بميشيل عفلق قد كانت (متهمة) بأنها تسعى الى تحقيق الاتحاد السوري العراقي. والقوات المضادة لهذا الاتحاد والتي اتينا على ذكرها من قبل قد وصلت الى القوات المسلحة فاستعملتها لاحباط المشروع المزعوم بالقوة. وكلف الرئيس هاشم الاتاسي الذي انتخب رئيسا للدولة السيد خالد العظم بمشورة الجيش وبالاتفاق معه بتأليف الحكومة الجديدة.

ولم يلبث الخلاف أن دبّ بين السلطات العسكرية وبين مجلس النواب والسلطات المدنية، وكان نواب الحزب الثلاثة بزعامة جلال السيد من اكبر المناوئين للتدخل العسكري في الشؤون السياسية.

وهنا تقضي الموضوعية أن أعود إلى أوراقي الخاصة التي سجلت فيها تفاصيل ما جرى في هذه المرحلة المهمة من تاريخ سورية المعاصر.

على اثر مقتل حسني الزعيم ظهر العقيد سامي الحناوي رئيس اركان الزعيم على مسرح الأحداث، كان الحناوي ضابطا طيب القلب، أعطى وعداً بتسليم المدنيين الحكم، ونفذ وعده، فتألفت وزارة برئاسة هاشم الاتاسي، ودخلها لاول مرة عفلق وزيرا للتربية، واكرم الحوراني وزيرا

للزراعة وسامي كبارة وزيرا للداخلية. واستمرت هذه الوزارة من ١٤ آب حتى ١٠ كانـون الاول من عام ١٩٤٩ دون ان يحصل اي تبديل في اعضائها، وحين اجتمعت الجمعية التأسيسية انتخبت هاشم الاتاسي لرئاسة الجمهورية في ١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٩، وقد أجرى استشاراته لتأليف الحكومة، فكلف الدكتور ناظم القدسي كما أسلفنا بتأليفها.

كان اللواء العسكـري الأول بقيادة العقيد أديب الشيشكلي، وهذا اللواء كان مسيطرا على دمشق والطرق المؤدية اليها.

تحرك اللواء العسكري الأول بقيادة الشيشكلي واحتل دمشق، وتم على الأثر تأليف مجلس للعقداء برئاسة الشيشكلي وعضوية عزيز عبد الكريم وتوفيق نظام الدين وعقداء آخرين.

ذهب مجلس العقـداء الجديد الى منزل خالد العظم بعد ان رفض الرئيس هاشم الاتاسي استقباله، واطلعوه على ما جرى، وقال الشيشكلي مخاطبا العظم بأسم مجلس العقداء:

(لقـد دعـانـا الحناوي الى اجتماع في رئاسة الاركان وعرض علينا القبول بالاتحاد مع العراق، فرفضنا، وكنا قبل الذهاب اليه قد استنفرنا قطعاتنا بحيث لو تم اعتقالنا لدخل ضباطنا واعتقلوه). ومضى الشيشكلي قائلا:

(وشعر الحناوي بما خططنا له فاستسلم لنا، وقد اعتقلناه وسنقدمه الى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى).

لم يدم اعتقال الحناوي طويلا، فسرعان ما اطلق سراحه، وسافر الى بيروت واستـأجر منزلا في حي (النويري)، وبعد فترة كمن له (حرشو البرازي) وكان يسير في الشارع العام واطلق عليه الرصاص فأرداه قتيلاً انتقاماً لإعدام قريبه محسن البرازي رئيس وزراء حسني الزعيم الذي قتل الى جانبه، وحكم عليه ثم سرعان ما خرج من السجن بعفو خاص اثر وساطات فاعلة.

وسجل التاريخ الحديث مقتل قائد الانقلاب الأول حسني الزعيم، ومقتل قائد الانقلاب الثاني سامي الحناوي، ثم امسك بالقلم بانتظار

تسجيل اسماء صرعى الانقلابات.

كان اكثر اعضاء مجلس العقداء ضد الأحزاب والفئات التي تحمست للاتحاد مع العراق، لهذا كان هواه مع خالد العظم الذي عرف بمقاومته لمشاريع الاتحاد على اختلاف اتجاهاتها، كما ان تعاون العظم مع اصحاب الاتجاهات اليسارية كان بمثابة المهد لاطمئنان مجلس العقداء الى سياسته.

وتحت هذا الضغط كلف الرئيس هاشم الاتاسي، خالد العظم بتأليف الوزارة فتشكلت على النحو التالي:

العظم للرئاسة والخارجية (مستقل)، فيضي الاتاسي (العدلية)، هاني السباعي (التربية) من حزب الشعب، عبد الباقي نظام الدين (الزراعة) ـ الكتلة الديمقراطية التي تضم نواب العشائر وخالد العظم، عبد الرحمن العظم (المالية) مستقل، معروف الدواليبي (الاقتصاد ـ حزب شعب متعاطف مع الاخوان المسلمين)، اكرم الحوراني (الدفاع) ـ العربي الاشتراكي، محمد مبارك (اخوان)، فتح الله اسيون (مستقل وقريب من الحزب الوطني الذي رفض الاشتراك في الوزارة)، سامي كبارة الداخلية (مستقل).

كان موضوع الاتحاد مع العراق هو الموضوع الأساسي الذي واجه حكومة العظم، فليس سرا ان من بين الوزراء من ظل يحن اليه ويأمل بتحقيقه، خصوصاً وان نواب حزب الشعب بزعامة الرئيس رشدي كيخيا كانوا يعتقدون، بل وحتى يؤمنون أن لا بد من تحقيق هذا الاتحاد لانقاذ سورية من خطر سيطرة العسكريين على الحكم.

هنا اجدني مسوقا الى ذكر هذه الحادثة التي كنت من شهودها.

بعد تأليف الوزارة العظمية بفترة جاء الى مكتب (رياض طه) في بيروت تاجر لبناني يدعى (معروف سموري) برفقة الأديب (معروف سويد) وقالا لرياض: (..بالأمس رأيناك في مطعم منصور تتعشّى مع أكرم الحوراني وزير الدفاع السوري، وعندنا لك مهمة سياسية كبيرة فيها خدمة عامة، وهي أن الوصي على عرش العراق الامير عبد الاله يود الاجتماع بأكرم الحوراني للتفاهم معه على تحسين العلاقات بين سورية

والعراق، فاذا تمت مساعيك بالنجاح فانك ستؤدي خدمة قومية للأمة العربية).

رد رياض طه:

لنذهب، الآن، الى دمشق، فليس هناك داع للتأجيل.

سافر الثلاثة في سيارة معروف سموري.

وعبثا حاول الاستاذ رياض طه العثور على اكرم الحوراني، فلجأ إليَّ، حيث دبرت له مقابلة مع الحوراني.

في مكتب وزير الدفاع اكرم الحوراني كان اللقاء.

تكلم السموري موضحا رغبة الوصي في الاجتماع باكرم الحوراني وانه ـ اي الوصي ـ على استعداد لتحقيق الاجتماع بالطريقة التي يراها الحوراني مضمونة، فاذا شاء السرية المطلقة فالوصي على استعداد للقيام برحلة صيد على الحدود السورية العراقية، او في اي مكان آخر.

اجاب الحوراني:

لم افكر يوماً في الاجتماع بعبد الاله، لأننا نختلف في اتجاهاتنا السياسية اختلافا جذريا، وانتهت المقابلة. ولكن تفاصيل ما جرى في هذا اللقاء ظل عالقا في اذهان ثلاثة: الحوراني، وطه، وأنا، وحين كان الحوراني ببيروت عام ١٩٧٤ يعد مذكراته طلب من رياض طه الذي اصبح نقيبا للصحافة اللبنانية تذكيره بتفاصيل الحوار هذا. وجرى في اللقاء استعراض لتلك الأحداث المتعلقة بالاتحاد مع العراق، فسأل رياض طه، الحوراني عن صحة ما روي من أن النائب اميل البستاني عرض على العقيد اديب الشيشكلي في حينه مبلغ خمسة ملايين جنيه استرليني لكي يوافق على الاتحاد، فضحك الحوراني من هذا القول ورد:

(هذا خبر سخيف، فالذي يتصرف بخزائن سورية لا يمكن ان يقبل خمسة ملايين جنيه للتخلي عن الحكم).

اعود الى سياق الحديث فاقول:

في الرابع من حزيران (يونيو) ١٩٥٠ استقال خالد العظم، وألَّف الوزارة الدكتور ناظم القدسي من حزب الشعب والمستقلين. اما اكرم

الحوراني فقد اختار الوقوف الى جانب الشيشكلي الذي كان ضد تأليف هذه الحكومة.

تعثـرت الأمـور بين الشيشكـلي والحكومة، فاستقال القدسي وأعيد تكليف خالد العظم الذي ألف الوزارة من المستقلين، وتسلم الزعيم فوزي سلو وزارة الدفاع، وكان من قبل يشغل منصب قائد الجيش، اما اديب الشيشكلي فقد ظل محتفظا بمنصب رئيس الأركان العامة.

لم تكن حكومة العظم مؤيدة من المجلس النيابي، وكان بامكان حزب الشعب اسقاطها عندما يريد، فاستقال العظم بعد ان قام الشيشكلي بزيارته في السراي قائلا له: (..لقد اتصلت بك يا دولة الرئيس وانت في اللاذقية وطلبت منك الاستقالة فلماذا لم تقدمها حتى الآن؟).

سكت العـظم، ثم نهض فحمل حقيبته وغادر غرفة رئاسة الحكومة دون ان يلقي التحية على زائره، فسأله الشيشكلي:

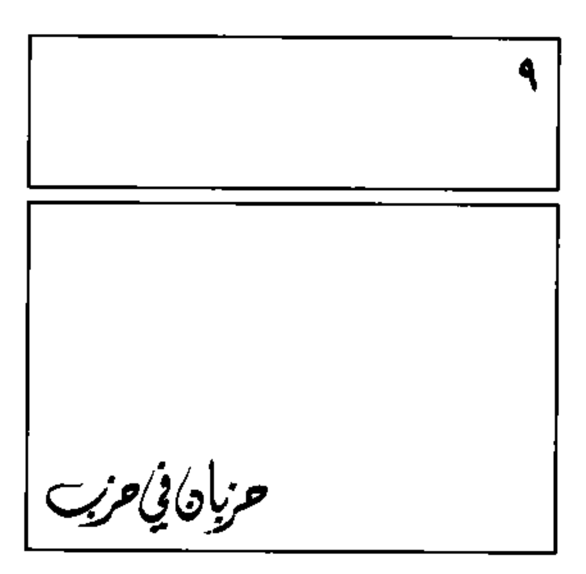
ـ وين رايح يا دولة الرئيس؟ اجاب العظم:

ـ رايح الى حمص لأنتسب الى الكلية العسكرية، واتخرج منها ضابطاً يقوم بالانقلابات ويقيل الوزارات ويؤلفها من جديد!

في تلك الفتـرة كانت سوريـة تتمزق، ويتمزق معها رجال السياسة ورجال الجيش. تألّفت وزارة برئاسة حسن الحكيم في ٩ آب (اغسطس) ١٩٥١، وسرعان ما استقالت، فكلف الاتاسي معروف الدواليبي، فألّف وزارة استفزاز، وحين وصل نبأ هذه الوزارة الى الشيشكلي غضب وأمر باعتقال الحكومة بكامل اعضائها، فما ان انتصف الليل حتى كان جميع الوزراء مع رئيسهم يحلّون ضيوفا على سجن المزة. وكالعادة صدر البلاغ رقم ١ معلنـا تولّي مجلس الدفاع الأعلى شؤون الأمن، وقد اضطر الى اتخاذ بعض التدابير الاحترازية.

سعى الاتـاسي الى تأليف وزارة انقـاذ ما يمكن إنقـاذه من سمعة الحكم، ولكنه جوبه بسطوة مجلس العقداء، عندها قدم استقالته وسافر الى بلدتـه حمص معتكفـا في داره. قام مجلس الدفاع بتأليف حكومة برئاسة الزعيم فوزي سلو شارك فيها بعض كبار الموظفين. في هذه الأثناء قامت حركة الضباط الأحرار في مصر، وتسلم القيادة اركان حركة ٢٣

تموز (يوليو) ١٩٥٢ فاغتنم الفرصة أديب الشيشكلي وبدأ يزحف الى السلطة.


٩
حزبان في حزب

يقــول الدكتــور (منيف الرزاز) الأمين العام لحزب البعث في كتابه (التجربة المرّة) ص ـ ٢٨ ـ وهو يعلق على الاتجاه العسكري الذي بدأ يسيطر على حزب البعث: (..ان اعداء الحزب متعددون وكثيرون وأقوياء، ولكن أهم هؤلاء الاعـداء ليس اولئك الذين يواجهون الحزب بعدائهم مواجهـة. ان بعض ألدّ اعـداء الحزب موجود في داخل صفوفه، حين يعجـزون عن الارتفاع فوق مستوى القوى التي تشدهم الى الخلف، ويعجزون عن أن يحققوا الثورة في نفوسهم، ويستكينون لضغط المغريات من حولهم.

ان جميع الانحرافات التي طرأت على الحزب وسببت فيه انشقاقا اثر انشقاق، انما كانت نتيجة العجز عن مواجهة الطريق الصعب والميل الى اتخاذ الطريق السهل).

والواقــع ان الحـزب تعـرض لكثـير من الجذب والدفع، بين التيار الثوري، والتيار السياسي في الفترة التي ظهر فيها اديب الشيشكلي على مسرح الاحـداث، فكان، وحده، حدثا في تاريخ سورية لم يؤرخ حتى الآن. وعـلى الرغم من ان الصراع داخـل حزب البعث في هذه المرحلة الشيشكلية كان واضحا بين عقلية ثورية وعقلية اصلاحية، الا ان بعض المتتبعـين للأحـداث اطلقـوا عليها اسماء اخرى، وجعلوها صراعا بين انصار (المدرسة الفكرية)، وانصار (العمل السياسي).

ولقـد ضمت مدرســة المستعجلين العديد من البعثيين الذين كانوا يضيقـون أشـد الضيق (بتـردد) مدرسة الاستاذ ميشيل عفلق، هذه المدرسة التي رفضت تولي المسؤولية اثناء فترة الشيشكلي، لان نتائج عملها الجماهيري لم تؤهلها بعد لتولي الحكم، ولم يكن حزب البعث في

تكوينه الهرمي بقادر على ان يفرض وجوده الشعبي في مواجهة المظاهر العسكرية التي بدأت تفرض وجودها على الساحة. من اجل هذا لا بد من الاقتراب قليلاً من عهد الشيشكلي للتعرف على واقعه وكيفية خروجه من عباءة (العسكر) الى عباءة (الحكم).

كنت قريبا من العقيد اديب الشيشكلي بحكم صلتي بالنائب النافذ الاستـاذ عبـد البـاقي نظام الدين الذي أسس الكتلة الديمقراطية في المجلس النيابي، وكان خالد العظم من اعضائها. وقد لعبت هذه الكتلة دوراً بارزاً في عهد أديب الشيشكلي منذ بدايته حتى نهايته.

تعـرفت على الشيشكلي يوم تطوع في جيش الانقاذ الذي ذهب الى فلسطين لقتال اليهود ومنعهم من اقامة دولتهم. لم يكن اسمه مجهولاً بين اقـرانه الضباط، فقد كان الشيشكلي من الضباط الذين تتحدث عنهم كثيرا اوساط البعث خصوصاً. في البداية كنت حين ألقاه أشعر انه يريد أن يكون مستمعا اكثر منه متحدثا. كان يشرب باستمرار، وكانت حركاته تفضح قلقاً عنيفاً يضطرب في داخله. كان في نظرنا وطنياً متطرفاً.

حين استلم السلطة انقلب أديب الشيشكـلي الهادىء الصامت الى ذئب كاسر يعضّ على الكلمـات عضّـا، تومض في عينيه شهوة انتقام، يقبض على كأسه في المساء ويتكلم، ولا يدعه الا مع خيوط الصباح.

كان رأيه سلبيا في جميع من تعاقبوا على حكم سورية منذ الاستقلال، وكان يرمي الرئيس شكري القوتلي واخوانه من رجال الرعيل الأول بأشنع كلمات الهجاء التي يحفظ مفرداتها عن ظهر قلب، وكان يصبّ جام غضبه على حزب الشعب ونوابه.

وتكررت لقاءاتي به وهو يزحف الى السلطة ويستقر على رأسها.

لم يكن عسكرياً عادياً، ثقافته غير واسعة، ولكنه غني الحدس يعرف ما يريد. قوي الفراسة قوي الشخصية عنيد.

كان يعاني ازمة فقدان فلسطين، وكان يائساً من استعادتها. قام في ايـام حسني الزعيم بالتحضـير للانقلاب وله الدور الأساسي، فكانت قطعته العسكرية هي التي دخلت دمشق، فكافأه حسني الزعيم بتوليته منصب المدير العام للشرطة والأمن العام، جرى في عهده الغدر بأنطون

سعادة زعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي استدعاه حسني الزعيم الى مكتبه للتفاوض معه من اجل قيام انقلاب عسكري في لبنان، ثم اعتقله في مكتبه وسلمه الى السلطات اللبنانية التي اعدمته. وكنا لا نجهل عطف الشيشكلي على الحزب القومي، وصلته بالعديد من قياداته الشابة المثقفة، وحين بلغ الشيشكلي نبأ اعدام انطون سعادة كنت الى جانبه فاذا به يصرخ:

(الله لا يخليني يا حسني اذا خليتـك) قال هذا ورمى قبعتـه على الأرض وراح يدوسها بقدميه اشارة الى غضبه.

وبدأ الصدام الخفي بينه وبين الزعيم يطفو على السطح، فكان طرده من الجيش.

حين قام الحناوي بانقلابه لبس الشيشكلي بدلته العسكرية وزحف مع الزاحفـين الى دمشق فعين معاوناً لرئيس الاركان العامة، ثم اخذ يتدرج قليلاً قليلاً، ولم يكن احد منا يجهل ان السلطة بين يديه.

عنـدمـا قارب على تسلّمـه رأس السلطة اطلق حرية العمل للحزب الاشتـراكي (اكرم الحوراني) حتى اعتقد البعض انه اضحى الحزب الرسمي للشيشكلي، وكان موقفه من حزب البعث غامضـا، فلا هو خصم ولا هو صديق، ولكنه ظل على علاقة حسنة ببعض الاعضاء البارزين، خصـوصـاً الدكتور وهيب غانم. وأحسن استغلال الحزبيين في المعركة التي فرضهـا على حزب الشعب، والغى في نهـايتهـا ٢ كانـون الاول (ديسمبر) ١٩٥١ الحياة النيابية.

اعطاه الحزبان «البعث والاشتراكي» التبرير الذي كان بحاجة اليه لالغـاء الديمقـراطيـة. ثم اخذت العلاقات بعد ذلك تتراخى بينه وبين الحزبين، أراده كل منهما فرس رهانه، وارادهما مطية فلم تتم الصفقة، ووقعت الواقعة يوم اغلق الشيشكلي جريدة البعث في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢.

لم يكن عهـد العقيـد الشيشكلي عهداً انقلابياً عادياً مثل غيره من الانقـلابـات التي توالت على سوريـة، بل كان عهـدا كرس الاتجـاه العسكري في هيكلية (البعث) و (العربي الاشتراكي).

ان المرور بالأحداث في تلك الفترة له دلالته من اجل هذا كان لا بد من التوسع، ولو قليلاً، في وضع الأحداث في العهد الشيشكلي في موضعها الحقيقي من الظرف العقائدي والسياسي والحزبي الذي عرفته سورية في تلك المرحلة.

ان الجيش ـ أي جيش ـ ليس حزبـا. ولا هو متجـانس في الرأي والعقيدة. ولا هو تركيب طبقي خاص. وكون اكثريته في سورية خصوصاً ذات جذور شعبية لا تجعله، بالضرورة، يساريا، لأن طبقة الضباط، وان امتدت جذورها الى الطبقة الفقيرة، ليست طبقة فقيرة، ولا سيما بعد أن أغدقت عليها العهود الانقلابية، من الامتيازات المعاشية الشيء الكثير. وان تفاعله مع طبقات الشعب المختلفة يجعل فيه كل الألوان والاتجاهات السيـاسية. وأنه، بطبيعته الانضباطية، بعيد عن النظام الديمقراطي. وأن قدرته على الحركة ليست رهنا برأي اكثريته، ولا سيما اكثرية جنوده وضباط صفه، وضباطه الصغار، لأن قيمة النظام العسكري تقوم على ما ينطوي عليه من انضباط، وبالتالي، من طاعة مطلقة. والانقلابات لا تقوم بهـا قواعـد الجيش، وانمـا يقوم بها بضعة ضباط في القيادات العليا يسيطرون على قيادة قُوى ضاربة، فهم لا يمثلون بالضرورة، الرأي العام في الجيش نفسه، فضـلا عن الرأي العام الشعبي. ولذلك فالانقلاب قد يتجه نحو اليمين وقد يتجه نحو اليسار، لا بقوة الرأي العام في الجيش، بل بسيطرة بعض الضباط على بضعة قطعات ضاربة.

ولأنه ليس حزباً، وبالتالي ليس له عقيدة سياسية خاصة، فان حركته كثيرا ما تعكس الرأي العام في فترة ما، ولكنها لا يمكن ان تعكس امكانات التطور في الرأي العام بعد ذلك، ولا ما يحمله من بذور التطلعات الى ما بعد الفترة. وهي لذلك اقدر على أن تعكس السخط السلبي العام، من أن تعكس التطلعات الايجابية.

ثم ان الانقلاب العسكري خطوة في ظلام. فالشعب، عادة، لا يعرف الانقلابيين لأنهم ليسوا سياسيين. واذا عرف اشخاصهم فهو لا يعرف اتجاهاتهم. واتجاهاتهم اليوم ليست بالضرورة اتجاهاتهم في الغد او بعد الغد. فقد يبدأ الانقلاب العسكري في اليمين واذا به ينتهي الى اليسار،

وقد يبدأ في اليسار وينتهي في اليمين. والغالبية العظمى من الانقلابات العسكرية في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية انقلابات يمينية، والأقل الأقل منها اتخذ طريق اليسار، ومع ذلك فأي يسار هذا اذا انتهى الانقلاب العسكري بحكم عسكري.

لقد أدرك (فرانز فانون) هذه الحقيقة من خلال معاناته للثورة الجزائرية، من قبل ان يكون في افريقيا شيء اسمه، انقلابات عسكرية.

يقول فانون:

(ان الجماهير تشعر بعد كل حركة نضالية قامت بها للمطالبة بحقوقها، ان القيادات قد خانتها، في حين نرى القيادات تحتفل بالنصر..[1])، ثم يقول:

(ويقف القرويون موقف التردد والاحتراس من التجديدات الاجتماعية، ولو كانت تقدمية في نظر من يرى الأمور رؤية موضوعية، وما ذلك الا لأن الذين أصبحوا الآن حكاماً لم يشرحوا لمجموع الشعب اثناء فترة الاستعمار، لا أهداف الحزب، ولا الاتجاه القومي، ولا المشكلات العالمية..[2]).

ويغري الحكومة في مثل هذه الحالة ان تحطم هذا الجسم (جسم الشعب الساخط) بتركيز الحكم واخضاع الشعب بالقوة. وهذا واحد من الأسباب التي تحمل كثيرا من الناس على ان يقولوا انه لا بد من شيء من الدكتاتورية في البلاد المتخلفة، بل ان الحكام الجدد لا يتورعون عن القول أن لا بد من استعمال السوط اذا نحن أردنا اخراج البلاد من القرون الوسطى.

لذلك فان خطر الانقلابات العسكرية، وبالتالي، خطر الحكم العسكري، انما يزداد حين تضعف القوة الشعبية، ويقل حين تقوى القوة الشعبية والتنظيم الجماهيري. ووجود الحزب المنظم الواعي لمسؤوليته، المتصل اتصالاً صميمياً بالجماهير، ومن ضمنها قطاعها العسكري، هو الوحيد القادر على درء هذه الأخطار..

ولا نبتعد كثيراً عن الحقيقة حين نقول بأن حزب البعث العربي واجه مهماته في هذا الصعيد بارتجال عجيب، وترك للعناصر (المستعجلة) أن

تستـولي على اتجاهات بضعة ضباط هنا وهناك باسم الحزب، مما هيأ لانحراف ظهرت آثاره في ما بعد.

بعد هذا لا بدَّ من العودة الى سياق الأحداث للتعرف على حقيقة بنية (الحزب العربي الاشتراكي) بعد تعرّفنا على بنية حزب البعث العربي.

من يقـرأ مبادىء الحزبين يجد أن الفكرة الواحدة هي التي تفرق بينهمـا، غير ان تكـوينهما مختلف جدا. وليس هذا بالبسيط، فالفكرة المـطلقة لا وجود لها في الواقع السياسي، تتحقق عملاً من خلال الذين تتجسد فيهم، تنطبع بهم، تتطور وتعيش، بهم ومعهم.

نشأ العربي الاشتراكي في ظروف مباينة لظروف البعث العربي، فهو حصاد حركة شعبية نشأت في مدينة حماة، قديمة، تتميز عما نشأ في بقية البلدان السورية ببذور اشتراكية.

كان الاستاذ (علي الارمنازي) منذ مطلع القرن العشرين يعمل ضد الاقطاع، وبعده الدكتور (صالح قنباز) ثم الدكتور توفيق الشيشكلي.

تأسس سنة ١٩٣٨ بقيادة الاستاذ عثمان الحوراني استاذ التاريخ، وهو الوطني الذي ساهم في حركة النضال العربي، وكان اسمه في البداية (حزب الشباب). منذ سنة ١٩٣٧ اخذت الأوساط المثقفة تتحدث عن المحامي الشاب (اكرم الحوراني) الذي انتسب سنة ١٩٣٦ الى الحزب السوري القومي الاجتماعي وأصبح منفذ الحزب في حماه. وانسحب منه سنـة ١٩٣٨ لينضم الى حزب الشباب. بعض يهاجمه بقسوة وبعض يبدي العطف عليه. بل لم يكن مجهولا منذ سنة ١٩٣٢، فقد تردد اسمه كثيرا بعد محاولة اغتيال رئيس المجلس النيابي السوري السيد صبحي بركات الذي كان متهما بالتعاون مع الانتداب الفرنسي.

جرت المحـاولة في بيروت حينما كان الطالب أكرم الحوراني يدرس الطب في الجـامعة اليسوعية، وجاء صبحي بركات الى بيروت للاتصال بحكومتها. فقرر الحوراني مع زميله في الدراسة المرحوم (عبد الباسط البني) اغتيال بركات، واجريا قرعة بينهما لاختيار من يسدد مسدسه الى بركات، كل منهما يريد ان يكون المنفذ، وقعت القرعة ثلاث مرات على البني والحوراني يرفضها مرة بعد مرة، حتى لم تدع مجالا. في ساعة

التنفيذ لم ينطلق الرصاص من المسدس، فقام احد مرافقي بركات بقتل البني فوراً. وبما ان القضية اضحت حديث الصحافة فقد عاد الحوراني الى حماه لاستئناف دراسته في الطب في فرنسا. وحين لم يستطع والده تأمين نفقات دراسته في باريس انتسب أكرم الحوراني الى كلية الحقوق وتخرج محاميا متدرباً.

تعرفت على الاستاذ اكرم الحوراني في منتصف الاربعينيات بعد نجاحه في الانتخابات، وعزمه على تأسيس جريدة ناطقة باسم الشباب الطليعي في سورية. فاختارني من دون الشباب الذين تعرف اليهم للعمل معه في الجريدة التي اصدرها باسم (اليقظة) وكان اصحابها ثلاثة نواب شبان جاءوا الى المجلس النيابي تحدوهم الحماسة لاقامة حركة تقدمية جديدة تختلف عن الحركات السياسية التي كانت سائدة في حينه، وهم:

(نائب حماه رئيف الملقي، ونائب دير الزور قاسم الهنيدي، ونائب حماه اكرم الحوراني) وظهر العدد الاول من الجريدة وفي افتتاحيتها توقيع الثلاثة، ولكن سرعان ما دب الخلاف بينهم بسبب تطرف الحوراني وحماسته للاشتراكية. في البداية انسحب الهنيدي، ثم تبعه الملقي، وظلت الجريدة للحوراني يديرها وفق اهدافه الاشتراكية وتطلعاته التقدمية.

كان اكرم الحوراني يلح في مقالاته في (اليقظة) على نظرية الأرض التي تكوّن الأمة، فلم يخف علينا نحن الذين تعاونا معه على أنه متأثر بآراء الحزب السوري القومي، وكان يهيمن على المجموعة الشابة التي التفّت حوله ومعظمها من مدينة حماه وريف اللاذقية. لم يكن في تلك الفترة على شيء من الصورة التي اخذها عنه الناس في ما بعد. وقليل هم الذين يعرفون أن الطابع الفكري كان غالبا عليها وان بلدته ومن التفّ حوله فيها من الشباب اتخذوه قائدا لهم. وقليل يعرفون عنه انه يحب الشعر ويرويه، وكان شاعره المفضل المتنبي، وكنا نسميه (مجنون المتنبي).

كنت اطالع مقالاته قبل دفعها الى أسنان المطبعة، كان يبدو عليه صفاء الذهن والعنف، وهما شيئان قلّما انسجما معا. خيل إلي وهو

يناقشني في افكاره ان بذور جنوحه عن عقيدة الحزب السوري القومي واضحة. وجدت في ضحكه القليل توترا يخفي طاقة كبيرة وقلقاً عصبياً.

مواقفـه التمـردية في البرلمان، وقسوته في الهجوم على رجال الرعيل الأول، وقتاله الضاري ضد الرجعية ميّزته عن اقرانه في المجلس النيابي، وأخـذ نجمه يلمع وتتسع حركته في مدينته، واستطاع في زمن قليل ان يكون المتكلم باسم ابناء ريف اللاذقية وحماه، كما استطاع ايضا ان يجمـع حوله كل النقمة الشعبية التي كانت سائدة في الريف الشمالي مخلصاً لها، ناقماً بضراوة على وضعها الاجتماعي الشاذ.

خاض المعـركـة ضد ابنـاء المدن المتسلطين على الحكم بلا هوادة، وبشجاعة. توسعت حركته في المنطقة بشكل مذهل، وتميزت بنشاط الذين يعملون بلا كلل والذين يغلب عليهم التفكير العملي الواقعي، لم يتركوا وسيلة الا لجأوا اليها للتقرب من الفلاحين، وقطعوا الطريق على المتنفذين الذين بنوا سلطتهم على الوساطات في دوائر الدولة واستخدامها، فسدّوا عليهم المنفذ الرئيسي بالكشف عن فضائحهم في الجريدة.

في تلك الفتـرة كانت العـلاقـات متشعبـة متشـابكـة بين البعثيين والاشتراكيين، يتعاونون في مناطق ويتنابذون في أخرى. امتد البعث في مناطق لم يكن فيها وجود للعربي الاشتراكي، والعكس بالعكس.. وكان اكثر تنابذهما في ريف اللاذقية، حيث الأقليات المذهبية تتصارع فيه.

دخل الحزبان في مباراة شرسة لكسب الجمهور. كانت تربط الاعضاء في الحزبين صداقات قديمة والتعليل السياسي للأمور، غير ان البنية لم تكن واحدة.

طابع البعث فكري، والاشتراكي تجريبي، وأغرب من ذلك ان كثيرا من عناصر البعث كانت غريبة عليه، مكانها في العربي الاشتراكي، كما ان بعضا من الاشتراكيين لم يكونوا من حزبهم في شيء. بعيدين عن عقليته. ومن خلال هذا التنـاقض تسلل الاستاذ (زكي الارسوزي) الى جناح الاشتراكيين رغم كرهه لكل ما يمت الى الاشتراكية بصلة، وأخذ يعبىء انصـاره ضد الاستـاذ (ميشيل عفلق) ويؤلبهم عليه، وكانت مقالات الارسوزي في جريدة اليقظة تغمز من قناة عفلق سارق فكرة البعث من

الارسوزي. وكان هذا الاتجاه في الجريدة، هو العامل المساعد لانسحاب الهنيدي اولا، ومن بعده الملقي من الجريدة وتركها للحوراني.

كان حزب البعث في تلك الفترة يسير في طريق الأشواك، بل كان لا يبرح يتعرض للعراقيل ويصطدم بالعقبات من داخله ومن خارجه على حد سواء. وخلال ذلك حدثت ازمة داخل البعث غير مرئية، والذين اطلعوا عليها، هم عدد قليل من مستوى القيادة وردفائها.

فالاستاذ عفلق كان مؤيدا من كل فئات الحزب، واستمر هذا التأييد حتى بعد رسالة حسني الزعيم. إلا ان هذه الرسالة لم تمر من غير ان تحدث أثرا. فالشك في تأييد الحزب المتكامل كما كان سابقا قد خامر نفس عفلق، فجنح بشكل عفوي الى تجميع قوى خاصة حوله. وفي هذا التاريخ أخذ الحزب يؤلف عقداً في داخله، واصبحت القوى مبعثرة، فالتي لم تنضم الى عفلق انضوت تحت لواء قادة آخرين، وصار التندر مكشوفاً في تسمية الكتل الحزبية، وسميت كل كتلة باسم واحد من اعضاء القيادة الثلاثية. وكانت ابرز الكتل الفاعلة (جناح الارسوزي).

روى لي الاستاذ جلال السيد مرة ان الاستاذ عفلق كاشفه في أمر كان يؤرقه، وكان لا ينام الليل مشغولا به، وقال له:

اذا كان الحزب ينوي ان يمارس العمل السياسي ويحصل على مكاسب فيجب عليه ان يتخذ الاساليب النافعة في هذا المضمار. فقال له السيد:

ـ وماذا ترى هذه الاساليب، وماذا تتصور شكلها البدهي؟ قال عفلق:

ان حزبا قوميا في مدينة دمشق المحافظة، وهو يتألف من اكثرية ساحقة من المسلمين بحكم التكوين العام للوطن، كيف يجوز له ان يكون امينه العام مسيحيا. اريد ان أتخلى عن الأمانة العامة. فسأله السيد:

من ترشح لها من القادة ؟ فقال:

لماذا لا تكون انت؟ السيد:

انا غير مقيم في دمشق والأمانة العامة تلزم صاحبها ان يكون في مركز العمل، وانت تقول، وانا موافق على قولك، بأن الشباب لا يرتاحون للاستاذ البيطار لأنه قاس في معاملته لهم. فما دمت انا غير موجود،

والاستاذ البيطار غير مرغوب فيه كفاية من جانب الأعضاء، فانه لم يبق للحــزب الا أنت، وهذا امر خطير ارى ان لا اختيار لنا فيه. وليس في الحزب احد غيرك يستطيع اداء هذه المهمة، وان الحزب بقضه وقضيضه يكن لك الاحترام ويمنحك التأييد. ويمضي الاستاذ جلال السيد في حديثه لي قائلا:

وعاد الاستاذ عفلق عليّ بمثل هذه النغمة بعد وقت ليس بالبعيد وعدنا الى الحوار والاقناع. وكأنه في عروضه يمتحن مدى الثقة التي يتمتع بها منّــا ومن الحزب. ولقد بحثت الأمر على حدة مع الاستاذ البيطار فكنّا متفقين في الرأي على ان الاستاذ عفلق هو الوحيد الذي يصلح للأمانة العامة. وأن المسايرة واللين والتأثير الروحي التي ينطبع بها عفلق ليست متــوافــرة في البيــطار. والحزبيون اكثرهم من طلاب عفلق في المدارس الثــانــوية وله عليهم سيطرة روحية. والاستاذ البيطار كذلك مدرسهم، ولكن الفــرق هو ان البيــطار يدرس مادة (العلوم) الجافة البعيدة عن الروح والعاطفة، وعفلق يدرّس مادة التاريخ وهي أخصب مادة للتأثير الروحي المعنوي العاطفي.

واذا كان حزب البعث لم يتأثر بحادثة واحدة فان الحوادث تعددت وتراكمت فكونت وجوداً معاكساً ما يزال يتصارع هو والوجود الأساسي لحزب البعث.

في هذه الفتــرة اشتــدت مســاعي الدمج بين حزب البعث العربي، والحــزب العربي الاشتراكي. اذ نشط الدعاة (بتأثير مباشر من اديب الشيشكلي) الى تقريب وجهات النظر، وشرح المنافع التي يحصل عليها الطرفان. وكانت المساعي من قبل تصطدم بعقبات يومية تبطل المساعي المبذولة في هذا السبيل.

وكانت هذه المساعي تحبط في مجلس النواب. فالكتلة البعثية المؤلفة من ثلاثة نواب والتي تدين بالولاء للاستاذ جلال السيد تختلف في كل الامور، تقريباً، مع الكتلة الثلاثية التي يرأسها الاستاذ اكرم الحوراني. كانت تصــطدم الكتلة البعثيــة بتكتــل اكرم الحوراني ومع العديد من اقــطاب الكتلة الديمقــراطية التي تجمعت لمقابلة الاكثرية العددية من

حزب الشعب. لكن حزب الشعب وفق تكتيكه كان يترك الساحة ليكون فيها (البعث) وجها لوجه امام الكتلة المناوئة له.

وكل خطوة يخطوها دعاة الدمج كانت تعود الى الوراء بسبب الاحتكاك المستمر في مجلس النواب حتى كاد الدعاة يتملكهم اليأس ويتخلون عن محاولاتهم.

الا ان الأمور كانت تتطور لمصلحة الدمج، وكانت الخلافات تحتدم حول مواقف يقفها اكرم الحوراني وتحالفاته، ومع المواقف التي يقفها التكتل البعثي. كان التكتل الثلاثي البعثي في المجلس يتصدى لتدخل الجيش في السياسة واعطاء العسكريين الحق في تصرفات كثيرة، لا يعرف الشعب ولا مجلس النواب بواعثها ولا مغزاها. وحتى الأمور التي هي من اختصاص المجلس كانت تُعالج بشكل سرّي حتى عن المجلس. واذا أريد اجراء مناقلة في قانون الموازنة واعطاء وزارة الدفاع مبالغ من المال، فان الحكومة لا تعطي المجلس اية معلومات عن سبب هذا الطلب بحجة ان ذلك من الأسرار العسكرية وان العدو سيستفيد من اعلانها، وينبري التكتل الثلاثي الذي يتزعمه الحوراني ومعه الكتلة الديمقراطية المشكّلة من مجموعة المستقلين بزعامة خالد العظم للدفاع عن هذا الأسلوب مما يضيق له صدر نواب البعث، فينطلقون مهاجمين الاستكانة والمزايدات والتمهيد للحكم الديكتاتوري واقرار النية التي تتجه الى تعطيل الحياة الدستورية، الى ما هنالك من معان تحملها مواقف النواب الذين يتعاطفون مع الشيشكلي ومنهم كتلة الحوراني، وهنا يحدث الاصطدام.

واغتنم الشيشكلي هذه الفرصة، وضغط بكل ما كان لديه من قوة ظاهرة وخفية لتحقيق الدمج بين البعثيين والاشتراكيين للتخلص من الحزبيين العقائديين مرة واحدة.

لقد روي الكثير عن الخطوات العملية التي ادت الى عملية الدمج، ومعظم هذه الروايات يكاد يكون بعيدا عن الحقيقة لأسباب تتعلق بالتأثيرات المتباينة التي كانت سائدة في حينه. ويمكنني الادعاء بأن ما ارويه هنا ليس من باب الاستنتاج بل من باب تحري الوقائع الثابتة.

في دار الاستاذ صلاح الدين البيطار عقد اجتماع وضمّ أربعة

اشخـاص، هـم السـادة: (صـلاح الدين البيطار، ميشيل عفلق، اكرم الحوراني، جلال السيد) لبحث موضوع دمج الحزبين وما يتعلق بذلك من خطط.

استهل الحديث الاستاذ اكرم الحوراني فقال:

اننا متفقون في كل شيء وليس بيننا خلاف، ومن المصلحة الوطنية أن نكون حزبا واحدا بدلا من حزبين، ولا داعي للتمهل في عملية الدمج التي تخدم القضية من كل جوانبها. وأبدى استعداده ليكون ايجابياً، وظهرت عليه الحماسة.

جلال السيد:

كلا يا استاذ اننا مختلفون جداً، ونفي الاختلاف بالكلام لا يُجدي ما دام الخلاف مستقرا في النفس يعمل في السر والعلانية.

سأل الحوراني عن مادة هذا الخلاف فقال جلال السيد:

انني لن اعود الى الماضي البعيد ولكني سأستشهد بأقرب حدث وقع. فالانقلاب الذي قام به العقيد الشيشكلي على سامي الحناوي كان لك انت يا اكـرم ضلع فيه. والانقلاب يستهدف منع الاتحاد بين سورية والعراق، ونحن من الموافقين على الاتحاد. فالخلاف اذاً أمر واقع، فلماذا اللعب على الألفاظ؟

اكرم الحوراني:

اما ان يكون لي ضلع في الانقلاب فهو مجرد اتهام. وانتم تعلمون ان العسكريين لا يقبلون التوجيه، ولا يطلعون احداً على اسرارهم. وأنا اقول لكم صدقا بأنه ليس لي علم بشيء من هذا.

جلال السيد:

ليس هذا هو المهم انمـا المهم هو الأمـر الثاني وهو الاتحاد الذي ساعدت انت على احباطه.

اكرم الحوراني:

لقد عرض علينا في مجلس الوزراء السابق موضوع عرش في سورية للأمير عبد الاله الوصي على عرش العراق. على أن يبقى القطران منفصلين بشكل دولتين. ولم يعرض علينا موضوع اتحاد بين القطرين. ولو عرض

الاتحاد لكنت موافقاً عليه قبل كل الموافقين، حتى لو كان ذلك الاتحاد تحت النظام الملكي. وأنا مستعد أن انشر هذه الاقوال في بيان بتوقيعي كي تطمئنوا الى صحة ما أقول. فهل قنعتم بأن ليس بيننا خلاف حتى في هذه القضية ؟

جلال السيد:

انــا اكتفيت واني أحيـل بقية الموضـوع بتفصيلاته على الاستاذين عفلق والبيطار ليتوليا اتمامه.

بعـد ذلك جرى حديث وديّ ايجـابي حول دمج الحزبين والبدء في التمهيد لذلك في اوساط الحزبيين، حتى لا يؤخذ الأعضاء في قضية تتعلق بمستقبل حزبهم الذي يحبونه ويحرصون على وجوده، وعلى اسمه، ومن يضم من الاعضاء.

كانت هذه اول جلســة اقترب فيها قادة الحزبين من حدود الدمج، ودرسوا الامكانات درساً جدياً.

وقد توالت بعد ذلك الاجتماعات الثنائية، او الثلاثية بين الأعضاء من كلا الحزبين على مختلف المستويات. وكانت اللقاءات مستمرة لكن التقدم لم يكن مستمرا او مطرداً، وانما كانت تقوم العقبات كلما اوغلوا في بحث الجزئيات والتفاصيل.

وكما كان في الحزبين عناصر تميل الى الدمج فلقد كانت هناك عناصر تصدُّ عنه وتتمنى ألّا يكون. وكان لكل من الفئتين حججه ومستنداته. وتوقفت الاتصالات بعض الشيء عندما فوجئت البلاد بانقلاب كامل قام به العقيـد أديب الشيشكلي عطّل به الحياة النيابية، وأوقف الدستور، واعتقل اعضاء الحكومة.

بعد مضي ما يقرب من عامين على انقلاب الشيشكلي الجزئي الذي اكتفى به بأن أطاح برئيس الأركان اللواء سامي الحناوي وحل محله، قام الشيشكلي بانقلاب تام. وعرف حزب الشعب الذي يتمتع بأكثرية داخل المجلس النيابي بأن هذا الانقلاب موجه ضده فعمل على تأليف حكومة يرأسهـا معـروف الدواليبي، وكـان ذلك يتضمن شيئـا من التحـدي والاستفـزاز للمسيطرين على الجيش لأن لهم رأيا آخر في الموقف. وفي

الليلة ذاتهـا تم اعتقـال الوزراء، ولكن لم يشمـل الاعتقـال رئيس الجمهورية السيد هاشم الاتاسي.

وانقـلاب الشيشكـلي الثاني لم يحظ بتأييد حزب البعث كما حظي انقلاب حسني الزعيم، بل ان الحزب كان حذراً ومتحفظاً وكانت الشكوك تساوره في سلامة هذه الخطوة، ولكن الحزب مع ذلك لم يعلن معارضته للوهلة الاولى. ذلك ان العملية لم تكن موجهة ضد البعث، وانما ضد حزب الشعب وحلفائه في مجلس النواب. واجتمع مجلس النواب بأكثريته في دار الرئيس هاشم الاتـاسي، واستعـرض الموقف من كل جوانبه وكان الاستنكار شديداً لما قام به الجيش.

وبـدا التخوّف على الشيشكلي من عمل دستوري يقوم به المجلس، فبادر إلى إصدار أمر عسكري بحل المجلس وإيقاف الحياة الدستورية.

على اثر ذلك عقد إجتماع رباعي مع الشيشكلي في داره ضم السادة: (ميشيل عفلق، صلاح الدين البيطار، اكرم الحوراني، جلال السيد)، وكـان الاجتمـاع بناء على طلب هؤلاء الأساتذة، وليس بناء على دعوة الشيشكـلي. وكان القصد من هذا الاجتماع الاطلاع على المدى الذي سيصل اليه الشيشكلي في خطوته هذه. وقد تم الاجتماع قبل ان يعلن الشيشكلي حلّ مجلس النواب، اذ كان بين اعتقال اعضاء الحكومة وبين حل المجلس عدة ايام. وبعد المداولات والحوار كان الشيشكلي يتظاهر بأنه حليف للحزبين (كانا يومذاك حزبين)، وهو في سلوكه كان يدافع عن الحـريـة الحقيقية، ويقاوم الاستغلال والاقطاع السياسي، وما في هذا الميدان من مزاعم.

وكان الموقف متفاوتا بين هؤلاء الأربعة، اذ كان البعثيون صريحين في اعـلانهم عدم الرضا والتخوف من النتائج. بينما كان اكرم الحوراني أقرب الى الموافقة العملية على خطوة الشيشكلي. لكن مع كل هذا لم تصدر عنه موافقة صريحة او تأييد رسمي. ودام الاجتماع اكثر من ساعتين لم يتوصل المجتمعون خلالهما الى التلاقي ولا حول نقطة واحدة. وانتهى الاجتماع بأن قال له البعثيون:

انك وحدك المسؤول فأكمل طريقك. بينما طلب الشيشكلي الاجتماع

مرة ثانية في وقت سيحدده. لكن كان ظاهراً ان طلب الاجتماع هو اعلان عن انتهاء الاجتماع الاول ليس غير. ولم يتم اي اجتماع بعد ذلك بين الطرفين بشكل علني واضح.

كان الجـو يوحي بالخطر وكأنما كانت هذه المقابلة تحريضا وحفزا لتوحيد العمل بين حزب البعث، وحزب العربي الاشتراكي. اذ لم يصدر عن الشيشكـلي ما يبعث على الطمـأنينة او الأمل في أنه يريد التعاون معهما، ولا مع واحد منهما في الأقل وهو العربي الاشتراكي الذي تربط بينه وبين رئيس الحزب صداقات ومراحل عمل مشتركة، وتضامن خلال السنتين اللتين مرتا في حياة مجلس النواب.

وكان قد سرى الظن بأن الانقلاب اميركي. وانه تم للقضاء على كل محاولة اتحادية بين سورية والعراق. وكان شباب البعث قد استعادوا ما حل بهم من قبل يوم قام حسني الزعيم بانقلابه. وقد توقعوا أن يقع عليهم في الحكم الجديد مثل ما وقع لهم في العهد الدكتاتوري الماضي. فكانت ردة الفعل عندهم شديدة، وكانوا متحفزين للعمل ضد العهد ما استطاعوا الى العمل سبيلاً.

وسار الشيشكلي في طريقه المرسومة، فاستبعد كل الأحزاب القائمة، بمـا في ذلك حزب البعث، وحزب العربي الاشتراكي وكان الأخير يظن الشيشكـلي حليفـاً طبيعياً له، ولكنه نبش عن حزب قديم منسي اسمه (الحزب العربي القومي) وكان يضم بعض الشباب من حلب عرف عنهم تأييدهم للنازية في ابان صعودها، ثم سرعان ما توارى اعضاء الحزب بعد الاستقلال. وتعاون الشيشكلي مع هذا الحزب، وألف حكومة تضم عدداً كبيراً من قادة ذلك الحزب المنسي، وعددا من الاختصاصيين.

ثم عمد الى سنّ دستور جديد ليس فيه من الجدة الجدية الا الاسم، والا بعض ما كانت تلوكه الألسن من تعابير شائعة. وأجرى انتخابات موجهـة فاز فيها انصاره. وكانت هذه الانتخابات عرضة للمقاطعة من الكثرة من اعضاء الأحزاب. والنهاية معروفة اذ اصبحت تقليدية تتم بالعـادة ولا تحتـاج الى اعمـال فكـر. فقـد اصبـح الشيشكلي رئيسا للجمهـوريـة وسـط غليـان شعبي وعداء من جانب الفئات السياسية

المعروفة، وكلما لقي الشيشكلي مزيدا من العداء الشعبي، كان يعمد الى مزيد من الشدة والضغط على مختلف فئات المعارضة.

وأسس الشيشكلي (حركة التحرير)، وجعل منها الحزب الوحيد الصالح لممارسة العمل السياسي.

في هذا الجو الصاخب حدث الدمج بين الحزبين: البعث والعربي الاشتراكي، فقد سبق عملية الدمج تلاحق سريع في الاحداث، اذ سيطرت على البلد دكتاتورية الشيشكلي، فضاقت الصدور، وتمنى الناس الخلاص بأي شكل من الأشكال.

والمصيبة جامعة، كما يقول المثل الدارج، وكان جو الارهاب مساعداً على ازدياد التقارب بين الحزبين والتسارع في هذا التقارب، لا سيما وان العربي الاشتراكي قد نفض يده نهائيا من الشيشكلي، وقامت خصومة بينهما لم يعد في الامكان محو آثارها.

وتدخل بعض الضباط من أصدقاء الحزبين، وزينوا لهما الاندماج ليكون الحزب ضخماً وصالحاً لتأييد اية حركة تقوم في الجيش ضد الشيشكلي. وكان ان قال نفر من الضباط انهم مستعدون للاطاحة بالشيشكلي بشرط ان يتم توحيد الحزبين. وما لم يتم هذا التوحيد، فان فقدان المستند السياسي الشعبي لا يكون مساعداً في عمل شيء. وزاد الاقتناع لدى اوساط الحزبين بوجوب الدمج.

عقدت اجتماعات ثلاثية متوالية في قيادة حزب البعث العربي لاقرار الدمج، بعدما تكاملت الضغوط، واشتدت حماسة المتحمسين له، وكثرت الاتصالات بين اعضاء الحزبين وكان الموقف في قيادة الحزب يشير الى ان الاستاذ جلال السيد هو من المعارضين وكان الاستاذان عفلق والبيطار أقرب الى القبول.

ولكي لا يتم التباعد بين المؤسسين الثلاثة: عفلق، البيطار، السيد، أصرُّ الاستاذ عفلق على أن يضع جلال السيد شروط الدمج لكي يوافق عليها الحزب العربي الاشتراكي. وضع جلال السيد الشروط التالية:

١ـ دستور الحزب الجديد هو دستور حزب البعث العربي بلا زيادة حرف ولا نقصان حرف.

٢ـ النظام الداخلي للحزب الجديد هو المنهاج الداخلي لحزب البعث.

٣ـ تصبح القيادة رباعية بعدما كانت ثلاثية، وذلك بانضمام الاستاذ اكرم الحوراني اليها.

٤ـ سائر الاعضاء من الحزب العربي الاشتراكي يتقدمون بطلب انتساب الى الحزب كل واحد بمفرده. والقيادة تقبل من تقبل منهم، وترفض ضم من ترفض الى الحزب، بينما هذا الشرط لا يسري على اعضاء البعث العربي فهم اعضاء طبيعيون في الحزب.

٥ـ اسم الحزب هو حزب البعث العربي.

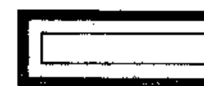
ولم يكن بخافٍ علينا نحن الذين كنا نعيش الأحداث ان كلمة (الاشتراكي) قد اضيفت على اسم الحزب بضغط من الاستاذين عفلق والبيطار على جلال السيد ليقبل بها بعد ان اعلن اكرم الحوراني عدم تنازله عن هذه الكلمة، مع قبوله الشروط كلها دون تعديل.

وغادر جلال السيد دمشق الى بلدته دير الزور، فاذا به يتلقى هاتفاً من البيطار يخبره فيه ان الشروط قد قبلت وان الدمج قد تمّ. ولقد فرح مَنْ فرح من اعضاء الحزبين بهذه النتيجة واغتمّ من اغتمّ. وكان الاستاذ جلال السيد في طليعة المغتمين.

كان الدمج دمجاً سطحياً سياسياً لم يصل الى الأعماق فيوحد الأمزجة والميول والمقاصد. وقد عاش الحزبان وكأنهما اتحاديان لا حزب واحد. وكأنما كان كل شيء يوحي بأن هذا الدمج، انما هو (زواج متعة) يقضي وطراً ثم ينتهي.

لم يترك الشيشكلي مجالا لإدامة التفكير في ما وقع، بل انه انسى الحزبيين كل شيء الا واجب النضال والكفاح ضد حكمه. وكانت العلاقة قد ساءت الى ابعد حد بين قيادة الحزب كلها وبين الأعضاء ايضا، وبين الشيشكلي. الى ان اضطرت القيادة الى اتخاذ قرار بالنزوح الى خارج الوطن السوري، وبعثوا الى جلال السيد بكتاب حمله اليه احد الأعضاء الى دير الزور يطلبون منه فيه مغادرة سورية الى أقرب مكان، فليس من الضروري النزوح الى لبنان حيث نزح عفلق والبيطار، بل الى اي مكان، وما دام العراق قريبا من دير الزور فلا بأس من اللجوء الى العراق. وغادر

اعضــاء القيــادة (عفلق والبيطار والحوراني) دمشق الى بيروت، ولكن جلال السيد بقي في دير الزور.



هوامش الفصل التاسع

(١) فرانز فانون (معذبو الارض) ص ١٠٧
(٢) المصدر نفسه ص ١١٦

١٠

ديكتاتور يستفسر عن مصيره !

حديث دمج (حزب البعث العربي) مع (الحزب العربي الاشتراكي)، وتسمية الحزب الجديد بـ (حزب البعث العربي الاشتراكي) ليس حديثا عابراً، انه يحتاج الى دراسة واعية من قبل الذين قبلوا به مرغمين، والذين رفضوه سرّاً ولم يتجرأوا على مقاومته علناً. ولعلنا نرتكب خطأ كبيراً اذا نحن مررنا به مرورا سريعا، وتصورناه مجرد حدث عادي اقتضته ظروف حزبية معينة، أو اذا تصورنا أن مساوئه تقتصر فقط على استعماله، وسيلةً نضالية لمقاومة عهد عسكري اتفق الجميع على مقاومته، أو اذا ألحقناه بسلسلة المداخلات العسكرية التي أصبحت جزءا من تاريخ سورية، وتقليداً من تقاليدها.

انه هذا كله، ولكنه ايضا، أهم من هذا كله. ولقد تجاوز كونه حدثاً سورياً، او حدثاً حزبياً. لقد أنهت عملية الدمج هذه آخر محاولة لانشاء حزب عقائدي يشترك فيه القطاع العسكري دون ان يسيطر عليه، كرس البداية العملية لظاهرة الحكم العسكري الذي يُخضع العقائد لسيطرته، بحيث أضحى هذا الواقع في ما بعد في منتهى الخطورة، حين تمكنت القيادات العسكرية، على اختلاف اتجاهاتها وميولها، من الوصول الى صميم العمل السياسي، وراحت تهدده تهديداً حقيقياً وخطيرا.

ومن هنا يمكن القول بأن هذا الحدث قد تحول من ظاهرة حزبية خاصة، او ظاهرة قطرية محدودة، الى ظاهرة عربية عامة لا يمكن تقييمها تقييما حقيقيا وصادقا بمعزل عن كل ما يحيط بالحركة العربية من أجواء وأحداث وظروف، لأن هذا الحدث لم يكن الا حلقة من سلسلة حلقات تتابعت على معظم الاقطار العربية، وأوصلت القيادات العسكرية في ما بعد الى الحكم المباشر في بعض هذه الاقطار. ولكن، لماذا هذه النظرة الى

دمج الحزبين بضغط عسكري غير منظور؟

لقد ولد (حزب البعث العربي) استجابة حيّة لضرورات سياق التاريخ العربي، ولحتميات عوامل التاريخ الفاعلة في المجتمع العربي، وادراكاً لمعنى الدور التاريخي الذي تقوم به الجماهير في خوضها لنضالها التحرري.

كان البعث، بشكل او بآخر، حركة فكرية عقائدية تهدف الى وجوب العمل على قلب المعطيات التي كانت سائدة في سورية بشكل ينفي عنها كل ما يؤخر ويعيق من عوامل، ويدفع كل ما يقدم ويبني.

يقول كارل ماركس:

(إن أكبر ميزة في حركتنا الجديدة هي أننا لا نحاول ان نتصور صورة العالم الجديد اعتباطا، ولكننا نكتشفها من خلال نقدنا للعالم القديم، لقد اعتاد الفلاسفة، حتى الآن، ان يضعوا حلولهم للمعضلات، جاهزة، في ادراج مكاتبهم. وكل ما يلزم العالم الغبي أن يفعله، هو أن يغمض عينيه، ويفتح فمه، ليتلقى تلك الحلوى الجاهزة الصادرة من مطبخ العلم المطلق[1]).

ذلك قيل قبل ان يضع اللاحقون اكتشافات (ماركس) في مطبخ العلم المطلق.

بذلك كانت نظرة البعث شبـه علميـة، لا بما انتج من صور كاملة للمجتمع المقبل، بل بما طبّق من اسلوب في فهم الواقع الحي، وما أدّاه ذلك الى وجـوب العمـل على تغيـير هذا الواقع لدفع العوامل الايجابية المـوجـودة فيـه فعـلا، ولا تحتاج الى خلق جديد، الى الأمام. وكما ان (مـاركس) لم يخترع الصراع الطبقي، ولكن كشفه، فكذلك لم يخترع حزب البعث العوامل الفاعلة في المجتمع العربي، بل كشفها.

بذلك كانت بداية البعث بمثابة قفزة، ولو محدودة، بالسياسة العربية من مستـوى رد الفعل الآني الذي كان طابع هذه السياسة حتى ذلك الحين، الى مستوى نظرة هي إن كانت غير مدروسة الا انها واعية. وقفز بالنضـال نفسـه من مستـوى الفـورات المؤقتة، الى مستوى النضال المستمر ضد القوى المعادية لحقيقة الأمة العربية.

ذلك ان السياسة العربية، حتى ذلك الوقت، كانت مجرد ردود فعل منفعلة بالتحدي الاستعماري. لقد حفلت هذه الفترة الماضية بعديد من الحركات النضالية، وخاضت الجماهير كثيرا من معارك الكفاح. ولكن كان قد بدأ يتضح ان معارك النضال الانعكاسية المحضة أضعف من ان ترقى الى مستوى حمل المسؤولية، مسؤولية التقدم الذي يطمح اليه الشعب، والذي تفرضه رسالة الامة العربية.

ولقد شرح هذا الدكتور منيف الرزاز (الامين العام لحزب البعث المؤقت) في كتابيه «تطور معنى القومية» و «الحرية ومشكلاتها في البلدان المتخلفة» (ص ٣٣ ـ ٤٣).

من تفهم هذا الصراع ومعناه، كما شرحه الدكتور منيف الرزاز، وضع الحزب مسلمته الاولى بأن الاستعمار قوة معادية طارئة، لن تتخلص منه الأمة العربية الا بالنضال المتواصل العنيف. ولكن التخلف قيد على النضال نفسه. ولذلك فلا بد من ان نتخلص من آثار التخلف التي تقيدنا، وخصوصاً آثاره النفسية المعطلة لعملية النضال، لأن آثاره المادية الأخرى تحتاج الى سنوات طويلة من العمل الجدي من اجل محوها، عمل لن يتاح بسهولة قبل التخلص من الاستعمار. ولذلك فان أول واجب من واجباتنا هو تحقيق الانقلاب في نفوسنا، من اجل تحقيق الانقلاب على الاستعمار وعلى مجتمعنا المتخلف. وتحقيق هذا الانقلاب النفسي انما يتم، في الدرجة الاولى، بالوعي الناتج عن ممارسة عمليات النضال نفسها، لأنها تصهر النفوس وتطهرها، وتخلصها من أدران التخلف الموروثة بما تفتح من طاقات كامنة لا يمكن ان تنفتح بمجرد التعليم والثقافة.

(الانقلاب تعبيره العملي هو النضال. والنضال له معان كثيرة أوله معنى واسع لا ينحصر في النضال السياسي وحده. وقد يظن بأن النضال أسلوب للعمل.. في حين أن النضال بالنسبة الى العربي ليس اسلوباً فحسب وانما هو غاية في حد ذاته..

ان تحقيق الانقلاب العربي المنشود رهن بتجسيد الروح الانقلابية في نفوس اعضاء حزب البعث العربي وعقولهم. وان انضمام الأفراد الى

حزب البعث العـربي لا يعني خروجهم من الواقـع الفـاسـد وتهيؤهم لمحاربته والانتصار عليه، الا اذا تجسدت الروح الانقلابية في فكرهم وسلوكهم..[٢]).

هذه المسلمـة كانت ذات أثر بعيد، لا على الحزب وحده، ولكن على الحـركة القومية العربية كلها، لأنها، للمرة الأولى، أعطت هذه الحركة معناها الجماهيري، وأعطت النضال معناه الحقيقي. فلم يعد النضال مطلوبـاً لتحقيق الاستقلال فحسب، وانما اصبح هو نفسه النار التي تتـطهر بها نفوس الجماهير من أدران التخلف. لم يعد النضال مجرد عملية لإخراج المستعمر، وانما أصبح كما يقول ميشيل عفلق في أحاديثه الى مريديه، عملية (بعث أمة).

فإلى أي حد ينطبق هذا التنظير على الواقع الذي وُجدَ فيه البعث اثر عملية الدمج؟

أعود من جديد الى سياق الأحداث التي من شأنها الإجابة بنفسها عن هذا التساؤل الكبير.

بعـد عملية الدمج وانتقال الاساتذة: ميشيل عفلق ، صلاح الدين البيطار، اكرم الحوراني الى بيروت، وبقاء الاستاذ جلال السيد مختفيا في بلدته دير الزور. جرت الأحداث عنيفة ومتسارعة.

كانت المعركة ضد الشيشكلي قوية اتسمت بالشجاعة والتوتر، وبكثير من انعدام الرؤية، تنقصها الاستراتيجية والتكتيك.

اتُّهِمَ الشيشكـلي بتنفيـذ مآرب الاستعمار، بالعمالة تارة وبالخيانة اخرىَ، ووُزِّعتْ البيانات بشكل لم يسبق له مثيل ولم يأتِ بعده. وكان من رأي (المستعجلين) ان (البعث العربي الاشتراكي) بحاجة الى فترة من الاضطهاد يقسو ويمتن فيها بنيانه، كي يخوض معركة حقيقية.

ولم يترك الشيشكلي مجالا لإدامة التفكير في ما وقع. بل تحرك بسرعة ليضرب الجميع، بدون استثناء. ودبّت الفوضى في صفوف البعثيين. فقد كان الدمـج سطحيـا لم يصـل الى الأعمـاق فيـوحد الأمزجة والميول والمقاصد، لذلك رأينا في الحزب أمراً بارزاً هو تقاسم المهمات. كل فريق يصدر البيان الذي يتفق ومصالحه.

في هذه الأثناء، ومع بداية عام ١٩٥٤ بات حكم الشيشكلي ناضجا للسقـوط. فعقـد في مدينة حمص مؤتمر وطني ضمّ كل الفئات المناوئة للحكم. وتشاء الأقدار ان يكون لبقاء جلال السيد متوارياً في سورية أثره الفاعل في التحرك، حين تمكن من حضور مؤتمر حمص.

قبل ذلك بأيام معدودة جرت اتصالات مع الفئات السياسية للاتفاق على ما بعـد مرحلة الشيشكـلي اذا تمّ أمـر الإطاحة به. وذهب بعض العسكريين سرا الى دير الزور، واجتمعوا هناك بالاستاذ جلال السيد، وبحثـوا معـه امـر قيـام انقلاب عسكري يؤيده حزب البعث العربي الاشتراكي، فكان جواب جلال السيد:

انـا لا اوافق على الانقـلابـات العسكرية، واتمنى لو يتم الانقلاب بالطرق الديمقراطية الشعبية. لكن اذا حدث الانقلاب بغير رضى الحزب فسندرس الموضوع ونقرر.

وفطن الشيشكلي الى خطورة المؤتمر ونتائجه فكان يزمع منعه بالقوة. لكنه أخذ رأي محافظ حمص بصفته المسؤول عن مثل هذه الأحداث في محافظته. وكان المحافظ بالمصادفة هو (سعيد السيد) شقيق الاستاذ جلال السيد، فأشار عليه المحافظ أن يسمح بعقد المؤتمر ويعطي الحرية للمواطنين. على ان يضمن المحافظ النتائج الأمنية وحدها دون النتائج السياسية التي قال انها لا تحتاج الى ضمانات. فالمدُّ الشعبي متدفق رغم المنع، ومن الأفضل للشيشكلي نفسه ان يسمح بعقد المؤتمر. وتم السماح للمؤتمر بالانعقاد. وقد القيت كلمات من ممثلي الفئات تحدثت كلهـا عن وجـوب الاتحـاد ورصِّ الصفـوف وتجـاوز الامور الثانوية، والتمسك بما يؤول الى حرية الوطن والمواطن وحدها.

واتخذت بعض القرارات التي تنمُّ عن الحزم والاستمرار في مكافحة العهد، والعودة الى الديمقراطية، ووجوب بذل كل جهد في هذا السبيل. وكانت جلسة واحدة تكفي لتقرير هذه الامور كلها، فكانت جلسة البداية والافتتاح هي جلسة النهاية والاختتام.

كنت من بين الذين كانوا قريبا من المؤتمر، وقد رافقت الاستاذ جلال السيد الى بيت شقيقه المحافظ (سعيد السيد) وهناك كانت المفاجأة التي

لم يكن يتـوقعها أحد، وذلك حين دقّ جرس الهاتف وكان المتحدث هو الشيشكلي الذي طلب جلال السيد للتحدث معه. وجرى الحديث بينهما على الشكل التالي:

مساء الخير ابو قيس (جلال السيد يكنى بأبي قيس)

ورد السيد على الشيشكلي:

ـ مساء الخير.

ـ عسى ان تكون بخير.

ـ أحمد الله.

ـ لقد أشبعتموني سبًا وشتائم، أليس كذلك؟

ـ على قدر الامكان.

ـ لقد كنّا مطمئنين الى نتائج المؤتمر عندما عرفنا انه يضمكم وبعض الاخوان من أهل السابقة في الوطنية والنضال.

ـ ان شاء الله.

ـ ماذا قررتم بحقنا؟

ـ الموقف حاسم هذه المرة، فإمّا رؤوسنا وإمّا رأسك.

ـ وهل تفرطون بي أبا قيس؟

ـ الوطن أغلى من الأصدقاء والأشخاص.

ـ هل يمكن أن نراك غدا؟

ـ لا.

ـ ولو لساعة واحدة ؟

ـ لا. ذلك غير ممكن، فأنا مسافر صباحا الى دير الزور.

ـ ساعة واحدة لا تؤخر عملك.

ـ وكيف تراني. وزمـلائي في المنفى واعضــاء الحزب في السجون، والمواطنون في قلق.

ـ ومن نفى زملاءك يا اخي؟ انهم ذهبوا بملء اختيارهم الى المنفى.

ـ أنت نفيتهم.

ـ أنا لم أصدر أي قرار بحقهم ولم أمنعهم من العودة.

ـ اذا كنت لم تتخذ قرارا بنفيهم، فانك ضيّقت عليهم الخناق وعكرت

الأجواء حتى كادوا يختنقون فنزحوا.
ـ اذا كان الجو خانقا حقا فلم لم تنزح أنت؟
ـ بعض الأمزجة تحتمل المصاعب أكثر من بعضها الآخر.
ـ اذن لن نراك في دمشق؟
ـ كلا.
ـ على رأيك.

كانت هناك صداقة شخصية تربط الشيشكلي بجلال السيد تعود الى سنة ١٩٤١ حين كان الشيشكلي ضابط موقع في مدينة (ابو كمال) على الحدود العراقية السورية، ويومها قامت ثورة (مربع الضباط الذهبي) في العراق، وكان من بين المهمات التي اوكلت الى جلال السيد تهريب السلاح من سورية الى العراق، وقد ساهم الشيشكلي في العملية على نطاق واسع، فتوطدت الصداقة بينهما وتوثقت، وامتدت في ما بعد.

كان من نتيجة الاتصال الهاتفي بين الشيشكلي وجلال السيد السماح للأساتذة الثلاثة: (عفلق، البيطار، الحوراني) العودة الى سورية بعد إخراجهم من بيروت بضغط من أديب الشيشكلي وسفرهم الى إيطاليا. ودب النشاط في الحزب من جديد.. وهنا تكهرب الجو، فأقدم الشيشكلي على اعتقال العديد من زعماء الأحزاب وأودعهم سجن المزة، لكن العدد كان أكبر من ان يتسع له السجن ففتحوا السجون الأخرى، وأودعت السلطة فيها من شاءت.

وأعدت قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي برقية الى الشيشكلي طالبته فيها بالتنحي عن الحكم، وإلا فان الاضطرابات ستعم جميع انحاء سورية.

امتعض الشيشكلي من هذه البرقية، وقرر اعتقال القادة الأربعة مع عدد من الأعضاء، وما كاد القادة يصلون الى سجن المزة حتى فوجئوا بعدد كبير من اعضاء الحزب ومن الفئات الاخرى. وكان المعتقلون من كل الأصناف، ففيهم المحامون والأطباء والمدرسون والضباط المتقاعدون والطلاب. وكان وجود هؤلاء في سجن المزة دليلاً حياً على ما يشبه الإجماع في البلاد على السخط من عهد الشيشكلي، وكان كل شيء يؤذن بزوال

العهد بلا إبطاء.

في ليلة من ليـالي آذار (مـارس) ١٩٥٤ اذيـع ان الشيشكلي غادر دمشق، وصدر امر قيادة الانقلاب العسكرية بالإفراج عن جميع المعتقلين.

دعت قيـادة الانقـلاب العسكرية الى مؤتمر يعقد في حمص، وذلك لوضع الترتيبات وبناء الحياة الجديدة، وتأليف حكومة بعد رحيل أديب الشيشكـلي. وكـان المؤتمر برئاسة السيد هاشم الاتاسي، الذي اعتبر الرئيس الشرعي للبلاد، وبعضوية ممثلين عن الاحزاب الثلاثة الرئيسية: (الوطني، الشعب، الاخوان المسلمون) وعن المستقلين. وبناء على اعتبار عهـد الشيشكـلي عهـداً غير شرعي فانـه عُدَّ لاغيـاً كل ما اتخذه من اجراءات، فقرر بناءً على ذلك، دعوة مجلس النواب المنحل الى الانعقاد. كان قادة البعث العـربي الاشتراكي الأربعة قد تأخروا عن الحضور بسبب مضـاعفات حدثت بين صفوف الضباط في سجن المزة، وعندما وصلوا الى مؤتمر حمص كان على وشك الانتهاء من مهمته. وكان الرئيس الاتاسي قد طلب حضور الاستاذ جلال السيد ولم يبلغوه ذلك الا بعد انفضاض المؤتمر.

وقد تم تأليف الوزارة الجديدة من اطراف ثلاثة:

المستقلون، وبعض النواب المتعاطفين مع الاخوان المسلمين، وحزب الشعب، والحزب الوطني. ولم يُظهر ممثلو حزب البعث الذين شاركوا في المؤتمر قبل وصول الأساتذة اي اعتراض على ذلك.

وعـاد ممثلو الحـزب الى دمشق والمرارة تعتمل في نفوسهم، ونتيجة للوسـاطات التي كثـرت لرأب الصـدع بين السياسيين، ومنها وساطة سلطان باشـا الاطرش، وكمـال جنبلاط الذي قدم من لبنان خصيصا للمساعدة في حل هذه الأزمة واصرار الرئيس هاشم الاتاسي على اشراك حزب البعث العربي الاشتراكي في الوزارة، تم الاتفاق على اعادة تأليف الوزارة، ولكن سرعان ما ظهر أن هناك نية في اقصاء الحزب عن الوزارة بسبب مداخـلات عربيـة فاعلة، ولعب العراق دوراً اساسياً في عملية الاقصاء، وقام الرئيس هاشم الاتاسي باستدعاء الاستاذ السيد وأبلغه

ان الوزارة القائمة هي وزارة مؤقتة قامت لتسيير الأمور، وقد شكلت على عجل برئاسة الاستاذ صبري العسلي، الى ان يحل موعد الانتخابات النيابية بعد ثلاثة اشهر، وعندها يتم تأليف حكومة غير هذه تشرف على الانتخابات وتكون ائتلافية، وسيكون فيها ممثلون على نحو ما يطلب الحزب اليوم. ولعل من الأسرار التي بقيت مجهولة لدى الكثيرين ان الخلاف دب في صفوف الحزب حول اختيار من سيدخل الوزارة فكان هناك صراع خفي بين جناح عفلق، وجناح الحوراني. «ولُفلف» الموضوع حين رُفِضَ تمثيل الحزب في هذه المرحلة.

بعد ذلك اجتمع مجلس النواب السابق، ولما جاءت الحكومة ببيانها الوزاري الى المجلس، كان الاتفاق أن يلقي كلمة الحزب نائب واحد، لكن الذي حدث أن الحزب ألقى كلمتين: احداهما بعثية والاخرى إشتراكية، واتضح للنواب خصوصاً أن في الحزب ثنائية واضحة، وأيقن الجميع ان الدمج لم يكن عميق الجذور، وقد يكون (اتحاداً)، ولكنه، على اي حال، لم يكن (فيدراليا) ايضا، وان كان واسعا (كونفديرالي).

واشتدت البلبلة في الحزب، وضعف التماسك الذي كان، في الأصل، ضعيفاً، وسعت كل فئة الى مصلحتها الخاصة في موضوع الانتخابات.

في تلك الأثناء دعي الاستاذ جلال السيد الى القصر الجمهوري، فوجد لدى الرئيس الاتاسي الاستاذ (رشدي كيخيا) زعيم حزب الشعب الذي كان من اكبر الأحزاب عددا في مجلس النواب. فقال الرئيس الاتاسي: فكرنا في تأليف وزارة تشرف على الانتخابات، وان رشدي بك يشرح لك ما فكرنا. فقال الكيخيا:

كلفني الرئيس بتأليف حكومة تشرف على الانتخابات، وألح في التكليف فقبلت المهمة. وأنا أنوي تأليف حكومة حيادية تضم وزراء مستقلين. وأنوي أن أضم وزيرا واحدا من كل حزب من الاحزاب الثلاثة العاملة في البلاد وهي: حزب الشعب، والحزب الوطني، وحزب البعث. اما حزب الشعب فانه يكتفي بوجودي ولا يريد وزيرا منه. أقول هذا لأني سأنسحب من حزب الشعب اذا أكملت تأليف الوزارة لأكون حياديا كامل الحياد. ومع ذلك فإن حزب الشعب لا يشترط وجود وزير له الى

جانب وزيري الحزبين «الوطني» و «البعث». فما قولكم في هذا؟ أجاب جلال السيد:

لا أملك حق الإجابة القطعية على هذا السؤال والأمر متروك الى قرار من الحزب. فأكمل لي مخططك ليصير بحثه كاملا في قيادة الحزب. قال كيخيا:

أنا اشترط أن يكون لي حق اختيار الوزير من كلا الحزبين. وليس الحزب الذي له الحق بأن يبعث وزيره الى الوزارة. قال السيد:

اعتبر، منذ الآن، ان قرارنا سيكون الرفض.

وتـدخـل الاتـاسي في الحوار راجيا ان يكون الجواب بعد الاتصال بالحـزب. ويقـول جلال السيد: جرى نقاش في قيادة الحزب، وأبلغت الرئيس الاتاسي بجوابنا النهائي برفض العرض فكان ان اعتذر رشدي كيخيـا عن تأليف الوزارة، فتـألفت من المستقلين الحيـاديـين. وجرت الانتخابات، وفاز حزب البعث العربي الاشتراكي بسبعة عشر مقعدا في المجلس الجديد. وكان من الفائزين من اقطاب الحزب أكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار مع عدد من الشبان المثقفين من مختلف انحاء البـلاد، ولا سيمـا في محـافـظة حمـاه. وكـان الحزبيون الفائزون في الانتخابات النيابية في كثرتهم الكاثرة من شق العربي الاشتراكي. وحتى الفـائـزون من حزب البعث العـربي أصبحـوا ميالين الى جناح اكرم الحوراني، وضمر بعض الشيء جناح البعث العربي في مجلس النواب، بينمـا نما وتضخم الجناح الاشتراكي، حتى كاد يطغى على الائتلاف ويسيـطر عليـه. وسـاعده في ذلك بعض أقطاب مجلس النواب الذين يريدون ان تقع الخلخلة في الحزب، فساندوا جناحا منه دون جناح، مما جعله يتعرض للنقد من جديد في صفوف الذين ظلوا على ولائهم لأفكار الحزب القديمة، ومن هؤلاء الاستاذ جلال السيد.

في هذه الفترة القلقة من حياة سورية ظهرت على الحزب، ممثلاً بنوابه، العناية بالأمور السياسية اكثر من العناية بالامور العقائدية او الفكرية، وبرزت عقدة جديدة في نفس الاستاذ ميشيل عفلق اثر قناعته بأن جناح الحوراني يعمل على اقصائه من الساحتين السياسية والعقائدية. فزادت

عقد الاستاذ عفلق عقدة جديدة كان لها اثرها في ما بعد في مسيرة حزب البعث. وذلك بسبب سقوط عفلق في الانتخابات.

من ناحية اخرى قامت تحالفات (ودية) لا رسمية بين الحزب وفئات اخرى في تركيبها الاجتماعي والاقتصادي على النقيض من تركيب الحزب وأفكاره وشعاراته ومبادئه، وكانت الحجة في ذلك (مقتضيات السياسة)، والحزب الذي لم يكن يعترف للسياسة الا بمنزلة ثانوية جدا، أصبح يتحرك انطلاقا من السياسة.

وهبت على البلاد في تلك المرحلة تيارات شغلت الناس عن العقائد والشعارات، وألهتهم عن كل ما كانوا ينادون به، وساقتهم الى معترك السياسة. فالظرف في رأيهم يقتضي مثل هذا السلوك.

وكما هبّت على الحياة المدنية التيارات المختلفة، فقد هبت في اوساط الجيش، ايضا، تيارات مشابهة، فحدث الانقسام في صفوف العسكر كما حدث عند المدنيين. ودهمت البلاد في الداخل بعد ذلك بقليل انتخابات رئاسة الجمهورية، وكان للحزب حليف يدعمه الحزب ويسانده (خالد العظم) بينما كان مرشح الاكثرية النيابية هو الرئيس السابق السيد (شكري القوتلي). وكان على الحزب أن يعلن موقفا في هذه القضية، فأعلنه، ودعم بذلك (خالد العظم) الذي كان متحالفا مع الاستاذ اكرم الحوراني. وكانت النتيجة ان سقط العظم ونجح القوتلي.

لقد تصرف الحزب على هذا النحو خلافاً لقرار سبق ان اتخذه في الانتخابات يحظر على الحزبيين التعاون مع فئات اخرى غير فئة الحزبيين. وقد نفذ هذا القرار بعض الحزبيين، فخسروا الجولة، بينما لم ينفذه آخرون ففازوا.

في هذه الأثناء حدث حادث كان له اثره البعيد في تصديع الحزب، وزحزحته عن مواقعه التي احتلها خلال عقد ونصف من الزمان.

فقد حصل صدام بين اعضاء حزب البعث العربي وبين السوريين القوميين الاجتماعيين في دير الزور.

وقد قتل شاب من أعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي على يد شاب من البعثيين، فتكهرب جو المدينة، وثارت النزعات القبلية، وتأزم

الموقف وكاد ينذر بالانفجار بين لحظة وأخرى. وكان جلال السيد في دير الزور، فاذا به يتلقى برقية من صلاح البيطار جاء فيها:

(لما كانت الحوادث الأخيرة في محافظة الفرات قد تطورت بشكل غير طبيعي، واستناداً الى المادة الاولى من باب الطوارىء من النظام الداخلي، قررت القيادة القومية بناء على توجيه اللجنة التنفيذية تفويض الاستاذ جلال السيد بالاضطلاع بمسؤولية الحزب وبمعالجة الموقف الحاضر في فرع دير الزور ويطلب من قيادة الفرع تنفيذ تعليماته).

أصدر جلال السيد أمراً حزبياً بحل فرع الحزب في دير الزور ليعاد تنظيمه من جديد. فسرعان ما ذهب بعض أعضاء الحزب الى دمشق شاكيا تصرفات السيد، فكلف الحزب لجنة مؤلفة من عضوين لتقصي الحقائق، ودراسة الموقف عن كثب.

وصل العضوان وكان احدهما الاستاذ منصور الاطرش (بعثي). ومن البداهة ان يكون الآخر من العربي الاشتراكي، ما دام منصور من البعث، فكان الثاني الاستاذ خليل كلاس. حدث الخلاف في دير الزور فعاد العضوان الى دمشق، فسرعان ما اهمل قرار السيد بحل الفرع. ونتج عن ذلك اتهام جلال السيد بالاقطاعية، وانه رأسمالي.

وصل الاستاذ جلال السيد الى دمشق، وشعر بالحملة المنظمة التي يقودها جناح الاشتراكيين في الحزب ضده، ولمس من رفيقيه عفلق والبيطار لا مبالاة تجاه هذه الاتهامات، فسرعان ما قدم الى الاستاذ ميشيل عفلق بصفته الأمين العام للحزب الكتاب التالي:

«الى حزب البعث العربي الاشتراكي بواسطة:

حضرة الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي الموقر.

ظهرت بوادر خلاف بيني وبينكم، في وجهات النظر، في ما يتعلق بالقضايا القومية والاجتماعية والخلقية، ولمّا لم استطع تصحيح الخطى وفقا لآرائي ومعتقداتي فاني لم أجد بدّاً من الانسحاب من الحزب.

وآمل أن تبقى علاقات الود قائمة بيننا رغم الانسحاب.

تعلمون يا حضرة الأمين العام اني ضحيت بكل شيء في سبيل صنع الحزب ورعايته، فلما شبّ الحزب وترعرع، تبيّن لي انه أتى على غير

الصورة التي رسمتها، وعلى غير المثال الذي مثلته في خاطري.

إن انســانــاً متجــاوباً مع حاجات أمته مرهف الحس يستطيع أن يتصور ما يعتلج في نفسي من حرق الآلام لهذا الانسحاب. ولكن القدر لا يغالب.

وختاما ارجو ان يسدد الله خطاكم، ويلهمكم من امره رشداً والسلام عليكم.».

دمشق في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٥٥ جلال السيد.

وحين عمّ خبر انسحاب الاستاذ جلال السيد من الحزب سافرتُ الى شتــورة لمقــابلته بحكم عملي الصحافي كمراسل لجريدة «الجمهورية» القاهرية آنئذ، وسألته عن القصة، فقال:

اذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا / ان لا تفارقهم فالراحلون هُمُ.

وبينما كنا نتناول طعام الغداء على مائدته، فوجئنا بوصول الاستاذ ميشيل عفلق، فظننت في بادىء الأمر، أنه إنما جاء ليثني صديقه ورفيق دربه عن الاستقالة، فاذا به يقول له:

«ايــاك ان تسحب استقــالتــك يا جلال، واننا سنفعل مثلما فعلتَ، وسنتــرك الحــزب بعــد تجميع العناصر الصالحة، ونخرج بها جميعا، وسوف نترك الحزب لهؤلاء الذين انحرفوا عن أهدافه». وأتبع ذلك قائلا:

« نحن الآن لا نعــارض في استلامك منصباً رفيعاً في الدولة بعدما اعلنتَ انسحابك من الحزب».

فكان جواب جلال السيد:

«هذا موضوع سابق لأوانه».

بقيت الى جانب الاستاذ جلال السيد في شتورة حيث كان يصطاف، فاذا بالوفود الحزبية تتوالى من الحزبيين من كل الفروع، تقريبا، تطلب الايضــاح عن الأسباب الدافعة الى هذا الانسحاب. وكان الكثير منها يعرب عن تصميمه على القيام بعمل مشابه، فكان جوابه لكل من فرع لبنــان، وفرع الاردن، وفرع العراق: ان الانسحاب لا يدل على فقدان الايمــان بالحــزب ومبادئه وأهدافه، بل قد يمكن ان يكون العكس هو الصحيــح، بمعنى ان الانســحــاب هو وجه من وجوه التمسك بالحزب

والحرص على كيانه العام.

ما أرويه عن تجربة حزب البعث الوحدوية هو من الذكريات المؤلمة، ولكن ذكريات الألم كذكريات الهناء واليسر، يجب أن تُحيى، ومن لم يحمل في جنباته تلك الحبة الميتة، لا يرجو أن تورق نفسه وتزهر وتثمر، انما نحن أمة حفلت أيامها بالأحداث الدامية والمآسي العميقة. ولا بدّ للتراب أن ينتفض، وللزمن أن يتم فعله، ومن لم يذكر مواضع الألم والوجع فقد فاته الكثير من أسباب المتعة.

لقد تحقق لديَّ بعد مطالعة العديد من المؤلفات والأبحاث التي تناولت موضوع الوحدة مع مصر ثم الانفصال عنها، ان معظم الباحثين اهملوا ـ عن جهل او متجاهلين ـ دور البعث في إقامة الوحدة، ودوره في نسفها. لقد أهرقوا انهاراً من الحبر على أطنان من الورق، هنا، وفي كل بلد عربي بغية إخفاء هذه الحقيقة. لم يكتبوا الحقائق، ولم يقولوا شيئًا مذكورا مما يجب أن يقال، ولم يخاطبوا النفوس المقهورة التي أدماها تصدع أول وحدة تقوم بين قطرين عربيين.

لقد توهموا، خطلاً أنهم في معركة الكلام قد افرغوا الحمولة حديثاً وتصريحاً وكتابة ونشراً واذاعة، وكان الهدف من كل هذا هو اسقاط دور الحزب، إمّا خجلاً واستحياء، وإمّا تعمدا لتقزيم دوره، ومهما كان شأن هذا الدور فلا بد من عرضه بكل سلبياته وايجابياته، بعد أن بات معظم ما قالوه لا يتعدى بضع رصاصات من القول الطائش اطلقوها في الفضاء بفيض حماسي قبل قيام الوحدة واثناءها، وبعدها. وظهر ان بنادقهم كانت فارغة، لأن الرصاص المغشوش لا يفعل فعله.

١١

الوحدة والانفصال

بعد انسحاب الاستاذ جلال السيد الذي كان ثالث ثلاثة في وضع هيكلة الحزب وإقامة بنيانه، تكاثرت الأجنحة المناوئة للاستاذ ميشيل عفلق ووسعت دائرة انتقاداتها له وهجومها عليه. فقد كان الاستاذ جلال السيد الحائط الصلب الذي تصطدم عنده الرؤوس التي تحاول النيل من سمعة عفلق.

لقد فتح عفلق أمام مريديه وطلابه الآفاق الفكرية، وعلمهم التمرد، وسرعان ما أخذ التمرد يتناول الفكر المفتوح، لقد تعلموا منه التفكير الطوباوي الذي نقله عفلق من الأدب الرمزي والشعر المنثور الى مجالات تفسير التاريخ والعمل السياسي، وكان عفلق يتضايق من هذا (التمرد) على افكاره، ويكتم غيظه، ويلوذ بالصمت الطويل.

وبدأت حلقات (الخوارج) تتسع، وارتفعت الأصوات العالية التي تنادي بإقصاء عفلق ورفيقه البيطار عن القيادة، واجراء انتخابات جديدة على صعيد الفروع والقيادة.

كل هذا جرى بعد ان أدار جلال السيد ظهره للحزب وانطلق يعمل داخل مجلس النواب وخارجه وفق افكاره التي تمثلت في دستور حزب البعث العربي، وبدأت صورة عفلق (المترفع) و (الصوفي) و (الزاهد) تتشوه امام المريدين. ولكن عفلق ظل صامداً في وجه الجميع، يتحين الفرصة للانقضاض على خصومه دفعة واحدة، ولكن الأحداث التي تمخضت عنها فترة التربص كانت اكبر من الأصدقاء والخصوم.

في أيار (مايو) ١٩٥٦ اتفقت احزاب الشعب، الوطني، والبعث على ما سمي يومئذ بالميثاق القومي نتج عنه حكم (التجمع القومي) الذي لعب فيه الاستاذ اكرم الحوراني الدور البارز حين استطاع ان يجمع غلاة

اليمــين مع غلاة اليســار في (سلة) واحدة، وعلى الأثر تألفت الحكومة برئـاسة (صبري العسلي ـ حزب وطني) فتحرك الاستاذ عفلق بحذر، ووفق تكتيك خاص لا يجاريه فيه أحد، وبدأت الاتهامات من قبل انصاره الخلّص تتهم الحزب بخروج بعض اعضاء قيادته عن نهج الحزب، وذلك بتعاون هذا البعض مع احزاب تتآمر على منطق البعث السياسي ونهجه.

كانت هذه الفترة تسير في خط بياني عجيب يرتفع الحزب في المعركة حتى يتألق، ويهبط حتى يصبح عادياً، ولعل السبب في ذلك انما يعود الى التخبط الداخلي في صفوفه. لقد كان في تصرف القياديين (فرديّة) وخروج على النـظام مستمـر انتقل حتى المستويات القاعدية، بعض الأعضاء تعاونوا بعد اغتيال العقيد الركن (عدنان المالكي) مع اجهزة المخابرات (المكتب الثـاني) دون الرجـوع الى القيـادات. وعمّت موجـة انتهازية وأصبح من الصعب إيقافها. وتجرى انتخابات فرعية في دمشق فيترشح عن الحزب (رياض المالكي) المحسوب على اكرم الحوراني، وفي المقابل يترشح الشيخ مصطفى السباعي رجل الاخوان المسلمين وخطيبهم. فإذا بأجهزة الدولة تعمل لإنجاح رياض المالكي، فتتسع شقة الخلاف بين الأجنحـة البعثيـة المتكسرة. وكـان من نتيجـة هذه المعركة الانتخابية النيابية الفرعية ان جرت محاولة انقلابية (محاولة قطنا من قبل سلاح المدرعات)، كادت تنجح وتنتهي بوضع الحكم في يد الحزب، لولا دخول ميشيل عفلق المعركة من الباب الواسع وتفشيلها في مهدها.

رسم الاستاذ عفلق خطة الهجوم على خصومه الحزبيين، وأعلن في مهرجان الجلاء الذي أقامه الحزب سنة ١٩٥٦ طرح مشروع الوحدة مع مصر بعـد التمهيـد لها في عدة مقالات من قبل عفلق نشرها في جريدة الحزب التي كان يسيطر عليها الاستاذ صلاح الدين البيطار. وكان عفلق في هذه الخطوة المفاجئة في منتهى البراعة.

لقـد تسـاقـطت شعارات الحزب الواحدة تلو الأخرى، وبقي هناك الشعار الأخير الذي ظل صامدا وهو شعار (الوحدة).

وليس من جدل حول (وحـدوية) حزب البعث العربي قبل اندماجه بالاشتـراكي، فهو قد جعلها اول شعاراته، ونادى بها طوال وجوده في

المعارضة، وهو بتأثير مباشر من الاستاذ عفلق، كان أول من ادرك ان طريق الوحدة العربية هو في (وحدة النضال العربي)، وعفلق كان اول من كتب وحاضر وتحدث عن أولوية الوحدة على جزئيات الفوارق الاقليمية، وأول من حمـل على (وحـدوية التجزئة) وحذر من خطر (نسج الوحدة بخيوط التجزئة)، وأول من دعا الى لقاء الثوريين العرب لتوحيد نضالهم لتحقيق الوحدة.

لهذا حين طرح الاستاذ عفلق موضوع الوحدة بين سورية ومصر كان الوضـع الشعبي في سوريـة، وكذلك وضـع حزب البعث خصـوصاً، والأحـزاب الأخرى عامة قد وصل الى مرحلة التمزق الكامل. ولم يكن عفلق يجهـل أبعاد الخلافات التي تعصف داخل حزب البعث العربي الاشتراكي حيال الوحدة مع مصر. لهذا أقدم على هذه الخطوة لقناعته التـامة بأن احداً لا يمكنه أن يتجرّأ على الرفض العلني. لا سيما أن الاستاذ عفلق ادرك ان الرئيس جمال عبد الناصر خلال عام ١٩٥٦ قد أصبـح ظاهرة تاريخية، ولم يعد في الامكان معالجة اية قضية عربية بتجـاهله. لقـد فرض عبد الناصر وجوده على كل مشكلة وحدث وحزب وحركة وحكم ومعركة في الوطن العربي. انه ظاهرة طاغية عملاقة، فرضت نفسها سلباً وايجاباً على التاريخ العربي الحديث، وأثّرت في مجراه تأثيراً عميقاً، وبعثت فيه تيارات هزت كل المعطيات السابقة لوجوده.

وحين طرح عفلق، هو شخصياً، موضوع الوحدة مع مصر، لم يكن حزب البعث الاشتراكي قد تعرض لهذه الظاهرة، تعرضاً موضوعياً، سلباً وايجاباً. لقد ظل الحزب بعيدا عن تقييم هذه الظاهرة تقييما صحيحاً وعميقاً. فقد كانت معظم مواقفه قبل عام ١٩٥٦ مواقف ناتجة عن ردود فعـل آنيـة أقرب ما تكون الى الانطباعات الشخصية منها الى النظرة العلمية التحليلية السليمة.

ومن المفارقات العجيبة ان الحزب أصدر تقييما للوحدة والانفصال عام ١٩٦٢، ولكنه لم يكن تقييماً لعبد الناصر.

وفي العام نفسه كُلِّفتْ القيادة القومية للحزب أحد أعضائها بكتابة مشروع تقييم لعبد الناصر، فمضت شهور وقامت ثورتا شباط (فبراير)

وآذار (مارس) دون أن يُكتب هذا التقرير. وعلى الرغم من كل الأحداث التي تلت قيام الثورتين، والتقلبات التي حصلت في العلاقات بين الحزب وبـين عبد الناصر، فقد بقيت هذه القضية نهبا للأحداث تُقيِّم كلَّ يوم تقييماً جديداً ارتجالياً انعكاسيا. وفي خريف عام ١٩٦٤، بعد محادثات جرت بين وفد الحكومة السورية لمؤتمر عدم الانحياز وبين عبد الناصر، أحـال المجلس الوطني لقيـادة الثورة في سورية، نتائج المحادثات الى القيادة القومية لتبدي رأيها فيها. واغتنمت القيادة هذه الفرصة لتتقدم بتقييم مختصر يساعد في رسم السياسة المطلوبة، ولكن القيادة القطرية آنذاك حالت دون توزيع هذا التقييم على القواعد.

وهكذا بقيت هذه النشرة هي التقييم الوحيد للظاهرة، على الرغم من اختصارها وعدم كفايتها واحاطتها.

لهذا حين طُرح موضوع الوحدة مع عبد الناصر، اشترط عبد الناصر حلّ الأحزاب للموافقة، وسارعت قيادة الحزب الى الموافقة الارتجالية على ذلك الشرط. لقـد جاءت الفـرصـة ليظهر الاستاذ ميشيل عفلق، امام الجميع، بأنه ما يزال يتمسك بهذا الشعار الأساسي للحزب. والحقيقة أن القبـول بحل الحزب مقابل الوحدة كان بمثابة الفرصة الذهبية للقائد عفلق، وليس لقاعدة الحزب التي كان لها اكثر من موقف تجاه هذا الحل، كما سنوضح ذلك خلال عرضنا للأحداث.

لقد اعْتَبرتْ معظمُ قيادات الحزب في الأقطار العربية، أن حل الحزب، على هذا النحو جاء بمثابة ضربة موجهة الى أهداف الحزب المباشرة، اذ أن هؤلاء القادة، وخصوصاً في فرعي العراق ولبنان فوجئوا بموافقة قيادة الحزب في دمشق على الحل دون العودة اليهم. وكانت الضربة اشد وقعا حين عرفـوا ان القيـادة الحزبية (عفلق، البيطار، الحوراني) قد قبلت بشعار (اللاحزبية) في دولة الوحدة.

كانت فروع: (لبنان، العراق، الاردن) ترى أنه كان يجب على القيادة الدعـوة الى مؤتمـر قومي تُمثَّل فيه جميع القيادات في الأقطار العربية للبحث في هذا الموضوع المهم والمصيري، ولكن هذا المؤتمر لم يُعقد الا بعد عام ونصف العام من الحل، وذلك بعد ان ساءت العلاقات بين قيادة

الحزب والرئيس جمال عبد الناصر، كما سنوضح ذلك في حينه.

لقد اجتمع المؤتمر القومي الثالث للحزب فوافق على قرار الحل، ثم اجتمع المؤتمر القومي الرابع، فرفضه، وبقي الحزب منذ اتخاذ قرار الحل موزع العقل والقلب.

من يقرأ ما كُتِبَ في تلك الفترة يجد (البعث) على سجية الاستاذ عفلق، وحدوي اولا وحدوي مطلق:

«لهذا تجيء الوحدة جمعا لطرفين من أطراف شعب واحد مجزأ، وتعبيرا عن ارادته وتتويجاً لكفاحه، وتدعيما له ودفعا الى الأمام. لهذا السبب لا يمكن لهذه الوحدة الا أن تكون إيجابية بناءة ما دامت الارادة الشعبية في القطرين هي التي أملتها، وما دام الكفاح المشترك ضد الاستعمار والصهيونية هو محتواها كما أثبتت الأحداث، وما دامت غايتها استكمال وحدة الأمة العربية وتقدمها والقضاء على الاستعمار وتحقيق السلم والصداقة بين جميع شعوب العالم والسعادة والرفاهية واطراد التقدم للانسانية كلها».

الاستاذ ميشيل عفلق (البعث) ١٩٥٨/١٢/٢٦

ويكتب الاستاذ ميشيل عفلق في ٨ شباط (فبراير) ١٩٥٨:

«ولئن جاءت هذه الخطوة في طريق الوحدة الكبرى فريدة في نوعها من حيث سلامة الشروط وثورية الاتجاه وديمقراطية التحقيق، فلأن مفهوم الوحدة الذي قدر له ان ينجح كان نقيضاً للمفهوم القديم المتناقض، فلن يعتبرها شيئا يتحقق من نفسه وشيئا منفصلا عن حرية الوطن وسعادة الشعب وتقدم المجتمع بل اعتبرها ثورة تحتاج الى خلق وتنظيم ونضال، وان فيها تتجمع وتتفاعل أهداف الأمة العربية في مرحلة بعثها الجديد...».

ويقول الاستاذ عفلق في المقال نفسه:

«هي ثورة إنسانية لأنها ثورة القومية بمعناها الإيجابي العميق الخلاَّق».

كانت العلاقة بين حزب البعث ومصر قبيل الوحدة علاقة طيّبة، فالسفير المصري (محمود رياض) نافذ القول والمشورة لدى قيادات

الحزب التقليدية الرسمية. والحزب كما اسلفنا عضو في الجبهة المؤيدة من مصر والسعـوديـة والشيـوعيـين ومجموعة السياسيين التقليديين بالاضافة الى حزب البعث. كان هذا في الظاهر، اما حقيقة هذه الجبهة التي نسج خيوطها رجل الحزب الوطني القوي (ميخائيل اليان) فقد كانت عبارة عن تحالف بعض كبار الضباط في الجيش السوري، وحين بدأت المحادثات الرسمية لقيام الوحدة لم يكن يخطر في بال قيادة الحزب ان الوحـدة سوف تكون سهلة التحقيق. اذ ان الواقع يختلف عن صورة المبـاحثـات الرسمية التي طرحت الوحدة، وكانت المظاهر تشير الى أن البحث يدور حول قيام (اتحاد) أبعد أهدافه أن يكون من النوع (الفيدرالي).

ووقـع الحـزب وله ضباط في الجيش، في المزايدة مع فئة اخرى في الجيش، ووصلت بهم جميعا هذه المزايدة الى حد اتخاذ قرار بالوحدة الاندماجية المركزية الكاملة مع القطر المصري.

واذا كان حزب البعث كما يراه الاستاذ عفلق ينسجم في هذه الخطة مع شعاراته ونظامه ودستوره، فإن هذا يفكك الجبهة التي ينتمي اليها. فالشيوعيون لا يرضون بالوحدة، ولا بعض حلفاء الحزب (خالد العظم) يرضى بها.

إلا ان الأحداث لم يعد ممكنا السيطرة عليها. وكان نجم الرئيس عبد الناصر في سطوع، وصيته يزداد بعداً، ومكانته الدولية في ارتفاع، فكان الأمر بيده وحده. وعلى الرغم مما بدا عليه من تردد ظاهر في قبول الوحدة الكـاملة، فانه ضمناً يسعى اليها، وهو الذي مهد لها. وكان سفيره في دمشق من أنشط من عمل لها وأقنع السوريين بها. والشيء الذي لا بد من ذكره هو أن العملية الوحدوية قام بها الضباط. وأما الجهات المدنية من كل العنـاصر بمن فيهـا عنصر البعث المثَّل بوزير الخارجية آنئذ صلاح الدين البيـطار، فإنهـا كانت ضعيفـة الأثـر، ومهمتهـا التأييد الاعلامي ليس غير.

وقد وصل الوضع الرسمي في سورية، خلال تلك المرحلة، الى درجة من التمزق دفع المسؤولين من حكام وأحزاب وضباط الى الموافقة على أي

شيء ينقذ الوضع من الاحتمالات التي سوف يتعرض لها القطر السوري.
وعندما اشترط عبد الناصر حل الأحزاب للموافقة على الوحدة، قَبلَ حزب البعث بذلك، لأن قيادات الحزب كانت تشعر بثقل وطأة الحزبَ عليها، وبالتشرذم والانقسام الذي حل بالحزب، وهذه فرصة قلّ نظيرها، فليكن حلُ الحزب في سبيل قضية مقدسة هي الوحدة، وإلاّ فان الحل قد يأتي بلا ثمن، اذا استمرت أوضاع الحزب على ما هي عليه، او واصل السير في دربه التي ينتهجها.

ولم يكن حل الحزب لدى الاستاذ ميشيل عفلق وأنصاره مأسوفاً عليه لأن هناك تعويضا منتظرا للحزبيين الكبار هو احتمال تسلمهم السلطة في سورية نظرا لمساهمتهم في قيام الوحدة ومنهجهم الوحدوي وحسن علاقتهم بالسفير المصري (محمود رياض) وبالسلطة المصرية في المركز عبر السفير.

ولم يخف الاستاذ عفلق فرحته بقيام الوحدة، وسعادته بتحقيق أول شعار رفعه هو نفسه، وبشّر به.

وتشاء أقدار الاستاذ أن يرافق قيام الوحدة انتقاله من منزله المتواضع في حي (الميدان) الى منطقة (الازبكية) في شارع بغداد حيث زحفت البورجوازية الجديدة لاحتلال ابنيتها الحديثة.

وشهدت هذه الشقة زواجه المتأخر، كما شهدت ولادة الأطفال.

فهناك في حي (الميدان) الشعبي الذي شارك في جميع الثورات السورية التي قامت ضد الانتداب الفرنسي، شهدت غرفة الاستاذ البسيطة الأثاث مراحل حياته منذ ولادته عام ١٩١٢ حتى انتقاله عام ١٩٥٨ الى الشقة الجديدة، فمنها انطلقت البداية لحزب البعث العربي. ترى أية بداية يصنعها القدر في الشقة الجديدة. فمن غرفة الاستاذ الأولى شق طريقه وسط دروب كثيرة حفلت بأشق انواع المعاناة الانسانية، واستطاع ان يتغلب على كل شيء ليخرج على الناس بـ (قضية)، فهل صمم على أن يعود رجل قضية كما كان، أم انه اضحى يفضل ان يكون (رجل سياسة) ؟

ان الذين عاصروا نشوء الحزب، وتطوره يعلمون ولا شك تفاصيل هذه

الفتـرة من حيـاة الاستـاذ عفلق، فمنـذ ان انتقل الاستاذ الى شقته الجـديدة، واعضاء الحزب الذين سبق لهم ان آمنوا بأهدافه القومية يشعرون بالمرارة لأسباب كثيرة لعل ابرزها اختلاف الزوار باختلاف المكان.

لقـد شـهدت هذه الشقة الجديدة تحولاً أساسياً في تكوين الحزب، وشهـدت ايضـا (الانفصـال) ومعاناته، وفي هذه الفترة أعيد تأسيس الحزب، وأقصي عنه الاستاذ اكرم الحوراني، ولم يبق الى جانب عفلق من المؤسسين الأوائل سوى الاستاذ صلاح الدين البيطار.

وعلى الرغم من أن قيادة الحزب الجديدة هي نفسها التي قالت ان ما كان في الوحـدة من أخـطاء لم يكن ليبـرر الانفصـال، وان الانفصال (مؤامرة رجعية استعمارية) لا علاقة لها بأخطاء الوحدة، فان موقف هذه القيادة من الوحدة ـ حتى قبل توقيع صلاح البيطار على وثيقة الانفصال الشهـيرة ـ كان من عوامل ذلك الانفصال، وضباط الانفصال انفسهم قالوا: ان البعث كان يعـد انقـلابـاً عسكرياً انفصالياً، ثم لم تكذبهم القيادة. وقد ثبت في ما بعد ان هذه المواقف الحزبية أظهرت أن المرحلة الوحدوية كانت اكبر بكثير من صانعيها.

كان هذا منـذ البـداية، فالاستاذ عفلق مثلا، وصف في ٢٣ شباط (فبـرايـر) ١٩٥٨ الوحـدة بـ (الثورة التاريخية) وقال للبعثيين عندما اجتمعـوا في منـزله إثر قيام الوحدة: «تعرفون كما أعرف أن الشعب العربي، في كل مكان، عمل للوحدة التي تمت قبل ايام، هذه الوحدة التي تمت بفضل الثورة المصرية، هذه الثورة التاريخية التي ستحقق الوحدة بين أجزاء الوطن العربي قاطبة»، ومضى يقول:

«ان الثورة المصرية قد أثرت في حياة العرب والعالم كله، ويمكن القول بأن تأميم قنـاة السـويس هو بداية لعصر جديد في العالم في كثير من النواحي، وان مولد الجمهورية العربية المتحدة هو، ايضا، بداية تاريخ جديد بالنسبة للعرب وللعالم».

ولكن هذه الحماسة الملتهبة ما لبثت أن تبخرت في شقة (الازبكية). لقد شهدت الشقة اقصاء طليعة الحزب الأولى، كما شهدت الأخطاء

المتعـددة الجـوانب، فريق من اعضاء الحزب أعلن تمرده على الحزب صراحـة، وفـريق شاور عقله، فترجحت لديه افضلية البقاء الى جانب الاستـاذ، وتـوزع الأعضاء بين (انفصالي) و (وحدوي)، وبين (تائب) ومصرّ على عدم التوبة.

كان معظم المؤسسين هم من أبناء المدن الذين أتاحت لهم ظروفهم قسـطاً وافراً من التعليم، فاذا بأبناء الريف يزاحمون المؤسسين حين أعيـد تأليف الحـزب من جديـد بعد حركة الثامن من آذار (مارس)، واصطدم القدماء بالجدد، وتنوعت الاتهامات بين الفريقين حتى أصبح بعض ابناء المدن من الحزبيين يبتعدون عن شقة (الازبكية) خوفا من ان يلحقهم رذاذ الشتائم العنيفة القاسية الموجهة اليهم من رفاقهم ابناء الريف.

ومهما حاول البعض من خصوم الحزب القدماء والجدد التجني على المريدين الأوائل للاستاذ، فمن المؤكد ان هذه النخبة التي ظهرت على المسرح العقائدي قد اعطت في بدء نشاطها طابعاً تقدمياً، واستطاعت أن تفرض نفسها على الجو السياسي والأدبي، بما كانت تتمتع به من مواهب وكفاءات علمية وثقافية.

وتشاء اقدار الحزب أن تتعرض هذه الطليعة الى اقسى تجربة يمكن أن يمـر بهـا مثقف عربي، ومن واجب هذه الطليعـة وحدها أن تكتب تجـربتها، لقد دفعت هذه الطليعة من النخبة المثقفة في سورية الثمن باهظاً بسبب تمسّكها بمبادىء حزب البعث العربي وشعاراته القائمة على الحرية والوحدة.

لقد دلّ كل شيء على أن (شقة الازبكية) ستشهد انتحار التجربة التي انـطلقت من (حي الميدان). لقد تفرق المؤسسون الأوائل ذات اليمين وذات اليسار. لم تصدق أعينهم أولا، ثم خلطوا الشك باليقين، لقد بذلوا الجهـد لتصحيـح هذا الانحـراف سراً، فما استطاعوا، ولا استطاعوا علانية، فانكمشوا في زاويتهم يقتلهم التمزق.. لا هُمْ في الحزب، ولا هم خارج الحزب، لا هم مع الحزب ولا هم ضده، بل هم مع الحزب وضده في آن واحد!

مع ماضي الحـزب لأنــه ماضيهم وحــاضرهم، وما يودون أن يكون مستقبلهم، وضد حاضر الحزب لأنه انكار لكل ما سمعوه وآمنوا به.

بعضهم يبكي الإثم الذي يُرتكب باسم الحـزب، ويبكي عجـزه عن منعـه، وبعضهم يعاني إرهاباً فكرياً داخل الحزب يتجاوز في مداه ما يعانيه بقية المواطنين.

وبـدأت أقـوال الاستاذ تختفي من الصحف، ولم يكن نمو الحزب المفاجىء المدعوم من السلطة يتفق مع الأسلوب الذي اتخذه المؤسسون منذ نشوئه، فقد كان هؤلاء من المتزمتين عند قبول أي عضو في الحزب، فاذا بهم يرون الأفـواج تنتسب دون تحقيق في أسبـاب الانتسـاب. واختلف رواد شقة الأزبكية عن رواد البيت المتواضع في حي الميدان، فرواد شقـة الازبكيـة يستقلون السيـارات الفخمة، ويرتدون الثياب الفاخرة الواردة من عواصم الأناقة في أوروبا، ويقف الحجّاب على الباب في انتظار انتهاء المناقشات التي تجري. في حين أن رواد بيت الميدان كانـوا من متـوسطي الحال الذين لا يعرفون البذخ والسهر في المرابع الليلية حتى الصباح.

ومثلما اختلفت نوعية الرواد، كذلك اختلفت نوعية الكلام.

كانت اقوال عفلق في حي الميدان ترتدي طابع الزهد، والتقشف. كان يقول لمريديه: «حجتنا قوية، ولكننا لن نكثر من استخدام الاقناع، لسنا بعد في دور الاقناع، اننا نريد ان نعرف من قَبل بنا ويؤثرنا عن غيرنا من مجرد سماع نبرات صوتنا، ومشاهدة حركتناَ العادية، وسلوكنا اليومي، نريد أن نعرف الذين يدركون بالغريزة أي هواء صاف نستنشق، وفي أي جو نزيه نحيا دون أن نحتاج للبراهين والعلم والاثبات». أما اقواله في شقة الازبكية فكانت على النقيض تماماً. كانت كلمات عفلق تفتش عن أنجع الوسائل لانقاذ الحزب من خطايا الأعضاء.

وظل الاستـاذ ينظر الى زواره الجدد نظرته الى الزوار القدماء. انه يطلب من أعضاء الساعة الأخيرة أن يثقوا به، وبأقواله من مجرد سماع نبرات صوته، ويرتبطون به بالغريزة كما كان يفعل رفاق لهم من قبل. كان يحـاول، ما وسعتـه المحاولة، اشعارهم بضرورة الإيمان به لأنه يمثل

الفضائل، وبدأ رواد شقة الازبكية يسمعون من الاستاذ عبارات جديدة على أسماعهم، خصوصاً حين يردد:

«ان الأعضاء المخلصين هم الذين يطيعون القادة، أي انهم يطيعون الفكرة من خلال توجيه القادة».

كان الاستـاذ في شقته القديمة يستعمل الترام في تنقلاته، واحيانا كثـيرة يفضـل السير على قدميه المسافات الطويلة ابتعاداً عن ازدحام الترام، وشهدت شقة الازبكية سيارة رسمية تقف على الباب، وجندي رسمي يسـأل عن هويات الزائرين ويدقق بها، ويستفسر عن مكانتهم والغرض من الزيارة. ولم يعد للاستاذ هاتف عادي يتعطل عشرة أشهر في السنة، بل اتصفت ارقام هواتفه الثلاثة بالسرية.

وأخذت حلقات التمرد ضد الاستاذ تتسع، واتسعت معها حدة النقد لكلامه وتصرفاته. اذكر مرة انني كنت في زيارة خاصة للاستاذ فسألني:

«هل صحيح ما قيل لي بأن موظفاً بعثياً صغيراً قد عين مديراً عاماً في دائرة حساسة؟» فقلت له وأنا مطرق الرأس:

«نعم، هذا صحيح وقد صدرت ثلاثة مراسيم تشريعية من أجل هذا:
- المرسوم الأول يمنح الموظف البعثي الصغير شهادة جامعية.
- المرسوم الثاني يقضي بتعيين هذا الموظف في منصب المدير العام.
- المرسوم الثالث يقضي باحداث مديرية عامة في ملاك الدولة».

اطرق الاستاذ برأسه، كعادته حين يفاجأ بحادثة عجيبة، وأطلق آهة حبيسة في صدره وتركني وحدي في الغرفة ليتكلم في الهاتف. اما المدير الأعجوبة فقد مارس وظيفته. وما تزال ترن في أذني عبارة قالها لي أحد كبار الضباط الحزبيين وهو يخرج من شقة الازبكية:

«هـل تعلم ماذا قلت للاستاذ وأنا أودعه؟ لقد رجوته ان يطلب من تلاميـذه ترك البحث الفلسفي والبحث عن وسيلة تخرجنا من دباباتنا لننام في بيوتنا كما يفعل عباد الله». مسكين هذا الضابط لقد خرج بالفعل من دبابته، ولكن ليس الى منزله ليرى زوجته وأولاده بل الى القبر!

ويظل السؤال الكبير مشرعا فوق رؤوس المؤرخين دون ان يحظى بأي جواب صحيح، أما السؤال فهو:

كيف تصرف حزب البعث العربي الاشتراكي في عهد الوحدة؟
كان من المفروض أن يكون حزب البعث هو السبّاق الى الدفاع عن الوحـدة، المنـافـح دونهـا، الحامي لها من الانهيار والتهشيم، ولكنه، وباعتراف قيادته وقاعدته معا، لم يكن في هذا المستوى من الأمل المعلق عليه.

فقد قامت دولة الوحدة وحزب البعث ركن من اركانها، وهو ضمنا لا يرضى بهذا القدر من المنزلة، بل انه يطمح أن يكون الركن الوحيد فيها، لا ركنا من اركانها. وقد كان بعض اعضائه يرى نفسه صاحب فضل على عبد الناصر ويرى هذا البعض انه هو الذي هداه الى العمل القومي، ودله على طريق الوحدة ولو من بعيد.

لكن هذه الخواطر لم تكن هي خواطر عبد الناصر، لأن لعبد الناصر خطة وسياسة ومنهجاً وأسلوباً وأهدافاً لا تتفق، لا من قريب ولا من بعيد، مع ما كان يتصوره بعض البعثيين.

والجمهورية العربية المتحدة قامت بإلحاح سوري يعود بعضه الى الدافع الوحدوي عند السوريين. ولكن يمكن القول استدراكا إن الدافع الوحدوي لم يكن فريدا في هذا، وانما كان الى جانبه دوافع اخرى قد تكون أشد منه دفعاً وثقلاً. فالسوريون في جملتهم وعلى مختلف ميولهم وحـدويـون. أمـا هذا الدافع فمصدره أن فراغا قد حدث في سورية، فالعسكـريـون شعـروا انهم لم يعودوا قادرين على تسيير دفة الأمور للصراع القـائم بين فئـاتهم المختلفة، وكانت تقوم عصيانات وتمردات باستمرار في القطعات والمعسكرات، ولا تستطيع السلطة تنفيذ الأوامر نظرا لتكتلات تقف في وجهها.

والمدنيون كادوا يفلسون في ادارة الدولة، فالأحزاب متنافرة، ورئيس الجمهـوريـة شكـري القـوتلي يكاد يكون وحيدا في قصره، والنظريات متبـاعـدة، والتمـزق يشمـل كل الفئات، والقطر مهدد من كل اطرافه باجتيـاح، صحت أخبـار هذا الاجتياح أم لم تصح، فالمهم ان قناعة الناس كانت هكذا، ولا بد من ايجاد حل. وكان حزب البعث، يومئذ، أيضا منهوك القوى. وهو يريد أن ينهي وجوده بكرامة. فوجد المخرج في هذه

الوحـدة، وسرعـان ما قبـل شرط الرئيس عبد الناصر بحل الأحزاب في سورية، فحل نفسه كما سبق وأسلفنا.

وكـان الرئيس عبد الناصر قد خطف الأبصار ببريقه وسحر الناس بمكـانتـه المتزايدة التقدم. وكان يتبنى القضية العربية ويدافع عنها. فاتجهت الأنظار اليه ليحمل هذا العبء.

بعد الاستفتاء واعلان الجمهورية العربية المتحدة، جاء الرئيس زائرا عاصمته الثانية، فاستقبلته دمشق استقبالاً لم يشهده تاريخ المدينة، أغدقت عليه بكل دفئها وحنانها وماضيها، سكنت سورية شوارع دمشق.

نزل الرئيس متخفياً، وذهب الى الأحياء الشعبية يتفقد الفقراء، خرج وأنا معه من قصر الضيافة من باب خلفي، لم يره أحد، كان قد سمع بحي الشيـخ محي الدين، فقال لي: «هل تعرف الطريق؟» وضحكت، وركب سيارتي المتواضعة جدا التي كانت تسير وتلهث، وتقف وتلهث، ثم تعاود سيرها وهي تلهث. وصل الى مسجد الشيخ محي الدين قبل المؤذن، وحين لمح إمـام الجـامـع، عبـد الناصر بقامته الطويلة أقسم بجميع الكتب المقدسة انه رأى هالة النور وهي تطوق رأسه.

بات عبد الناصر اسطورة وطنية شعبية ملأت خيال البسطاء وقلوبهم. كشفت دمشق عن سرّها وسريرتها: مدينة الوحدة العربية.

لقـد اعتقـد سكان دمشق انهم بتأييدهم المطلق لعبد الناصر انما ينتقمون من الحزب، حزب البعث، الذي لم يفهمهم ولم يفهموه، في تلك الفترة ظل البعث العربي الاشتراكي حزبا في كل الأقطار العربية، ما عدا سوريـة، دخـل البعثيون القياديون الحكم منذ الوزارة الاولى ما عدا الاستـاذ ميشيل عفلق، قائد الحزب وحده. كان في أيام الوحدة الاولى متفائلا، نشيطا، معتدا، مؤمنا ان معجزة التاريخ لم تعد حلماً غيبيا بل واقعاً ارضياً.

اخذ قدامى البعثيين بعد أن انتهت موجة الحماسة يبنون علاقات جديـدة مع المجتمـع الطالع، لم يعـد لهم مكتب، وقيادة، ومرافق، لقد تحولوا فجأة الى مناضلين متقاعدين كثيري الكلام عديمي النفع، سيطر

عليهم ذهـول الفـراغ، جهـدوا في أن يعيشـوا حياة الآخرين فوجدوا انفسهم غرباء.. وبدأ نجم عبد الحميد السراج يسطع.

عنـد تشكيـل الوزارة الاولى خفّت حمـاسة الكثيرين من الطامعين بمقـاعـدها للوحدة، وجردوا حملة عنيفة على الأساتذة الثلاثة (عفلق، البيطار، الحوراني) بحجة أو بأخرى، وأصاب الرئيس عبد الناصر ونظام الوحدة منها رشاش. ثم نهد البعثيون خفافا وثقالا الى التقرب من السراج الذي يملك مفتاح المغانم، حتى سماهم الناس بمنتفعي الوحدة. (تيمنا بمنتفعي القناة).

في بدايـة عهـد الوحـدة تشابكت أجهزة الدولة، وأجهزة الحزب في الأقطار العربية وخصوصاً في العراق، أما في سورية فقد اعتمد السراج في البـداية على كثير من البعثيين ولا سيما في الصحافة، وانتقل بعض الضباط البعثيين الى (المخابرات) وهي أكثر الأجهزة حساسية، وأخذت العلاقات قليلاً، قليلاً تصاب بشيء من الفتور، بعد شهور الوحدة الاولى بين الرئيس والبعثيين، فقد عملت أجهزة وأشخاص كثيرون على التشكيك بينهما. كان البعثيون يريدون حكم القطر السوري لوحدهم، يحققون فيه كل اهدافهم، وان يلعبوا دورا أساسيا في توجيه دفة دولة الوحدة. ورأى الرئيس أنهم يشتطون ووجد لدى الآخرين من الطاعة ما لم يجد عندهم.

ثم بدأ قرن الخلاف يذر مباشرة بعد ثورة العقيد الشواف التي أعلنها في ٨ آذار (مارس) ١٩٥٩ في العراق. أقيمت في سورية مهرجانات كثيرة خطب فيها وزراء بعثيون كانت كلها تأييداً للرئيس عبد الناصر. غير ان الأحاديث الخاصة كانت مختلفة.

لم يكن يشك أحد بعد الوحدة بين مصر وسورية من انضمام العراق اليهـا فقـد كانت كل الشروط ملائمة. ونوقشت في بغداد فكرتا الوحدة والاتحاد الفيدرالي، غير ان اللواء عبد الكريم قاسم ما عتم أن أخرج من العـراق عبـد السـلام عارف، ثم سجنه وانقلب على البعثيين، واعتمد الشيوعيين في حكمه، فقام العقيد عبد الوهاب الشواف بمحاولة لقلب حكمـه فقتـل على أثـرها ومثل به وعلقت اعضاؤه اجزاء على اخشاب الهاتف. وهاجم الشيوعيون سكان الموصل وأعملوا فيهم قتلا.

بعد ذلك جاء تشكيل الحكومة الثانية إثر قيام الجمهورية العربية المتحدة، فانتقل الاستاذ اكرم الحوراني والاستاذ صلاح الدين البيطار الى القاهرة فلم يرضهما ذلك، ولكنهما نفّذا.

ثم أتت انتخابات الاتحاد القومي التي فجرت الأزمة.

والبعثيون مثلهم مثل اكثرية السوريين قالوا عن عبد الناصر هذا هو الزعيم. فلما لمسوا فيه أفولاً أو ما يشبه الأفول حدث عندهم تحوّل عنه. لكنهم كانـوا أسلفـوا من التأييد والمدح والثناء والتقديس ما لا يمكن التراجع عنه بسهولة ويسر. فأعطوا للزمن فرصة كي يساعد في التحلل مما ربطوا انفسهم به من الولاء والتعظيم. ولم يمض اكثر من سنة واحدة على تعامل البعثيين مع جمال عبد الناصر حتى دبّ الخلاف بينهم وبينه، وعـلى مرور الشهـور لا السنين أعادوا النظر فيه ومنحوه المقام الذي يستحقه في نظرهم وهو مقام لا يحسد عليه، وانسحب وزراء البعث من الحكومة ولكن ليقفوا في صفوف الخصوم الذين يعملون على فك الوحدة. وقد مزجوا بين عبد الناصر والوحدة فلما حاربوا واحداً منهما فقد حاربوا الثاني.

كان من نتيجة هذا الواقع ان ولد جناح في البعث يتابع عبد الناصر في سياسته، ويرى أن تجربة حزب البعث، والأحزاب الأخرى، لم يبق لها من مبرر بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة وتبنيها لشعارات الحزب في الوحدة والحرية والاشتراكية. وان زعامة عبد الناصر للحركة القومية العربية تعطيها، ولو بواسطة السلطة، دفعة قوية الى الامام لا قِبَلَ لأي حركة اخرى باعطاء مثلها. وكتب عبد الله الريماوي، زعيم هذا الجناح، نشرة طويلة بهذا المعنى يعطيها مبرراتها المنطقية، بعد فصله من الحزب.

وولد جناح آخر يرى ان عبد الناصر انقلب على القضية التي اؤتمن عليها، ونشأ حزب ثالث، ولا سيما بين العسكريين، خصوصاً العسكريين الذين كانـوا قد نُقِلوا الى القـطر المصري، يستمد مفهومه من المفهوم الناصري أكثر مما يستمده من مفاهيم البعث، ولكنه يخالفه في الاتجاه. جنـاح ضاق صدره بالعمـل الجمـاهـيري الطويل الأمد، وآمن بفوائد الانقـلاب العسكري الذي يختصر مسافة الطريق ويوصل الحزب الى

السلطة في يوم واحد، وبأن من الممكن تحقيق انجازات حكومية وشعبية عن طريق الاستيلاء على السلطة لا يمكن تحقيق مثلها بالانتظار حتى تنضــج القــوة الشعبية، وكانت حساسية هذا الجناح موجهة ضد ما أصاب اعضاءه من (الاتجاه الإقليمي) لحكم الوحدة في سورية، وعلى الأخص في الجيش، ومن اتجاهه (القضاء على الحزبية والحزبيين) فكان اتجـاها مشابها للاتجاه الناصري في المحتوى، معاكساً له في الاتجاه، وبالتالي فقد كانوا (ناصريين سوريين) ضد عبد الناصر.

ومن خلال هذه التناقضات والتيارات المتصارعة بقي الاستاذ ميشيل عفلق بعيداً، وحاول الاحتفاظ بموضوعيته، والاستناد الى مفاهيم البعث الاولى، فلم يذعن لردود الفعل الانعكاسية الفجة. وبذلك خرج الاستاذ من نطاق الانفعال وأخذ اسلوبا موضوعيا في معالجة الامر. ولكن هذا الموقف كان ينقصه أن يبرر علميا وبالاستناد الى منطلقات الحزب، وان يكون له سند عقائدي واضح، ولذلك بقيت آثار من الجذب والدفع داخل اوساط الاستاذ التي ظلت ملتزمة بآرائه وأفكاره القديمة.

ومهما كان الرأي متناقضا حول موقف الحزب من الوحدة، فقد سُجّل على الحــزب في عهــد الوحدة مأخذان: أولهما حلّه نفسه، فكيف يحل الحزب نفسه لو لم يكن يعاني ما يشبه النَزْع. اذ الحزب حزب عربي شامل وعمله في كل بلد عربي، وليس عمله لسورية وحدها أو لمصر، واذا انحل الحزب في قطر لعوامل قومية أو مكاسب وحدوية فانه لا ينبغي له أن ينهي نشاطه في الأقطار العربية الأخرى التي لا تزال خارج الوحدة. ومع ذلك فان الحزب لم يُعانِ من هذه الزلّة فحسب، وانما كان عليه مأخذ آخــر ذلك أنه اول الفئات في سورية التي عملت على تقويض الوحدة. وكــانت الأخــطاء جسيمــة مرهقــة في عهدها حتى كادت الوحدة تزهق الأنفاس، ولكنها لا تصل الى حد اخراج الحزب عن وحدويته.

ويمكن القــول في كثير من الموضوعية ان الوحدة السورية المصرية اقامها العسكريون من الجانب السوري وان العسكريين هم الذين قوّضوها.

ولا يستطيع احد من البعثيين أن ينكر وقوف الحزب (باستثناء ميشيل

عفلق) ضد الوحدة، لأن الدليل قائم على ذلك. فقبول كبار الحزبيين بعمل العسكريين ضد الوحدة. ودخول العسكريين في هذا المعترك كانت له اسبابه ومسبباته. فخلال عهد الوحدة نُقِل عدد كبير من الضباط السوريين الى مناطق عديدة من القطر المصري، ولكنهم كانوا يجتمعون في كثير من الأحيان في القاهرة. وكان هؤلاء الضباط يشعرون بالغبن والحيف ويعرفون انهم انما نقلوا حيطة وحذرا منهم، فهم في نظر الدولة غير موثوق بهم، وأن نقلهم كان اجراء احترازيا أو على الأصح تأديبيا وهذا لا بد ان يُحدث في النفوس المرارة وخيبة الأمل، فالضباط السوريون، بوجه عام، هم من الوجوه التي صنعت الوحدة فما هو الداعي لوضعهم موضع الشك؟

وكان من بين هؤلاء الضباط عدد من البعثيين القدامى، الذين اصبحوا حزبيين بعدما لم يعد البعث يتقيد بالعرف القديم الذي يمنع العسكريين من الانتساب الى الحزب. وكانوا يجتمعون في القاهرة ويتداولون في الوضع الراهن. وكان أن تم القيام بتنظيم عسكري سرّي بعثي. وكان هذا التنظيم هو النواة لما تمّ بعد انقلاب الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٣. وقيام هذا التنظيم له معانيه: منها عدم الاعتراف بحلّ الحزب. وهو بمثابة اعادة النظر في الوحدة القائمة، وبالتالي امكان البحث في فكّها.

وقد صدرت قرارات التسريح لعدد كبير من هؤلاء الضباط فعادوا الى سورية، ومنها انطلقوا مثابرين على خطتهم في التنظيم، وتجمع أكبر عدد منهم للقيام بأي عمل يحقق رغباتهم. وكان هذا التنظيم ايضا البذرة الاولى التي نمت ونضجت وأينعت، ولما كانت البذرة، بذرة عسكرية فقد استطاعت، في ما بعد، ان تنشىء القاعدة العسكرية لكل عمل سياسي لاحق في سورية.

لا يشك المراقب لأيام الوحدة الاولى أن الواقعة لا شك واقعة بين الرئيس والبعث. وأخذت، منذ الأيام الأولى، تظهر البوادر. كثرت اجتماعات الضباط وتساؤلاتهم، واتصلوا بالاستاذ ميشيل عفلق وأطلعوه على تصرفات القاهرة داخل الجيش، وأعلنوا للاستاذ شكوكهم حول

المستقبل وطلبوا منه موقفا صريحا من الرئيس عبد الناصر لا يترك مجالا للشكوك. كالاستقالة الجماعية والقاء مسؤوليات الحكم والمستقبل على عاتقه، أو التفاهم على خطة واضحة بيّنة لا لبس فيها، وعدم ترك احتمال الخلاف وامكان الشك بالنيات، فأحالهم الاستاذ علي الحوراني والبيطار مع مطالبتـه بالتريث. فضل السياسيون البعثيون التريث وأخذ الأمر بهدوء، ولكن هذه الاتصالات لم تكن خافية على عبد الناصر وعلى أجهزة المخابرات.

كان عبد الناصر أمام مسؤولياته: قائد الجيش، وكان يتصرف بمفهوم الدولة التي اقـامهـا في مصر. وبفضـل تدخل عبد الحميد السراج في الكشف عن اسرار الاتصالات بين الضباط البعثيين، وبعضهم كان من تنظيمه، استطاعت المخابرات ان تفتت تنظيماً واحداً داخل الجيش وهو تنظيم: (احمد عبد الكريم، طعمة العودة الله، احمد حنيدي)، فاختار احمـد عبـد الكـريم الانفصال عن اخوانه، وانضم باقي التنظيم الى الرئيس عبد الناصر.

وبينما كانت التنظيمات العسكرية تلجأ الى العمل السري، كان تنظيم (الضباط الشوام) الذي يرأسه المقدم عبد الكريم النحلاوي مدير مكتب المشير في دمشق يعمل بصمت وبعيدا عن الأنظار، وسرعان ما ظهر تنظيم البعث العسكـري في تكتلين: احـدهمـا عربي اشتـراكي بزعامة اكرم الحوراني، والآخر بعثي اطلق على قيادته «اللجنة العسكرية». وقد كانت هذه الكتلة العسكـرية البعثية من التماسك بحيث استطاعت انتخاب قيادتها من العسكريين البعثيين، كما سيأتي ذكره. وقد اجتمعت هذه القيادة ودرست الأوضاع في الحزب واتخذت المقررات السرية التالية:

١ـ تحـديد مسؤولية حل الحزب واعتباره غير قائم حتى ما تبع في الأقطار العربية الاستاذ ميشيل عفلق. لأن نواة الحزب وقواه الحقيقية هي في سورية، فإن حله فيها يعني حلّ الحزب. واعتبرت ان استمرار الاستاذ ميشيل عفلق في أمانة الحزب لا معنى له.

٢ـ العمـل بالنـظام الداخـلي، وفســح المجال امام التطور الحزبي لوصـول قيـادات جديـدة الى القمة فلا تقطع الطريق عليها القيادات

الدائمة، ورفض مبدأ الأبوة الحزبية.

(يعني ذلك فصل الاساتذة الثلاثة، عفلق البيطار الحوراني من الحزب، فهم المسؤولون عن حله، وايجاد قيادات جديدة).

٣ـ عدم التعاون مع من لا يدين بهذا الأسلوب.

٤ـ عدم التعاون الا اذا اقتضت الظروف المرحلية مع كل من تعاون مع نظام الوحدة.

٥ـ انشاء الحزب من جديد.

باتوا اذن، في نظرهم، هم وحدهم الحزب.

ووقع الانفصال بين مصر وسورية. ولكن لم يظهر لهؤلاء العسكريين الذين يضمهم ذلك التنظيم أي أثر في عملية الانقلاب ضد الوحدة الذي تم في الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦١.

١٢

اليوم الثامن

(دمشق) التي تغلفها الأساطير والتي تعيش في ضمير الإنسانية الباطن.

(دمشق) التي قيل عنها إنها جزء من الخيال وموطن للشعر، وقصر من قصور النفس.

(دمشق) التي يقال انها اول مدينة ارتفعت على وجه البسيطة، حينما كانت مدن العالم ما زالت مستنقعات وأحراجاً.

(دمشق) التي روت الأساطير ان آدم أبو البشر ومن بعده نوح وابراهيم قد أقاموا على جبلها (قاسيون).. والتي قَتل قابيل أخاه هابيل من اجل امرأة على سفحها.. وما تزال صخرة حزينة هناك في مغارة الدم تروي الحادث بدموع متقطعة، وما يزال حجر ضخم مصبوغ باللون الأحمر القاني يدل على الجريمة الأولى في التاريخ.

هذه المدينة التي تبعث ذكراها حنينا الى الشرق وتاريخه، استطاعت صبيحة الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٣ ان تنزع عنها ثوب العار الذي اجبرت على ارتدائه في ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١، والذي اطلق عليه (ثوب الإنفصال)، وعادت من جديد لتكون محور العلاقات في الشرق العربي الحافل بالأحداث الصاخبة والمثيرة.

فكيف تراكضت الأحداث في مساء السابع من آذار (مارس) ١٩٦٣ لتعيد الى دمشق وجهها النضالي الذي عرفت به في اكثر حقبات التاريخ أهمية؟

لم يكن هنالك ما يدعو الى الفضول في دمشق في تلك القوة الآلية التي اتجهت في الساعة الخامسة والنصف من صباح الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٣ الى دار الاذاعة في دمشق من غير ما مظاهر انفعالية!

كانت (دمشق) قد بدأت تستيقظ. والصحف تحمل عناوين تقليدية عن ازمة وزارية باتت مألوفة. وكانت تحاول ان تقرأ بين السطور، عبر ما هو مسمــوح بنشره، الصراع الخفي الدائـر وراء ستـار هذه الأزمـة الوزاريـة. صراع قوى عهـد ٢٨ ايلول (سبتمبر) من اجل بقاء زالت مبرراته، فكان صراع من يريد أن يؤجل النهاية لمجرد التأجيل.

وكانت الحركة في قسم الأنباء بدار الاذاعة السورية عادية روتينية، وكـان الموظفون المختصون يعكفون على وضع نشرة الأخبار، والساعة تشير الى الخامسة والنصف، أي الى أن موعد بدء الاذاعة سيأتي بعد نصف ساعة عندما كانت القوى الثورية تحقق هدفها الأول. فقد دخلت الاذاعة من غير مقاومة، واندفعت الطليعة تعرف طريق السيطرة على الأجهزة.

لقد أثبت المذياع أنه سلاح حاسم في الثورات والانقلابات. ولقد تمّ تأمين هذا السلاح فوراً وبلا عناء.

وانطلق مذيع الثورة يعلن في الساعة السادسة إلّا ربعا مولد الثورة بصوت ما لبث ان جلجل، ليس في دمشق وحدها، بل في كل مكان، ولكنه وجد صداه الأقوى في بغداد.

ففي خلال الأيام الثلاثة التي سبقت الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٣ كانت بغـداد تنتظر حدثا ثوريا في سورية، وقد سرت خلال هذه الأيام شائعـة عن نشوب الثورة في سورية، فاتجهت على اثرها جميع اجهزة الاتصـال ببغـداد نحو اذاعة دمشق، وفي الثامنة من صباح الجمعة السادس من آذار (مارس) التقط جهاز الاتصال في وكالة الأنباء العراقية الذي كان مركزا منذ انطلاق الشائعة في الأجواء العراقية، التقط اول نداء ثوري بثـه راديـو دمشق، وبعـد نصف ساعة قطع راديو بغداد برامجه واذاع نبأ الثورة في سورية، وبيانها الأول، واستمر راديو بغداد يذيـع اخبـار ثورة سورية، وأذاع تسجيلا حيا بصوت مذيع نداءات الثورة، في دمشق، وفي الحال وجه المجلس الوطني ببغداد نداء بالراديو الى المجلس الوطني في دمشق يطالبه بإعادة فتح الخط اللاسلكي بين بغداد ودمشق لمكالمة مهمة. تكرر النداء عشر مرات، ثم توقفت اذاعته

بعد فتح الخط، ونتيجة لما حدث أخَّر راديو بغداد اكثر من ساعتين نقل وقائع المظاهرة الشعبية بمناسبة مرور شهر على ثورة ١٤ رمضان و ٤ سنوات على ثورة الشواف، ثم نقل تلك الوقائع، ولكنه كان، بين فترة واخرى، يقطع بثه ويذيع البيانات المتعلقة بالثورة في سورية. واثناء هذه التطورات شهد القصر الجمهوري في بغداد اجتماعات المجلس الوطني لتتبع ثورة سورية وتلقي اخبارها واصدار البيانات المتعلقة حولها. بينما كانت التظاهرات الشعبية تهتف بحياة هذه الثورة في جو من الأفراح وزعت الحلوى فيه، واحتلت الفرحة الوجوه بشكل واضح. وكان الرئيس عبد السلام عارف يطلع بواسطة الوزراء وكبار الضباط على تطورات الموقف السوري، بينما كان يقف في المنصة لتحية المظاهرة الشعبية، وكان يقطع مشاركته الفرحة ويدخل الى مكتبه ليوقع المقررات المتصلة بمساندة الثورة في سورية، والمشاركة في حمايتها ضد كل خطر محتمل، وذلك في جوّ من التوجس زال تماما بورود برقية من المجلس الأعلى للثورة السورية من عدم الحاجة الى الإمدادات العراقية نظرا لأن السيطرة على الموقف تامة، ولأن الحركة لقيت التأييد الجارف الكاسح من الجيش والشعب.

وهكذا لم يقتض الأمر اكثر من مرور شهر على الحدث العراقي ليكرر نفسه بنسخة سورية في دمشق. ولقد كان الأمر متوقعا منذ أن بدأ الحدث العراقي يجلجل ويطلق عقال تطورات حتمية في مسارح الأحداث العربية. وكان من المسلم به ان سورية مهيأة لتكون المسرح الأول. كان ذلك شيئا متفقا عليه بين الجميع. ولكن الموعد ظل موضع تكهنات في ظل وضع وزاري مريض كان يعجل بمدّه وجزره الدائرين في حلقة من الفراغ، في حث القوى الجديدة التي تحمل شعارات الحدث العراقي نفسها وتتجه اتجاهه، الى ان تملأ الفراغ بقوتها المنظمة، وتعيد وصل ما انقطع منذ قيام ثورة ١٤ رمضان بين سورية والعراق نتيجة انعدام أي صعيد للالتقاء بينهما ببقاء الوضع السوري على حاله، ونتيجة استحالة اي تفاعل بين الوضع الثوري العراقي والعهد السوري الزائل الذي كان يقرأ ما تخطه أصابع القدر على الحائط، ولكنه كان يناور مناورات يائسة

من أجـل كسب الوقت وعلى أساس: لعلّ.. وعسى! وبانتظار ذلك كانت الأسبــاب التــراكمية للحدث السوري قد تكاملت، واصبحت القضية قضيــة تحـديـد موعد لالتقاط السلطة المتدحرجة في شارع السياسة الســورية ككرة ترك اللاعبون متابعتها، لأنهم كانوا منشغلين انشغالاً عقيماً بمتابعة بعضهم بعضا. بينما كانت القوى التي تعبر عن الزخم الجـديـد الذي جســده الحدث العراقي، تتحفّز وتجد الطريق أمامها مفتوحة ومعبّدة ومشجّعة... ومغرية على السرعة.

ولقد تبين من الوهلة الأولى، ومن البيانات والشعارات التي اذاعتها ثورة ٨ آذار (مــارس) ان هنــاك وحــدة جوهرية بينها وبين حركة ١٤ رمضان.. ولا يعني هذا ان بذور حركة ٨ آذار (مارس) تستقي من حركة ١٤ رمضان، فالبذور موجودة في آن واحد، وبشكل واحد، في كل من بغداد ودمشق، ولكن بذور الحـركــة السورية تأثرت بشكل الحركة العراقية وتجربتها باعتبار سَبْقها في الترتيب الزمني مما اعطى الحدث السوري ثقلاً خاصاً بصفته حلقة في سلسلة من التفاعلات، اكثر من كونه حدثا منفردا يفتش عن ميادين يتفاعل معها وينفعل بها.

لم تكن ثمة مفاجأة في حركة ٨ آذار (مارس) سوى في موعدها. فقد كان مقرراً ان تحدث في أي يوم مناسب، وقد نظم امر القوى الثورية الانقلابية بحيث يترك للمجلس الوطني لقيادة الثورة امر تحديد الموعد قبل ٤٨ ساعة فقط.

وقــد جرى ذلك على اساس تنظيم القوى الى قوى اساسية، وقوى مساعدة، وقد تم اختيار الموعد بعد وضع المهمات التفصيلية التي ستقوم بها القوى المساعدة، وهكذا لم يبق شيء يحول دون تحرك القوى الثورية بنجاح، ولم يعد هناك ما يدعو الى ارجاء الموعد، او الى انفراد فئة ما بالعمــل. وهكذا تم الامر كمجهود مشترك بين القوى البعثية، والقوى الوحدوية. فلما سارت طلائع الدبابات من الكسوة والمصفحات ومن مركز آخر من دمشق نفسها تؤيدها آليات الشرطة العسكرية لم تجد ضرورة لاطلاق أية طلقة. فلم تكن ثمة مقاومة، بل كان هنالك تسليم واستلام من مختلف القــوى التي اقتلعتها الثورة. فلم ينج من التدابير الاحترازية

سوى (خالد العظم) رئيس الوزراء الذي التجأ مع عائلته الى السفارة التركية المجاورة لبيته.

ولم تمض ساعتان حتى كانت برقيات التأييد تتقاطر على الاذاعة من كل مكان لتخلق جواً فريداً من التجاوب.

كان أول تجاوب عربي خارجي من بغداد، ولم تمض دقائق حتى كانت القاهرة تدخل الى المسرح معلنة التأييد والتجاوب والاستعداد للمشاركة في حماية الثورة، وذلك باستنفار القوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة لصد أية محاولة خارجية للتدخل في سورية. الا أن المبادأة العراقية كانت أكثر وقعاً، وكانت بعيدة في ثوريتها التي جسدها البيان رقم ٥ الصادر من المجلس الوطني لقيادة الثورة، فقد جاء فيه:

«استناداً لثورة الشعب والجيش في سورية الحبيبة، فقد تحركت قطعات من الجيش العراقي نحو الحدود العراقية الغربية. واننا نعلن بكل عزم وتصميم لمن تسول له نفسه التدخل لمقاومة الثورة في سورية بأن قواتنا الموضوعة تحت تصرف المجلس الوطني لقيادة الثورة في سورية سترد على ذلك بتدمير القطعات المتدخلة وضرب قواعدها فورا..».

ثم ضربت بغداد مثلا جديدا على تحمسها فأعلنت يوم السبت ٨ آذار (مارس) عطلة رسمية بمناسبة نجاح الثورة السورية، ووجه الرئيس عبد السلام عارف رئيس الجمهورية العراقية ليلا خطابا من الراديو عبّر فيه عن فرحة العراق باللقاء الثوري مع سورية، مما يفتح المجال لعهد جديد كلي من التعاون والتنسيق. لم يكن ثمة خطر داخلي على ثورة ٨ آذار (مارس) ولكن احتمال الخطر الخارجي كان وارداً على ضوء ما اذيع في دمشق عشية الثورة بالذات من بيانات رسمية عن تحرشات عسكرية اسرائيلية تنبىء بتحركات عدوانية واسعة النطاق.

ومن هنا لعبت البيانات الصادرة من بغداد والقاهرة دورها المهم في كبح اية محاولة انتهازية تقوم بها القوات الاسرائيلية.

وفي الوقت ذاته عمدت الثورة الى اتخاذ التدابير الوقائية باقفال الحدود وطلبت مساعدة الجيش اللبناني، الذي تعاون مع السلطات السورية في جعل الحدود منطقة محرمة لم ينفذ منها وبطلب خاص من

كتب وأذيع لا يتعدى التكهنات أو الاستنتاجات الخاطئة او الدفاع عن وجهة نظر معينة لصالح هذه الفئة أو تلك.

لقد كانت قضية (الوحدة) هي المحور الأساسي لهذا الحدث.

كانت الجهة الاولى في هذا الحدث هي التي الفت فئاتها ما عرف باسم (الحركة الوحدوية الاشتراكية)، فقد كانت تنادي باعادة الوحدة فوراً، وبلا شروط مسبقة او تعديل، وكانت قاسية في حكمها على من لا يتفق معها في هذا الموقف مما تسبب، في كثير من الظروف، في تأخير التقائها مع الفئات الأخرى. وعلى كل فقد كسبت تعاون فئات عديدة من المؤمنين بالوحدة، ولكن دون أن يكونوا ذوي ارتباط حزبي، ومن الذين تضررت مصالحهم ومكاسبهم في عهد الانفصال.

وقد ولد التقاء (الوحدويين الاشتراكيين) وبعض الساسة المستقلين ما يسمى بالجبهة القومية التي تضم، فعلاً، العناصر المطالبة بالوحدة الفورية، وتعاونت معها (حركة القوميين العرب)، وهي الحركة التي راحت تعمل لتوسيع نفوذها. ونشأ عن هذا اللقاء، كذلك، جهد دائم لاثبات الوجود بشيء من الاستعجال الذي كشف، أكثر من مرة، عن عدم استطاعة الجبهة الانفراد بأي عمل للاطاحة بالحكم، ولكن ذلك لم يثبط همتها وقررت الاستمرار منفردة.

وهكذا، ظل سدّ الفراغ في النفوذ مقصوراً على القوى الحكومية، بينما كان النفوذ الحقيقي بين هذه القوى بيد القوة الضاربة المؤلفة من الضباط الذين كانوا يماشون الانفصال.

ومع أن الوضع قد تبدل، ظاهرياً، اثر نزوح (عبد الكريم نحلاوي) ورفاقه نتيجة ذيول حركة ٢٨ ايلول (سبتمبر)، فان جوهره ظل على حاله، لأن القوى الانفصالية بقيت في مراكزها بمن فيها قوى النحلاوي الذي رفض مناصروه من الضباط ترك مراكزهم عندما رأت القيادة السابقة نقلهم الى مراكز اقل اهمية.

وأثناء ذلك كان الاستاذ اكرم الحوراني الذي انهكته المعارك المستمرة بينه وبين الاخوان المسلمين، يحاول أن يسد الفراغ بقوة يؤلفها وتعتمد على قاعدة شعبية واخرى عسكرية. الا ان معاركه المستمرة مع خصومه

السيـاسيـين لعبت دورهـا في افقـاده الغـالبيـة العظمى من انصاره العسكريين، مما اضطره الى محاولة التفاهم مع قوى القيادة السابقة، التي كانت تنظر الى الحوراني نظرة القيادي الديناميكي التقدمي. ولكن هذه المحاولة بدورها لم تلق النجاح لجنوح الحوراني نحو التعاون مع العناصر المعادية لعبد الناصر واتجاهه السياسي والعقائدي.

اما البعثيون فقد كانوا في بداية الانفصال يعانون نوعا من الضياع نتيجة حلّهم تنظيمهم الحزبي اثر الوحدة مباشرة، وتوقفهم، تقريبا، عن أي نشـاط علني، مما سمح بتطور تفكير بعضـهم تطوراً لا ينسجم في التفاصيل مع رأي القيادة الحزبية التاريخية. ومن بين هؤلاء برز بعض اولئك الذين تصدروا الدعوة الى الوحدة الفورية، مما احدث تشويشاً لدى الكثيرين من الأعضاء النظاميين الذين لم يعرفوا في البداية ما إذا كان هؤلاء الأعضـاء السـابقون في الحزب المطالبون بالوحدة الفورية يمثلون اتجاه القيادة الحزبية أم اجتهادا شخصيا عاطفيا منهم. ولما كانت اعادة تجميع القوى تتطلب بعض الوقت، فقد توارى دور الحزب العلني، تقريبا، عن مسرح النشاط في البداية، خصوصاً ان الحزب فقد بعض انصاره الضباط الذين احيلوا على التقاعد اثناء الوحدة، واثناء العهد الانفصالي، ولكن كل ذلك لم يضعف التيار البعثي الاضعاف الذي كان ينتظره الانفصاليون، وقد اعتقدوا في فترة ما أنه أضعف البعثيين.

امـا الاخوان المسلمون فان طبيعة نشاطهم كانت تتنافر مع طبيعة الجـو التفكيري في الجيش، ولذلك ظلت العناصر العسكرية بعيدة عن التأثر بهم.

اما القوى السياسية التي كان يعتمد عليها رجال الحكم الانفصالي فقـد كانت ضئيلة ومتضـائلة، وتستقي من الولاء التقليـدي للفئـات التقليدية من الحزب الوطني او حزب الشعب، ومن البورجوازية التجارية التي دعَّم الانفصال مصالحها.

وهكذا سرعان ما بدأ حزب البعث يستعيد قواه بشكل حثيث ومتسع، معتمداً على رصيد من التأثرات بمبادئه في صفوف المدنيين والعسكريين، ومعتمدا على حركة تطهيرية استطاع بها ان يعزز اطاراته، الى ان بدأ

يخـرج الى مسرح الأحـداث كقـوة منـظمة كان اصطدامها مع العهد الانفصالي حتميا.

فلمـا اغلقت حكـومـة (بشير العظمة) صحيفة حزب البعث، وحُكِم الاستاذ البيطار بالسجن والغرامة بدأ حزب البعث بمثابة رأس الرمح في العمل السياسي على نطاق النضال الايجابي، فقد كان بعيدا عن حوادث العنف السري التي قامت بها بين الحين والآخر بعض العناصر الوحدوية ضد عهد الانفصال.

وقد تحسس حزب البعث الظروف التي تفرض التعاون مع الجبهة ذات الاتجاه المنسجم معه، ولكن جبهة الوحدويين الفوريين ظلت تشترط قبـول البعث بعودة الوحدة فوراً من غير مباحثات للتنسيق، مما جعل التعـاون غير ممكن في ذلك الجـو الذي ظل مائعـا الى أن جاء الحدث العراقي. وعلى هذا الأساس قرر البعثيون العمل منفردين، بينما شكل الوحدويون جبهة (الوحدويين الاشتراكيين) والساسة المستقلين الذين يتجمعـون على صعيد المطالبة بالوحدة الفورية ومنهم الاساتذة: (عبد الوهاب حومد، راتب الحسامي، نهاد القاسم) ثم اعضاء حركة القوميين العـرب.. وجـاء الحدث العراقي يوم ١٤ رمضان فحتم اللقاء الفوري والمشاركة الفعلية بين الجبهتين. واثناء ذلك كان حزب البعث قد اتخذ خطوات سريعة بعيدة الأثر نحو استكمال تنظيمه الثوري، فوزع عمله على جناحين:

١ـ الجناح الشعبي، ولا يتدخل فيه العسكريون ولا يعنون بتنظيمه.

٢ـ الجناح العسكري،ويخضع لاشراف قيادة حزب البعث القومية التي فوضت العسكـريـين بالتنـظيم الداخلي العسكري دون اشتراط اطلاعها على تفاصيله.

وفي تلك الأثناء كذلك حدثت حركة التشكيلات العسكرية التي احيل بموجبها على التقاعد عدد كبير من الضباط البعثيين، الا أن هذه الاحالة لم تبعدهم عن النشاط، بل ظلوا يتحملون مسؤولياتهم كاملة.

وبـدأ النشـاط في الجنـاحـين معاً معتمداً أسلوب الحلقات والعمل

السري، فكان من الصعب اذا ما اكتشفت حلقة ما، ان تكتشف الحلقة الثانية.

وكان افراد الجناح العسكري كأفراد الجناح المدني يسعون الى ضم العنـاصر الصـالحـة عن طريق تكليف بعضهم بالاتصال الفردي مع المرشحين للتعاون، حتى اذا وثقوا من احدهم صارحوه بالحقيقة وضموه الى الحركة كعضو أصيل أو كعضو رديف، وأشركوه حسب التزامه في حلقات خاصة تتعاون للقضاء على الحكم الانفصالي، واقامة حكم يخلق جواً صالحاً لتحقيق الأهداف العربية.

ولم يشأ حزب البعث أن يقوم بأي عمل حاسم قبل ان يتم تدهور الوضع الحكومي بشكل يمنع حصول اية نكسة.

وكـان التخـطيط الذي رسمته قيادة حزب البعث يستند الى حتمية الثورة على عهد قاسم في العراق، وعلى اولوية هذه الثورة التي ستخلق الجو الملائم الذي يضمن نجاح الثورة التوأم في سورية.

وكـان تأجيل الثورة العراقية، عدة مرات، بسبب الظروف العراقية الصعبة، هو الذي لعب دوره في اطالة عهد الانفصال في سورية.

فقد كانت ثورة العراق مهيأة منذ سنة أو اكثر من عام ١٩٦٣، وكانت تنتظر الظرف المناسب في شيء كثير من الحذر، حتى لا تصاب بأية نكسة، ولهـذا السبب (وهـذا سر يكشف الستار عنه لنمرة الاولى) جرت قبل شهرين من حركة ١٤ رمضان محاولة في العراق للقيام بالثورة، إلا أن القـادة رأوا انها غير مضمونة، فقد احسّ نظام قاسم بأن هناك شيئا يدبر، فأحال على سبيل الاحتياط عدداً كبيراً من الضباط على التقاعد، دون أن يكونوا جميعهم من البعثيين، وقد ساعد هذا الاجراء على تعبئة كثير من القوى الجديدة ضد عبد الكريم قاسم، ولصالح ثورة ١٤ رمضان.

كانت خطة التنـظيم العسكـريـة ضمن نطاق الجيش السوري أن يتصـل مسؤولو الجناح العسكري بالضباط الصغار، وصف الضباط وبعدد من الجنود لثلاثة أسباب:

١ـ ان يحول هؤلاء دون قيام ضباط الفئات الأخرى بأي عمل وذلك

بتجـريدهم من العناصر التي تؤلف قاعدة أي عمل عسكري، ذلك أن الضباط وحدهم لا يستطيعون تنفيذ انقلاب ما.

٢ـ ان يشلوا اية ارتدادة تمردية على الثورة حين قيامها.

٣ـ ان يساهموا في الثورة ساعة تدعو الحاجة وان يحتجزوا الضباط المناوئين في قطعاتهم.

وقد أثبت هذا التنظيم فعاليته عندما تعرض لتجربة فعلية، وذلك يوم عاد عبد الكريم النحلاوي وحرك أنصاره في الجيش من الضباط للقيام بحـركة جديدة. فقد امتنع الجنود وصف الضباط من قيادة الدبابات والسير في الحركة، مما ادى الى فشلها، ولم يكن هذا الامتناع هو التدبير الفـوري الوحيـد، ففي الوقت ذاتـه تحركت قوى مختارة من الجبهة وسعســع والسويداء لضرب حركة عبد الكريم نحلاوي لو قدر لها ان تنجح مبدئيا.

ولما تبين لضباط هذه القوى ان امتناع الجنود وصف الضباط عن السير مع ضباط حركة النحلاوي كان كافياً لاحباطها، اتصلوا بالقيادة الخـاصة والجناح العسكري يسألونها ما إذا كان يجب ان يواصلوا السير في محاولة لاستلام زمام الأمور، طلبت القيادة اليهم العودة الى قواعدهم لأن الوقت لم يحنْ بعد.

اثناء ذلك احست القيادة بالتحركات، فاستدعى اللواء زهر الدين قائد الجبهة وسأله عن صحة التحركات العسكرية وعن مبرراتها.. فرد عليه قائد الجبهة بصراحة:

«لقد استقدمتها لضرب النحلاوي وتثبيت الحكم»..

وهنا قال له زهر الدين:

«في هذه الحالة اثبت قولك بإعطاء القوة الزاحفة الأمر بالتراجع».

وفـوراً تنـاول القائد الهاتف واتصل بالقوى المتحركة وأعطاها أمر التراجع الذي كان قد أصدره اليها في الواقع قبل ان يطالبه زهر الدين به. وكان الدافع الى تكرير الأمر أن يثبت قائد الجبهة (زياد الحريري) لزهر الدين قائد الجيش انه مؤيد له.

وبينما كان التنظيم الثوري بجناحيه المدني والعسكري يتوسع نشبت

ثورة العراق التي تكشفت عن تنظيم سري دقيق، وعن طابعها البعثي، مما احدث توجساً شديداً لدى قيادة الجيش السوري وأوساط العهد الانفصالي في سورية.

وفي ضوء الذيول المعنوية لثورة العراق، وتحسباً لنتائجها في سورية، جرت حركــة التشكيلات المفاجئة والتي كانت اجهزة العهد الانفصالي اضعف من أن تنفذها، فقد امتنع عن الانصياع لها من استطاع الامتناع.

على ان حركة المناقلات لم تؤثر في التنظيم الثوري السري، ولم تعرقل نشــاطه، وظلت الحلقات مستمرة، وظل الضباط المنقولون على اتصال سري وفعلي بقطعاتهم.

وقد ترتب على الضباط المسرحين دور تطلب منهم جهدا مزدوجا، فقد كان عليهم أن يعملوا كمــدنيين وعسكريين معا في انجاز المهمات التي ألقيت على عاتقهم والتي أدوها بنجاح كبير.

وبينمــا كانت البــذور الثورية تنضــج في الجبهة البعثية، كانت تلك البــذور تتعرض لأجواء جديدة في جبهة الوحدويين الاشتراكيين، فقد شعــروا بمغبــة الانفــراد بالعمل، وبأن التطورات تفرض التعاون مع الجبهة الثانية.

وعلى هذا الاساس تجددت الاتصالات، وكان موضوعها قضية العمل في سبيل الوحدة بعد نجاح الثورة.

لم تنقطع الاتصالات على الرغم من أنها لم تكن ذات نتائج سريعة، ثم أتت دوامة الأحداث تفرض الايجابية عليها فقد نجحت ثورة ١٤ رمضان في العراق، وتلا هذا النجاح اللقاء بين القاهرة وبغداد، ومن هنا أدرك ساسة الجبهتين انه لا يجوز بأية حال من الاحوال التأخر عن التعاون في سبيل نجاح العمل الثوري الذي باتت ظروف القضية العربية تمليه بسرعة.

وهكذا تم الاتفاق الذي كان سبقه على الصعيد العسكري تفاهم قديم بأن يتعاون عسكريو الجبهتين عندما تقتضي الضرورة ذلك.

ونتيجة لما تقدم أمكن تحديد ليل الاربعاء / الخميس (٦ـ٧ آذار ـ

مارس) موعدا للثورة التي نشبت في الثامن منه. وكان هذا التأخير بسبب ظروف طارئة غير متوقعة.

وقبيل تحديد موعد الثورة تم تشكيل مجلس قيادة الثورة من بعض العاملين والمسرّحين والمسجونين الذين أمكن الاتصال بهم وهم في السجن. وحدد أصحاب الخطة مهمة كل عضو في المجلس، كما اتفقوا على صورة الحكومة التي ستؤلف بعد نجاح الثورة، والتي تتمثل فيها جميع الاتجاهات العربية المشتركة فعلياً في الثورة وغير المشتركة. وكانت وزارة الاستاذ صلاح الدين البيطار صورة لهذا الاتفاق.

لماذا تاجلت ٢٤ ساعة

كان موعد الثورة هو ليلة (٦ـ٧) آذار (مارس) كما أسلفنا، وكان السبب في هذا التأجيل يكمن في انكشاف امر إحدى الحلقات العسكرية الرئيسية.

كانت هذه الحلقة تضم القادة العسكريين البارزين في مجلس قيادة الثورة، واثناء اجتماع عقدته في بيت أحد افرادها سلم أحد القادة العسكريين الثوريين الى ضابط جديد انضم الى الحلقة كشفاً بأسماء من يجب اعتقالهم كتدبير احترازي عند نجاح الثورة، غير أن هذا الضابط لم يكن موثوقا به كما تبين في ما بعد، فذهب يفشي السر.

وبسرعة تحركت قوة من المباحث لاعتقال الضابط الذي تجتمع الحلقة في بيته. وليلا طرقوا عليه الباب، وكان عدد من زملائه عنده، ومنهم ضابط كبير كانت القيادة تريد ان تضع يدها عليه، فقد وقف في وجه التشكيلات الأخيرة.

وكان هذا موقفاً حرجاً. ولكن الضابط صاحب البيت كان سريع البديهة والمبادرة. فلما فتح الباب ووجد رجال المباحث تمالك نفسه وأدرك ما في الأمر، فمشى طوعا مع رجال المباحث الذين فرحوا بسهولة مهمتهم واعتقدوا انه وحيد في البيت، وانه سلم بالأمر الواقع.

ولما طال غياب صاحب البيت أطلّ أحد الضباط من فرجة النافذة فشاهد رجال المباحث يسوقونه الى سيارة الجيب، فأدرك أنه اعتقل،

وأخبر رفاقه بالامر فتسللوا من البيت متواعدين على اللقاء في الجبهة بعد ان قرروا تأجيل الثورة الى صباح الجمعة وإبلاغ رفاقهم بذلك.

في يوم الخميس عرف الضباط البعثيون البارزون في الجيش انهم مستهدفون للاعتقال فاعتصموا في قطعاتهم مصممين على عدم التسليم، وعلى مقاومة أية تدابير ترمي الى تشتيت التنظيم الثوري، ولما أحسوا كذلك أن الاعتقالات تستهدف الضباط المسرّحين، أصدروا تعليماتهم الى الضباط المسرّحين بالتواري عن الانظار، على ان يتركوا عناوينهم لدى قيادتهم السرية لتستطيع البقاء على اتصال بهم، ولابلاغهم الاوامر، خصوصاً انها كلفت بعضهم بموجب خطة الثورة بالالتحاق واستلام قيادتها عند بداية الحركة.

وتحوطا من أية حركة تستهدف قَطْع الطريق على الثورة، وجهت القيادة الثورية أمرها الى الضباط الصغار وصف الضباط والجنود التابعين لها بأن يحولوا دون تحرك اية قطعة عسكرية نحو دمشق الا بموجب أمر منها، وأن يعتقلوا كبار الضباط اذا دعت الحاجة لوقف هذه التحركات. ومساء الخميس صدر الامر الى ضابط مسرّح حديثاً بأن يتوجه الى الجبهة لقيادة القوى التي كلفت باحتلال الاركان والاذاعة والبريد تمهيداً لاحتلال دمشق.

وفي الوقت ذاته تلقت القطعات الثورية في السويداء وحمص أمراً باستنفارها بحيث تكون على أهبة التوجه الى دمشق فور تلقيها الأمر بذلك.

وتوجه الرائد المسرَّح الى الجبهة في الوقت المحدد حيث استعار بدلة الميدان وقاد القوى الزاحفة بسرعة ٧٠ كيلومترا في الساعة، فلما كانت الساعة الثالثة والنصف صباحا وصلت القوة الثورية الى مشارف دمشق، وما لبثت ان احتلت مبنى الأركان فوجدته خاليا من الضباط، وجرى ذلك دون اية عقبة، فقد انضم رجال المخفر الى القوة الثورية وكانت الرصاصات القليلة التي دوت في الفضاء رصاصات انذارية الى جنديين كانا يقومان بالحراسة على بوابة الأركان. فقد شهرا سلاحهما على قائد الحملة الذي طلب اليهما فتح الباب قائلين انهما لا يستطيعان

السماح لأحد بالدخول بمقتضى الأوامر العسكرية.
وظن احد مرافقي قائد الحملة الثورية ان الجنديين يهمان بقتل القائد فوجه اليهما رشة انذارية من رشاشه انتهت بانصياعهما.
وكانت هذه هي الحادثة الوحيدة التي صادفت القوى الثورية في مهمتها. فلما طلع الصباح كانت الاذاعة ومختلف المراكز بيد الثورة التي اعلنت مولدها من ميكروفون راديو دمشق بذلك الشكل الذي جعل من يوم ٨ آذار (مارس) يوما من الأيام التي تصنع التاريخ.

١٣

عسکر و مدنیون

«.. والفـرق واضح بين المناضلين والمغامرين، فالمناضلون يخلقون النضال ويظلون مع ذلك ادوات خاضعة لقانون الحركة التي خلقوها، ويحيلون كل قوى يكسبها النضال لاشخاصهم الى قوى تغذي الحركة نفسها، وتعينها على الزيادة في الصبر والمقاومة، وعلى السير القويم المتفق مع منطق الفكرة، اما المغامرون فهم اولئك الذين يستهويهم النضال في مراحله الحماسية السهلة، او ينذسون في صفوفه دون ايمان، حتى اذا نالوا قسطا من الشهرة والنفوذ، تبين لهم ان الانفلات من قيود النضال ومنـطقه القاسي وطريقه الطويل، يسمح لهم بالقفز في مضمار النجاح الشخصي، وهذا ما يقودهم بسرعة مفاجئة الى التآمر والخيانة، اذ ليس لهؤلاء من طريق وسط.»

ميشيل عفلق، ٤ كانون الثاني ١٩٥٠

صباح الخميس ٢٨ ايلول (سبتمبر)، وفي الساعة الخامسة صباحاً استيقظت دمشق على اصوات القنابل، وحين ـطل سكان حي المالكي من الشرفات شاهدوا قوة من حرس البادية بقيادة المقدم (حيدر الكزبري) تحيط بمنزل المشير عبد الحكيم عامر الذي أمر بعدم المقاومة.

لا أريد هنا أن أتعرض لهذا الحادث المفجع وأسبابه ومسبباته، وانما اكتفي بموقف حزب البعث العربي الاشتراكي.

لم يكن موقف البعث موحدا من الانفصال، فقد جاءت ضربته عنيفة وقاسية. ولم يكن الحزب قد هيأ نفسه لمواجهة مثل هذا الموقف.

في بغداد وقفت قيادة الحزب القطرية ضد الانفصال، وأذاعت بيانا يشجبه. في دمشق كان البعثيون حيارى.

وفي بيروت اذاعت القيادة القـوميـة بيـانـين انتقدت بالثاني فقط

الانفصال. كل من يقرأه يفسره تفسيرا مختلفا، فهو ضد الانفصال ولكنه يشجب الوحدة. لجأت القيادة الى التحليل في الوقت الذي كان ينبغي فيه الحزم. ان الظروف الحرجة تقتضي أقل ما يمكن من الكلمات وضوحا.

كان موقف البعثيـين العسكريين غامضاً ما عدا موقف المقدم آنئذ محمد عمران، الذي بدأنا نسمع اسمه كموجه للتكتل العسكري البعثي الذي نشأ في القاهرة. وقد اقترح عمران عقب اعلان الانفصال على رفاقه من العسكريين التجمع بمساندة فصائل الجيش الوحدوية والقيام بعمل مسلح ضد الانفصال مهما كانت النتائج.

اما البعثيون الملقبون بـ (الناصريين) فقد تنادوا الى اجتماع عقد في منـزل احـد قادة القوميين العرب (هــ. هــ) قرروا فيه المقاومة لاعادة الوحـدة، ووضعت خطة التعـاون مع الوحـدويين الآخرين تحت اسم (الجبهة العربية المتحدة)، وانطلقوا في حلب، وبعض المناطق السورية يبشرون بحـركتهم. ولكن الأمور جرت على غير ما يشتهي هؤلاء حين وصلت الى القائد الفعلي للانفصال العقيد عبد الكريم النحلاوي قائمة بأسماء جميع الضباط الذين يتحركون ضد حركته، فسرعان ما صدر قرار تسريحهم في قائمة من ٦٣ ضابطاً بينهم بعض الضباط البعثيين المعروفين.

وعلى الرغم من أننا فوجئنا يومئذ باسم القيادي الذي أوصل هذا النبأ الى قيادة الانفصال، فان أحداً لم يستطع حتى سؤاله. بل على العكس فقد كان هذا القيادي من اركان الوحدويين المقربين من الرئيس جمال عبد الناصر. وظل يمارس دوره المزدوج طيلة فترة الانفصال.

هذا على صعيد (البعث العسكري)، أما على صعيد البعث المدني فقد اضاف الانفصال بلبلة جديدة الى بلبلتهم السابقة. فتوزعوا بين مؤيد للانفصال مترام على الانفصاليين الى حد التعاون معهم، وبين معارض له ومـطالب بالنضـال من اجـل ارجاع الوحدة المفقودة. واستولى على الأكثـريـة العـظمى من الحـزبيين حيرة، وقلق زرعا اليأس في قلوبهم ومزقاهم مزقا وشيعا.

وكمـا توزعت الآراء في قضية الوحدة والانفصال، كذلك توزعت في

قضيــة الحــزب نفســه. فكــان هناك من اتهم قيادة الحزب، ولا سيما الاساتذة الثلاثة: (عفلق، البيطار، الحوراني) بالتقصير، وأنها تتحمل (وزر) ايصال البلاد الى الوحدة بغير ضمانات، وبالتالي الى حل الحزب، وطالب بإقصــائهــا واعــادة تنــظيم الحزب من القواعد. وهؤلاء سموا (بــالقــطريــين)، وظهــر الاستــاذ زكي الارســوزي الى الساحة بآرائه ومجموعته وأساليبه في محاربة الأعضاء المؤسسين.

وهناك من رأى جمع شتات الحزبيين السابقين، وعقد مؤتمر منهم أو من مندوبيهم، يعيد تنظيم الحزب، ثم يقرر هذا المؤتمر الموقف السياسي للحزب، ولا سيما من قضيتي الوحدة والانفصال، والرجعية والتقدمية.

وهناك من رأى ان الحزب، اذا كان قد حُل في سورية، فهو لم يحل في خارج القطر السوري، وما يزال موجوداً في الوطن العربي، وله قيادته القومية، وان هذه القيادة هي التي يجب ان تقدم على اعادة تنظيم الحزب على اســاس من موقف مقــرر من الوحدة ومن التقدمية. وسمي هؤلاء (القوميون) ـ نسبة الى القيادة القومية ـ فدعت القيادة القومية الى عقد المــؤتمر الخامس للنظر في هذين الموضوعين: الموقف السياسي، واعادة تنظيم الحزب، فقرر، في ما يتعلق بالموقف السياسي، تأكيد الحزب على الوحدة وتمسكه بها ومعارضته للانفصال، وربطه بين الوحدة والتقدمية، وبين الانفصال والرجعية، وحدد أخطاء الوحدة ودعا الى تجنبها، كما دعا الى وحــدة القــوى الوحدوية التقدمية في الوطن العربي. كما أُوكل الى القيــادة القومية الجديدة التي انتخبها برئاسة الاستاذ ميشيل عفلق اعادة تنظيم الحزب في القطر السوري على اساس الموقف السياسي السابق.

وهكذا انتهى الحزب السابق الى ان يركز نفسه في اربعة تشكيلات في الأقل.

- تشكيل القيادة القومية.
- تشكيل الوحدويين الاشتراكيين.
- تشكيل القطريين.
- تشكيل الحورانيين.

وعلى الرغم من هذا الحل الارتجالي فقد ظلت الأكثرية العظمى من الحزبيين فريسة اليأس والبلبلة، ولم تدخل في أي تشكيل من هذه التشكيلات.

على ان الموقف الذي اعلنه الحزب بعد مؤتمره الخامس، ولا سيما في جريدته (البعث) التي اعاد اصدارها، استرجع بعض الشعبية الحزبية للاستاذ ميشيل عفلق الذي بدأ يتصرف وكأنه العميد الحقيقي للحزب.

هذا على صعيد حزب البعث، اما على الصعيد السياسي، فقد اجتمع مجلس النواب في اواخر سنة ١٩٦١، وكان يضم اقل من عشرين نائبا من اصل بعثي اشتراكي، وكان الحزب كما هو معروف منحلا بقرار من القيادة، لكن هؤلاء النواب كانت تجمعهم صداقات شخصية ويشد بعضهم الى بعض حنين تحدّر من العمل الحزبي المشترك قبل حل الحزب.

جرت انتخابات جديدة وكلف رئيس الجمهورية المنتخب الدكتور ناظم القدسي معروف الدواليبي بتأليف الحكومة تحت ضغوط عديدة.

في ظل هذا الجو المحموم في البلاد، حيث لم يكن هناك اي تنظيم شعبي، لمع اسم الاستاذ ميشيل عفلق من جديد وخصوصاً بعد توقيع الاستاذين (صلاح الدين البيطار، واكرم الحوراني) وثيقة الانفصال، فقد أصبح وحده قائد الحزب.

كان الحزب في العراق، آنذاك، اقل منظمات الحزب تأثرا بالمعركة التي نشبت بين عبد الناصر والبعث، واستفادت قيادة قطر العراق من اخطاء قيادة القطر السوري، فنظمت نفسها، ودخل الحزب معارك شعبية واسعة، وقامت ثورة ٨ شباط (فبراير)، ونظم الحزب نفسه في الجيش، فاذا بالقوى المناوئة للبعث في العراق تتجمع من جديد، فكانت حركة ١٨ تشرين الثاني (اكتوبر) ١٩٦٣ بمثابة ضربة لحكم حزب البعث في العراق.

حدث في الجو السياسي السوري ما يمهد لحركة الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٣. فقد جرى انشقاق ما بين جناحي الحزب، فعاد البعثيون يعملون منفصلين عن الحزب الاشتراكي بتوجيه من الاستاذ

ميشيـل عفلق، وقـام التكتل الاشتراكي داخل المجلس وخارجه يعمل لوحده. ولا عبرة لانضمام فرد او افراد قليلين من هذا الى ذاك او من ذاك الى هذا. ولعل السبب المباشر لهذا الانشقاق كان في عدم ارتياح البعثيين القدماء الى الاسلوب الذي سلكه الاشتراكيون (الحورانيون) في موقفهم من وحدة مصر وسورية، اذ أن كتّاب هذه الفئة لم يقفوا عند حد الطعن في شخص او في نظام، وانمـا وصلوا بالمطاعن الى صميم الوحدة، وقد زرعوا بعض الشك عند الناس في هذه (الوحدة) وفي قابلية تحقيقها.

وقـد قام تحالف بين الناصريين وبين شق البعث في الحزب. فكانت حركة الثامن من آذار بمثابة اعلان عن هذا التحالف، لأن الحكومة التي تألفت على أثر الحركة كانت خليطا من الفئتين. وكان الضباط الذين نفذوا الحركة، ايضا، من الجانبين. والدليل المادي من كل هذا هو ان سلطة آذار (مارس) عندما مارست العزل السياسي، فانما عزلت زعيم الجناح الاشتراكي من الحزب وهو الاستاذ اكرم الحوراني.

ولأول مرة يبرز (التنظيم البعثي العسكري) كقوة كبرى. ولا بد من الاشارة هنا الى ان الأمر في سورية يختلف عنه في العراق، ففي العراق كان هناك تنظيم بعثي في الجيش تابع لقيادة الحزب، يأتمر بأمرها، ولا يخرج عن ارادتها، ولم ينقلب على القيادة الا بعد الثورة بتسعة أشهر، حين تخلت القيـادة عنـه. اما في سورية فقد كان (التنظيم البعثي في الجيش) مستقلا عن حزب البعث، غير منتظم معه، لا يتبع قيادته، بل قيادة مستقلة قائمة بذاتها.

وهكذا وقبل أن يعاد تكوين اي نواة للمدنيين الحزبيين في سورية، تكونت في مصر كما سبق وأوضحنا بين الضباط البعثيين المبعدين اليها في مهمات للتدريب، او للتحصيل، نواة تنظيم، وتكونت لها قيادة. وكان (اللواء) محمد عمران، و (اللواء) صلاح جديد و (اللواء) حافظ أسد من القيادة العليا لهذا التنظيم.

وهـذا التنـظيم لم يصنع الانفصال عن مصر، ولا كانت له يد فيه، وحينمـا رجعـوا الى سوريـة بعد الانفصال، عاملهم العهد الانفصالي معاملة الخصوم. فهم بعثيون، وحدويون، ناصريون، فسرح منهم من

سرح، وكـانـوا دون ريب، ضد العهـد الانفصـالي، انهم، بعد أن قام الانفصال، ليسوا مع الانفصال، ولكنهم ايضا ليسوا مع الوحدة مع عبد الناصر.

وظلوا على تمسكهم (بالبعث)، ونظموا انفسهم (بعثيين)، ولكن أي (بعث)؟ كان لبعضـهم صلات شخصيـة مع بعض قادة الحزب، وكان لبعضهم صلات شخصية مع بعض الحزبيين الثائرين على قادة الحزب. ولكنهم، بثـورتهم ضد عبد الناصر، وبثورتهم ضد قادة الحزب، كانوا اقرب الى اللقاء مع جناح (القطريين) الذين اتجهوا في أواخر الوحدة الى تنـظيم انفسـهم، ولكن على الرغم من هذا التقارب في النظرة، فقد بقي التنظيم العسكري، تنظيما مستقلا عن كل أجنحة الحزب، وعن قيادته القومية. كان حزبا قائما بذاته.

ولكن ثورة ٨ شباط (فبراير) في العراق كانت ذات أثر حاسم. فقد كانت ثورة حزب البعث (القـومي) حزب البعث الذي لا يقتصر وجـود اجنحتـه على القطر السوري كما هو الحال مع الأجنحة الثلاثة التي عددناها، بل حزب البعث الموجود في الوطن العربي، الذي تقوده القيادة القومية بزعامة ميشيل عفلق، والممثل للحزب في كل الأقطار. قامت الثورة في العراق فأيقظت حزب البعث من يأسه، وبعثت فيه روحا جديدة، وكان عهد الانفصال يلفظ أنفاسه الأخيرة. جاءت ثورة ٨ شباط (فبراير) في العـراق فوضعت سورية مباشرة على القائمة، ووضعت البعث في مركز المسـؤول عن التغيـير، وأكـدت مركز القيادة القومية (ميشيل عفلق)، والتنظيم القومي.

ولكن الحزب في القطر السوري كان ما يزال ضعيفا. شهور قلائل فقط مرت على اعادة تنظيمه، وجو البلبلة القائم لم يُسهِّل عملية التنظيم، قطاعات كاملة من الحزب لم تُنظم، مقاييس مختلفة طُرحت للتنظيم، لم تكن قد خطرت للمؤتمر القومي الخامس على بال، وبدأ الريف يزحف الى الحزب لأقصاء أبناء المدن.

ومن أجل ان يستعيد الحزب قوته وتنظيمه، دُعيَ الحزب بطلب من الاستـاذ عفلق الى اجتمـاع عقد في بيروت بعد ثورة الثامن من شباط

(فبراير) في العراق، وابدى الاستاذ ميشيل خشيته من قيام انقلاب سريع قبل ان يتاح للحزب تقوية تنظيمه، واعداد نفسه لمواجهة المسؤوليات.

وبعد أربعة أسابيع من قيام الثورة في بغداد، في يوم الثامن من آذار قامت الحركة في دمشق ضد الانفصال، ولم يرفع أحد يده دفاعاً عن الانفصال، فكانت حركة بيضاء من غير دماء.

ان حركة الثامن من آذار هي حركة عسكرية محضة، هيأ لها وخططها ونفـذها عسكريون متحالفون، فيهم بعثيون، وناصريون، وضباط غير ملتـزمين بتنظيم، دفعهم الى الحركة نجاح ثورة بغداد والصدى الذي احدثته، مع الضعف المتناهي الذي وصلت اليه حكومة الانفصال، وكان يجمع هؤلاء الضباط الى بعضهم تصميم على انهاء الانفصال، ولم يكن يجمعهم برنـامـج ايجابي واضح المعالم. ولكن كان ميلهم الظاهر الى التفـاهم مع ثورة العـراق، ومـع عبـد الناصر، واسترجاع قوة الجبهة التقدمية العربية.

ومع ان قيادة التنظيم البعثي العسكري لم تكن قد برزت أسماؤها في الأحـداث، فقد كنا نعلم نحن الذين نلاحق الأحداث، وتربطنا صلات ودية مع العديد من الضباط، ان هذا التنظيم بالذات هو النواة للحركة.

ان معرفة طريقة قيام حركة الثامن من آذار مهمة، لتقييم كثير مما جرى بعـد ذلك. وحـين اتهم بعضُهم، الاستاذ عفلق بأنه أبعد ابطال الحركة حين أقدم على حل القيادة القطرية في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٥ كان هذا البعض على حق. فحزب البعث لم يقم بحركة الثامن من آذار، وان يكن بعض اعضائه القياديين على صلة ببعض قادة التنظيم البعثي العسكري، وعلى اطلاع على خططهم. ولكنه لم يشترك رسميا في التخطيط ولا في التهيئة، ولا حتى في التوقيت ولا في التنفيذ. وانما دُعي الحزب من قبل هؤلاء العسكريين المؤتلفين الى تأليف حكومة جبهة قومية يرأسها صلاح البيطار، والى الاشتراك في عضوية المجلس الوطني للثورة.

وحـين سألت احـد اعضاء التنظيم العسكري حين كان يشارك في تأليف الوزارة الأولى للحـركـة عن علاقتهم بحـزب البعث العـربي الاشتراكي، وكان ذلك في مبنى الأركان العامة، أجابني بحدة وعصبية:

ـ لقـد اقمنـا تنـظيمنا بمعزل عن الحزب، و (اخترنا) حزب البعث العربي الاشتراكي بملء إرادتنا.

وهنا ارتكب الحزب خطيئته الاولى بعد الحركة، حين ترك هذه العلاقة بين الحزب المدني والتنظيم العسكري عائمة غير محددة، ولكن عاملين مهمين لا بد أن يكونا قد اشتركا في دفع الحزب الى (التساهل) في هذا الموضوع. أولهما أن القائمين على الحركة، على أية حال، بعثيون، ولا بد من لقاء كامل معهم عاجلا او آجلا، وثانيهما أن قيادة الحزب كانت تشعر أنها الأقوى، بسبب اطمئنانها الى قوة قاعدتها في العراق، وانها سوف تتمكن بذلك من فرض سيطرتها وتنظيمها وأهدافها.

تحرك الاستاذ ميشيل عفلق على أكثر من اتجاه، وأخذ يمهد للقيام بتخليص الحزب مين (ازدواجية القيادة) بين التنظيم المدني والتنظيم العسكري، وذلك بدمج القيادتين وانتخاب قيادة واحدة مشتركة للحزب، سواء على المستوى القطري، او المستوى القومي. وقد كان هذا الحل عمـلًا معقولاً بعد قيام الحركة، ما دام الحزب قد قصّر قبل قيامها في الحاق التنظيم العسكري به.

هنا لا بد من التنويه بما سمعته من الاستاذ ميشيل عفلق في ما بعد بأن قيادة الحزب قد ارتكبت الخطوة القاتلة حين اشركت قيادة التنظيم العسكري في قيادة الحزب، ومنحت هؤلاء العسكريين كل حقوق قيادة الحزب في الاشراف على التنظيم المدني للحزب، دون ان تمنح هذه القيادة المختلطة حق الإشراف على التنظيم العسكري الذي ظل مغلقا على قيادة الحزب اغلاقاً تاماً، وظل تابعاً للقيادة العسكرية، لا يحق حتى للأمين العام الاستاذ ميشيل عفلق ان يتدخل فيه.

ويقول الدكتور (منيف الرزاز) تعقيبا على قول الاستاذ عفلق:

(.. ارتكبت قيـادة الحـزب هذه الخـطيئـة، على الرغم من معرفتها بأهميتها وخطرها، ومع ذلك فان نتائج هذه الخطيئة لم تقف عند هذا الحد:

١ـ فاللجنة العسكرية التي كانت هي قيادة التنظيم العسكري قد استمرت في عملها قيادة للتنظيم العسكري، غير تابعة لأية قيادة حزبية.

٢ـ كانت هذه اللجنة، التي اشترك نصف أعضائها في قيادات الحزب القومية والقطرية تجتمع وحدها، لا للنظر في قضايا التنظيم العسكري فحسب، بل للنظر في كل القضايا المهمة المعروضة على الحكم، أو على الحزب فتتناقش بحرية تامة، وتصل الى قرار. هذا القرار يصبح (الزاميا) لكل عضو في اللجنة مهما يكن رأيه في المناقشة ذاتها. معنى ذلك ان العسكريين يعملون، داخل الحزب، كتلة متساندة ملتزمة.

٣ـ ان نسبتهم العالية في التمثيل، سواء في القيادة القطرية حيث كانوا (١٥:٧) من اعضائها، او في المجلس الوطني لقيادة الثورة، او في مؤتمر الحزب، والتزامهم بالقرارات المتخذة في اللجنة العسكرية جعلهم أصحاب السلطة والقيادة الفعلية في الحزب.

٤ـ الاختلاف السياسي في مفهوم الحكم، وسياسة الحكم، بين قيادة الحزب والقيادة العسكرية، من قبل قيام الثورة، وتصميم اللجنة، منذ تشكيلها في القاهرة، على التخلص من الاساتذة (الثلاثة) وانطلاقها من سياسة خاصة بها.

كان في ظن الناس في الوطن العربي، ان حزب البعث يحكم سورية. ولكن الحقيقة التي بدأت تتضح لمتتبعي الأحداث من اهل الصحافة والفكر هي أن هناك حزبين بعثيين في القطر السوري:

ـ حزب بعثي عسكري

ـ وحزب بعثي مدني.

وأن القوة الحقيقية الحاكمة هي حزب البعث العسكري، وان هذا الحزب مختلف في منطلقاته السياسية عن حزب البعث المدني، وأما في التنظيم فهو يعمل على ان يرث الحزب بعد ان يزرع قياداته بالتدريج.

وهذه الحقيقة لم تتضح دفعة واحدة، ولم تتضح للجميع، وانما بدأت تُثبت وجودها يوما بعد يوم، وكان لهذا التنظيم منطلقات خاصة به.

ففي السياسة العربية انطلق التنظيم العسكري (اللواء صلاح جديد) من منطلق العداء لعبد الناصر، لما ألحقه بهم من تشتيت. ولا شك ان موقف عبد الناصر، بالمقابل، من الحكم السوري قد ساعدهم في ان يطلقوا يدهم في هذه السياسة الى آخر مدى، بلا تحرّج، وأن يجدوا في

بعض قواعـد الحزب نفسها التأييد لموقفهم. لقد ظهر هذا الموقف بعد حركة الثامن من آذار (مارس)، حين أذيع بيان من اذاعة دمشق يذكر العراق بالخير، ولا يأتي على ذكر مصر. ثم أصلح ببيان ثان بطلب من ميشيل عفلق وإلحاحه، يذكر العراق الشقيق ومصر الصديقة.

وبينما كان الحزب قد أرسل علي صالح السعدي من العراق ليشترك في احتفالات عيد الوحدة في ٢٢ شباط (فبراير)، وليقيم أول اتصال مع مصر وعبد الناصر، ومع الجزائر واليمن، ويبدأ في خلق جو مناسب لبدء محادثات قرر الحزب أن يمضي فيها الى أقصى مدى يمكن ان يمضي إليه عبـد النـاصر في طريق الوحدة، أوقف قيام ثورة ٨ آذار (مارس) هذه الاتصالات، بدل ان يعجل بها، الى ان دفعت مظاهرات الشارع بحلب دفعا الى الاقبال على مفاوضات الوحدة.

وعلى الرغم من ان بعثيي الجيش كانوا العمود الفقري لثورة ٨ آذار (مارس)، فانهم لم يرسلوا أي مندوب بعثي عسكري للاشتراك في هذه المفاوضات، واكتفوا بارسال غير البعثيين من امثال (لؤي الاتاسي، وزياد الحريري، وفهد الشاعر الذي لم يكن قد انتسب للبعث بعد). أما هم فبقوا في دمشق يمهدون للتخلص من الضباط الناصريين في الجيش، وهم يعلمـون، وعبد الناصر يعلم، كذلك، أن الذي يملك الجيش يملك القوة والسلطة. ولذلك فقارىء مفاوضات الوحدة لا بد أن يلاحظ ان الصخرة الحقيقية التي تكسرت عليها المباحثات هي من يملك الجيش،. وأن كل النقاط الأخرى، التي بدا ان عليها خلافا لم تكن في الواقع في لبّ الموضوع.

وما كادت المفاوضات تنتهي ويوقع ميثاق ١٧ نيسان (ابريل)، حتى كان الضباط الناصريون يسرحون من الجيش. واذا بميثاق الوحدة ينهار في الأسبوع نفسه الذي وُقِّع فيه.

وسرعان ما قام الصدام الإعلامي بين القاهرة ودمشق، واتهم بعض قادة الحزب، ومنهم صلاح البيطار ببيع الحزب لعبد الناصر، وأصبحت تهمة (الناصرية) توجه الى البعثيين الوحدويين للتخلص منهم وابعادهم، وقد استعملت هذه (التهمة) ضد الاستاذ البيطار رئيس الوزراء، وضد

اللواء عمران، ثم ضد الفريق امين الحافظ، وأصبحت النظرة الوحدوية القومية مرادفة (لليمين).

ولم يقتصر اتجـاه اللجنة العسكرية على الصعيد الرسمي وحده، فقد وجهت قواعد الحزب كلها توجيهاً مانعاً لأي تقارب مع عبد الناصر مهما يكن سطحيـا وبسيـطا، وفلّسِفَ هذا المـوقف بأن (الوحدة) في عقيدة البعث، لا يمكن أن تتم الا على أساس جماهيري، وان حكم عبد الناصر فردي، وان قيـادة الحزب عندما اقدمت على الوحدة مع (فرد) في عام ١٩٥٨ قد ارتكبت خطيئة فاحشة في حق الحزب، وان أي وحدة مع عبد الناصر، هي انقلاب على مبادىء البعث.

وحين طَرَحتْ القيادة القومية، بعد مؤتمر القمة الثالث، اللقاء الثوري بين القوى التقدمية، جوبهت بمعارضة شديدة في قواعد الحزب.

كل هذا يقـودنا الى ان هناك مفهومين، اذن، لحزب البعث في واقعه الجـديد. مفهوم حزبي قديم، ومفهوم جديد. ولعله كان من الممكن، لو كانت قضيـة مدنيـين وعسكريين منتسبين الى الحزب نفسه، ان يجد الحزب من خلال هذا الاختلاف طريقه السليم الذي يجمع فيه الطرفين، لولا ان قيـادة التنـظيم العسكري، كانت مستقلة عن الحزب، وبقيت مستقلة بعد ذلك.

١٤

ضابط المدفعية!

حين نقرأ آثار البعث، نحار في التفسير ونغرق في الطلاسم. لقد خرج الاستاذ ميشيل عفلق على الناس بـ (قضية)، لقد ارادها بعثا للمناقب، فاذا بهـا توغل في دوامة الاحداث لعدم وجود جهاز يقودها، حتى بات البعث تنظيماً سياسياً سرعان ما تحول الى تنظيم عسكري يقود، ظلت بذور الفكـرة في ارض يبـاب لم تتعهدها يد أصيلة فتمرع وتخصب.. فسّرهـا كل على هواه، أقلمهـا مع الظروف فمـا يعلم حتى المفكـرون: ماركسية هي أم غير ذلك؟ كأنها أحجية.. رموزها قليلة ولكنها سرّ. ذابت (القضية) بين تناحر التيارات العقائدية، حتى لشك الناس بقدرة العربي على التعبير عن نفسه تعبيرا حضارياً، وإبداع نظام اجتماعي منبثق عن تكوينه الروحي!

قد تبدو هذه الصورة مشوهة الملامح، ولكن الذين رأوا قيادات البعث في السلطة بعد الثامن من آذار، والطرق التي لجأوا اليها لتثبيت حكمهم يصيبهم الذعر!

أن أحدا ـ حسب ما أعلم ـ لم يكتب عن البعث بموضوعية، وكل ما صدر، حتى الآن، لا يتعدى الكتب الرسمية الصادرة عن قياداته التي تغفـل الخـطأ وتلح على أن تاريخه كان، دائما، انتصارات، خاليا من الضعف الانساني، والآخرون هم المسؤولون عن هناته، أما هو فبريء. كل ما قيل عن النقد الذاتي كان تبريرا للخطأ.

وكتب عنه خصومه فاتهموه بكل الموبقات، حمّلوه مسؤولية المرحلة، جردوه من الخير كله. حتى بات من الضروري التعرف على الحقائق ولو بصورة عامة.

من اجل هذا أُغْفلتْ، وعن عمد، الاشارة الى التصرفات التي اقدم

عليها حكم البعث العسكري من تجاوزات تركت آثارها عميقة في النفوس، كل النفوس، وشعاري أبيات من الشعر قالها ناظم حكمت:

(اذا لم احترق أنا وتحترق أنت ونحترق نحن، فكيف ينبثق النور من الظلمة؟).

من تجربة الوحدة تعلّم هؤلاء البعثيون العسكريون درسا مهما في أهمية توفر القاعدة الشعبية المنظمة لهم. ولكنهم، وقد اختاروا، وربما مرغمين، حزب البعث، فقد كان عليهم كما قال اللواء صلاح جديد، ان يجعلوا حزب البعث حزبهم هم.

كان منطلقهم الأساسي في التخطيط هو التخلص من الأساتذة الثلاثة. وقد وفّر عليهم الحزب خطوة في هذا السبيل حين وضع سياسة في المؤتمر الخامس تستبعد بطبيعتها الاستاذ اكرم الحوراني، وسهل لهم الحزب، أيضا، موضوع الاستاذ صلاح الدين البيطار. فالواقع ان اللجنة التي كانت قد اشرفت على اعادة تنظيم الحزب من القياديين العراقيين الذين انتـدبـوا لذلك قبل الثورة، قد ترددت كثيرا في اعادة تنظيم البيطار في الحزب، بل طلبت مرة ألّا تصدر جريدة (البعث) الناطقة باسم الحزب تحت اسمه على الرغم من انه هو صاحب الامتياز.

ويبدو ان خطيئة الاستاذ صلاح في توقيع (وثيقة الانفصال)، وفي سعيه حتى يقبل الحزب الاشتراك في وزارة بشير العظمة في أواخر أيام الإنفصال، قد جرَّحته امام الحزبيين تجريحاً لم يسهل عليهم نسيانه، على الرغم من أنه قاد بعد ذلك الحملة الوحدوية في الحزب، وكان له كبير الأثـر في الضغـط من أجل البدء في مباحثات الوحدة الثلاثية مع عبد الناصر بعد الثورة، ولكن هذه الحملة الوحدوية بالذات قد اساءت اليه عند الحزبيين (القطريين) و (العسكريين)، وخصوم عبد الناصر، ففقد بذلك عطف الطرفين معا.

وكان تسلّمه للمسؤولية الوزارية في اول وزارة شكلتها حركة الثامن من آذار، ثم في ثاني وزارة، ومحاولته الوقوف في وجه التدخل العسكري المستمر في شؤون الحكم، قد جعله هدفا للهجوم وللتجريح. فما كاد يُعقد المؤتمر القطري الأول بعد الثورة حتى أسقط في الانتخابات القيادية.

وبعد بضعة أشهر لم تكتف القيادة القطرية القائمة آنذاك بذلك بل فصلته من الحزب.

بعد ذلك اتجهت الحملة، بكل ثقلها، الى الاستاذ ميشيل عفلق، وراحت تجرّحه تجريحاً قاسياً، فقد حملته هذه الهجمة المنظمة (مسؤولية) قيادة الوحدة وحل الحزب، واستنكرت ما أسمته بالعقلية المتحجرة، والوصاية الخالدة، وما الى ذلك. ولكنها، في الوقت نفسه لم تستطع الوصول اليه مباشرة، فاعتمدت خطة التجريح في البداية لتسوي أمرها معه في ما بعد.

وقرر المؤتمر القومي السادس فتح الباب لاعادة التنظيم للحزبيين السابقين افراديا، اذا نقدوا أنفسهم، وقرروا الالتزام بسياسة الحزب، وانتدب الفريق امين الحافظ لمفاوضة الحورانيين، واللواء محمد عمران لمفاوضة الوحدويين الاشتراكيين، واللواء صلاح جديد لمفاوضة القطريين، ونلاحظ هنا ان الثلاثة من العسكريين، من اجل الرجوع الى الحزب والاشتراك في الحكم. فاذا بمفاوضات الاول والثاني تفشل، واذا بمفاوضات الثالث تنجح، ويدخل قسم من (القطريين) الذين يشبهون في منطلقاتهم، حينذاك، منطلقات «اللجنة العسكرية» في عدائهم لعبد الناصر، ورفضهم المطلق للأساتذة الثلاثة، وينشأ منذ ذلك اليوم تحالف متين مع هؤلاء (القطريين) الذين سبق ان فصلوا من الحزب، حتى اصبحا حزباً سياسياً داخل حزب البعث.

ثم انطلقوا خطوة اخرى، فاذا بلجان القيادة القطرية ـ التي يشكل العسكريون نصفها ـ تطوف القطر السوري لاجراء (تطهير) في صفوف الحزب. واذا بهذا (التطهير) يستهدف، في الدرجة الاولى، اعضاء التنظيم القومي زمن الانفصال، ويفصل منهم في بعض الفروع بالعشرات.

وبدأ الاستعداد للمجابهة مع الاستاذ ميشيل عفلق بعد ان عزلوا عنه كل اعضاء البعث القدماء.

كان كل شهر يمر يزيد من عمق الهوة التي تفصل بين الحزبيين، وبين القيادتين القومية والقطرية، كان اللواء امين الحافظ قد وصل في تلك الفترة الى رئاسة الدولة، ونتيجة لتطور الأحداث في بعض المناطق

السورية، عادوا الى صلاح البيطار فكلفوه برئاسة الوزارة، وقبل مضي خمسة أشهر نزع المجلس الوطني الثقة من البيطار، بناء على قرار الزامي من «اللجنة العسكرية»، ودفع عضوي مجلس الرئاسة الى الاستقالة، وشكلت وزارة برئاسة الفريق أمين الحافظ اضافة الى رئاسة الدولة، وقيادته للجيش. نتيجة لكل هذا سافر الاستاذ ميشيل عفلق الى المانيا، تعبيرا عن يأسه وقرفه، بعد أن ضاق صدره بما رأى وتنبيها للحزب، وغاب هناك ستة اشهر. وكان يأمل ان يثير غيابه هذا قواعد الحزب لتحس بالأزمة، وعلى العكس من ذلك، فقد اغتنم الحزب القطري العسكري هذه الفرصة، وضاعف نشاطه وأتم استيلاءه على قيادات الفروع، وعلى الحكم في آن معا.

وبعد غياب طويل، ومفاوضات، قبل الاستاذ ميشيل عفلق العودة على أن تعقد جلسات بين القيادتين القومية والقطرية تشرح فيها نقاط الخلاف وتوضح، ويتفق على الحلول.

وعقدت هذه الجلسات، فعلا، في الشهر الاخير من عام ١٩٦٤، واذا بهذه الجلسات تكشف ما كان مستوراً، ومخمناً تخميناً فقط، من خطط «اللجنة العسكرية» مذ كانت في مصر وتصميمها على تصفية قيادة الحزب، والاستيلاء عليه، والاساليب التي اتبعت في ذلك، مما لم تكن تعرفه القيادة القومية، وان كانت تحسّ نتائجه.

وكان الفضل في هذا الكشف يعود الى الانشطار الأول الذي حصل في صفوف «اللجنة العسكرية». فلم يكن سراً في ذلك الوقت ان (اللواء محمد عمران) قد بلغ خلافه مع اللجنة حدوداً جعلت استمرار التعاون بينه وبينها أمراً مستحيلاً، وهو أبرز مؤسسي التنظيم وأعلاهم رتبة، فوجد الفرصة مناسبة لكشف جميع الاوراق.

وثارت ثائرة اللجنة العسكرية، وأصدرت قراراً بابعاد اللواء محمد عمران من سورية، ـ وهو احد اعضائها وأحد أعضاء القيادتين القومية والقطرية ـ ونالت موافقة القيادة القطرية على قرارها. فما كان من القيادة القومية الا أن أصدرت مجموعة من القرارات، تبعد فيها العسكريين عن مسؤوليات الحكم وقيادة الحزب وحضور المؤتمرات الحزبية ـ الا في

حدود ضيقة عينتها ـ وتمنع تركيز الصلاحيات في أيد قليلة، وتحل القيادة القطرية، وتعين لجنة للاشراف على التنظيم الحزبي في القطر. ولكن لماذا تصرف اللواء عمران على هذا النحو؟

كان عمران مسؤولاً عن كثير من اعمال اللجنة العسكرية وسياستها في أول الثورة، ولكن بعد أن رأى جنوح العسكريين البعثيين في الهجوم على مؤسسي الحزب، وتجميع خصوم الحزب القدماء من انصار زكي الارسوزي وغيرهم، فضل المجابهة مع رفاقه فانضم الى صف القيادة القومية، اي صف الاستاذ ميشيل عفلق، وفضح أعمال «اللجنة العسكرية»، وتزعم الدعوة الى احياء الحزب وتقوية روحه وعناصره الوحدوية، والانفتاح على جميع العناصر التقدمية، والحيلولة دون وقوع الحزب والحكم في عزلة محلية وعربية خانقة، والسعي لارجاع الوحدة، والتخلص من نير التسلط العسكري، وكانت هذه سياسة عفلق بالذات.

ولكن «اللجنة العسكرية» كانت قد قضت سنتين وهي تأخذ أهبتها لمثل هذا الموقف ضمن استراتيجية وتخطيط اللواء صلاح جديد الذي بدأ اسمه يطفو على السطح اثر غياب اللواء عمران، فاذا باللجنة تجمع قيادات الفروع الحزبية، وقد ضمنت ولاء اكثريتها منذ زمن طويل، وتعلن أن ثمة مؤامرة على الحزب تقودها القيادة القومية، وتدخل في نطاق المخططات المشبوهة، وان أموالاً دفعت لتنفيذ المؤامرة، وان القيادة والحكومة مستعدتان للاستقالة،. ولكنهما تحملان الحزب مسؤولية ما يحدث، الى آخر ما هنالك من اتهامات. وفي جوّ من الصخب، والضجيج الذي لم يسمح فيه لأعضاء القيادة بشرح الأمور، اعطيت القيادة القطرية التي تدين بالولاء لصلاح جديد الثقة مجدداً، واضطرت القيادة القومية بعد ذلك الى التراجع وسحب قرارها بحل القيادة القطرية.

ثم صدرت بعد ذلك مباشرة قرارات التأميم المشهورة، في هذا الجو المشحون وفي ليلة واحدة، لإثبات (يسارية) الحزب، و (يمينية) عفلق ومجموعته.

وفشلت سياسة المجابهة، وانقضت المرحلة الأولى من الصراع بانتصار مطلق للجبهة العسكرية القطرية التي يقودها اللواء صلاح

جديد، توج بعد ذلك في المؤتمر القطري المعقود في آذار (مارس) ١٩٦٥ والذي سبق الحديث عنه.

هنا لا بد من الحديث عن اللواء صلاح جديد الضابط الغامض الذي قيل عنه الشيء الكثير خارج سورية، لأنه لم يكن يسمح لأحد بأن يذكر اسمه في الداخل حتى ولو من باب المديح. وأعتقد انها هي المرة الاولى التي يذكر فيها قصة حياة (الضابط الغامض) كما كنا نطلق عليه في احاديثنا الهامسة.

سبق لي أن كنت الى جانب الاستاذ ميشيل عفلق في رئاسة الاركان العامة يوم كان رجال حركة الثامن من آذار (مارس) يؤلفون أوّل وزارة بعد نجاح حركتهم. وقد اختار الاستاذ ان يجلس في غرفة أحد كبار الضباط بعيداً عن حركة الاتصالات التي كانت تجرى. وبينما كنا نتبادل الحديث دخل الغرفة ضابط نحيل يضع على كتفه ثلاث نجوم وراح يقترب من الاستاذ للسلام عليه، فاذا بالاستاذ يهب واقفا، ويصافح القادم بحرارة لم يعرفها احد من الحزبيين. همس القادم بأذن الاستاذ ببضع كلمات ثم انصرف دون ان يلتفت الى الحضور، أو حتى ان يسلم عليهم. عندها سألت الاستاذ عن اسم هذا الضابط المتعالي، الشامخ بأنفه، فأجابني:

(النقيب صلاح جديد احد اركان حزب البعث) ثم راح يغدق عليه من الألقاب مما لم يسبق ان اغدقها على أي حزبي. عندها وجدت نفسي أهمس في أذن الاستاذ:

ـ الله يجيرك منه يا استاذ فهناك حكمة مأثورة تقول:

ـ اتقوا صفر الوجوه بدون علة.!

فاذا بالاستاذ عفلق يؤنبني على ملاحظتي تأنيباً قاسياً لم آلفه من قبل.

وفي مناسبة ثانية، وكنت ألاحق عن بعد تكتيك صلاح جديد للوصول الى استراتيجيته، سألت الاستاذ عفلق وقد سمعته يغمز من تصرفات جديد:

ـ ما هو مأخذك الرئيسي على صلاح جديد؟ فأجاب:

ـ انه ذكي طموح. بدأ يخطط، منذ دخل الحزب، للوصول الى قيادته.

ومرة قلت للعقيد عبد الكريم الجندي:

ـ ما هو الفرق بين صلاح جديد وأمين الحافظ؟ قال:

ـ صلاح جديد ضابط مدفعية. عندما يريد أن يضرب هدفا يستخدم الزوايا والقياسات والعلم ويبرود الأعصاب. فاذا صار الهدف ضمن مرمى المدفع اطلق النار، أما أمين الحافظ فضابط مشاة يهجم وشعاره: عليهم يا شباب!

ومنذ ان لمع اسم (النقيب)، ثم (المقدم) صلاح جديد عقب حركة ٨ آذار (مارس)، وأوساط حزبية كثيرة تحذر الاستاذ عفلق منه وتقول:

ـ (احذر، يا استاذ الرجل الغامض. واحذر الرجل القوي)، وكان عبد الناصر يصفه (بأنه ميّه من تحت تبن).

قيـل انـه (لغم) زرع في قلب حزب البعث، وقيل انه ممثل (البعث الجديد). قيل انه (اليمين)، وقيل انه (اليسار)، وقيل أيضا وأيضا انه الاعتدال. وصار صلاح جديد لواء، وعين رئيساً لأركان الجيش يوم كان حبيبا لميشيل عفلق، ثم سرح من الجيش ليعمل في الحزب، وصار أمينا عاما مساعدا للحزب، والحاكم المطلق للحزب والحكومة والبلاد. لكنه ظل صامتا الاَّ في المؤتمرات الحزبية والاجتماعات. والمكان الوحيد الذي ظهر اسمه فيه يذيّل مقالا نشر في الصحيفة التي يصدرها المكتب الثقافي في القيادة القومية وتوزع على أعضاء الحزب فقط.

لم يقابل صحافيا طوال فترة سيطرته، فقد كان يكره أهل القلم سواء عملوا في الصحافة او التأليف، ولم يخطب فقد كان بدوره يبتعد عن الجمهور.

سمع عني من رفاقه الكثير فاستدعاني الى مكتبه وقال لي:

ـ اريد أن أملي عليك مقالا لتنشره خارج سورية، فأجبته:

ـ المقـال الذي يُمـلى على الكاتب ينشر في جريدة البعث او الثورة، فامتعض ووقف اشارة الى انتهاء المقابلة، فخرجت دون أن أودعه تاركا فنجـان القهـوة الذي طلبـه لي في مكانه. وحدث بعد حركة ٢٣ شباط (فبـرايـر) الشهيرة ان صحفية تراسل (التايمس) طلبت موعدا لمقابلة

اللواء صلاح جديد فقيل لها:

(الأمـين العـام المسـاعد مشغول. ويمكنك أن تقابلي الأمين العام الدكتـور نور الدين الاتـاسي). ولأن العقـل الغربي لا يفهم مثل هذه التصرفات سألتني بعفوية:

ـ هل الدكتور نور الدين الاتاسي هو رئيس صلاح جديد أم العكس؟
اجبتها بالعفوية نفسها:

ـ العكس هو الصحيح!

وكان الصمت بدوره يزيد في التكهنات والشائعات.

يوم صدرت قرارات التأميم ـ وكان صلاح جديد هو الذي أمر بها ـ كنت في منزل الدكتور منيف الرزاز الأمين العام للقيادة القومية بعد تخلي الاستـاذ عفلق وسفره الى اميركا اللاتينية، فسألته عن اسباب صدور قرارات التأميم على هذا النحو المفاجىء والارتجالي فأجاب:

ـ ان صلاح جديد يناور بالشعارات اليسارية المتطرفة، ليقلب المعركة من معركة بين العسكريين والمدنيين في الحزب، الى معركة (وهمية) بين اليمين واليسار، وبالتالي ليكسب المعركة بمعركة اخرى.

ولما بدأ التنفيذ الفعلي للقرارات قالت اوساط (البورجوازية) السورية المتضررة: ان صلاح جديـد هو (رجل الغرب) وسيقوم بانقلاب ابيض لالغاء هذه القرارات «الخنفشارية». وظل الرجل صامتا يحافظ على برودة اعصابه ولا يبتسم.

وظلت الناس تقول:

ـ انه الرجل الغامض.

واذا كان هنـاك رجـال يعرفون ما لا يريدون، ورجال لا يعرفون ما يريدون، فان صلاح جديد من النوع الذي يعرف ما يريد وما لا يريد.

وهو بالنسبة الى نفسه، على الأقل، رجل (واضح جدا) يريد أن يحكم، ويعـرف متى يحكم، ولأنه لا يقبل الا أن يحكم كان شعاره طيلة فترة مناوراته، اما الحكم الكامل، واما الخسارة الكاملة. في البداية نجحت الاولى، وفي النهاية نجحت الثانية!

حين اعلن حزب البعث العـربي الاشتـراكي حل الحزب في اعقاب

الوحدة بين مصر وسورية، تمرد صلاح جديد على هذا القرار، وكان لم يمض على انتسابه سوى شهور قليلة، وكان اذ ذاك برتبة ملازم ثان في الجيش الأول. وراح يدعو رفاقه العسكريين الى ابقاء نوع من التنظيم بين الضباط البعثيين. وفي مصر، حيث نقل اليها مع اكثر من مائة ضابط بعثي بينهم (محمد عمران، عبد الكريم الجندي، احمد المير، سليم حاطوم) لعب صلاح جديد رغم صغر رتبته دوراً بارزاً في اقامة التنظيم العسكري البعثي الذي استبعد منه الضباط البعثيون المحسوبون على اكرم الحوراني.

وظل هذا التنظيم، كما اسلفنا، قائما بعد عودة الضباط الى سورية قبل الانفصال وبعده مباشرة، وعلى الرغم من تسريح عدد كبير منهم، فقد كان جديد بين الذين سرحوا.

غداة حركة الثامن من آذار (مارس) عرف صلاح جديد المنصب الحساس الذي يجب ان يحتله، فيما راح البعض يسعى الى المناصب البارزة.

تولى يومها منصب (مدير شؤون الضباط) في الأركان العامة. ومن هذا المركز الحساس غير الظاهر تولى عملية (تمشيط) الجيش السوري، ووضع الضباط من بلدته في المراكز التي يجب ان يكونوا فيها، استعدادا للخطوات المقبلة.

ولما انفجر الصراع بين (البعث) وقائد الحركة (الوهمي) زياد الحريري، وبين البعث والضباط الناصريين ومعهم رئيس مجلس الثورة (لؤي الاتاسي)، كان ضباط صلاح جديد في مراكز القوة الفعلية بحيث تمكنوا من السيطرة على الموقف.

وأكمل صلاح جديد خطته بعدما تولى منصب رئيس الأركان العامة، وفي هذه الاثناء، ظلّ التنظيم العسكري للبعث مغلقا، تقريبا، في وجه قيادات الحزب وتنظيمه المدني الذي كان يضم اقل من ٢٠٠ شخص يوم الثامن من آذار (مارس)، وبعد فترة قصيرة تجاوز عدد أعضائه ١٠ آلاف عضو، وقيل ٢٠ الفا.

وكان هذا التنظيم هو الحاكم الحقيقي للحزب والحكومة، على الرغم

من التغيرات التي حدثت على السطح، سواء منها التغيرات التي وقعت في قيادة الحزب القومية، وقيادته القطرية في سورية، والتبديلات على صعيد الحكـومة، فقد جرى تبادل رئاستها بين صلاح البيطار والفريق امين الحافظ، ومن ثم يوسف زعيّن.

وفي احـدى هذه الدورات تسلم اللواء محمـد عمران منصب نائب رئيس الحكومة، الا أن نجم عمران ما لبث ان خبا لأسباب أوردناها قبلا، في حين عرف صلاح جديـد كيف يحـافـظ على رأسه مؤقتا عند تبديل الرؤوس وكيف يتقدم، باستمرار، حيث التألق الحقيقي في مراكز القوة المغلقة التي لا يظهر منها للخارج غير الظل الباهت.

في العام ١٩٦٥ وصل الصراع في قلب الحزب والسلطة الى درجة بالغة التعقيد، على الرغم من أن البعض كان يراه بسيطا وواضحا.

كان هنـاك صراع مبـدئي، وصراع شخصي. صراع بين المـدنيـين والعسكـريـين.. صراع بين التنـظيم العسكـري (بعناصره الرئيسية) والعسكريين الذين التفوا حول الفريق امين الحافظ. صراع بين القيادة القومية، والقيادة القطرية، صراع بين (الاساتذة) و (العساكر)، او على الأصح بين الأساتذة والتلاميذ.. بين (التاريخيين) و (المستقبليين) بين اصحاب امتياز (شركة) الحزب، والذين يحاولون تأميمها. وهي بعض التعابير التي استخدمها الفرقاء في تلك الفترة.

ولم تكن الفـوارق بين هذه الصراعات واضحة المعالم. كان تداخل غريب بينهـا. وكـان من ينقـل البنـدقية من كتفه اليمنى الى اليسرى وبالعكس. كان من يقفز من هذه الضفة الى تلك، ومن يتقن صنع الوجوه المستعارة، ومن يتقن لبسها، ومن يتعثر فيها فيضيع وجهه الحقيقي نهائيا.

في هذه الفترة تمكنت القيادة القومية ومعها الفريق الحافظ من وضع سلسلة من الأنظمة الداخلية التي تحدد علاقة الحزب بالحكم، وتضع أسساً لقضية الجمع بين المسؤوليات القيادية والمناصب الرسمية.

وعلى أساس هذه التنظيمات سُرِّح اللواء صلاح جديد من الجيش، وبالتالي ترك رئاسة الأركان العامة ليتفرغ الى عمله الحزبي في القيادة

القطرية، فكان مقتل القيادة القومية في هذا الاجراء كما سنوضح اثناء السياق الآتي.

وظن عفلق والحافظ والبيطار أن صلاح جديد انتهى، وأنه صار منفياً في سيبيريا الحزب (القيادة القطرية)، وما دامت القوة في الحكم لمن يقف في المركز الذي يقدر منه ان يحرك الدبابات، فان صلاح جديد لم يعد يملك هذه القوة - كما توهموا - ونفذ جديد القرار ببرودة أعصاب.

تخلى عن الثياب العسكرية وارتدى الثياب المدنية، وأبدل لقب «اللواء»، بلقب «الرفيق»، وبدأ يداوم في مكتبه في القيادة القطرية، من الساعة السابعة صباحا حتى منتصف الليل، وسلاحه الهدوء و (الحسابات والهندسة والزوايا).

وما أريد له أن يكون (سيبيريا) و (معسكرات العمل) بالنسبة الى صلاح جديد، صار (موسكو). قلب صلاح جديد اللعبة، وأضاف الى قوته في التنظيم العسكري، او المكتب العسكري، قوة في التنظيم المدني، فقد مكنه عمله الجديد من الاتصال بقواعد الحزب، وخلق مؤيدين له من بينها. وذات ليلة من كانون الاول ١٩٦٥ حسبت القيادة القومية انها سيطرت على كل شيء، فقررت حل القيادة القطرية من جديد لتحكم هي مباشرة بالتعاون مع لجنة جديدة شكلتها، وسمتها اللجنة المركزية العليا لشؤون القطر السوري.

وجاءت حكومة صلاح البيطار تحت شعار:

(عودة العسكر الى الثكنات).

الا أن صلاح جديد ورفاقه الذين استمروا في الاجتماع خارج مبنى القيادة القطرية كان لهم رأي آخر.

كانوا يعتقدون ان مجيء البيطار هو مرحلة (الترميدور) بالنسبة الى الثورة. أي المرحلة التي تهيىء للتراجع واعادة العناصر (المعادية للثورة) بالتدريج، بدءا بالوسط وانتهاء بأقصى اليمين، تماما كما حدث في الثورة الفرنسية حين انتهى الأمر بعودة النبلاء، وأمراء القصر ثم الملكية.

وبلغت الأزمة ذروتها لما وافقت القيادة القومية على قرار يقضي بابعاد عدد كبير من ضباط التنظيم العسكري الى الخارج، أو الى مراكز ثانوية.

يومها اعتبر جديد القرار لعباً بالنار لأنه (يجرد الثورة من حراسها والمـدافعـين عنهـا ويفسـح في المجـال أمـام الفئـات الطامعة بالحكم للانقضاض عليه).

امـا القيـادة القـوميـة، فكانت تعتبره (انهاء لفترة شاذة من حكم الحزب، وانهاء لسيطرة العسكريين عليه)، وبالتالي انهاء لظاهرة صلاح جديد. وكان رأي هذه القيادة ان القرار لا يشكل خطراً على الثورة، بل على (المتسلطين الذين يحكمون ويتحكمون باسم الثورة).

وكانت أوساط القيادة تردد أن البلاد أمام اتجاهين:

إمـا سيـطرة المدنيين الأقوياء والعسكريين الضعفاء، وإما سيطرة العسكريين الأقوياء والمدنيين الضعفاء. ومرة اخرى لعب صلاح جديد لعبته (الكبيرة)، خطط لحركة ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٦٦ بأعصاب كانت في منتهى البـرودة. كان يركـز القـوات من جهة، ويرسل الضباط من أنصـاره من جهة اخرى لحضور اللقاءات التي كان يجريها الاستاذ ميشيل عفلق مع الضباط في مختلف الوحدات، وطرح الاسئلة المحرجة في نهاية كل محاضرة.

وساعة التنفيذ، فجر ٢٣ شباط (فبراير)، وضع صلاح جديد، سليم حاطوم وقواته في وجه الفريق أمين الحافظ ليتحمل غيره مسؤولية (العنف الذي لا بد منه) في الحركة.

ذلك ان جديـد ظل طوال حيـاته الحزبية حريصاً على الوصول الى أهدافه من ضمن شرعية الحزب ونظامه الداخلي.

وبعد ٢٣ شباط (فبراير) وصل جديد الى حيث يريد تماما.

صار في المكـان الذي كان يفتـرض أن يكون فيه الاستاذ (ميشيل عفلق)، أي صار فوق الصراعات التي قد تحدث، وإن كان غير بعيد منها. صار (الابن الأكبر) بعد غياب رب العائلة. وبدأت سياسة اللواء صلاح جديد تظهر أكثر فأكثر..

ظهرت أول ما ظهر من هذه السياسة الدعوة السافرة من قبل حزب البعث الى دمـج المنـظمات الفلسطينية في تنظيم (بعثي)، فأخذ يدعو صراحة الى عدم قيام العمل الفدائي بعمليات منظمة من الجولان، لأنه،

كمـا قال يومهـا للعديد من القيادات الفلسطينية (جورج حبش) على التحديد، ان سورية لم تبن (جداراً دفاعياً) كاملا، وحين رفض الدكتور جورج حبش عمليـة دمـج المنظمات الفلسطينية الفدائية تحت جناح البعث. جرت عملية اختطافه اثر خروجه من احد الاجتماعات الرسمية، ووضع في سجن انفرادي (الشيخ حسن) زهاء مائة يوم، ثم جرت عملية انقاذه اثناء انتقاله الى التحقيق.

ويوم كان جديد عضوا في مجلس قيادة الثورة عارض اشتراك سورية في مؤتمر القمة العربي الأول، قائلا:

(ان مؤتمرات القمة لن تعطي اية نتيجة). وكان يسعى الى التفريق بين النـاصريين في سورية والرئيس عبد الناصر، وقاد بنفسه الحملات الاعلامية ضد مصر ورئيسها. وقد عمل بجهد لا يعرف الكلل للتفريق بين الشيوعيين في سورية والاتحاد السوفييتي، وله في هذا الميدان جولات واسعة.

قبـل حركتـه الأخيرة كان يعتبر البعث بديلا لعبد الناصر، اما بعد الحركة فقد ظل صامتا. كان يطالب الناصريين بتعديل ارتباطهم بالقاهرة، وباجراء حركة تطهير وتصفيات في صفوفهم. وحجته في ذلك ان البعث فصل العناصر اليمينية والمترددة فيه، وبالتالي فان قيام اي تعاون بين البعث والنـاصريـين غير ممكن اذا لم يعمـد هؤلاء الى فصل العناصر اليمينية والمترددة والانتهازية في صفوفهم.

وموقفه من الشرق والغرب هو موقف سورية الرسمي بعد ٢٣ شباط (فبراير):

الاقتـراب من الشرق اكثـر فأكثر، دون التحـول الى دولة ضمن (الكومنولث الشرقي)، والابتعاد عن الغرب دون التحول الى موقع العداء الأبدي. وبعبارة اخرى العداء الاستراتيجي. وهنا كانت غلطة الشاطر بألف. لقـد اعتقـد في لحـظة خدر انـه أمسك بعنق سورية، وأضحى باستطاعته ان يصنع لها القالب السياسي والاجتماعي والعقائدي الذي رسمه لها. لم يدرك ان طبيعة السوريين تكره العنف السافر الذي يتجاوز كل حدود. لقـد تميز عهد صلاح جديد بالقسوة المتناهية، لهذا كانت

رحلتـه الى الحكم ظالمة، تفشت خلالها ألوان العذابات، ففقد الشعب الطاقة على المقاومة، وخاف السجون التي فتحت أبوابها على مصاريعها وراحت تستقبل الأبرياء زرافات ووحدانا، بحيث بات الناس، كل الناس، وخصـوصاً الحزبيين منهم يعتقدون ان انسانيتهم انهارت، وان عهد صلاح جديـد يجب ان يزول بكل مؤسساته وقوانينه وشرائعه. وتشاء أقـدار الذي امسـك بعنق سورية ان تحصل هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ في إبـان سطوع نجمـه، فاذا بصـلاح جديد يدير ظهره لهذه الهـزيمة، فأمعن في تعذيب الناس دون تفريق وحدد الناس من تلقاء انفسهم قرب النهاية، فكان العام ١٩٧٠ موعدا لخلاصهم.. وصحت النبوءة.

فاذا كان صلاح جديـد قد تصرف على هذا النحـو، فكيف تصرف الاستاذ ميشيل عفلق؟

١٥

الخطبة الأخيرة !

اذا كان منزل الاستاذ ميشيل عفلق في حي الميدان الشعبي قد شهد ولادة حزب (البعث العربي) ومراحل تطوره، فان شقة الاستاذ في الازبكية شهدت خروج الاستاذ في الساعة الثانية من منتصف ليل ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٦٦ ومغادرته دمشق تحت جنح الظلام وسفره الى بيروت ومن ثم الى باريس فالعراق. اعود من جديد الآن الى أوراقي الخاصة وما حوت من أسرار كان الاستاذ عفلق يأتمني عليها ويوصيني بعدم إطلاع أحد عليها، وخصوصاً اذا كان محسوبا على القيادات البعثية.

وقيمة هذه الأسرار كونها آخر ما تلفظ به الاستاذ ميشيل عفلق قبل مغادرته دمشق التي أحبها بكل كيانه، أو على الأصح دمشق التي عشقها الاستاذ، وما يزال على حبه لها حتى الآن.

لقد خاض الاستاذ معركته الأخيرة بقيام حكم الحزب الواحد في سورية (حكم حزب البعث العربي الاشتراكي) بدءا من ١٩٦٦/١/١، اي بقيام وزارة الاستاذ صلاح الدين البيطار الأخيرة.

وقبل الكشف عن هذه الأسرار التي كانت بمثابة الاعتراف الأخير أمام التاريخ العربي المعاصر، لا بد من وقفة هادئة أمام هذه المرحلة الجديدة التي بدت في ظاهرها كصراع على السلطة بين القيادتين القومية والقطرية في الحزب الواحد، انتهى بتسليم القيادة القومية (قيادة الاستاذ) لزمام الأمور في سورية.. فلأول مرة في تاريخ الحزب يتخذ الصراع داخل الحزب والحكم في سورية طابعا عقائديا، اي طابع صراع نظري وسياسي في وقت واحد بين أطراف مختلفة داخل الحزب، ولا ريب أن وجود الصراع النظري الى جانب الصراع السياسي على السلطة يعتبر

تطورا مهماً بالنسبة الى حزب البعث، فلأول مرة ينطلق هذا الصراع من أسس نظرية فيتطور الى صراع سياسي حاسم ينتهي بفوز أحد الطرفين المتنازعين، ألا وهو الطرف الذي تمثله (القيادة القومية) قيادة الاستاذ ميشيل عفلق المؤسس والأمين العام للحزب.

والحقيقة ان الصراع في حزب البعث، سواء على الصعيد النظري - أي على صعيد العقيدة - أم على صعيد السلطة في الحزب والحكم ليس مسألة جديدة. فقد كان الصراع داخل الحزب قائما منذ نشوء الحزب ودخوله المعترك السياسي، وعلى التحديد منذ أول مؤتمر قطري عقد في دمشق في صيف عام ١٩٥٧، والذي انبثق عنه مشروع النظام الداخلي للحزب.. وأولى انفجارات هذا الصراع كانت في مطلع عام ١٩٥٨ عندما وافقت القيـادة القومية على حل الحزب في القطر السوري كشرط لقيام الوحدة. وتطور هذا الصراع في فترة الوحدة (١٩٥٨ - ١٩٦١)، واشتدّ في فتـرة الانفصـال (١٩٦١ - ١٩٦٣)، وبلغ أوجه عندما سقط حكم الحزب الواحد في العراق في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣، وانتقل هذا الصراع الى سورية بأشكاله القومية والقطرية منذ ذلك التاريخ.

ولتحديد خط عام لهذا الصراع العقائدي داخل الحزب يمكن القول إن (القيادة القومية) ممثلة في شخص الاستاذ ميشيل عفلق، كانت في جميع مراحله الطرف الأساسي.. في حين أن الطرف الآخر كان عبارة عن مجمـوعـات مختلفة متبدلة من الحزبيين القياديين آخرها هو (القيادة القـطرية) التي حلها الاستاذ في ١٩٦٥/١٢/٢٠. فهل يمكن تحديد أسس نظريـة في الأقل للحكم الذي أقامه الاستاذ، والذي كان مظهره تأليف وزارة الاستـاذ صلاح الدين البيـطار في ١٩٦٦/١/١، والذي فرضته القيادة القومية.. وعلى وجه التحديد الذي فرضه الاستاذ ميشيل عفلق؟

لقد انبثق هذا الحكم الجديد نتيجة لسلسلة طويلة من الإجتماعات عقدتها القيادة القومية في دمشق في الفترة الواقعة بين ١٩٦٥/١٢/٨ و ١٩٦٦/١٢/٢٠، وخرجت منه لأول مرة بقرار حاسم هو حل (القيادة القطرية) المتمردة على شرعية القيادة القومية، وتشكيل لجنة حزبية عليا

لتسيير الحكم، مؤلفة من القيادة القومية و (٥) أعضاء من القطر السوري.

فما هي الأسس التي تم عليها إتخاذ هذا الإجراء الخطير الذي هدد وحدة الحزب والسلطة السورية بالانقسام، والذي كاد يعيد قصة الخلاف بين القيادتين (القطرية) و (القومية) في العراق، هذا الحكم الذي أطاح بحكم الحزب بكامله هناك.

إن الشعار الأول الذي طرح داخل الحزب، وعلى صعيد السلطة السورية لإسقاط (القيادة القطرية) هو العودة الى مبادىء الحزب وعقيدته الأساسية التي انحرفت عنها، القيادة القطرية المحلولة، كما تقول القيادة القومية.

فالحكم السوري الجديد هو في نظر القيادة القومية ليس ردة عن مبادىء الحزب، وانما عودة اليها.. انه ليس ردة نحو (اليمين) ولا (اعتدالا) كما وُصف في كثير من الأحيان، وإنما (عودة الى البعث الأصيل) كما قال الاستاذ ميشيل عفلق في معرض نقده لسياسة الحزب في المؤتمر القومي الأخير، او (قفزة نوعية) كما يقول الدكتور (منيف الرزاز) في بيانه بمناسبة حل القيادة القطرية و (عودة الى البعث الحقيقي) كما يقول الاستاذ صلاح الدين البيطار في الكلمة التي وجهها بمناسبة تشكيل وزارته.. فما هو هذا (البعث الأصيل)، وما هي هذه (القفزة النوعية)، او ما هو هذا البعث الحقيقي؟

ان الاستاذ ميشيل عفلق يعتبر أن الميزة الأساسية لحزب البعث هي (الثورية)، والثورية في نظره هي (الأخلاقية)، والى هذه الأخلاقية يضيف (الصدق) و (الصراحة)، أو أن (الصدق) و (الصراحة) هما جزء من هذه (الأخلاقية)، أي جزء من (الثورية) فاذا فُقدت هذه (الأخلاقية) انحرف الحزب، وخرج على نفسه.. انه يعتبرها (منطق) الحزب في عقيدته، وفي نضاله، فإذا ما خرج على هذا المنطق، خرج على نفسه وخسرها، أي خسر بالتالي مبرر وجوده، وهذه هي بالتحديد التهمة التي وُجهت الى القيادة القطرية السورية على لسان الاستاذ ميشيل عفلق، وأيدته في ذلك القيادة القومية.

فمـا هي هذه (الثـوريـة)، أو ما هي هذه الأخلاقية.. وما هو هذا (المنطق)؟ لا بد من القول قبل كل شيء إن من الصعب تحديد مفهوم (الثورية) هذا بشكل ايجابي، ويمكن ان نفهمه أكثر بصورته السلبية أي اذا استعرضنا المواقف (اللاثورية) او (اللاأخلاقية) كما تتردد على لسان قادة الحزب.

١ـ فقدان الثقة بالشعب، وعدم احترامه، واللجوء الى التآمر وأساليب السياسة الملتوية.

٢ـ تشويه الحقائق، والإختلاق، والإفتراء والتضليل.

٣ـ عدم الإعتراف بالخطأ وعدم التراجع عنه، وعدم النقد الذاتي.

٤ـ اللعب بنظام الحزب، والإحتيال عليه،والتمسك بشرعيته الزائفة.

٥ـ التمسك بالأفكار القديمة، والأحقاد، والأهواء.

هذه المـواقف التي أوردتها هنا هي في نظر الاستاذ عفلق والقيادة القومية مواقف (لاثورية) و (لااخلاقية)، وخارجة عن (منطق الحزبَ)، وعلى الأصح هذه هي الاتهامات التي وجهت الى حكم الحزب في سورية، ليس في فترة حكم القيادة القطرية السابقة التي حلت فحسب، وانما منذ قام حكم حزب البعث بعد الثامن من آذار (مارس). واذا كانت القيادة القـوميـة ممثلة في شخص الاستـاذ عفلق قد اتهمت القيادة القطرية بالانحراف والخروج عن الخط الثوري، اي عن اخلاقية القضية، فان وجهـات النـظر الرئيسيـة التي ترفعها القيادة القومية في وجه الفئات الاخـرى التي سيطرت على الحزب تدور حول الصلة بين (الماركسية) و (الاشتراكية البعثية)، ووجهة نظر القيادة القومية بصدد هذه المسألة هي احدى المنطلقات الأساسية للحكم الجديد والتي تعتبر العودة اليها، عودة الى (البيت الأصيل) و (البعث الحقيقي).

ومن المعـروف ان الاستـاذ عندما دعا في كتاباته الاولى، كما سبق وأوضحنـا، الى الاشتـراكيـة، أعلن في عام ١٩٣٦ رفضـه للماركسية كأساس للاشتراكية البعثية. وقد ظهر في السنوات الخمس الاخيرة اتجاه داخل حزب البعث الى الأخذ بالماركسية على صعيد العقيدة، وعلى صعيد التطبيق الاشتراكي، فظهر إلحاح على الصراع الطبقي، وعلى المزيد من

إجراءات التأميم، وتصفية القطاع الخاص في الصناعة والتجارة، وتعالت نداءات الى المزيد من الاصلاح الزراعي، ومصادرة الأراضي الزراعية وتوزيعها. وعلى الرغم من أن القيادة القطرية المحلولة اتخذت اجراءات حاسمة على صعيد التأميم (شباط/ فبراير ١٩٦٥) الا أن القيادة القومية رغم تأييدها لهذه الخطوة اعتبرتها خطوة تكتيكية، وليس إيمانا جديا بالتطبيق الاشتراكي، وعلى هذا الاساس فُسِّرت أسباب (التردي) في الأوضاع كما وصفته القيادة القومية، وذلك حين قالت ان مفعول هذه القرارات لم يدم أكثر من أشهر.

ولئن كانت القيادة القومية قد أخذت على القيادة القطرية والحكم السابق الذي انبثق عنها عدم الايمان الجدي بالاشتراكية، فإنها أخذت على بعض الفئات الأخرى التي انشقت عن الحزب إنكارها لما أسمته الصيغة (القومية) التي قامت عليها عقيدة الحزب. وهكذا فإنه على مستوى الاشتراكية أيضا يعتبر الحكم الممثل بالقيادة القومية على صعيد الحزب، وبحكومة البيطار على صعيد الدولة، عودة إلى المفاهيم الأولى لعقيدة حزب البعث كما نادى بها «الاستاذ»!

ويأتي بعد ذلك موضوع الوحدة العربية ولقاء الثورات.

تقول المادة (٣) من دستور حزب البعث العربي (مبادىء عامة) ان الحزب قومي يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة، وبأن الشعور القومي الواعي الذي يربط الفرد بأمته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس.

ويقول المبدأ الثاني من مبادئه الأساسية، والوارد في دستور الحزب بشأن شخصية الأمة العربية، إن (الأمة العربية تختصّ بمزايا متجلية في نهضاتها المتعاقبة وتتّسم بخصب الحيوية والإبداع، وقابلية التجدد والإنبعاث، ويتناسب إنبعاثها دوما مع نموّ حرية الفرد، ومدى الانسجام بين تطوره وبين المصلحة القومية).

وحول رسالة الأمة العربية يقول المبدأ الثالث:

(الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ، وترمي الى تجديد القيم الانسانية وحفز التقدم البشري وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم). هذه هي أسس عقيدة الحزب

بصدد المسألة القومية، ويتضح منها أنه في صميم تكوين حزب البعث هو حزب «قومي» يؤمن بالقومية كحقيقة حية خالدة، كحقيقة مطلقة لا يمكن ان تكون نسبية، وقد أكد الاستاذ ميشيل عفلق على هذه العقيدة القومية للحزب في كتاباته، ووصفها بأنها (قدر) و (قدر محبب).. (يسيّر مجموعة من البشر في مجرى من الحوادث فريد، وينسج عليها غلافا من الصفات متميز الشكل) كما قال عنها انها (حب قبل كل شيء) إنها (نفس العاطفة التي تربط الفرد بأهل بيته) و (إنها مثل الدين) تنبع من القلب وتصدر عن إرادة الله: (في سبيل البعث ـ ص ٨، ١٠، ١١).

في الاجتماعات التي عقدتها القيادة القومية إثر تأليف وزارة البيطار لخّص الاستاذ عفلق سبل العودة الى (البعث الأصيل) على صعيد العقيدة، والايديولوجية، راسما سياسة لسورية على أساس هذه العقيدة، ويمكن تلخيص المسائل التي يترتب على القيادة القومية، كما لخصها لي الاستاذ عفلق في مقابلة خاصة، بالنقاط التالية:

١ـ على صعيد الحزب

إعادة النظر في كيان الحزب التنظيمي من أساسه، وقد يقتضي هذا إجراء تصفية جديدة شاملة، وسيعاد (تقييم) الحزب كله، الأمر الذي يترتب عليه اعادة النظر في عضوية جميع المنتسبين اليه، حالياً، وهذا يستتبع حل جميع قياداته في القطر السوري، واعادة تشكيله، بدءا من الفرقة الحزبية، وهي التشكيلة الاولى حتى قيادات فروعه في المحافظات، والمؤتمر القطري السوري. ومعنى هذا إجراء تصفية كبرى شاملة لا يُعلم مدى استعداد جسم الحزب لتحمل مضاعفاتها، لا سيما إذا علم أنه من الناحية الكمية ما يزال محدود الانتشار بالنسبة الى الجماهير الواسعة فضلا عن أن اجراء هذه التصفية يحتاج الى عناصر واعية قوية قادرة على (التقييم) تقييماً صحيحاً يضمن للحزب استبقاء أفضل عناصره المؤمنة بـ (البعث الأصيل) والمؤيدة للقيادة القومية.

٢ـ على صعيد الدولة

إعادة النظر في الجهاز الاداري للدولة بدءا من الامناء العامين، والمحافظين في المحافظات وسائر الموظفين ذوي المراكز الحساسة،

لا سيما وأن القيادة القطرية السابقة هي التي أقامت هذا الجهاز في معظم وظائفه الأساسية، وأشخاصه الرئيسيين.. كما يقتضي الأمر اعادة النظر في السلطات الرسمية الأخرى للدولة، لضمان تحقيق الانسجام بين الأجهزة، كما سيعاد تأليف المجلس الوطني ليتحقق الإنسجام بين الأجهزة الرئيسية الثلاثة، الرئاسة، الحكومة، المجلس الوطني.. يضاف الى هذا، ايضا، اعادة النظر في الأجهزة الاقتصادية للدولة التي تعتبر بنظر الاستاذ مسألة مهمة، وفي مقدمة المسائل التي تستوجب المعالجة السريعة.

٣ـ على الصعيد الشعبي

إعادة النظر في المنظمات الشعبية وفي مقدمتها النقابات العمالية، ونقابات الموظفين، والمستخدمين، وبعض الجمعيات، ونقابات المهن الحرة وغير ذلك. وقد قال لي الاستاذ ميشيل عفلق:

إن معالجة وضع الحزب على هذا الصعيد مسألة بالغة الأهمية، لأنها هي التي ستحدد النظرة الجديدة الى علاقة الحزب بالجماهير، هذه العلاقة التي تعتبر في نظر القيادة القومية الشعار الأساسي للمزيد من الانفتاح على الجماهير.

٤ـ على الصعيد العربي

لا بد من اعادة النظر في أسس سياسة القيادة القطرية المحلولة على الصعيد العربي ذلك أن هذه القيادة قد رسمت لسورية سياسة لاأخلاقية تجاه الدول العربية ـ وفق تعبير الاستاذ ـ.

هذا بعض ما قاله لي الاستاذ ميشيل عفلق في لقائي الخاص معه إثر عودته من حديثه الذي ألقاه في الاجتماع الحزبي الخاص الذي حضرته (فروع الاطراف) يوم الجمعة ١٨ شباط (فبراير) في مدرج جامعة دمشق، قبل تسلله ليلا من (شقة الازبكية) وهربه الى لبنان أي قبل ستة ايام من انقلاب ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٦٦.

وهذا الخطاب يعتبر من أخطر الخطب الحزبية التي ألقاها الاستاذ منذ قيام الحزب حتى ذلك التاريخ.

لقد وقف الاستاذ بين قادة الحزب ليتحدث كما كان يتحدث في الماضي:

وقال بصبر رجل حمل عبء القضية:
(الحزب يتهدم، والثورة تكاد تكون منتهية)..
(لا مجال للحلول الوسط)
(لا ينقذ الوضع الا الحل الثوري الحاسم).
ثم قال:
ايها الرفاق:

عندما يمضي زمن طويل ولا يتيسر للقيادة او لبعض القادة ان يجتمعوا بقواعد الحزب، ثم يتاح هذا الاجتماع وفي ظروف عصيبة... في ظروف تراكم الأزمات التي تتالت على الحزب وثورته وتعقدها يشعر الذي يريد ان يتحدث الى القاعدة بأن عليه ان يقول كل شيء، وان يعوض عن الزمن الذي فات، عن الانقطاع الطويل الذي كان أحد أسباب التردي الذي أصــاب الحزب، والتشتت في أفكار الحزبيين، والبعد عن أفكار الحزب وأخلاقيته.. إنني أشعر الآن بأن مواضيع كثيرة تعد بالعشرات تلح علي بأن أشرحها وأوضحها لكي اقوم ببعض واجبي نحو هذا الحزب ولكي لا يبقى عذر للحزبيين الصادقين المستعدين للنضال والتضحية في سبيل هذا الحزب، والذين ضللتهم الشائعات، وضللتهم أهواء وميول ومصالح لبعض الذين وجدوا في قيادات الحزب أو في مراكز المسؤولية في السلطة.

لقـد تبـدلت صورة هذا الحـزب وتبدلت نفسية اعضائه واذا كان التعميم غير جائز فان هذا يصح على الكثيرين... تبدلت معالم هذا الحزب لا بل بُدّلت وفق مخططات وتصميم وعمل دائب. حتى يتحول هذا الحزب الى حزب آخر في عقيدته وفي سياسته وفي تنظيمه وفي أخلاقيته، وزيادة في التضليل والإجرام بحق الأمة العربية احتفظ باسم الحزب... باسم الحزب الذي هو معروف لدى الشعب العربي منذ ربع قرن بوحدويته وثوريته ونظافته وبتميزه عن كل ما سبقه... حتى تطعن الأمة في أملها. في ثقتها بنفسها... في عقيدتها القومية الاشتراكية. ولكي يعم اليأس.

أريــد ان يبدل هذا الحزب في تركيبه وعمله، وان يقال للشعب بأن البعض لجأ بعد وصوله الى السلطة الى تناحر على السلطة، وعلى الملذات وعلى الرواتب. يستغرب بعض الرفاق من عبارة وردت في كلمتي في القيادة

القومية بأن يداً أجنبية قد امتدت الى هذا الحزب. فلنحكم ضمائرنا: إن من غير المعقول أن يزيف هذا الحزب، والى هذا الحد بأيد عربية.

بعد ذلك كيف نصدق بأن هذا هو حزب البعث وبأنه لم يشوه ولم توضع المخططات لتبديله لا كرها بالقادة وانما بناء على خطة جهنمية لضرب قضية الشعب العربي... فبتفكك هذا الحزب والاساءة الى ماضيه وتراثه النضالي تضرب قضية الشعب العربي وهذا هدف الاستعمار.

عندما نكون في اجتماع حزبي نرى نسبة غير قليلة تقدح في الحزب وفي قياداته وتاريخه وسياسته. تماما كما يفعل الأعداء فهل هناك دليل أقوى وأسطع من هذا على القول بأن الاعداء قد تسربوا الى حزبنا ونفذوا اليه.

العقيدة اقوى

ولكننا أقوى منهم بالكلمة الحقة الصريحة، وبالعمل الصادق، وبالتضحية والتجرد نفضح هذه الألاعيب وهذا التآمر، ان كتلا وقوى تتجمع وأموالا، وأجهزة ترصد وتصب الاتهامات والافتراءات على افراد لا يملكون شيئا، بل يزدادون فقرا وضعفا من حيث امتلاكهم لوسائل السلطة. ومع ذلك تبقى القوة الحقيقية لأصحاب العقيدة، لأصحاب القضية الثابتين على المبدأ. ويتبدد المضللون في كل فترة يأتي أمثال هؤلاء، ثم يتبددون وتبقى فكرة الحزب وروح الحزب. يكفي ان يبقى أفراد قلائل في هذا الحزب لهم الشجاعة بأن يصمدوا ويرفضوا الموافقة على التسلط وعلى التزييف ويرفضوا السكوت عن الإجرام.. يكفي أن يبقى أفراد من هؤلاء فلا يموت الحزب. ولا تنطفىء حقيقته لأن رجلاً صادقاً يهزم المئات من المفترين الكاذبين.

دعوة الى التجديد

اننا لم نقل بأن هذا الحزب لا يحتاج الى التجديد. ارجعوا الى ماضي الحزب تجدوا بأنه قام، منذ الأساس، على الفكر الناقد لنفسه والذي لا يكتفي بحد. بل ينشد الكمال ويعترف بالنقص ويدعو باستمرار الى التصحيح والتطوير، وعندما أقول ارجعوا الى كتابات الحزب وماضي الحزب اشعر وآلم. ولقد أصبحت متأكدا بأن خمسة بالمئة من هذا

الحـزب قد يكـونون على اطلاع على ماضي الحزب وأفكاره وأن خمسة وتسعين بالمئة لا يعرفون عن ذلك شيئا. وهذا ما يدعو الى الخوف والقلق فيجب أن نستيقظ قبل فوات الأوان لأن الحركة العقائدية لا تستطيع ان تنمـو اذا انقطعت عن الصلة بماضيها، وذلك لا يعني ان نتجمد على الماضي، بل أن نكون متصلين به اتصالاً حياً واعياً يحقق وحدة الحزب وانطلاقته وسلامة اتجاهه. واذا سلمنا لهذا الواقع المؤسف، بأن يتجاهل الحزب ماضيه ويحقد عليه ويعمل فيه تجريحا، فكيف ننتظر من هذا الحـزب ألا يتجمد ويتشتت؟.. كيف اذا عمل على تهديمه بدلا من ان يستوعب ماضيه بمحبة لا بالاستعباد له، بفهمه لا بالتوقف عنده؟.. ان ماضي الحزب يمثل الدوافع العميقة لنشوء الحزب، فحزبنا حزب جديد من نوعه. فيه نواقص ولكنه قادر على تصحيحها والتغلب على الكثير من الأمراض. وهو قادر على ان ينطلق من أفراد قلائل لكي يستوعب الألوف من المناضلين في الأقطار العربية كلها.

ابعاد القيادة عن القاعدة

أيها الرفاق: كانت هناك ظروف في الماضي باعدت بين قيادات الحزب وقواعده، ثم اتت ظروف جديدة بعد الثورة زادت في هذا التباعد بل جعلته شيئا مقصوداً لا عفوياً كما كان من قبل. ان هذا التباعد لم يكن ناتجا عن بعض الاهمال في التنظيم، بل كان بعد الثورة حصيلة مخططات ترمي لابعـاد حاضر الحـزب عن ماضيـه ولاقـامة سدود منيعة بين القواعد والفئات. بين الحاضر والماضي. فكيف بنيت هذه السدود المصطنعة؟ لقد كانت العـراقيل توضع في وجه اتصال القيادة بالقاعدة وأؤكد لكم بأن هناك عراقيل كانت توضع في وجه هذا الاتصال.

كنا في السنة الاولى من هذه الثورة في شغل دائم في المجلس الوطني. وكان المجلس يجابه المؤامرة تلو المؤامرة من عناصر داخلية وخارجية، وكان يجابه الظروف المتشابكة والمعقدة والخطيرة التي طرأت بعد الثورة. حتى مني الحـزب بكـارثـة.. هي كارثة نكسة الثورة في العراق والتي انعكست على الحـزب في سورية وأفقدته قسماً كبيراً من رصيده وثقة الشعب به. كانت تلك السنـة بالنسبـة لبعض القادة سنة عمل دائب

لمواجهة هذه الأحداث والأخطار، وكانت القيادة منشغلة في معالجة اصعب مراحل الثورة.. تلك المراحل التي تعرفونها وتقدرون خطورتها ودقتها. في ذلك الوقت كانت هناك الفئة الانتهازية المستعجلة على السلطة. تلك الفئة كانت مؤتمنة على الحزب فأساءت الأمانة ووضعت مخططا للقفز الى السلطة دون رصيد نضالي. كانت مؤتمنة على التنظيم. وكانت القيادة مشغولة، كما ذكرنا، فراحت تلعب بالحزب لعبا اجراميا. تدخل فيه وتخرج منه من تشاء، في ظروف هي ظروف الحكم والامتيازات والمنافع. وكانت تلقن من تدخلهم بأن ماضي الحزب يميني. وما أن انتبهنا الى ما يتم من تشويه وتخريب، حتى بدأنا نحاول الاتصال بالقواعد وإذا بالعراقيل توضع.

ايها الرفاق: إن الأزمة في الحزب قديمة. وهي تعود الى الاشهر الأولى من قيام ثورة آذار (مارس). فبعد مضي عدة اشهر على الثورة بدأنا نشعر بأن هناك اشياء غريبة وشاذة في المؤتمرات القطرية والقومية، وتبين لنا بأن مخططا قد وضع قبل الثورة من قبل اللجنة العسكرية. من رفاق لا ننكر فضلهم في حمل المشقة، ولكن السلطة ورطتهم في مزالق بعيدة عن أخلاقية الحزب. بعض هؤلاء الرفاق من اللجنة العسكرية أخذوا يتصلون بالصف الثاني من القياديين الذين أُوكلت اليهم مهمة التنظيم بعد الثورة ويهاجمون القيادات القديمة لتشويه ماضي الحزب وتراثه وذلك ليتسنى لهؤلاء الرفاق من أعضاء اللجنة العسكرية ان يحلّوا محل قيادة الحزب. لقد ورطوا أولئك الحزبيين من الصف الثاني الذين لم تكن لديهم المناعة الأخلاقية الكافية. لم تكن لهم تجربة طويلة تمنعهم من قبول الاغراءات فانبروا يزيفون التنظيم والانتخابات. ولكن المسؤولية تقع على العسكريين، لأن بيدهم السلطة والقوة. لقد ضربوا على مواقع الضعف في نفوس اولئك الشباب وورطوهم وكانوا يعرفون بأن أولئك القياديين من الشباب لم يكونوا عقبة في وجوههم وأن التخلص منهم سهل. وهذا ما حصل بالفعل. اذ لم تمض سنة على الثورة حتى ازيحت تلك الفئة التي ظنت أن باستطاعتها أن تقود الحزب.

وليس صحيحاً ايها الرفاق ما ادخل في روعكم بأننا طلبنا من رفاقنا

حوادث حماه والاضطرابات. ما كان لنا غير وسيلة النصح والتحذير خوفا من أن يقع في سورية ما وقع في العراق. أنتم مسؤولون: لماذا ترك الأمين العام القطر؟ اذا لم يكن باستطاعة القيادة القومية أن تنبه القواعد بشكل مباشر وعن طريق التنظيم. فما هي الوسيلة؟.. كانت القيادة تخشى أن يقع في سورية ما وقع في العراق وكانت معذورة الى حد ما، ولكنني حسب تجربتي أدركت بأن الخطر ماثل وأن الثورة تتدهور. كانت أجهزة دولة الحزب.. الدولة البعثية الاشتراكية تشتغل بتسميم صحة الأمين العام، أكثر مما كانت تشتغل لرد مؤامرات الاستعمار والرجعية، كانت تلك الأجهزة تنقل للقيادات المصنوعة التلفيقات والاتهامات على الذين أسسوا هذا الحزب ورافقوا مسيرته، حتى الآن، من غير ادعاء. كانت توضع العراقيل النفسية بين القيادة والقواعد بأن يصوروا قادة الحزب وكأنهم من المنحرفين. ذهبت الى بون لا لكي أتآمر مع الاستعمار، سافرت لأنني كنت اشعر بأنه ما من حل آخر سوى أن يعقد مؤتمر قومي خارج سورية.. أي خارج إطار السلطة. وكنت حينذاك أفكر في البقاء في الجزائر ولكن مؤامرة حالت دون وصولنا الى الجزائر. وذهبت الى بون لأن أخي يقيم هناك ولكي لا أتشرد ويعز علي أن أقول لكم دون فخر ولا اعتداد بأنني لم أكلف الدولة والحزب قرشاً واحداً خلال الخمسة أشهر التي قضيتها هناك. فلقد رددت الأموال التي أرسلوها، لأنني ذهبت ومعي فكرة الحزب... وقضية الحزب... وألم الحزب.

لقد عدت من الخارج بعد أن حصلت القناعة لدى القيادة القومية بأن لا بد من طرح الأزمة. وبعد عودتي اجتمعت القيادة القومية طويلا وطرحت الأزمة واتخذنا المقررات التي اطلع عليها بعضكم، ولكننا جوبهنا بالتمرد من قبل السلطة، ولا أقول القيادة القطرية، لأن القيادة القطرية أصبحت هي السلطة. إن القيادة القومية هي القيادة الحقيقية للحزب، لأن البعث حزب وحدوي وقيادته واحدة. في القيادة القومية تطرح المصلحة العليا للأمة العربية، أما في القيادات الأخرى فقد تطغى المصالح الإقليمية. وبقدر ما تخضع القيادات القطرية للقيادة القومية، بقدر ما يكون وجودها مشروعا. في القيادة القومية عيوب، ولكنها تبقى

رغم ذلك أجدر قيادة وأبعدها نظراً. ولذلك يجب احترامها واطاعتها. أما التشكيك فيها فهو تخريب للحزب وهو جريمة نكراء.

قبـل عام وشهـر عندما ووجهت القيادة القومية بالتمرد لم ترد أن تعرِّض الثورة الى خطر، لأن الذين كانوا في القيادة القطرية آنذاك كانوا عسكـريين، أو من صنع العسكريين، ولقد هدد هؤلاء بالانسحاب من الحزب ومن السلطة ومن الجيش، فقلنا لننتظر المؤتمر القومي.

المؤتمر القومي الثامن

فإذا كان حزب البعث سينتهي الى هذا المصـير فيجب أن تشتـرك جميـع المنـظمـات الحزبية. فالأزمة خطيرة جداً، وليشهد عليها ممثلو البعث في الوطن العربي، وليتحمل كل منهم مسؤوليته. إذا كان حزب البعث يمـلأ الجـو منـذ عشرين سنة أفكاراً ومبادىء وشعارات قومية خالصة. وبعد ذلك يكون هنالك من بيدهم سلطة فيهددون بها ويسخرون أمـوالها للتشهير برفاقهم. فليأت الحزب القومي الذي لا يملك مالا ولا سلطة ولا وزراء.

وجـاء المؤتمر القومي ومع الأسف تتكرر الأخطاء وتلعب الأغراض الشخصية أحياناً دورها وتفضل «اللفلفة» على الطرح الصريح للأزمة. ويُظن بأن الحزب يمكن أن يغش ويخدع. وأيقنت أن الثورة سوف تهدد بمصير قريب ما دامت الفرصة تفوت وينفضّ المؤتمر القومي دون أن يبحث أزمـة الحـزب، وأقول كلمتي للتاريخ وللأذهان الواعية. أقولها عندما قرروا «اللفلفة» وحجبوا عن المؤتمر حقيقة الأزمة قلت كلمتي في آخر يوم وسردت وقائع الأزمة، ولم أتجن على أحد بل أنصفت الجميع، والحزب فوق الجميع، ويومها كنت قد قررت الإنسحاب من القيادة وترك المجال لغيري طالما أنهم لا يقدرون خطورة هذه الأزمة، وطالما أنهم لم يستنكـروا الاستنكـار اللازم ما حدث عنـدما تمردت القيادة القطرية السـورية على القيادة القومية، وطالما أنهم يفضلون «اللفلفات»، وطالما أنهم لم يستنكروا هذه الألاعيب التي تدخل الى حزب البعث. الألاعيب اللاأخلاقية التي تجيز أن ينزل رجال السلطة والأجهزة كل الافتراءات على قيادات عليا في الحزب لها ماض من عشرين وخمسة وعشرين عاماً،

افتراءات تطعن بوطنيتهم وحزبيتهم ونزاهتهم. لقد حدثتكم عن وضعي كيف عشت عندما سافرت الى الخارج. ولكن من جملة ما قالوه أنهم دفعوا لي مبلغ ٧٥ الف ليرة فكان لا بد أن أقف موقف المنبه. فليس بيدي لا جيش ولا قوة مادية، بيدي هذا التنبيه هذا الأسلوب فقط. من يصدق أن شخصاً عاش مع هذا الحزب من أول لحظة حتى الآن، لا يريد أن يبقى في الحزب؟ فاذا ابتعدت لا بد أن يكون هناك تساؤل. إن كلام بعض الرفاق فيه بساطة لأنه كان من الواجب أن ابقى. كيف ابقى ما دمت أرى الامور على ضلال ولا أستطيع أن أصحح؟ ولم يبق أمامي إلا هذا الموقف. وأنا لم أمنع الحزب أن يتخذ بحقي عقوبة ما دمت قد امتنعت عن حضور الاجتماعات لقيادة المجلس الوطني. فالحزب حر ولم أمنعه من أي عقوبة. انني أشعر براحة ضمير وأعرف بأنني أعمل واجبي، وهذا ما حصل في المؤتمر القومي الثامن. والقيادة القومية التي خرجت منه تجاهلت مع الأسف تجربة القيادة التي جاءت قبلها، وبدأت بداية جديدة فأضاعت وقتاً طويلاً كان يجب أن يوفر على الحزب، وأن تعالج الأزمة منذ ذلك الحين، ولكن في آخر الأمر وبعد تكرار التجارب وصلت الى نفس النتائج التي وصلت اليها القيادة القومية السابقة وقالت في الأزمة ما يجب أن يقال.

حزبنا يساري

ايها الرفاق: ان حزبنا يساري. ومنذ ان وجد كان حزبا يساريا. هذه افكار الحزب فهل يستطيع احد ان يأتي بعبارة واحدة من افكار الحزب فيها تفكير يميني؟ ان حزبنا هو حزب يساري أصيل. لكن الاجتهادات قد تختلف في الحزب العقائدي الاشتراكي فعندما يخوض الحزب معارك كثيرة وتجارب عديدة ويواجه احداثاً وظروفاً غير متوقعة قد تختلف الاجتهادات: وقد يكون لبعض الاشخاص ميل، ولو كان بسيطاً، نحو الاعتدال: وقد يسمى اعتدالا: وقد يسمى هذا شيئا من اليمينية وقد يكون هذا الأمر مرتبطا بظرف من الظروف: وقد يستنتج اليوم من بعض الوزراء بأن لهم أوساطا معينة، وعقلية هي ليست عقلية الطبقة الكادحة، ولكن أتعرفون لماذا لا يبحث هذا الموضوع في الحزب بصراحة وجرأة

ومـوضـوعيـة؟ السبب ان الذين يدعـون اليســار قد شوهـوا اليسار بأغـراضهم الإنتهـازيـة وبعقـولهم الطائشة الصبيانية. فعندما يرى الحزب أن إدعاءات اليسار مقرونة بالانتهازية وحب السلطة والطيش والمخاطرة حتى بالثورة وباستقلال البلاد، يضطر الحزب الى السكوت عن بعض الاعتدال أو بعض الإبتعاد عن الخط اليساري. وقد يكون عند بعض الأشخــاص في الحكم مبـررات فكـريـة وقنـاعـات. ولكن هذه الانتهـازية هي التي تمنع مناقشة هذه المبررات والقناعات. ومناقشة بعض الميول اليمينية التي قد تظهر احياناً عند بعض الأشخاص. ان اليســاريـة ليست في التـطرف والتهـويش والمبـالغات الوقحة وليست بالافتراء على الآخرين بالطيش. ان اليسارية هي تحليل واقعي، وعقل علمي موضوعي لا يتأثر بالشهوات وبالمطامح والتأثيرات الوقتية،. وانما تسيـطر عليـه الروح العلميـة والتجرد والنزاهة: وعندما يشفى مدّعو اليسار من أمراضهم نستطيع أن نعالج هذا الموضوع إذا كان واقعاً.

أنتم تعـرفـون ما فعله الشيوعيون في العراق عام ١٩٥٩ وتعرفون الفظائع والجرائم الوحشية التي ارتكبوها في كركوك وفي الموصل، وتعرفون مســألة تحالفهم مع عبد الكريم قاسم، كما تعرفون حقيقة ذلك العهد الشعوبي الديكتاتوري. وكنا على يقين بأن لا بد أن يحدث رد فعل من جانب الجماهير ضد الشيوعيين وأن تستغل القوى الرجعية واليمينية رد الفعل هذا لشن حرب تصفية ضد الشيوعيين ولتعزيز الأفكار والمواقع اليمينية: حين ذاك وجدت القيادة القومية أن من واجبها تنبيه الحزب في العراق بأن لا يتأثر بايحاء الأوساط المحافظة واليمينية في العراق وأن لا ينجر الى معارك انتقامية مع الشيوعيين. صحيح أن الشيوعيين كانوا منحـرفين، وأنهم ارتكبوا ما ارتكبوه نتيجة انحراف كبير وخطير، ولكن الانحـراف لا يعالج بانحراف آخر. ان الحزب الشيوعي رغم انحرافه ورغم يمينيته في بعض المواقف اسمه الحزب الشيوعي، وهناك أوساط هامة في العالم تتأثر بمجرد لفظة الحزب الشيوعي، واذا دخلنا في معركة معـه فسوف تنتصر له أوساط تقدمية أخرى اعتادت أن تعتبر الحزب الشيوعي في أي بلد الحزب التقدمي الواقف مع الجماهير ومع مصلحة

الجمـاهير، وهذه الأوساط لا تستطيع أن تتفهم ظروفنا نحن في بلادنا وكيف أن الشيوعيين في بعض المواقف يقفون ضد مصلحة الجماهير. قلنا أن الانحراف لا يقابل بانحراف آخر أمّا الذين ارتكبوا الجرائم فيجب أن يقدموا الى المحاكم بعد القضاء على عهد عبد الكريم قاسم. أرسلنا هذه الرسالة قبل ثورة رمضان بسنتين وعرفت أن القيادة القطرية في العراق أنـزلت نشرة بهـذا المعنى الى قواعـد الحزب تحذرهم من ردود الفعل السلبيـة تجـاه الشيوعيين. ولكن القيادة القطرية في العراق، بكاملها وبدون استثناء مع الأسف، مجمعة على التصفية التي قاموا بها طوال تسعة أشهر. في كل شهر كانوا يعدمون عدداً من الشيوعيين خمسين ومئة ومئة وعشرين على مرأى من العالم ومسمعه. وهذا العمل لا يرتكبه إلا الحمقى، لقد جلبوا عداوة ثلاثة أرباع الدنيا لثورة كثورة رمضان منذ أيامها الأولى. وكان عبد الناصر ضدها ايضاً.

أمـا المعسكر الاشتراكي فليس بالضرورة ضد ثورة رمضان وضد البعث: وقـد يكـون له موقف غير مشجـع للثـورة لكي يبقي للأحزاب الشيوعية المكان الأول في الثورة: ولكن القيادة القطرية أعطت المعسكر الاشتـراكي مبـرراً كي يعـادينـا ويعزل تلك الثورة، ويعبىء الأوساط التقدمية في العالم، حتى صارت تنعتنا بالفاشيست وعملاء الاستعمار: طبعاً اننا نعرف أنه كان هناك عبد السلام عارف وبعض العسكريين من أوساط رجعية ومحافظة لا يفهمون روح الثورة ومتأثرين بترسبات رجعية وبجـرائم الشيـوعيـين ويرغبون في الانتقام، فكادوا للقيادة بمثل هذه الأعمال، ولكن هل كانت قيادة الثورة ضعيفة الى هذا الحد؟... اننا لا نلقي الذنب على عاتق عبـد السـلام عارف اليميني المحـافـظ المتملق للأوساط الدينية، ولا على عاتق العسكريين الرجعيين اليمينيين المنتقمين، وإنمـا نضعـه على عاتق البعثيـين الذين استهتروا بتعليمات القيادة القـومية وبتذكيرها لهم. ولقد طرحت هذا الموضوع في المؤتمر القطري العراقي في بغداد وفي المؤتمر القومي السادس. وبعد ضياع الثورة في العراق قفز أولئك الأطفال الذين كانوا يذبحون الشيوعيين نحو الشيوعية وتظاهروا بأنهم صاروا يساريين ليغطوا جرائمهم. هذه هي الانتهازية.

وهؤلاء أيضا كانوا متشنجين ضد عبد الناصر الى أبعد الحدود، وبعد أن خسروا الثـورة، ولحقـد في نفـوسهم على الحزب، راحوا يتزلفون لعبد الناصر ويتقربون منه.

موقفنا من الماركسية

وهناك مسألة موقفنا من الماركسية ومن الشيوعية المحلية والعالمية. ولتبسيط الموضوع نقول أن هنالك في موقفنا طورين: الأول منذ نشأة الحزب حتى عام ١٩٥٦ والثاني منذ عام ١٩٥٦ حتى الآن.

عندما نشأ الحزب كان بيننا وبين الشيوعيين خلافات كبيرة وجدية، وفي غاية الخطورة. ان الماركسية لم تقدم جوابا على مشاكلنا القومية: وكان الشيوعيون المحليون ينكرون القومية ويعادونها كما كانوا ينكرون الوحـدة ويعملون على أســاس اقليمي. ولم تقدم الماركسية جوابا على مشاكل البلدان المتخلفة، ولم تفهم ان النضال القومي التحرري فيها يكون مقرونا بالنضال الاشتراكي. ان حزبنا قد يكون اول حزب في هذا العصر، أعلن هذه الحقيقـة في آسيـا وافريقيا، حقيقة اقتران النضال القومي بالنضال الاشتراكي. قد نكون معذورين عندما نقدنا الماركسية في ذلك الوقت وحـذرنـا الشبـاب منها، ففي ذلك الطور لو أخذ العرب بالماركسية وساروا في ركاب الشيوعيين لكانوا ذيلا لغيرهم ولما وصلوا الى الاستقلال والى الثورة الاشتراكية، ولما وصلوا الى هذه الانتصارات الاجتماعية.

كانت المـاركسية ترتبط بالحركة الشيوعية العالمية، وكانت الأحزاب الشيـوعية تطلب الى العرب آنذاك ان يسكتوا عن الاستعمار الفرنسي والانكليزي لأن الفرنسيين والانكليز كانوا حلفاء للسوفييت، وكان هذا الموقف خيانة لأهداف الأمة، ولهذا كان لا بد للبعث أن يكشف حقيقة أن الشيـوعيـة حركة ثورية ولكنها خاطئة وغير ملائمة لبلادنا لأنها لا تتفهم مشاكلنا ولا تقدم الحلول الصحيحة لها. في ذلك الحين كان جوابنا عنيفا على الماركسية والشيوعيين لأننا كنا نخاف على شعبنا من ان يضلل وكان بيننا وبين الشيوعيين صراع على المصير.. على الحياة.. كنا نطرح السؤال التالي: هل نأخذ هذه الفرصة التاريخية ونقود الأمة العربية الى

النصر.. الى الاستقلال والثورة القومية الاشتراكية ام نتركها فتقود الشيوعية بوضعها ذاك، الأمة العربية الى الفشل والى التخبط.

وبعد مضي خمسة عشر عاما ظهر أن الأحزاب الشيوعية فشلت في العالم الثالث وليس في بلادنا فحسب، فهي لم تستطع أن تقود الثورة في بلدان آسيا وافريقيا بسبب النقص الأساسي فيها.. النقص في فهم طبيعة حركات التحرر الوطني في هاتين القارتين.

ان عهد الانفصال ايها الرفاق ليس ببعيد. في ذلك العهد وقف قسم من البعثيين الى جانب نظام الانفصال وعمل ضمن اطاره واختلفوا مع الحزب وانشقوا عليه، كان خلافنا معهم حول الموقف من الوحدة ومن الانفصال. في المؤتمر القومي الخامس اجتمع ممثلو الحزب في الأقطار وناقشوا موقف الحزب من الوحدة وقرروا أن اخطاء عبد الناصر وحكمه المباحثي يجب ألا تدفعنا الى تبني موقف الانفصاليين والرجعيين والشعوبيين. وانما يجب أن نبقى في الصف الوحدوي يجب أن نستأنف النضال من أجل وحدة سليمة ديمقراطية تعتمد على التنظيم الشعبي، ويجب أن نشدد النضال ضد عهد الانفصال لأنه عهد رجعي صنعه الاستعمار، ولأنه لا يخدم سوى مصالح الاقطاعيين والرأسماليين والانفصاليين: كما قرر المؤتمر أيضاً اعادة التنظيم الحزبي في سورية وارتباط هذا التنظيم بالحزب القومي وبالقيادة القومية. وقرر أيضاً تجاوز المشكلات التنظيمية والتكتلات والشلل في سورية والتي كانت تقف عائقاً أمام عودة التنظيم وأمام وحدة الحزب. وأدان المؤتمر القومي، بصورة حاسمة وواضحة، كل المواقف التي وقفها بعض البعثيين الى جانب الانفصال وضد قضية الوحدة، واعتبرها انحرافا وبرأ الحزب منها.

هذا هو موقف الحزب: موقف المناضلين في الأقطار العربية الذين كانوا يواجهون الجماهير كل يوم ويتحسسون مشاعرها وآراءها وأهدافها. ولكن فئة من البعثيين تمردت على قرارات المؤتمر القومي الخامس وشكلت حزباً جديداً باسم حزبنا. وكان هذا الحزب الجديد منظمة قطرية اقليمية لا صلة لها بالحزب القومي الذي ناضل سنين طويلة وامتد في كثير من الأقطار العربية وحقق للجماهير انتصارات

عظيمة. وبدأت هذه الفئة تشن حرب إشاعات ضد الحزب وضد القيادة القومية تماماً كما يحدث اليوم، كما راحت تدعي الثورية واليسارية. اننا يجب أن نكشف حقيقـة هذه الفئة وحقيقة مواقفها منذ الساعة التي تمردت فيها على الحزب ممثلا بالمؤتمر القومي الخامس وبالقيادة القومية التي إنبثقت عنـه. وقد عملوا ضمن إطار النظام الانفصالي.. إنهم لم يرفضـوا الانفصال ولم يثوروا عليه كنظام، وإنما عملوا ضمن إطاره، وإدعـوا أن باستطاعتهم الاستفادة من الحريات الديمقراطية الزائفة التي وفـرهـا لكي يعملوا. وكـانـوا يدعون أنهم يريدون اصلاحه من الداخل. تصوروا هؤلاء اليساريين الثوريين وهم يريدون إصلاح نظام خالد العظم ومأمون الكزبري ورئيس الاخوان المسلمين من الداخل. ايها الرفاق عودوا الى التاريخ الى تاريخ الحركات الثورية في العالم تجدون أشباهاٍ لهذه الفئة. انهم الانتهازيون، الاصلاحيون اليمينيون الذين يقفـون عند منتصف الطريق ويخشون من المضي في النضال الثوري ويكتفون بالعمل ضمن اطار النظام الرجعي وبمعارضته معارضة جزئية، من غير ان يتحملوا مشاق الثورة التي تتطلب الموقف الجريء الجذري والنضال الدائب الطويل. ان باستطاعتكم ان تعرفوا حقيقتهم من طريقة عملهم، ومن مقارنة اسلوبهم بأسلوب الحزب.

لقد شكلوا حزباً جديداً من مجموعة من التكتلات الشخصية ومن الشلل المعروفة في سورية دون وضع أية قواعد تنظيمية ثورية وراحوا يعملون عملا شبه علني في ظل النظام الانفصالي.. وكان هذا النظام لا يهتم بهم ولا يهتم بمعارضتهم وبياناتهم، وان أي واحد منهم لم يتعرض للاضطهاد في عهد الانفصال. كان وضعهم كوضع الأحزاب البورجوازية المـوالـيـة للنـظام الانفصـــالي. كانوا جزءا من التركيب السياسي لعهد الانفصـــال. هكـذا كان وضعهم وهم الذين ملأوا الدنيـا انتقادا ضد اسلوب الحزب في التنظيم وضد القواعد الثورية في التنظيم الحزبي. اما التنـظيم الذي كان مرتبطا بالحزب فإنه بني على قواعد نضالية متينة مستقاة من تجارب الحزب التنظيمية في الأقطار الأخرى. بني التنظيم الحـزبي على أســاس سري ثوري وكان اعضاؤه يعملون ضمن شروط

قاسية وصعبة، وكانوا ينظمون المظاهرات والاضرابات الجماهيرية وكانوا يتعرضون للاضطهاد من قبل السلطات الرجعية، واذا كانت قد حدثت أخطاء في التنظيم المرتبط بالحزب، بسبب انحراف البعض وانتهازيته، فان الأســاس كان صحيحــا ثوريــاً وكان قطعة هامة في تاريخ حزبنا واسلوب عمله. أما الفئة المنشقة التي ملأت الدنيا صراخاً عن السياسة والسيــاسيين وأساليب العمل السياسي، فانها كانت تعمل ضمن إطار اللعبة السياسية التقليدية وكانت تحاول النجاح في هذه اللعبة. كانت تريد أن تصبح أكرم الحوراني بدون أكرم الحوراني.

هذه الفئــة ايها الرفاق: ارتضت لنفسها ان تكون اقليمية فأقامت حزبا قطريا لا ارتباط له بالحزب القومي، ولم تعتبر ذلك خطأ أو إنحرافاً أو نقصــا، وإنمــا اعتبرت ذلك أمرا طبيعيا وأغرقت نفسها في المسائل القطرية وضاعت ضمن الإطار القطري. إن مجرد تشكيلها لحزب قطري يعبر عن اتجاهها الاقليمي. فحزبنا منذ أول يوم لنشأته لم يكن حزبا لقطر واحد وإنما كان حزبا للوطن العربي كله. لقد كان موقفها ذلك تعبيراً عن نظرتها المنحرفة الى القضية القومية وقضية الوحدة. إن رد فعلها على أخطاء حكم الوحدة وانحرافات عبد الناصر كان بالرجوع الى الوراء.. كان بالإنزلاق نحو القطرية والإقليمية.

لقد انشقت هذه الفئة عن الحزب القومي، عن الحزب الذي يستمد ثوريته من قومية نظرية وقومية تنظيمية وقومية نضالية. فأين وحدويتها؟ وأين هي قوميتها؟ هل يمكن لفئة، مهما كانت مخلصة، ان تكون قومية ووحدوية اذا هي عملت ضمن نطاق اقليمي وانفصلت عن الحزب القومي وعملت على إضعافه وتقطيع أوصاله. ما هي النظرية الوحدوية لهذه الفئة؟

وعندما انشقت هذه الفئة عن الحزب كانت تندد بفكر الحزب وتعتبره ناقصا كما كانت تقيم الدنيا وتقعدها عن النقص في المحتوى الاشتراكي لنـظرية الحزب. فماذا قدمت لنظرية الحزب، وما هي الأفكار الجديدة التي اضافتها الى تراث الحزب النظري؟

لقد عاش قادة هذه الفئة قبل حل الحزب عام ١٩٥٨ سنين عديدة في

الحزب ولم يؤلفوا كتابا ولم يكتبوا مقالاً يمكن ان يضيف شيئا الى نظرية الحزب وتراثه الفكري. وبعد ان انشقوا عن الحزب لم يفعلوا شيئا ولم يقدموا سوى النقد والتجريح والتشهير وحتى بعد ثورة آذار (مارس) حيث امتلكـوا السلطة والأجهزة ووسائل الإعلام، ما الذي قدمته هذه الفئة لفكر الحزب ونظريته وللمحتوى الاشتراكي لهذه النظرية؟.. إن أسخف النشرات وأكثرها سطحية هي التي صدرت في عهد تسلط هذه الفئة، وكلكم تعرفون ذلك. لقد اظهروا عقما فكريا لا مثيل له. وتبين انهم ليسوا عاجزين عن العطاء فحسب وانما هم غير مثقفين اصلا، انهم لا يملكون حتى الحد الأدنى من الثقافة، أية ثقافة سواء كانت اشتراكية أو بورجوازية.

ان عقمهم وسطحيتهم وجهلهم كان يدفعهم الى النقد والإساءة الى القادة ولكن التطرف والاعتدال ليسا مجرد الفاظ وشعارات، وانما هما نتيجة لموقف. ان الذي يحلل حقيقة آرائهم ومواقفهم العملية والسياسية يجـد بأنهم ليســوا سوى اصــلاحيــين قد يكونون تقدميين نسبة الى الرجعيــة ولكنهم يصبحــون يمينيــين بالنسبــة الى الحزب الاشتراكي الثوري. أي بالنسبة الى حزبنا.

لقد آمن حزبنا بالطبقات الكادحة وبنضالها من اجل الوحدة والحرية والاشتــراكيــة، وكانت نظريته تقول: بأن اهداف الشعب العربي هي القضــاء على الاقـطاع والرأسمــاليــة، والقضاء على التجزئة والتسلط الديكتاتوري. واذا عدنا الى مواقف هذه الفئة السياسية والى اهتماماتها النظرية والعملية في وقت الانفصال لوجدنا انها تركز على الاصلاحات الجزئية في الريف وتعتبرها غاية الثورة ومنتهى اليسار.. وهذا هو منطق أكـرم الحـوراني. المنـطق الاصلاحي الانتهازي الليبرالي. الذي طبع شخصيته واتجاهاته السياسية. لقد كانت هذه الفئة المنشقة أيها الرفاق فئة يمينية في حزبنا وذات سلوك إصلاحي إنتهازي.

ان هذه الفئــة الانتهــازية اليمينية الاصلاحية التي اندحرت امام نظريــة الحزب ونضاله الثوري وسياسته السليمة قررت أن تركب مدّ الثورة التي كانت في الحقيقة قد قامت ضدها. ان الفئة العسكرية التي

تحدثنا عنها والتي ارادت السيطرة على الحزب وتغيير حقيقته وجوهره.. بل التي ارادت تبديله بحزب آخر جاءت بهذه الفئة المنشقة ووضعتها على رأس الحزب وضعاً.

ان القطريين الذين كانت الثورة تعبيرا عن اندحارهم وصلوا الى قيادات الحزب والحكم لا لأنهم ناضلوا في صفوف القواعد الحزبية فرفعتهم هذه القواعد الى القيادة، ولا لأنهم بشروا بنظرية ثورية جديدة فاعتنقها مناضلو الحزب واختارهم قادة لهم، ولا لأنهم ضحوا بدمائهم وأرواحهم من أجل الثورة وإبان المؤامرات المتلاحقة.. لقد وصلوا الى قيادات الحزب والحكم بأيدي الفئة العسكرية وصاروا واجهة مدنية لتسلطها على الحزب والثورة.

لقد تحدثوا كثيراً عن اليسارية وعن التنظيم الثوري وعن القاعدة الحزبية وعن المنظمات الشعبية.. ولكن أين هم من كل هذا؟.. لقد كانوا في عهد الإنفصال يمينيين اصلاحيين يحاولون إصلاح نظام خالد العظم ومعروف الدواليبي، فإذا بهم يصبحون بعد الثورة يساريين متطرفين ثم جاءوا على أكتاف عدد من العسكريين التنفيذيين فإذا بهم يتحدثون عن القواعد الحزبية وعن المنظمات الشعبية، وبعد أن إستلموا الحزب وسيطروا عليه هذه الفترة الطويلة، لم نجد في أساليبهم التنظيمية غير إدخال المئات والألوف الى الحزب من غير تثقيف وتدريب على النضال وامتحان القدرة على التضحية والبذل. هذه الفئة كانت تطرح فيها، دائما، خارج الحزب وان هي اتسمت باسمه. كانت تقول: لماذا وقع الحزب في هذا الخطأ او ذاك؟ لماذا فكر الحزب ناقص؟ لماذا تنظيمه على هذا الشكل الخ..؟

إننا نرد على هذا التساؤل فنقول: ان الاتجاه القطري كاتجاه نظري وسياسي وتنظيمي هو اتجاه يميني اقليمي منحرف، انه اتجاه معاد للاشتراكية وللوحدة وللتنظيم الثوري والعمل الشعبي الحقيقي وان واجب الحزب تصفية هذا الاتجاه تصفية نهائية، لأنه مرض في جسم هذا الحزب، والمرض يجب أن يستأصل. أما الذين انضموا الى التنظيم القطري في عهد الانفصال والذين ظلوا بعد الثورة متأثرين باتجاهات

هذا التنـظيم، فان فيهم عددا كبيرا من المضللين، ونحن لا نستهدف تصفية أحد. ان المطلوب الآن هو فضح الاتجاهات اليمينية والمنحرفة وتثقيف الجميع تثقيفا حزبياً سليماً.. تثقيفا وحدويا اشتراكياً ثورياً.. اما الذي يصر على مواقفه المنحرفة بعد التثقيف وبعد كشف الحقائق، فان بقاءه في الحزب سيكون وضعا غير طبيعي.

هكذا ايها الرفاق: ديست شرعية الحزب ومُزِّقتْ. إن سبعة اعضاء من أصل تسعة أعضاء من المدنيين في القيادة القطرية المنحلة انتسبوا الى الحزب بعد الثورة.. وان الذين كانوا يهيمنون عليها هم من تلك الفئة القطرية المنشقة عن الحزب، وان هذه القيادة هي التي أوصلت قادة هذه الفئة الى مراكز القيادة في الحكم والحزب.

الحل الجذري أم الحل السطحي

كيف نخرج من هذه الحالة؟ هل واجبنا ان نجد حلاً سطحياً يؤجل إنفجار الأزمة بضعة أشهر ثم تعود اشد مما كانت عليه قبل أشهر؟ أم ان واجبنا يقضي بأن نجد حلاً جذرياً حلاً ثوريا؟ لقد كانت قواعد الحزب تطالب بالتصحيح. وكانت منظمات الحزب القومية تطالب بالتصحيح وكـانت قواعـد الحـزب في الجيش تطالب بالتصحيـح العميق فلمـاذا التأجيل؟ ولماذا الحلول الوسط؟ ان علينا ان نعود الى الجذور أن نصحح الحزب من أساسه. في تفكيره وفي تنظيمه وفي أخلاقيته وفي سياسته. ان الهدف المطلوب، والذي قصدته القيادة القومية في مقرراتها الأخيرة لم يكن تدبيراً مؤقتاً ولا سطحياً إنما كان بداية لتصحيح عميق. ولكي يكون هذا التصحيح ممكنا يجب أن يكشف المزيفون والمتسلطون والمفترون والمنـدسـون والذين يضعـون شتى العـراقيل في الطريق الى تصحيح أوضاع هذا الحزب ولإنقاذ هذه الثورة من الذين تمكنت منهم شهوتهم الى الحكم والسلطة، ومن الذين أرادوا الاقتتال على السلطة حتى ولو أدى ذلك الى دمار البلاد وخرابها. أنتم تعرفون بعض هؤلاء الذين لم يبق فيهم ضمـير والذين كادوا يعرضون هذه الثورة الى الضياع في سبيل المصالح الخاصة ولكي يجمعوا الأنصار ويكسبوا التأييد.

هؤلاء في صراعهم مع الحزب مع منطق الخير والأخلاق والعمل الثوري

الصادق، يحاولون التستر بشعارات ثورية ومحببة الى قلوب الحزبيين الطيبين المخلصين.

الصراحة

أيها الرفاق: اقول لكم صراحة، فلا ينقذنا من أزمتنا إلا الصراحة: ان عدداً من رفاقنا العسكريين قد إنزلق الى مزالق التكتل والتسلط على الحزب والشعب والى الانتهازية والمصلحية وهذا الإنزلاق كاد أن يقضي على الثورة. وهؤلاء الرفاق لم ننكر عليهم نضالهم.. ودورهم في الثورة، ولكن لا يجوز أن نضحي بالحزب والثورة لأن لهؤلاء الرفاق في الماضي فضلاً على الحزب والثورة.

الجيش والسياسة

ان هناك تساؤلات تطرح اليوم.. كيف نصحح الأوضاع في الجيش؟ كيف نمنع الجيش من التدخل في السياسة؟ كيف نمنع التدخل العسكري الذي تقع مسؤوليته على رفاق معدودين؟ أما الكثرة الساحقة من رفاقنا العسكريين فهم أبرياء من هذا التسلط وهذا الإنزلاق. إننا عندما نقول إبعاد الجيش عن السياسة لا نريد أن نقيم حاجزاً بين الجيش وبين الحزب والعمل السياسي، بل نريد صلة الحزب بالجيش وصلة الجيش بالحزب.. ان نعمق الوعي العقائدي، إننا نريد أن نتمسك بالعناصر الأكثر إيماناً بالحزب.. ولن نتمسك ابداً بالذين لا يؤمنون بالحزب وبالبعيدين عنه وعن عقيدته ونضاله وتراثه الثوري. اننا نسعى الى تصحيح وظيفة الجيش في المجتمع الثوري الذي يقود الحزب. إن الجيش جيش شعبي وفيه مناضلون مرتبطون بقضية الجماهير وهم أعضاء الحزب في الجيش وهؤلاء مثلهم كمثل رفاقهم الآخرين في الحزب عمالا كانوا ام فلاحين ام مثقفين. ان لهم الحق في ان يعيشوا حياة الحزب كاملة، وان العسكريين، كغيرهم من الرفاق، ساهموا ضمن منظماتهم في توجيه الحزب وفي بناء سياسته وبرامجه وان لهم الحق الكامل كغيرهم في النقد وفي النقد الذاتي.. ان ما نريده من تصحيح وظيفة الجيش هو عدم الجمع بين العسكريين والمهمة القيادية في الحزب او في الحكم. فعندما ينتخب الحزب احد الرفاق العسكريين للقيادة

الحـزبية لا يعود هذا الرفيق عسكرياً، بل يصبح حزبيا وقائدا شعبيا ويجب ان لا تبقى له اية صفة عسكرية. ليس هناك حزب ثوري حقيقي في العالم قياداته من القادة العسكريين الذين لا يزالون في قطعاتهم. اما عندما كان بعض الرفاق العسكريين في القيادة وفي الوزارة وفي الجيش في آن واحد. والقيادة القطرية المنحلة فيها سبعة من العسكريين لا يزال بعضهم يتولى قيادات القطعات العسكرية والبعض الآخر فإنه لا يزال محتفظا برتبته العسكرية وبانتسابه الى الجيش رغم انه في القيادة وفي الوزارة. عندما يكون الضابط في القيادة وهو في قطعته العسكرية فانه لن يكون قائدا حزبيا وقائدا شعبيا.. وان لغته لن تكون لغة العقيدة والحوار الحـزبي الموضوعي، وانما لغة القوة والسلاح. ان وجود عسكريين في القيادة وفي الحكم مع احتفاظهم برتبهم العسكرية وقطعاتهم العسكرية ابتعاد عن المنطق الثوري الجماهيري.. ان مجرد وجود هؤلاء العسكريين في القيادة، بهذا الشكل، يعني، وبكل وضوح، ان القوة الحقيقية هي في الجيش.. في القـطعـات العسكـرية وليس في قيادة الحزب مهما كانت مسـؤوليـاتهـا ومهما كان مستواها. فأين هو دور الحزب الجماهيري الثـوري؟ اين هو دور الطبقـات الكـادحـة التي نتحدث ليل نهار عن مصـالحهـا وعن قيـادتهـا للثورة وعن مساندتها للثورة؟ اين هو دور المنظمات؟ منظمات العمال ومنظمات الفلاحين ومنظمات الطلبة ومنظمات النســاء؟.. وبعـد هذا يأتي من يتحـدث عن اليمـين واليسار ويدعي الإنحياز الى الطبقات الكادحة ومصالحها. هذا هو مفهوم الحزب لوظيفة الجيش وهذا هو المقصود من (إبعاد الجيش عن السياسة). اننا لا نريد ان نجعل من الجيش مؤسسة تحترف القتال فقط، اننا نريد ان نجعل منه جيشا للشعب جيشا للأمة العربية.. جيشا للبعث. وبهذه الطريقة نمنــع الصدامات المسلحة بين رفاقنا العسكريين، ونضع الحزب فوق الجميـع. يجب ان نعلم بأن الحـزبي عندما يختلف مع الحزبي فانه يحتكم الى المنظمة.. الى العقيدة.. الى النظام. اما العسكري فانه عندما يختلف مع العسكري وفي ظل ظروف كالتي حدثتكم عنها فانه يحتكم الى السلاح.. وهنا يضيع الحق وتضيع الموضوعية، وتكون الغلبة للأقوى.

وبهـذه الطريقـة، ايضا، تصنـع التصفيات فعندما يكون الحزب فوق الجميـع لا يجرؤ أحد مهما كان قوياً ان يتجه اتجاه التصفيات. وفي المـاضي عنـدما كانت اللجنة العسكرية هي كل شيء تضامنت في وجه الحـزب حينا من الزمن ولكن عندما شعرت بقدر من الاطمئنان بدأت تختلف، وبدأ الواحد يصفي الثاني. وانتم تعرفون قصة التصفيات.

دور القاعدة الحزبية في الجيش

هناك بادرة واعية.. وهي طبيعية. وهذه البادرة هي ان قواعد الحزب في الجيش قد أصبحت منتبهة الى هذه الأخطاء. ولقد اعتبرت بدروس المـاضي وبـدروس الحـاضر فهي تؤمن ايمـاناً شديداً بأن لا ملاذ إلا بالحزب، وان لا انقاذ الا من الحزب. وأن وجود هذه الأخطاء والأزمات سببه الابتعاد عن الحزب والاستهتار بماضي الحزب. وهي تؤمن ان كل هذا يجب أن يزول وان الذي يجب ان يكون هو الاحتكام الى الحزب والى المبادىء.. فحزبنا هو حزب نضال وحزب مبادىء وحزب جماهير كادحة. وقد شق طريقه بالصمود والتضحية، ولم يشق طريقه بالمدافع والدبابات والطيارات، وان تنبه قواعد الحزب في الجيش ليس بجديد أبدا.

مصير اللجنة العسكرية

ففي أوائل السنة الماضية وبعد المؤتمر القومي الثامن انعقد مؤتمر عسكـري للقطر، وجرت انتخابات للمكتب العسكري ولم ينجح في هذه الانتخابات الا عضو واحد من اللجنة العسكرية ومن أصل ١٤ عضوا، ماذا يدل هذا؟ انه دليل واضح على ان قواعد الحزب في الجيش تشجب الأخطاء وتشجب الإنحرافات ولا تقبل بالذين فعلوا ما فعلوا أن يكونوا قادة لهـذا الحـزب. ولكن بعد أشهر يأتي الذين سقطوا في انتخابات المؤتمر العسكري عن طريق المؤتمر القطري الذي ركبته القيادة القطرية كمـا شاءت.. يأتي هؤلاء الى القيـادة. ولقـد جاءوا الى القيادة لانهم عسكريون وباسم الجيش، وهم لم ينالوا ثقة رفاقهم الحزبيين في الجيش. هكـذا كانـوا يتصرفون أيها الرفاق. ايام اللجنة العسكرية كان رفاقنا يأتون الى القيادة والى الحزب ويقولون نحن نمثل الحزب ونمثل القيادة.

لعبة مزدوجة ولكنها انكشفت وعرفها الحزب وعرفتها قواعد الحزب في الجيش.

الجيش للحزب وللشعب

اننا نريد ان نجعل من الجيش عنصراً ثميناً جدا. يصبح قوة في يد الحزب والثورة والجماهير من أجل تحقيق أهداف الأمة العربية. وبذلك لا يستخدمه الحزبيون ضد بعضهم، وانما يكون لحماية الثورة وحماية استقلال البلاد. وفي الماضي كدنا نرى السلاح يرفع ضد الحزب وضد الحزبيين وهذا منتهى الانحراف والتردي والابتعاد عن روح الحزب ورسالته.

الانفتاح

يجب أن نتدارك هذا الحزب قبل فوات الوقت.. وقبل أن يضيع وتخسر في ضياعه الأمة العربية أملها وشيئاً كبيراً في حياتها.

عندما يبقى الحزب سجينا بين الجدران، ولا ينفتح على الشعب، ولا يتصــل بالجمــاهــير ويعمــل معها في القرية وفي المدينة، في المعمل وفي المدرسة. وعندما لا ينفتح على أقطاره العربية ويخرج من القومية القطرية ليـؤدي رســالتــه من أجل الأمة العربية جمعاء.. عندما لا ينفتح هذا الانفتاح، سيبقى هذا التنافس وهذا الصراع من أجل المراكز. ان التاريخ لن يذكر إسماً من هذه الأسماء التي تتصارع، إذا بقيت في مستواها هذا، وإذا لم ترتفع الى مستوى الرسالة التي حملها البعث.

أيهــا الرفــاق: يجب أن نُدخِــل الهواء الى هذا الحزب من الشعب النظيف.. من أقطارنا العربية المناضلة، يجب ان تعود الأصالة الى هذا الحزب. وعندما يتم الانفتاح عندها سترون ان بعض هؤلاء الرفاق الذين ندينهم ونشكـو من تصرفاتهم يتبدلون ويعودون الى أصالتهم، ونحن نتمنى ذلك.

نحن ضد التصفيات

اننا لا نريد التصفيات وزرع الأحقاد. اننا نريد جمع الكلمة وحشد الكفاءات، لأن مهمة الثورة صعبة، ويجب ان يتكاتف الجميع. وعندما

نؤمن بهذا الحزب هذا الايمان، عندما نشجع هذا الوعي الجديد بين شباب الحزب العسكريين ليعودوا الى الحزب كل بارادته وقناعته، وليؤمنوا بأن الحزب هو الملاذ، وانه يجب ان يكون فوق كل سلطة، وقوته المعنوية فوق كل قوة، وقوة قيادته فوق سلطة القيادة العليا في الحزب، نستطيع ان نستبشر، وأن نقول بأن الثورة ولدت من جديد.. وأنها مرت بتجارب وأمراض، ولكنها انتصرت لأنها ثورة حزب البعث وعندما لن نكون قلقين من احتمال انحراف حكومة ما او شخص ما، ولن نخشى اذا كان الوزير الفلاني لونه كذا، واذا كان ذاك ذا عقلية محافظة، الخ... فنحن لم نصل الى الكمال بعد. ونحن لم نصل الى الدرجة التي تكون فيها الوزارة كاملة. ان الضمانة الحقيقية هي عندما يكون الحزب فوق الوزارة والحكومة، وعندما تكون سلطة القيادة فوق كل شخص عندما تحاسب كل انسان الحساب العسير وتوجهه وترشده. وهذا ما تحققه الآن سلطة الحزب وقيادة الحزب. انها يجب أن تكون فوق سلطة الحكم والجيش وحتى اذا لم يكن بيد هذه القيادة عصا، فإنها ستكون الأقوى لأن بيدها سلطة الحزب وسلطة نضال ٢٥ عاما..

١٦

شباط الدامي

معظم الذين رافقوا التجربة البعثية، من الحزبيين وغير الحزبيين، لم يسلجوا مراحل تطور هذه التجربة، ومهما كان الرأي حولها فهي ظاهرة من النادر ان تتكرر. انها بكل سلبياتها وايجابياتها افراز لضمير شعب بعد الجزر الذي اعقب هزيمة ١٩٤٨، تلك الفترة التي وجد الشعب فيها نفسه يهبّ من تحت انقاض تراثه الحضاري ليجاهد الأعداء الذين سببوا هذه الهزيمة، أعداء الداخل، وأعداء الخارج.

لقد تعلم الشعب العربي السوري ان رحلة الحرية يجب أن تبدأ من الداخل، فلأجل أن يتحرر الوطن يجب ان يتحرر المواطن، ومن العبث ان نتصور امكان قيام بلد حر وأهله غير أحرار.

وما ان سمعت الطليعة المثقفة في دمشق صوت الحرية ينبعث من حناجر مؤسسي البعث حتى وقفت في هذا الجانب، وباشرت معهم المعاناة. رافقت هذه الطليعة المحطات الرئيسية التي توقف عندها الاستاذ ميشيل عفلق، ولم يتح لها أن تودعه في آخر محطة توقف عندها في دمشق، لأنها لم تكن معه هناك. وقد مضى على غياب الاستاذ عن دمشق اكثر من ٢١ عاما دون ان يعلم حتى معظم الحزبيين تفاصيل الأحداث الدامية التي جرت بعد غياب الاستاذ.

وتشاء الأقدار أن أُسجل تلك الأحداث، يومئذ، لتكون شاهدا حيا على اول حركة عسكرية عمدت بالدم، واقترنت باسم (اللواء صلاح جديد).

هرعت الى الباب بعدما سمعت الجرس يواصل رنينه بدون توقف.. كانت الساعة تدق الخامسة صباحا، ودخل الصالة مباشرة وارتمى على المقعد ولم يرفع رأسه الا حين أصبحت قبالته أبادره بالكلام وأنا أمسح النوم عن عيني:

ـ لماذا أرى وجهك مصفراً، ويديك ترتجفان، أتشكو من شيء؟
فهز رأسه نفيا، وقال بصوت ضعيف يخرج من بين شفتيه:
ـ افتح الراديو.. افتح الراديو!
قلت ماذا في الراديو في هذا الصباح؟ وأحسست أن الرجل يتداعى، ولكنه سرعان ما تماسك وهو ينظر اليّ بعينين دامعتين وقال:
ـ افتح الراديو أرجوك.. هكذا أراد الإخوان!
وأدرت مفتاح المذياع على محطة دمشق فاذا بصوت يرتل:
(وكل إنسان الزمناه طائره في عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا).
تابع صديقي كلامه، وهو يحدق في الساعة المثبتة على الحائط:
ـ حفظ الله سورية.. هكذا أراد الاخوان.. هذا هو قدر سورية.. الآن ستسمع ما يدهشك! ونهض يذرع الغرفة خطى مضطربة، كما لو أن اعباء ثقيلة القيت على كتفيه، كانت ركبتاه تصطكان فسرعان ما سقط على المقعد. دقت الساعة الخامسة والربع صباحاً، فاذا بالرجل يفقد توازنه ويمسك بذراعي ويهزها وهو يردد:
ـ الآن سيقــع انقــلاب في دمشق هل فهمت؟ انقــلاب يختلف عن الانقــلابــات التي عاصرتهــا.. انقــلاب تشترك فيه دبابات، وطائرات، ومدفعية.. انقلاب دموي.. رحماك يا دمشق، رحماك.. وانهمرت الدموع من عينيــه. لم اسأل صديقي من أين علم نبأ الانقلاب، لقد كان من القــلائل الذين يعلمون مسار الأحداث، كما كان واحدا من القياديين العارفين بكل ما يجري في كواليس حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم.
كانت دمشق في ذلك الصباح من ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٦٦ تعيش أجــواء مثــيرة وصاخبة. دقّت الساعة السادسة فاذا بالمذياع يتوقف، وتنبعث من جوفه أصوات المارشات العسكرية، فالتفت اليَّ الرجل وفي عينيه تساؤل ورهبة وقال:
ـ ألم أقل لك.. لقد وقع الانقلاب، واندفع باتجاه النافذة وفتحها فإذا بأصوات الرصاص تسمع بغزارة..

توقفت الموسيقى العسكرية، وارتفع من جوف المذياع صوت غريب اللهجة يردد:

ـ هنا دمشق، اذاعة الجمهورية العربية السورية:

يا جماهير شعبنا الكادحة.. أيها الرفاق المناضلون في كل مكان من ارجاء وطننا العربي الكبير. وتلا الصوت الغريبُ اللهجة، البيان الصادر عن القيادة القطرية المؤقتة لحزب البعث العربي الاشتراكي، والذي أعلن فيه نبأ قيام الانقلاب العسكري.

عادت الموسيقى العسكرية تعزف، ثم توقفت فجأة ليعلن الصوت نفسه البلاغ رقم (١) الصادر عن القيادة القطرية المؤقتة، والذي منع فيه التجول في كافة انحاء القطر اعتبارا من الساعة السادسة من صباح الاربعاء ٢٣/٢/١٩٦٦ وحتى اشعار آخر، وبعد عدة مارشات عسكرية، اعلن البلاغ رقم (٢) الذي أغلقت بموجبه الحدود والمطارات والموانيء البحرية، ثم توالت البلاغات وكان منها ترقية العقيد احمد سويداني الى رتبة لواء وتعيينه رئيسا للأركان، ومنها بلاغ القاء القبض على الفريق امين الحافظ رئيس الدولة، والدكتور منيف الرزاز، اللواء محمد عمران، الاستاذ منصور الاطرش، والاستاذ صلاح الدين البيطار، والاستاذ شبلي العيسمي. واعلن البلاغ ان جميع المعتقلين سيقدمون الى المحاكمة امام محكمة حزبية خاصة لمحاسبتهم على ما اقترفوه من جرائم بحق الثورة والحزب. وعلى الرغم من أن أحد البلاغات قد أعلن اعتقال الاستاذ ميشيل عفلق، فان ذلك كان من باب التخمين فقط. وراحت البلاغات تتوالى سواء ما تعلق منها بتعليق الدستور المؤقت، أم التي تنظم التموين.

كانت البلاغات تتتابع وصديقي يشير اليّ بيديه بالصمت، حتى اذا عادت الموسيقى العسكرية الى البث رأيت يديه تهبطان متدليتين الى جانبه، ثم أخذ يستدير متمهلا، ويتقهقر خطوات، ثم يحدق في وجهي ويقول وعلى شفتيه بسمة حزينة:

أتسمع الرصاص.. أتسمع صوت المدافع.. انهم الرفاق يقتتلون. ماذا سيقول الناس عنّا؟ ماذا سيقول العرب؟ لقد اشبعناهم صياحا بأن

الجيش العربي في سورية لن يقاتل الا أعداء الأمة العربية، وها نحن نتذابح! رحماك يا دمشق. ومضى قائلا:

انت تعلم أن جميع الحلول السلمية لم تُجدِ نفعاً، لقد حاولنا تجنب الاصطدام.. ارادوها مضمخة بالدم، دم الرفاق، ترى ماذا يجري الآن بين قطعـات الجيش؟ قطنا، الكسوة، الجبهة، اللواء سبعين، أمام دار الفريق الحافظ، أمام الأركان.. قال عباراته هذه وراح يجهش بالبكاء، ثم ما لبث أن نهض ثانية وهو يسحق دموعه بأصابعه، ويدير مفتاح المذياع باتجـاه الاذاعات الأجنبية التي بدأت تنقل اصداء النبأ معتمدة على اذاعة دمشق.

كان صديقي القيـادي وهـو يصغي الى ردود الفعـل لدى الإذاعات الأجنبيـة مغـرقا في صمته، كانت أصوات القنابل والرصاص تشاركنا وتضفي على الجو نوعا من الرهبة الموحشة.

موسيقى عسكرية، ولهجة غريبة تتعثر بما تضمه البلاغات المتلاحقة من اتهـام لعفلق والحـافـظ وعمـران والبيطار بالانحراف عن مبادىء الحزب، وأصوات الرشاشات والمدافع تكاد تصل الى آذاننا مباشرة.. وسألته:

ـ هل تعتقد ان حزبكم سيؤيد الانقلاب؟

فالتفت اليّ ولم يجب، وتظاهر بأنه لم يسمع السؤال، واردف:

ـ لا يمكنني التصـديق بأن حزبنا سيوافق على ما جرى ويجري. وصمت لحظات ثم اضاف.

ـ يبـدو من لهجـة البلاغات انها حركة عسكرية تريد اقصاء قادة الحزب، وتسليم القيادة الى الشباب. فقبل وقوع الانقلاب كان قد عقد اجتمـاع رسمي للقيـادة القـومية في مقرها الرسمي، وانضم الى هذا الاجتماع الاستاذ صلاح الدين البيطار، رئيس الوزراء، واللواء محمد عمـران، وزيـر الدفاع، لبحث مواضيع مختلف عليها، منها ما يتعلق بموضـوع علاقة الجيش بالحزب والحكم. طرح اقتراح بنقل ضباط من مراكز الى مراكز اخرى، لا تقل أهمية عن الأولى، وذلك بغية التدليل على ان الجيش ملتزم بما تمليه عليه القيادة القومية، وأن ليس له تدخل في

شؤون الحكم المدنية. خلال الاجتماع الذي استمر طيلة ساعات النهار، وبعض ساعـات الليـل، تم اتخاذ قرار بالأكثرية، يقضي بنقل الضباط الآتيـة اسماؤهم: احمد سويداني، عزت جديد، سليم حاطوم، حسين ملحم، عبد الغني برو.

وفي نهاية الاجتماع، وعند ساعات الليل، قام الدكتو منيف الرزاز، أمـين عام الحـزب آنذاك، بالطلب الى وزير الدفاع والى رئيس الأركان العامة، وبناء على رغبة الاستاذ صلاح الدين البيطار وآخرين من رفاقه، بالعـودة عن قرار استنفـار الجيش، وهـو القرار الذي كان قد اتخذه الدكتور منيف الرزاز، في ساعات الصباح، وقبل انعقاد الاجتماع المشار اليه، وأبلغه الى وزير الدفاع محمد عمران، الذي كان بدوره قد طلب من رئيس الأركان اللواء «محمد شتيوي» تنفيذه. علماً ان الاستاذ صلاح الدين البيطار أراد من طلب العودة عن الاستنفار منع اراقة الدماء، وعدم تنفيذ اي قرار بالقوة.

ومن الجدير بالذكر ان الفريق امين الحافظ (رئيس الدولة)، واللواء صلاح جديد واللواء حافظ الاسد، قد حضروا هذا الاجتماع بصفتهم اعضاء في القيادة القومية.

قال صديقي القيادي البعثي عباراته هذه وأخذ يعضّ على الكلمات ويقول:

ـ لا أفهم شيئا.. أكاد لا أصدق ما يجري.. ثم أولاني ظهره وأطل من الشرفة ووضع يديه على حاجزها بكل قوة، وما أن سمع أزيز الرصاص يقترب من أذنيه حتى عاد الى مقعده مستأنفاً حديثه.

هل تعلم ماذا جرى بعد حفلة (تبويس الشوارب) في قصر الضيافة؟ لقـد ذهب المقدم سليم حاطوم الى مقره في حرستا ليستنفر قواته، أما الضباط الذين يمتون بالولاء الى القيادة القومية فقد ذهبوا الى دورهم بعد ان بلغت الساعة الثانية ظهرا. ذهب موسى الزعبي الى فراشه بدلا من أن يذهب الى لوائه ـ لواء الصواريخ ـ ولم يعرف احد أين ذهب آمر الشرطة العسكرية العقيد حسين ملحم وبقية ضباط اللواء سبعين: علي مصطفى، ومصطفى عمران، وبقي اللواء حافظ الأسد في مكتبه يعمل جاهدا لإبعاد

الجيش عن الصدام، كان يريد تحييد الجيش، ولكن امكاناته في تلك الساعة لم تمكنه من ضبط الموقف وان كانت قد ساعدت الى حد بعيد في حصر الصدام في أضيق الحدود. أما أعضاء القيادة القومية فقد ذهبوا الى مقرهم وراحوا يتدارسون الموقف.. لقد أجمعوا على أن الأمر لا يتعدى التهديد باستعمال السلاح، وان العسكريين هم، أولا وأخيرا، من الحزب ولن تبلغ بهم الأمور حدود الإصطدام برفاقهم.

كان صاحبي يتكلم واطلاق النار يشتد شيئا فشيئا. أما سكان دمشق فكانوا في تلك الساعات لا يعلمون حقيقة ما يجري حولهم، لقد عرفوا ان المعركة تدور في حي (ابي رمانة)، حي القصور الراقد على اقدام جبل قاسيـون، والملـيء بدور السفـارات العـربيـة والأجنبيـة، ودور كبـار الشخصيات الحزبية الحاكمة، ودارة الفريق امين الحافظ رئيس الدولة، وقصر الضيـافـة. لقـد تراكض النـاس نحـو النـوافذ وسدوا الأبواب بأجسـامهم، متسـائلين باستغـراب: أوليس هذا رصـاصـاً حقيقياً ما يسمعونه يدوي من بعيد وقريب؟

كان الخوف من الموت يلف مدينة دمشق بعد أذان الصبح مباشرة، فما تكاد تلمح العين في الشوارع المتفرعة عن حي أبي رمانة انساناً لم يتملكـه الهلع ويسـارع الى الفرار، وتساقطت جثث الجنود على قارعة الطريق العـام.. جثث المهـاجمين والمدافعين معا من أفواج (المغاوير، ورجـال العشائر) ونهض السفير اليوغوسلافي من فراشه وأمسك بآلة التصـوير وراح يلتقط صور بعض الأطراف من الأيدي والأرجل التي كانت تتناثر على النوافذ وقارعة الطريق. وجرت الدماء بشكل غزير، وقد إمتزج كل هذا بالبكاء والعويل الصادر عن النساء والأطفال. وكان ذنب العـائـلات التي دبّ فيهـا الرعب أنهـا تقـطن في هذا الحي.. ألهبت الرصاصات رأس فتاة جاءت من الكويت لتضـع في دمشق، وضعت طفلها يوم الاثنين، وفي صباح الاربعاء وصلتها الرصاصة الطائشة التي مزقت رأسها فارتمت على طفلها تحمية فاذا بالرصاص الطائش يأتي عليها وعلى طفلهـا. أوقفت احدى الرصاصات قلب مريض في مستشفى السادات القريب من قصر الضيافة وسكت قلب مريض آخر حين شاهد الجنود

يقتحمون المستشفى ليتمركزوا فيه ويطلقوا من نوافذه النار على قصر الضيافة. وبقرت رصاصة رأس فتاة صغيرة سحبت البراد باتجاه النافذة لتدفع عن اخواتها زائر الموت، ولم يكن في الشارع سوى الجنود يقتتلون.

بدأ اطلاق النار في الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة، وانتهى في الساعة العاشرة وخمس دقائق من صباح الاربعاء المجنون.

في ذلك الصباح كان عشرات من السيّاح الأجانب الذين أغراهم ماء دمشق وخضرتها، فاذا بالرصاص يزورهم على غير ميعاد، وكان بينهم شخصيات مرموقة في أوطانها، فما ان وصلوا الى خارج الحدود بعد مكوثهم في فنادقهم ثلاثة ايام حتى بدأوا يتحدثون عن مشاهداتهم. وقيلت روايات كثيرة عن حركة ٢٣ شباط (فبراير)، ولعب الخيال والمعلومات الخاطئة والشائعات دورها، فإذا بالحقيقة تضيع وسط هذا كله. واذا كان من العسير في تلك الأيام ذكر ما حصل، فان فترة من الزمن كافية للاقتراب من هذه الحقيقة وذكر بعضها في الأقل.

ثلاثة ضباط رئيسيين كانوا رأس الحربة في ذلك اليوم:

(المقدم سليم حاطوم، الرائد سليم حسن، الرائد عزة جديد).

في الساعة الخامسة والنصف من صباح الاربعاء وصل الى مبنى الأركان العامة رتل من الدبابات الزاحفة من منطقة القابون التي تبعد عن دمشق مسافة خمسة كيلومترات فقط، يتقدمها العقيد احمد سويداني بسيارته المارسيدس السوداء، وكان هناك، وعلى مسافة عشرات الأمتار مركز تجمع القطع المدرعة المكلفة بحراسة الأركان فلم تتحرك من مكانها، لا سيما انها رأت ضابطاً كبير الرتبة يدخل المبنى وحده، ثم يتبعه عدد قليل من الجنود وقفوا أمام الباب الرئيسي.

دخل سويداني على اللواء محمد عمران وكان في مكتبه ساهراً حتى الصباح، لم يعلم أحد ماذا جرى في هذا اللقاء الذي استمر قرابة ساعة كانت خلالها اقداح الشاي تدخل ملآنة وتخرج فارغة، ثم خرج الضابطان عمران والسويداني، ركب اللواء عمران سيارته المارسيدس الرمادية التي تحركت باتجاه دمشق تتبعها ثلاث سيارات مصفحة.

وعـرف بعـدها ان اللواء عمران قد وضع في معسكرات القابون تحت الحراسة. وبقي احمد سويداني في مبنى الأركان العامة.

بعد ان ابتعدت سيارة عمران قليلا عن مبنى الأركان وصل الى ساحة الأمويين المقدم سليم حاطوم على رأس قوة من المغاوير التابعة له، واحتل مبنى الاذاعة والتلفزيون بلا مقاومة، ووزع رجاله على المداخل الرئيسية. واحتـل المـدني الوحيـد الذي رافقـه غرفـة المذيع وبدأ يذيع بلاغات الانقلاب. لقد كان هذا المدني هو السيد عيد العشاوي) وزير الداخلية في ما بعد

ولم يكن المقدم حاطوم غريبا عن مبنى التلفزيون، لقد سبق له ان احتـل هذا المبنى صبيحة الثامن من آذار (مارس)، ثم عاد مرة ثانية فاحتله صبيحة الثامن عشر من شهر تموز (يوليو)، وها هو اليوم يأتي للمرة الثالثة فيحتله، والفرق بين هذا الاحتلال والاحتلالين السابقين ان عملية الاحتلال الأخيرة تمت بهدوء وسلام، اذ لم يكن في المبنى سوى عدد قليل من رجال الشرطة المدنية، فما أن شاهدوه على رأس قواته حتى ادوا له التحية العسكرية.

وبينمـا كان سويـداني يحتـل مبنى الأركان، وحاطوم يحتل مبنى التلفزيون كانت بضعة مفارز من المغاوير تحتل قلب دمشق ابتداء من ساحة المرجة حتى بناء الهاتف الآلي.

أما مبنى الشرطة العسكرية، فقد ظل هادئاً طيلة ساعات الصباح، لقد وصلت الى هناك مفرزة دبابات وتمركزت في داخله، فقد اختار آمر الشرطة العسكرية العقيد حسين ملحم الأمان على الرغم من كونه من أبرز العناصر التي يعتمد عليها الفريق امين الحافظ. فتحت امرته لواء كامل من شرطة الجيش اضافة الى رتل من الدبابات والمصفحات وناقلات الجنود، ولكن كل هذه القوى تجمدت مكانها، حين عرف ان العقيد ملحم ذهب الى منزله لينام.

كانت المعركة الحقيقية في شارع ابي رمانة، وأمام منزل الفريق حافظ الاسد الكائن في منتصف الشارع، وأمام قصر الضيافة الذي يقع في أول الشارع.

في الساعة الرابعة والنصف من صباح الاربعاء كانت كتيبة من المغاوير بقيادة الرائد سهيل حسن مساعد سليم حاطوم تخرج من معسكر حرستا الذي يبعد بضعة كيلومترات شمال شرقي دمشق، والكائن في قلب غوطتها تتجه بسياراتها المصفحة الى شارع بغداد. لقد كانت مهمة هذه السرية احتلال قصر الضيافة ومنزل الفريق الحافظ رئيس الدولة، وفي الوقت نفسه كانت كتيبة دبابات تتجه، ايضا، خلف هذه القوة من معسكر القابون الذي يبعد ايضا بضعة كيلومترات شرقي دمشق، وكانت مهمة هذه الكتيبة المدرعة مساندة قوة المغاوير في مهمتها.

وصلت كتيبة المغاوير الى مبنى المصرف المركزي في آخر شارع بغداد (مفرق السبع بحرات) وهناك توقفت قليلاً، ذهب نصفها في الطريق المؤدي الى قصر الضيافة، والنصف الآخر اتجه الى الشارع المؤدي الى منزل الفريق الحافظ، وهذا الشارع (الروضة) يقطع شارع ابي رمانة الرئيسي الى نصفين، وصلت نصف السرية الى قصر الضيافة قبل النصف الآخر بدقائق معدودة، ومن هنا كان اطلاق النار امام قصر الضيافة منبها للحرس في منزل الفريق الحافظ، وكانت مهمة حرس قصر الضيافة المقاومة، وتخفيف الضغط على حرس منزل الفريق.

وصل الضابط الذي يقود جنود المغاوير التابعين لسليم حاطوم الى قصر الضيافة، وكان الرتل مؤلفا من ٤٠ جنديا، ترجل الضابط من سيارته وخاطب حرس قصر الضيافة بقوله:

ـ سلموا سلاحكم حالاً، والا سأضطر الى اطلاق النار، ولم يكمل الضابط كلامه حتى انهال عليه الرصاص فقتل من جنوده ٣٧ دفعة واحدة، ولم ينج من هذا الرتل سوى ملازم ثان، ورقيب، وجندي واحد سرعان ما فارق الحياة نتيجة رصاصة طائشة. كان في قصر الضيافة ما يقرب من خمسين جنديا، وكانت قيادتهم تابعة لحرس الفريق، ومعظمهم من رجال العشائر المدربين على حرب الصحراء، وما أن رأى الرتل الآخر ما حل بالرتل الذي يتقدمه حتى توقف قبل مبنى القصر بأمتار قليلة، ودخل بعض المنازل وأخذ يتبادل النيران مع حرس قصر الضيافة، وتساقط القتلى من الجانبين، وكانت حصة القتلى من المهاجمين تفوق

حصة المحاصرين داخل القصر.

ظل اطلاق الرصــاص بين الجـانبين مستمرا قرابة الساعتين، ولم تستطع القوة المهاجمة مساندة القوة التي طوقت منزل الفريق، فظلت وحدها تاركة نصف كتيبة المغاوير تذهب الى منزل الفريق لتدخل المعركة ضد حرس المنزل. في هذه الأثناء وصلت القوة المؤلفة من مائتي مغوار الى منزل الفريق حوالي الساعة السادسة الا ربعاً، فما ان وصلت الى مشارف المنزل حتى انهالت عليها النيران كالمطر فسقط نصفها في الهجوم الأول، وحدث بعد بداية المعركة بنصف ساعة أن سقطت قنبلة يدوية على الغرفة التي ينام فيها أولاد الفريق الستة، فاذا بالفريق الحافظ الذي قاد معـركـة منـزله بنفسه يأمر حراسه بمرافقة زوجته والأولاد الى أقرب مستشفى على أن يستعملوا الباب الخلفي. لقد رأى الفريق ابنه (بشار) يصاب بشظية في كتفه الأيمن، ورأى ابنته (شذى) تصاب في عينها، فلم يتحمـل رؤية أولاده على هذا الوضـع فأمر بإخراجهم. وشاهد الجوار ثلاث نســاء، وعـدداً من الأولاد يخـرجـون من الباب الخلفي للمنزل ويتجهون الى الصالحية ويدخلون المستشفى الايطالي.

بعد أن اطمأن الفريق الى سلامة عائلته نزل الى الطابق السفلي وكان يرتـدي بنـطالا وقميصا ويضع على رأسه شالا مخططاً بالأحمر، وهو الشــال الذي يستعمله حرس البادية في الجيش السوري، وأخذ يرمي المهاجمين برصاص مسدسه. كانت الأصوات تتعالى من الجانبين، وظلت المعركة محتدمة من الساعة السادسة إلا خمس عشرة دقيقة حين وصلت القوة المدرعة التي خرجت من القابون بقيادة (عزة جديد) وأطلقت الدبابة الأولى أولى طلقاتها على الغرفة العليا التي ينام فيها الفريق فخرقتها، وانهالت القنابل المحرقة على المنزل من أطرافه، عندها لم يعد للبندقية والمســدس والرشيش أي مفعول فتوقف اطلاق النار من داخل المنزل، وشوهد الفريق أمين الحافظ حوالي الساعة السادسة والنصف يخرج من منزله وهو يرتدي البنطال الخاكي والشال المخطط بالأحمر وبيده مسدس ومعه ١٢ جنديا فقط بلا أسلحة، وما أن وصل الى تجاه الدبابة التي كانت تطلق النار، حتى سلم مسدسه الى الضابط، وصعد الى الدبابة التي أقلته

الى معسكر القابون. على هذا النحو سقط منزل الفريق بأيدي المهاجمين، كما سقط بدوره قصر الضيافة بعد وصول المدرعات بدقائق معدودة.

قيل يومئذ ان عدد الجنود الذين سقطوا في هاتين المعركتين قد تجاوز المائتي جندي بينهم ٢٠ ضابطاً، أما عدد الجرحى فقد قدر بثلاثمائة مات منهم ثمانون على اقل تقدير في المستشفى العسكري.

في الوقت الذي كان فيه مذيع راديو دمشق يردد بأن الاساتذة: عفلق والبيطار، والرزاز، والحافظ، ومنصور الاطرش قد القي القبض عليهم، كان الناس يعلمون عن طريق الشائعات بأن اللذين قبض عليهما هما الحافظ وعمران، اما الباقون فقد ظلوا في منازلهم تحت الحراسة، وفي يوم الجمعة جاء من يريد القبض عليهم فلم يجدوا أحداً، لقد استطاع عفلق والرزاز النجاة بفضل احد اصدقاء عفلق من غير الحزبيين، اما الاطرش والعيسمي فقد استطاعا الهرب، في حين ان البيطار اختفى منذ صباح يوم الانقلاب.

ظل سكان دمشق في منازلهم طيلة يوم الأربعاء، ومنذ أن سكت صوت الرصاص والسكون يطوق دمشق، ولم يكن يقطع هذا السكون سوى صفير سيارات الاسعاف، وهدير محركات آليات الجيش التي كانت وحدها في الشوارع، وكان السؤال الذي يبحث عن جواب يتلخص بعدة تساؤلات:

ـ لماذا بقي الحافظ وحده في المعركة؟

أين ذهب أنصاره من الضباط؟

لقد سبق لبعض اصدقاء الحافظ من الضباط الكبار ان نصحوه بوضع رتل من الدبابات عند مداخل دمشق وأمام قصره، ورفض الحافظ هذه النصائح قائلا: ان دمشق مطوقة بمدفعية ثقيلة موضوعة في جبل قاسيون، فاذا حدث واشتبكت القوات المدرعة ببعضها فلن تنقذ دمشق من التدمير.

اما اللواء السبعون الذي يطوق دمشق فقد تم الاستيلاء عليه من غير ما مقاومة، كما تم الاستيلاء على اللواء الخامس المتمركز في المنطقة الوسطى كذلك.

جرت عدة معارك صغيرة في بعض المناطق السورية سرعان ما اخمدت وتحركت القيادة الجديدة باتجاه تنظيم نفسها.

بعد ان تمت السيطرة على الموقف العسكري اتجه قادة الانقلاب الى القـوة السيـاسيـة، فكـان أن اعيدت القيادة القطرية السابقة بكامل اعضائها الخمسة عشر (٧ عسكريين و ٨ مدنيين باستثناء الفريق امين الحـافـظ، وحسام حيزة)، وانتخب اللواء (صلاح جديد) نائب الامين القـطري السـابق امينا قطريا، وكانت الخطوة الاولى صدور قرار من القيـادة القـطريـة بتسمية الدكتور نور الدين الاتاسي رئيسا للدولة، وتسمية الدكتور يوسف زعين رئيسا للوزراء. وفي يوم الجمعة، وحوالي الساعة الحادية عشرة سمح بالتجول، وخرج الناس الى الشوارع يتفقد بعضهم بعضا.

بهـذه الخطوة طويت صفحة البعث القديم، وفتحت صفحة البعث الجديد. وكانت أولى صفحات تاريخ هذه المرحلة تكليف الدكتور يوسف زعين بتأليف الوزارة من قبل امين الحزب القطري الجديد (اللواء صلاح جديـد). اول مفـاجـأة أطل منهـا الدكتـور يوسف زعين هي اتصاله بالشيوعيين، قائلا لهم:

ـ رشحوا اثنين منكم لنختار منهما وزيراً.

رشحت اللجنـة المـركـزية للحزب الشيوعي المهندس مراد القوتلي، وقدمت ثلاثة اسماء لاختيار وزير منها. فاذا بيوسف زعين يختار احد الذين لم ترد اسماؤهم في لائحة الترشيح، فاختار السيد سميح عطية الذي سبق له ان مثـل الحـزب الشيوعي السوري في المجلس الوطني الاول، ثم الثـاني. وتـوالت المفاجآت ومنها قيام زعين باستشارة رفاق الاستاذ اكرم الحوراني المقربين، فاتصل بالاستاذ عبد البرّ عيون السود الذي كان يرافق الحوراني في زيارته لاسبانيا، فتركه في لشبونة وعاد الى دمشق ظهر الثلاثاء، وفي يوم الاحد جرى الاتصال معه ومع السيد عبد الغني قنوت احـد الضبـاط السـابقين المقربين من الحوراني، فكان جوابهما متشابها. فقد كان جواب عبد البرّ وقنوت:

ـ اذا كنتم جادين في اقامة حكم يساري فنحن سنشارك في حكومة

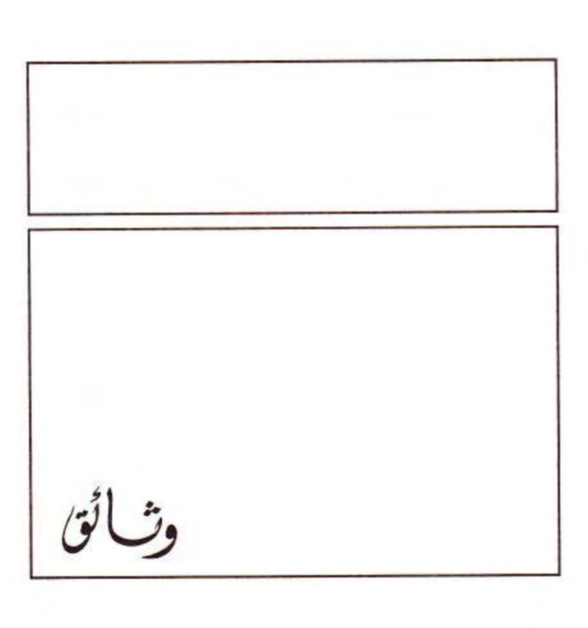
تجمع وطني. ولما قيل لهما بأن الجو لا يسمح، وعدا بأن يكونا مع رفاقهم من قيادة حزب أكرم الحوراني (الاشتراكي) في ضفة الايجابية.

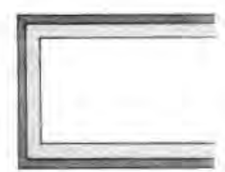
وجاءت المفاجأة الثالثة حين اتصل زعين بالضابط السابق احمد عبد الكريم الذي لعب ادواراً متباينة في عهد الوحدة المصرية السورية، فعين وزيرا في اول وزارة أُلفت في ظلّ الجمهورية العربية المتحدة، ثم استقال منتقلا الى ضفة المناوئين للوحدة. قال احمد عبد الكريم ليوسف زعين:

اذا عزمت على تأليف حكم وطني فان هذا الوضع يتطلب اقامة وضع عسكري سليم واقامة مثل هذا الوضع السليم تتطلب إعادة الضباط المسرحين خلال الوحدة، والانفصال، وعهد الثامن من آذار. فكان جواب زعيّن الصمت. وانسحب عبد الكريم من الاستشارات بتصريح اعلن فيه انه مع العهد الجديد اذا اتجه إتجاهاً تقدمياً ديمقراطياً.

ألف الدكتور يوسف زعيّن الوزارة من تسعة عشر وزيرا بينهم اثنا عشر شخصية من اعضاء القيادة القطرية او من الموالين لها.

هذا هو الحل السياسي الذي نفذه اللواء صلاح جديد بعد ان سيطر على الجيش، ولكن سرعان ما تفاقمت الأحداث من جديد، فاذا بهذا الحل السياسي العسكري يسقط في أواخر عام ١٩٧٠.


وثائق



مقتطفات من دستور حزب البعث العربي

امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة

المبادىء الاساسية:

أ ـ وحدة الأمة العربية وحريتها: العرب أمة واحدة لها حقها الطبيعي في ان تحيا في دولة واحدة وان تكون حرة في توجيه مقدراتها. ولهذا فان حزب «البعث العربي» يعتبر:

١ـ الأمة العربية وحدة روحية ثقافية، وجميع الفوارق القائمة بين ابنائها ثانوية تزول قيمتها بيقظة الوجدان العربي.

٢ـ الأمة العربية وحدة اقتصادية سياسية لا تتجزأ ولا يمكن لأي من الاقطار العربية ان يستكمل شروط حياته منعزلا عن الآخر.

٣ـ الوطن العربي للعرب، ولهم وحدهم حق التصرف بشؤونه وثرواته وتوجيه مقدراته.

ب ـ شخصية إمة العربية: الأمة العربية ذات مزايا خاصة قد تجلت في نهضاتها المتعاقبة واتسمت بخصب الحيوية والابداع وقدرة الأمة على تجديد قواها الروحية وبعث امكانياتها الكاملة. ولهذا فان حزب «البعث العربي» يعتبر ان ازدهار الوطن العربي متوقف على حرية الفرد ومدى الانسجام بين تطوره وبين المصلحة القومية. ولهذا فان:

١ـ حريــة الكلام والاجتماع والاعتقاد والفن مقدسة لا يمكن لأية سلطة ان تنتقصها.

٢ـ قيمة المواطنين تقدر ـ بعد منحهم فرصاً متكافئة ـ بحسب العمل الذي يقومون به في سبيل تقدم الأمة العربية وازدهارها دون النظر الى

أي اعتبار آخر.

ج ـ رسـالة الأمـة العربية: الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكـال متجـددة متكاملة في مراحل التاريخ وترمي الى تجديد القيم الانسانية وحفز التقدم الانساني بقصد ترقية الجنس البشري وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم. ولهذا فان حزب «البعث العربي» يعتبر:

١ـ الاستعمار وكل ما يمت اليه عمل اجرامي يكافحه العرب بجميع الوسـائـل الممكنة وهم يسعون ضمن امكانياتهم المادية والمعنوية الى مساعدة جميع الشعوب المناضلة في سبيل حريتها.

٢ـ الإنسـانيـة مجمـوع متضـامن في مصلحتـه، مشترك في قيمه وحضاراته. فالعرب يتغذون من الحضارة العالمية ويغذونها ويمدون يد الإخاء الى الأمم الاخرى ويتعاونون معها على ايجاد نظم عادلة تضمن لجميع الشعوب الرفاهية والسلام والسمو في الخلق والروح.

مبادىء عامة

١ـ حزب «البعث العربي» حزب عربي شامل تؤسس له فروع في سائر الأقـطار العـربيـة، وهو لا يعالج السياسة القطرية الا من وجهة نظر المصلحة العربية العليا.

٢ـ مركز الحزب العام هو حالياً دمشق ويمكن ان ينقل الى اية مدينة عربية اخرى اذا اقتضت ذلك المصلحة القومية.

٣ـ حزب «البعث العربي» يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة، وبأن الشعـور القومي الواعي الذي يربط الفرد بأمته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس، حافل بالقوى الخالقة، حافز على التضحية، باعث على الشعور بالمسؤولية عامل على توجيه انسانية الفرد توجيهاً عملياً مجدياً.

والفكرة القومية التي يدعو اليها الحزب هي ارادة الشعب العربي ان يتحـرر ويتـوحـد، وان تعطى له فرصة تحقيق الشخصية العربية في التاريخ، وأن يتعاون مع سائر الأمم على كل ما يضمن للإنسانية سيرها القويم الى الخير والرفاهية.

٤ـ حزب «البعث العربي» اشتراكي يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة

منبعثة من صميم القومية العربية، لأنها النظام الأمثل الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق امكانياته وتفتح عبقريته على أكمل وجه، فيضمن للأمة نمواً مطرداً في انتاجها المعنوي والمادي وتآخياً وثيقاً متيناً بين أفرادها.

٥ـ الوطن العربي: هو هذه البقعة من الأرض التي تسكنها الأمة العربية والتي تمتد ما بين جبال طوروس وجبال ايران وخليج البصرة والبحر العربي وجبال الحبشة والصحراء الكبرى والمحيط الاطلسي والبحر الأبيض المتوسط.

سياسة الحزب الداخلية

١ـ نظام الحكم في الدول العربية هو النظام النيابي الدستوري والسلطة التنفيذية مسؤولة امام السلطة التشريعية التي ينتخبها الشعب بنفسه مباشرة.

سياسة الحزب الخارجية

١ـ تستوحى السياسة الخارجية للدولة العربية من المصلحة القومية العربية العليا ومن رسالة العرب الخالدة التي ترمي الى المساهمة مع الأمم الأخرى في ايجاد عالم منسجم حر، آمن، يسير في سبل التقدم الدائم.

٢ـ يناضل العرب بكل قواهم لتقويض دعائم الاستعمار والاحتلال وكل نفوذ سياسي او اقتصادي في بلادهم.

٣ـ لما كان الشعب العربي هو وحده مصدر كل سلطة فلذلك تلغى كل ما عقدته الحكومات من معاهدات واتفاقات وصكوك تخل بسيادة العرب التامة.

سياسة الحزب الاجتماعية

٥ـ العمل:

أ ـ العمل الزامي على كل من يستطيعه.

ب ـ يجب ان يكفل مورد العمل ـ على الأقل ـ مستوى لائقاً من الحياة.

ج ـ سن تشريع عادل للعامل يحدد ساعات العمل اليومي ويمنحه عطلة اسبـوعيـة وسنـوية مأجورتين، ويصون حقوقه، ويكفل التأمين الاجتماعي في الشيخوخة وتعويض العطل الجزئي أو الكلي اثناء العمل.

هـ ـ تأليف نقابات حرة للعمال والفلاحين وتشجيعها لتصبح اداة صالحـة للدفـاع عن حقوقهم ورفع مستواهم وتعهد كفاءاتهم وزيادة الفـرص الممنـوحة لهم وخلق روح التضامن بينهم وتمثيلهم في محاكم العمل العليا.

و ـ تأليف محـاكم خاصة للعمل تمثل فيها الدولة ونقابات العمال والفـلاحين وتفصل في الخلافات التي تقع بينهم وبين مديري المعامل وممثلي الدولة.

٦ـ ثقافة المجتمع:

أ ـ يعمـل الحزب في سبيل ايجاد ثقافة عامة للوطن العربي قومية، عربية حرة، تقدمية، انسانية في مراميها. وتعميمها في جميع اوساط الشعب.

ب ـ الدولة مسـؤولة عن صيـانـة حرية القول والنشر والاجتماع والاحتجاج والصحافة في حدود المصلحة القومية العربية العليا وتقديم كل الوسائل والامكانيات التي تحقق هذه الحرية.

ج ـ العمل الفكري من أقدس أنواع العمل وعلى الدولة ان تحمي المفكرين والعلماء وأن تشجعهم وأن تمنحهم مستوى رفيعاً من العيش وأن تضع بين أيديهم كل الوسائل والامكانيات من نشر وطباعة ومخابر للتجربة كي يكونوا أقدر على أداء رسالتهم العلمية والاجتماعية وأوثق اتصالا بالرأي العام.

سياسة الحزب الاقتصادية

مادة ١ـ حزب البعث العـربي حزب اشتـراكي يؤمن بأن الثـروة الاقتصادية في الوطن ملك الأمة.

مادة ٢ـ ان التوزيع الراهن للثروات في الوطن العربي غير عادل لذلك يعاد النظر في أمرها وتوزع بين المواطنين توزيعاً عادلا.

مادة ٣ـ المواطنون جميعاً متساوون في القيمة الانسانية ولذا فالحزب يمنع استثمار جهد الآخرين.

مادة ٤ـ التملك والإرث حقان طبيعيان ومصونان في حدود المصلحة القومية.

مادة ٥ـ المؤسسات ذات النفع العام وموارد الطبيعة الكبرى ووسائل الانتاج الكبير ملك الامة تديرها الدولة مباشرة وتلغى كل الشركات والامتيازات الأجنبية.

مادة ٦ـ تحدد الملكية الزراعية تحديداً يتناسب مع مقدرة المالك على الاستثمار الكامل دون استثمار جهود الآخرين تحت اشراف الدولة ووفق برنامجها الاقتصادي العام.

مادة ٧ـ تحدد الملكية الصناعية الصغيرة بما يتناسب مع المستوى الاقتصادي الذي يتمتع به بقية المواطنين في الدولة.

مادة ٨ـ يشترك العمال في ادارة العمل ويمنحون عدا أجورهم التي تحددها الدولة نصيباً من أرباح العمل تحدد الدولة نسبته.

مادة ٩ـ الملكية العقارية مباحة للمواطنين جميعاً على أن لا يحق لهم ايجارها واستثمارها على حساب الآخرين وان تضمن الدولة حداً أدنى من التملك العقاري للمواطنين جميعاً.

مادة ١٠ـ يلغى الربا بين المواطنين وتؤسس الدولة مصرفاً قومياً واحداً يصدر النقد الذي يضمن الانتاج القومي ويغذي المشاريع الزراعية والصناعية الضرورية.

مادة ١١ـ تشرف الدولة اشرافاً مباشراً على التجارتين الداخلية والخارجية لإلغاء الإستثمار بين المنتج والمستهلك وحمايتها وحماية الإنتاج القومي من مزاحمة الإنتاج الأجنبي وتأمين التوازن بين الصادر والوارد.

مادة ١٢ـ يوضع برنامج شامل على أحدث التجارب والنظريات الاقتصادية لتصنيع الوطن العربي وتنمية الانتاج القومي وفتح آفاق

جديدة له وتوجيه الاختصاص الصناعي في كل قطر بحسب امكانياته وبحسب توفر المواد الأولية فيه.

مادة ١٣ـ تضمن الدولة عملاً فكرياً او ادارياً لكل مواطن.

مادة ١٤ـ تضمن الدولة معيشة جميع العاجزين عن العمل.

حزب البعث العربي

نظرة تاريخية:

في بداية النشاط الذي مارسه الحزب طلب الاستاذ ميشيل عفلق من الدكتور عبد الله عبد الدائم، والدكتور شاكر مصطفى وكاتب هذه السطور وضع نشرة خاصة لتوزيعها على رجال الصحافة العربية والأجنبية للتعريف بالحزب وأهدافه، فصدر عن اللجنة التنفيذية لحزب البعث العربي البيان التالي:

نشأ حزب البعث العربي حين بدأ افراد قلائل عام ١٩٤٠ يدركون حاجة الأمة الملحة الى فكرة قومية، تهب للعمل القومي معنى ايجابياً بعد معناه السلبي السائد. وكان نشاطهم في هذه الفترة مقصوراً على ايضاح هذه الفكرة، وعلى المساهمة في الحركات الوطنية العامة ضد الاستعمار، وتوجيهها عن طريق النشرات في اكثر الاحيان، وعلى تنظيم حركة الطلاب. وقد اخذ هذا النشاط مظهره العملي الاول يوم الثورة العراقية، حين سعى الحزب لتأليف جماعة «نصرة العراق» وتوجيه أنظار الشباب الى العمل العربي الموحد، والمساهمة في تحرير الوطن العربي كله، وترك النظرة المحلية الضيقة.

وقد دامت هذه الفترة ما يقرب من ثلاث سنين. وكانت حوادث لبنان في تشرين عام ١٩٤٣ ختاماً لهام. اذ أرادت الحكومة في سوريا أن تجعل من هذا الاعتداء حادثاً محلياً لا ينبغي التدخل فيه. فقام اصحاب حركة البعث يفندون هذا الرأي ويطالبون بتضامن الجهود الشعبية والحكومية في سوريا ولبنان، وقيام نضال واحد، لإجلاء الفرنسيين عنهما.

وجاءت الحوادث من بعد مصدقة هذه النظرة التي لقيت آنذاك ألواناً من الضغط الحكومي، مما أتاح للحزب ان يتبين قدرته وامكانياته ورأى ان الضرورة تقضي بالخروج من هذا النطاق التمهيدي البسيط الى طور جديد هو طور التنظيم الحزبي، وتأليف حزب يرقب مشكلات العرب، ويجد لها الحلول الصادرة عن النظرة العربية الموحدة.

وقد أدرك الحزب خطورة المرحلة الهامة التي يجتازها العرب، لذا كان شديد الحذر، يجهد على تنبيه الشعب الى شتى الأخطار التي تكتنفه، ويحاول أن يفضح الأعمال الخبيثة، وحدث أن كان الفرنسيون إذ ذاك يقـومـون بإتصـالات مع حكـومة سوريا، يحاولون من ورائها توطيد أقدامهم في هذا الوطن، ومالت الحكومة الى التفاهم معهم، وحاولت إبعاد الشعب وعزله عن قضيته، وعدم إشراكه في النضال، وإخفاء الأمر عليه. ثم أخذت من بعد تمهد لعقد معاهدة مما إضطرها الى الحد من حريات الشعب المنكر لهذا العمل. فوقف حزب البعث العربي من دون ذلك، ناقداً سياسة الحكومة وتهاونها مع الأجنبي واستهتارها بإرادة الشعب. ولقي في سبيل ذلك كثيرا من الضغط الحكومي وإزداد إيمانه بضرورة وجوده.

وتابع الحزب طريقه النضالية هذه، وأراد أن يعبر عنها تعبيراً أوفى، فأصدر صحيفته الحزبية في تموز عام ١٩٤٦، وكان حدثاً هاماً في تاريخ الحزب عقده المؤتمر الأول في نيسان عام ١٩٤٧، هذا المؤتمر الذي عبر عن عظم الآمـال التي تحملهـا طليعة الشباب العربي وضرورة العمل الجدي المستمر. وفيه أقر دستور الحزب المفصل ونظامه الداخلي.

اهدافه وأسلوبه

لا تختلف أهـدافنـا عن اهداف كل هيئة عربية قومية وهي تحرير الوطن العربي من الاستعمار بأشكاله المختلفة وتوحيده وبناء نهضته، إلا اننـا نختلف عن الهيئات الأخرى في نظرتنا الى هذه الأهداف وفي الأسلوب الذي نتبعه لتحقيقها، وهنا تبرز ملامح حزب البعث العربي ويـظهر الفرق بينه وبين غيره. فالنهضة العربية في نظرنا لا تقوم على التـطور البـطيء بل على الانقـلاب. نحن نرفض سيـاسـة الترقيع في الإصلاح فأمراضنا أعصى من أن يشفيها دواء يعالجها معالجة جزئية بل تحتاج الى تحقيق الإنقلاب الشامل في جميع نواحي الحياة. والنظرة الإنقـلابية تتجلى في مجال السياسة في الحكم الشعبي الحر. لا يحكم الشعب نفسه اليوم إنما تحكمه فئات لا تفهم حاجاته ومطالبه لأنها بعيدة عنه، غريبة، تمثل طبقة استثمارية معينة. يجب ان يستلم الشعب قيادة

نفسه، ويكون حراً في تقرير مصيره.

وتتجلى النظرة الانقلابية في مجال الاقتصاد بتحقيق نظام اشتراكي يعمل لمصلحة الشعب كله ويحطم السدود التي تقف في وجه تفتح امكانيات الشعب وازدهارها.

ان نظرتنا الانقلابية تستتبع اعادة النظر في الأسلوب السائد حتى الآن في تحقيق الأهداف العربية. فالتحرر من الاستعمار وتوحيد أجزاء الوطن العربي لا يتحققان على الوجه الصحيح إلا إذا قام العمل من اجلهما على اساس شعبي نضالي حر. إننا نريد نضالا شعبيا تنبعث قيادته من الشعب نفسه، نابذاً قيادة الطبقة الإقطاعية التي ما زالت حتى اليوم تمسك بزمامه. ان الطبقة الإقطاعية، زراعية كانت أم صناعية ام تجارية، غير قادرة على القيادة الصحيحة لتحقيق الأهداف، ذلك انها تتميز بثلاث صفات تناقض المصلحة العربية والنظرة الإنقلابية.. فهي تتميز، أول ما تتميز، بالعقلية الإستئثارية الإستبدادية. انها تسعى أن تستأثر بالحكم لتحافظ على كيانها ولذلك فهي تستبد وتقاوم كل حركة من شأنها أن تجعل الشعب يستلم الحكم. وهي تتميز، ثانياً، بأنها ذات مصلحة طبقية استغلالية، ولذلك فهي تقيم في وجه كل ما يعيق تحرره الاقتصادي والاجتماعي وكل ما يؤخر الانقلاب. وهي تتصف، ثالثاً، بانها تفضل سياسة التفاهم والتساهل مع الإستعمار.

ان هذه الصفات الثلاثة التي تتميز بها الطبقة الإقطاعية تجعلنا نبعدها عن القيادة ونجعل أساس أسلوبنا في النضال شعبياً. نريد أن يساهم الشعب نفسه في البناء القومي وبهذا وحده يكون التحرر مضموناً والوحدة صحيحة، اذ لا شيء يجعل التحرر حقيقة الا اذا كسبه الشعب بجهده ونضاله.

ان هذه النظرة الانقلابية تفرض موقفاً ايجابياً يقتضيه وضع الأمة الداخلي. فالفساد الذي يشيع في جوانب الحياة العربية سمح لنوعين من الأحزاب والمنظمات ان يظهرا للوجود. فهناك حركات تستغل هذا الفساد وهي أكثر الأحزاب الحكومية وما شاكلها وهناك حركات هي رد فعل سلبي على الفساد كالحركات الاقليمية والحركة الشيوعية. فالألم من الأوضاع

الحالية جعل كثيراً من الشباب ينضمون الى هذه الحركات لمجرد كونها ضد الفســاد. غير ان واقع العرب يقضي أن يجاوزوا هذه المرحلة وأن يكون لهم موقف ايجابي. أراد الحزب ألا يكون رداً سريعاً على أوضاع طارئة يزول بزوالها وأدرك أن الموقف الإنقلابي وحده قادر على القضاء على مظاهر الفساد المختلفة من تجزئة واستعمار وضعف اجتماعي، وأنه وحــده يستطيع ان يقف من الفساد موقفاً إيجابياً، فيحول بذلك دون انتشار المواقف السلبية التي تظل تستفيد من الألم الناجم عن الفساد لتغذية وجودها.

التنظيم الداخلي للحزب

يضم حزب البعث العربي الهيئات الآتية:

١ـ الهيئة العامة

٢ـ مجلس الحزب

٣ـ الفروع ولجانها الإدارية

٤ـ اللجنة التنفيذية

فالهيئة العامة في كل فرع ترسل ممثليها الى مجلس الحزب.

ومجلس الحزب يضع سياسة الحزب العامة وينتخب اللجنة التنفيذية.

واللجــان الإداريــة للفــروع تقــوم بشؤون الفرع الادارية والمالية والمحليــة وتنفيــذ قرارات اللجنــة التنفيــذية والتبشير بمبادىء الحزب والعمل على نموه.

واللجنة التنفيذية، وهي التي تمثل وحدة العمل والتوجيه في الحزب، تدير أعمال الحزب بشكل عام وتشرف على لجان الفروع الادارية وتنفذ سياسة الحزب وقرارات مجلسه.

والى جانب هذه الهيئــات المــذكــورة التي تقــوم جميعهــا على مبدأ الانتخاب تحدث اللجنة التنفيذية مكاتب ولجان تساعدها في عملها منها:

المكتب السيــاسي، والمكتب الثقــافي، والمكتب الاقتصــادي، ومكتب الإذاعــة والنشر، والمكتب المــالي، ولجان النشاط الحزبي وتشمل لجان

الطلاب والعمال والفلاحين.

اما اللجنة التنفيذية فتتكون في الوقت الحاضر من:

العميد: ميشيل عفلق

الأمين العام: صلاح الدين البيطار

اعضاء: جلال السيد، الدكتور وهيب الغانم

فروع الحزب

ليس للحزب فروع رسمية في بقية الأقطار العربية إلا أن له أعضاء لم يجتمعوا بعد في شكل حزبي، في العراق ولبنان ومصر. وهو يعمل الآن على انشاء هذه الفروع.

استعداد الحزب للإندماج او التعاون مع الأحزاب الاخرى

لا يقبل الحزب الاندماج مع أي حزب من الاحزاب القائمة في سوريا. اذ يرى متمشياً في ذلك مع أهدافه، أن الحركات التي ظهرت في البلاد، ما زالت تحمل آثار الماضي. وتعبر عن مرحلة في حياة الأمة قد انتهت، تعبيراً غدا مقصراً عن حاجة الأمة العربية وطموحها.

فهناك الحركات الوطنية الاستقلالية القديمة، التي انعدمت فيها الحلول، وخلافه معها خلاف حول الأهداف. وهناك الحركات الأممية والاقليمية التي تستقي حلولها من فساد الوضع، ولا تقر بالقومية العربية كحقيقة نهائية خالدة، وخلافه معها خلاف حول المبدأ ذاته. وهناك الحركات القومية العربية، وهي تعني الحزب أكثر من غيرها، وخلافه معها خلاف حول الأسلوب. اذ ما زالت في نظره معتدلة خاسرة، لا تحمل روح الانقلاب والانفصال عن الأوضاع القديمة، ولم تقنع بعد قناعة عميقة بضرورة الانفصال النهائي عن الطبقة المستغلة للشعب، والاعتماد عليه وحده في تنظيم النضال العربي. كما أن عملها في اتجاهها ما زال غير العمل العربي الموحد، وما زالت تواجه المشكلات بأسلوب محلي. لذا كانت، لفتورها في الاتجاه الجديد، تقدم مثلاً سلبياً سيئاً

تستفيـد منـه الاتجـاهات الإقليمية والشعوبية لتظهر فقدان الحيوية والإبداع في الحركة العربية.
ما تعاون الحزب مع الأحزاب الأخرى، فمقيد بجملة تحفظات وشروط تجعـل مجال تطبيقه محصوراً في نطاق بعض الأحزاب، دون بعضها الآخـر، ومقصوراً على بعض الحالات الهامة التي يكون فيها التعاون ضرورة قوميـة. ووأضــح أن الأحــزاب التي يخرجها الحزب من نطاق التعاون هي الأحزاب التي تقوم في أساس تشكيلها على ارتباط أجنبي، وعـلى فكـرة مخالفة للقومية العربية تضاف اليها الأحزاب التي تمثل الفئـات المستغلة في الحكم وخارجه، والتي لا تتفق غاياتها النفعية مع روح الحزب النضالية المعارضة للعهود القديمة وممثليها. اما الأحزاب التي يرجح الحزب التعاون معها فهي أقرب الأحزاب في البلاد العربية الى النضـال الشعبي، وأكثرها عنفاً فيه، وأصدقها تمثيلاً للشعب.

الطبقة التي يتالف منها الحزب

يضم الحزب افراداً شعبيين ومثقفين، وما زالت الطبقة المثقفة هي الغـالبة. إلا أن الحزب أقر أخيراً ضرورة إنهاء المرحلة الأولى، مرحلة تكوين النواة المثقفة، والدخول في صفوف الشعب مباشرة.

جريدته

هي جريدة البعث التي بدأت صدورها في تموز عام ١٩٤٦.
وليس للحزب اعضاء في البرلمان الحالي.

بعض ما قام به من اعمال

أ ـ دفاعه عن الدستور والحريات. وقد تجلى هذا الدفاع:
١ـ في الخـطب والنشرات التي بدأ بهـا منذ اربع سنوات (أي منذ ابتـداء هذا الدور النيابي في سوريا وأهمها نشرة «حول خطاب رئيس الجمهورية» كان من نتائجها بالقياس الى الحزب اعتقال الاستاذ صلاح الدين البيـطار، وكـان من نتـائجهـا العامة انبراء النواب للدفاع عن

الدستور واحجام الحكومة عن التعاقد مع الفرنسيين.

٢ـ في مقاومة الحزب للملاكات (خاصة المرسوم الاشتراعي رقم ٥٠) وما جاء فيها من مخالفة للدستور. اذ دعا الهيئات وبعض النواب والاشخاص المستقلين لتشكيل «جبهة الدفاع عن الدستور والحريات العامة» التي انتهى عملها بالنجاح المعروف.

٣ـ في عمله لتعديل قانون الانتخاب وجعله على درجة واحدة. إذ دعا الهيئات أيضاً الى تشكيل «اللجنة الشعبية للدفاع عن حرية الإنتخاب» وقد انتهى عملها بالنجاح.

ب ـ دعوته الى تاليف الجامعة الشعبية، لإقامة العمل العربي والوحدة العربية على أساس شعبي متين. وقد تبنى هذه الدعوة بعد حين حزب الاستقلال العراقي. إلا أن بعض الظروف حالت بينه وبين تحقيقها. ثم أرادت بعض الفئات، في مصر خاصة، أن تدعو اليها ومهدت لمؤتمر عام. غير ان عملها كان موصوماً بالنقص الذي نبه اليه حزب البعث منذ البداية، إذ لم تراع في دعوتها للهيئات والأشخاص الصفة الشعبية الصادقة، وإرادت ان تضم أشخاصاً لا يختلفون عن أشخاص الحكومات القائمة، وأكثرهم ممن يماشونها في تساهلها في الأهداف العربية، وابتعادها عن الروح الانقلابية الشعبية الصحيحة.

لذا فشلت محاولتها. ولذا سيقوم الحزب بنفسه بتحقيق هذا المشروع الذي كان أول من دعا إليه في نشرته عن الجامعة العربية في ١٤ كانون الأول عام ١٩٤٥ وسيحاول أن يبني عمله على الأسس التي رسمها منذ البداية.

مدى استعداد الحزب لتحمل مسؤولية الحكم

لا يقبل الحزب الاشتراك الجزئي في الحكم. ولا يتحمل مسؤوليته الا عندما يؤلف فيه القوة الغالبة التي تستطيع أن تحقق أهداف الحزب وغايته الانقلابية. وهذا لا يتم الا عندما يتوصل الحزب الى الحصول على اكثرية من النواب في البرلمان. اذ الانقلاب لا يكون متيناً الا اذا دعمته أكثرية من الشعب، وأسلوب الحزب النضالي هو الذي يسمح بتشكيل هذه الأكثرية، وتأليف رأي عام انقلابي يضمن نجاح العمل الحكومي.

في افتتاح المؤتمر الوطني بحمص
نص خطاب الرئيس الاتاسي

هذا نص خطاب فخامة الرئيس السيد هاشم الاتاسي الذي افتتح به المؤتمر الوطني:

ايها السادة:

تنادت هممكم ومروءاتكم واختارت هذه المدينة مكاناً للقاء، فأهلا بكم ومرحباً، وبوركت هممكم ومروءاتكم.

بعد عناء طويل وتضحيات جسام، ظفرت البلاد بنعمة الاستقلال. ولكن هذه النعمــة التي جاءت بحمد الله تامة كاملة بالنسبة الى الملأ الخارجي، ما لبثت أن عراها في الداخل ما أفسد على المواطنين هناءتهم وسعادتهم بها. فلقد آلت الأمور الى طراز غريب من الحكم الكيفي، لا يشفع له ولا يؤيده سوى ما يستند اليه من ارهاب. فالطغيان الذي بلونا شروره من تلقاء الأجنبي زمنا طويلا، أخذ يعمله فينا رجل بعينه من أبناء هذا الوطن. وهكذا تعطلت نعمة الاستقلال التي هي أولى النعم وكبراها، تلك النعمة التي لا يكون تمامها الا بالحياة الدستورية الصحيحة التي تكسب مشروعيتهـا من رضى المواطنين واختيارهم بالطرق الديمقراطية المألوفة، فيشعر كل مواطن أنه حر وسيد في حمى القانون.

وهـذه الأوضاع التي أذهلت الشعب أول وهلة، والتي ما لبثت أن أسلمتـه الى الهـواجس والمخاوف، أراد المسئول عنها أن يلبسها ثوب المشروعيـة، وأن يحمـل البـلاد على أن تبرىء ذمته من جميع أعماله وتصرفـاته، وتقر له دستوراً يجمع بين يديه من السلطات ما لم يشهد العالم المتمدن ان اجتمع مثلها لحاكم.

حيال هذا الواقع الذي دوهمت به البلاد على حين غرة، كان طبيعيا ان تتنادوا الى الاجتماع للنظر فيما يراد بها.

ايها السادة،

لا بأس بصروف الدهــر اذا كانـت تلقي الدروس والعبــر وتكسب التجارب وتجمع القلوب وتؤلف بين الجهود في سبيل اسعاد الوطن. واذا كان اجتماعكم اليوم قد تم تحت شعار الألم فانني اسأل الله القدير ان

يؤول الى إقالة البلاد من عثرتها. واسأله أيضا ان يظل اتحادكم ويثبت على الأيام، حتى تنعم البلاد بظلال وارفة من الحياة السياسية المشروعة التي تعصم من الطغيان، والتي بدونها لا أمن ولا سعادة ولا رخاء.

وأرى الآن ان يعطى حق الكلام للإخوان الذين سجلوا أسماءهم بطلبه.

كلمة قائد الثورة
سلطان باشا الاطرش

اخواننا الأكارم

تحية عربية، لقد جاءت المذكرة الصادرة في ١٩٥٣/٦/٢٠ والتي نسميها بحق مذكرة البلاد، معبرة عما تكنه طوايا كل فرد من أفراد الشعب، وكنا نود ان تجد هذه المذكرة نتيجة مباشرة سريعة عند متولي السلطة الحاليين فيراعوا الحالة المؤسفة التي آلت اليها حال البلاد وليقفوا عند هذا الحد من الأعمال غير الدستورية والتصرفات غير المشروعة التي بدءوها منذ زمن غير قريب مغفلين ارادة الشعب الحقيقية فيعيدوا اليه حقه بالسلطة وتقرير نوع الحكم الذي يساس بموجبه في جو من الحرية التامة والادارة الفعلية، ولكن بما أنه لم يحدث شيء من ذلك ارتأى العاملون من ابناء هذا الشعب حرصا على مصلحة هذا الوطن ان يتابعوا السير في هذا السبيل لتحقيق آماله فيقرروا عقد هذا المؤتمر يتداولون فيه الآراء لإخراج البلاد من الأوضاع غير الطبيعية التي أحاطت بها، ولقد رأينا من واجبنا القومي ان نشارككم هذا العمل كما سبق وشاركناكم في آرائكم وأعمالكم الوطنية.

اننا ننتدب أخا الجهاد أبا أحمد يوسف العيسمي وأبا يوسف حسين مرشد وفضل الله جربوع لينوبوا عنا بابداء وجهة نظرنا وبيان رغبتنا، وبانتظار نتائج جهودكم نبارك هذا المؤتمر راجين ان يوفق الاخوان في تحقيق أماني البلاد وإعادة الحريات والحياة الدستورية الصحيحة، واننا نبتهل الى الله أن يسدد خطانا بالسير في نهضة البلاد وتقدمها ونمو

أهدافها القومية والله من وراء القصد.

القرية ـ جبل الدروز
١٩٥٣/٦/٣٠
اخوكم
سلطان الاطرش

بيان المؤتمر الوطني الذي أطاح بعهد الشيشكلي

يوم السبت الواقـع في ٤ تموز ١٩٥٣ عقد مؤتمر في حمص حضره رجالات البلاد بعد ان تنادوا اليه من مختلف ارجائها للنظر فيما آلت اليه حالة البـلاد وفيما يُراد استدراجها اليه. وبعد المذاكرة اقر المؤتمرون بالاجماع صيغة النداء التالي على ان يوجه الى الشعب:

الى الشعب السوري الكريم:

إنك تعلم من أمر الأوضاع الشاذة التي تسود البلاد مثل ما نعلم، وتعلم ايضا ان تلك الأوضاع لم تستند إلا الى الإرهاب الذي صاحبها ولازمها مذ ولدت. فلولا ذلك الإرهاب الذي ما عرفت له البلاد مثيلا، ما كانت تلك الأوضاع الغريبة لتستمر وتطول بها الأيام، لأنها لا تقوى على مواجهة الحريات، ولا تستطيع الصمود امام ارادة الشعب الحرة.

في ظل هذه الأوضـاع التي اتخـذت من سجن المـزة ومن ضروب الاضطهاد وفنون الجور والإعتساف آلة ووسيلة لإستمرار بقائها، في ظل هذا الجو الشامل من الحكم الكيفي والإرهاب، أعلن المسئول عن تلك الأوضاع عزيمته على وضع دستور جديد للبلاد، يمنح لفرد واحد من السلطات ما لم يتوفر مثله لملك من ملوك الحكم المطلق في القرون الوسطى.

وإزاء الشبهـات والظنون التي تكتنف عزيمته هذه من كل جانب، وحيال المخاوف التي تعاورت نفوس المواطنين من سوق البلاد الى ما لا تحب وترضى، وضع طائفة من ابناء البلاد يمثلون وجهها الحقيقي أصدق تمثيـل، بيـانا ضمنوه شجب هذا العمل وتحذير المسئول من نتائجه، واعلنـوا فيـه أن البـلاد لا يمكن أن تتقيـد بمـا ينـوي ذلك المسئول استفتاءها بشأنه في الظاهر، وفرضه عليها في الحقيقة والواقع، لان هذا الذي ينويه لم يكن وليد حاجة الشعب وشعوره، وإنما هو وليد إرادته الشخصية ونزوعه الى توطيد دعائم حكمه بإضفاء ثوب من المشروعية غير الصادقة ولا الصحيحة عليه.

ومذ قدم بيان رجالات الوطن الى ذلك المسئول بات الأمل معقوداً أن

يلقى لديه «الأذن التي تسمع، والقلب الذي يعي، والفكر الذي يقدر» كما جاء في صدر البيـان وختامه، ولكن سرعان ما خاب الأمل برجوع ذلك المسؤول الى حظيرة المبادىء الحقوقية والديموقراطية المتعارف عليها في العـالم في وضع الدساتير واخراجها الى حيز الوجود، فلقد بقي سادراً وماضياً في سعيه الرامي الى تحقيق ما سماه دستوراً واستفتاءً.

وإننـا حيال إصراره وإمعانه لا نرى بدأً من أن نتقدم الى الشعب الكـريم بهذا البيان لنعلن بوضوح وصراحة أن هذا العمل الذي يراد سوق البلاد اليه، انما يدفع بها الى شر ما يعلم أحد أين غايته ومنتهاه.

أيهـا الشعب الكريم، ان المسئول عن هذه الأمور لم يقدم عليها إلا بعد ان مهد لها بتدويخ البلاد وارهاقها وطمس معالم الحرية والكرامة فيها فأعمل السجن والضرب والتعذيب والإهانة بكرام المواطنين، وجند موظفـي الدولة بعـد ان ساومـهم جميعـا على وظائفهم ورفـع عنهم الحصـانات محاولا قتل شعور الكرامة فيهم، وعمد الى تسخير وسائل الحكم على اختلافها في تهديد الناس في أمورهم ومصالحهم حتى لم يبق فيهم من هو آمن على حيـاتـه او ماله او كرامتـه، وارهقهم بالضرائب والتكـاليف بقـانـون وبغـير قانـون، وراح يبدد الأموال في التظاهرات والمهرجانات المعهودة، وفي بث العيون والأرصاد على الشعب. وهكذا حتى إذا توهم ذلك المسؤول انه لم يبق في البلاد من يرتفع له صوت، أعلن ما أعلن من عزمه على اخراج ما اسماه دستوراً، وطرحه على ما أسماه استفتاءً.

أيهـا الشعب الابي: ان هذه الاوضاع التي عانيتها وخبرتها يريد صاحبها أن يجعلها مشروعة بما يعرض عليك من دستور واستفتاء، فهل ترضى بذلك؟ إن المستقبل الذي سوف تسفر عنه عملية الاستفتاء، قد دلت عليه المقدمات التي شاهدتها واختبرتها مذ ابتليت بهذا النوع من الحكم. وأمـا تلويـح المسئول عنه بالحريات وبأنها مباحة في مناسبة إعلان دستوره، فكلام مجرد لا يركن إليه ما دامت جميع السلطات على الإطلاق من إستثنائية وغير إستثنائية مجتمعة كلها في قبضته يتصرف بها كيف شاء. إنه لا سبيل الى اطمئنان المواطنين الى حرياتهم الا بأن

يتخلى ذلك المسؤول عما بيده من أسباب السلطة والحكم ـ تلك السلطات التي لا حد لها والتي اجتماعها بيده مع ترشيحه نفسه يشكل إخلالا كليا بسلامة التصويت التي تحتاط لها جميع الدساتير وقوانين الانتخاب، وليس أدل عليها من سابقة الجنرال ايزنهاور واستقالته من منصبه العسكري قبل الانتخاب بستة اشهر، وانه لا سبيل الى اطمئنان المواطنين الى الحريات إلا بأن تباح في جميع صورها وأشكالها المعروفة في البلاد الدمقراطية وخاصة حرية الرأي التي تتضمن في حد ذاتها حرية إجتماع المواطنين الى بعضهم للتشاور في أمرهم العام وشأنهم المشترك ـ تلك الحريات الدمقراطية الملازمة لكرامة الإنسان فضلا عن انه ليس لك فيه شيء من الضمانات التي تأمن معها على مشيئتك الا يعبث بها، وعلى إرادتك ألا تشوه وتزور.

أيها الشعب، ليس هذا النداء نداء رجل بعينه او جماعة أو حزب فلا جماعة ولا حزبية اليوم أمام البلاء العام والخطب الشامل وإنما هو نداء أمة صهرتها تباريح الألم وألف بين أبنائها خوف المصير. وأنه إتحاد مقدس وطيد الأركان ثابت على الأيام ان شاء الله.

أيها الشعب، ان دساتير الامم هي ثمرة جهادها ونضالها وسجل حرياتها وكراماتها وعنوان ذخائرها ومفاخرها. وهي سياجها وملاذها فيما تحرص عليه من أسباب العز والسؤدد. والدساتير الحرة يكون ميلادها في جو حر طليق من الحريات. وأما تلك التي تدبر في ظلام الدواوين وفي جو خانق من الحكم البوليسي والارهاب، والتي يفاجأ بها الشعب ويستدرج اليها في أيام معدودات، فلن تكون الا سجل الرق وسفر العبودية لأمة كريمة عرفت قيمة الحرية وعرفت الدنيا عنها تمسكها بها.

أيها السوريون: ان العمل الذي دوهمت به البلاد من دستور واستفتاء، والذي يراد انتزاع موافقتها عليه بمختلف الصور والأشكال غير المباحة، والذي إذا تم سوف يطوح بالنظام الجمهوري الذي يكفل سيادة الشعب وكرامته، ان هذا العمل الذي قيل باطلاً انه على غرار الحكم الرئاسي في اميركا، ان لا تعترف به البلاد، ولا يمكن ان يغلها او يقيدها في كثير او قليل.

أيها السوريون: اننا نشهد الله والعالم والتاريخ على ما تريده مشيئة ذلك الفرد بالبلاد وأهلها. وانكم اقوياء بحقكم، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون والله معكم.

التواقيع

وهذه هي أسماء السادة موقعي البيان بحسب الأحرف الهجائية؛

احساسن الجابري، احمد فؤاد القضماني، الشريف زين العابدين، اسعد هرون ابو الهدى الحسبي، الاستاذ الشيخ انيس الملوحي، أحمد المحمود، أبو الهدى اليافي، أحمد حيدر، ايليا فارس سمان، بدوي الجبل، بهجة نصور، بشير قضماني، بدر الدين السباعي، بشار موصلي، توفيق حربلي، توفيق الجندي، توفيق عجم، اوغلي جبرائيل غزال، جلال السيد، الأمير جعفر الجزائري، حسني البرازي، حسن الحكيم، حامد ناجي، حميد ابـراهيم باشـا، حبيب كحالة، حيدر القضماني، حسن مرشد رضوان، وحسين عبد الدين (جبل العرب) حسن مراد، حسين الجندي، حسني الرفـاعي، حسني المـوصلي، خالد القوتلي، خليل كلاس، خليل بشـور، خالد كالو، خالد محسن السبـاعي، ديكران جيرا جيان، رباح الدندشي، ذوقان قرقوط (جبل العرب) زكي الخطيب، زكي الركابي، ذهني الحسيني، ذهني رسلان، رشدي الكيخيا، رزق الله انطاكي، رزق الله سالم، رشـاد برمدا، رشاد جبري، رياض عبد الرزاق، ريمون عازار، رياض بالي، راتب اتاسي، رفعة السباعي، ريكاردو نورية، زهير دندشي، سعيد حيدر، سلمان المعصراني، سلمان حمزة، الاستاذ الشيخ سعيد الجـابي، سالم اتاسي، سميح جمالي، شاكر العاص، شكري الجندي، شمس الدين الحسني، صيـاح ابو عسلي (جبل العرب) صلاح شيخ الارض، صبحي العمـري، صالح رمضان، طريف كيالي، عبد الوهاب حومد، عبد اللطيف سباهي، علي بوظو، عبد الغني قضماني، عبد القادر شريتـح، عفيف الصلح، عرفـان جلاد، عبـد الحسيب رسـلان، عادل العجلاني، عدنان اتاسي، عبد الله فركوح، عبد الحميد الحراكي، عبد

الحميد دويدري، عادل قزيها، عثمان حسن اسبر، عاطف سلطان، عبد الرحمن مارديني، عبد الفتاح زلط، عبد القادر النفوري، عزة احمدوك، عبد الحميد الجاسم الدندشي، عبد المجيد المنجد، عصام الاخرس، عبد الحكيم عبد الصمد، الاستاذ الشيخ عبد الكريم الرئيس، عبد الباقي الجمالي، عبد الدايم اتاسي، عبد المغني الرئيس، عبد الرحيم اتاسي، فيضي اتاسي، فيصل العظمة، فهمي المحايري، فرحان الجندلي، فضل الله جربوع، (جبل العرب) فاروق السياف، فوزي صفوة، قدري الحكيم، قاسم اتاسي، لطيف غنيمة، ليون زمريا، معروف الدواليبي، ميخائيل ليان، منير العجلاني، محمد الشواف، محمد السيد ماجد، صفية منيب دياب، مظهر شربجي، موفق مهايني، محمد الجيرودي، مدحة بيطار، محيي الدين مرهج، محمد خير الحريري، محمد ابو رومية، مصطفى عيسى، مصطفى العطار، محروس شلبي، مصطفى حمد، محمد عطورة، مسلم حداد، منير العامودي، محمود السبيتي، مجاهد الجندي، محيي الدين رسلان، ماهر الجندي، مروان موصلي، ميشيل قره، موفق اتاسي، محمد الازهري، ناظم القدسي، نسيب البكري، نهاد الاميري، نوري المهايني، نديم الموصلي، نوري حجو الجندلي، نزار الحسيني، هاني السباعي، هشام كحالة، يوسف عيسمي (جبل العرب).

وثيقة دعم
حكم الانفصال

في الثامن من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦١، وبعد ١٠ أيام من إعلان الإنفصال عن مصر، إجتمع في بيت النائب أحمد الشرباتي بدمشق ما يقرب من ٥٠ شخصية سياسية سورية بينهم بعض قادة الأحزاب («الشعب»، «الوطني»، «البعث»)، مثل «البعث» كل من (صلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني) واستنكف عن الحضور الاستاذ رشدي كيخيا عميد حزب الشعب معلنا ان من يوقع على وثيقة الوحدة لا يوقع على وثيقة

الانفصــال، كمـا أعلن اعتـزاله العمل السياسي، كما استنكف أيضا (الاخوان المسلمون).

أصـدر المجتمعـون بيـانـا موقعـا ويظهر في الوثيقة توقيع كل من الحوراني والبيطار.

بيان من:

الاستاذ صلاح الدين البيطار

ان العمل العسكري الذي انطلق من دمشق كان نتيجة لتزايد نقمة الشعب العامة على حكم الطغيان والتسلط الذي ساد القطر السوري بعد قيام الوحدة بين سوريا ومصر والذي تآمر على القوى القومية العربية وفتتهـا وضربهـا فأفقـد الوحـدة مضمونها القومي الثوري وقاعدتها الشعبية العربية. فالشعب أيد القضاء على الطغيان ولكنه لا يريد الانفصـال.

إني مؤمن بأن الحـل القـومي الصحيح للنكسة التي تتعرض لها الوحـدة اليـوم هو في ان يتم قريبـاً التقاء ممثلين حقيقيين عن القطر السوري بممثلين حقيقيين عن القطر المصري في جو من الهدوء والسلام وبعيدا عن كل فرض وإملاء لوضع أسس وحدة اتحادية بين القطرين على أســاس من التكـافـؤ والمســاواة بينهمـا وفي اطار حياة سياسية ديموقراطية حقة تسمح بالتقاء ابناء الأمة العربية الواحدة في القطرين التقاء قومياً عربياً حراً.

وان تفهم الشعب العـربي في مختلف الأقطار العربية لحقيقة هذه الأزمـة ومســانـدة القـوى الشعبية القومية في العراق والاردن ولبنان والمغرب وثورة الجزائر وسائر الأقطار العربية من شأنه ان يتيح فرصة ذهبية لعودة القطرين الى وحدة اتحادية قومية حقيقية تكون حقاً نواة الوحدة العربية الشاملة.

فلا حياة لنا، نحن العرب، الا بوحدتنا وهذه فرصتنا لإعادتها واقامتها.

في ٤/١٠/١٩٦١   صلاح الدين البيطار

دستور عصبة العمل القومي
المنبثق عن المؤتمر التأسيسي للعصبة المنعقد في آب سنة ١٩٣٣

١ـ العرب في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم أمة واحدة. والعروبة اخوة يتساوى فيها العرب بالحقوق والواجبات.

٢ـ الأمة العربية جسم اجتماعي واحد كل عضو فيه يقوم بوظيفته الخاصة فلا فاضل ولا مفضول إلا بالمواهب والأخلاق والعمل الوطني المثمر.

٣ـ البلدان العربية بكليتها وطن عربي واحد.

٤ـ القومية العربية فوق كل شيء وقبل كل شيء وكل ما يتعارض معها من عصبية طائفية أو قبيلية أو أسرية أو إقليمية تنبذه العصبة وتقاومه.

٥ـ الحركة العربية هي حركة بعث وتحرير وانشاء والحركات القطرية فروع لها.

٦ـ هدف العصبة انشاء كيان عربي قومي مستقل موحد.

٧ـ تنكر العصبة الاقطاعية وتقاومها وتعمل لاقامة نظام اقتصادي عادل شامل يظفر فيه كل مواطن بحقه المتناسب مع عمله. وتحارب الجهل والفقر والفوضى.

٨ـ تأخذ الدولة على عاتقها المشاريع الرئيسية الكبرى وتشجع عملياً الشركات التعاونية القومية.

٩ـ تؤمن العصبة بالمدنية العدل أي المدنية الجامعة محاسن المدنيتين المادية والروحية وبأن الأمة العربية ستكون رسول هذه المدنية.

١٠ـ العصبي لا يقول الا الصدق ولا يعمل الا للحق ولا يخاف الا الله.

١١ـ العصبي يخدم وطنه بشجاعة وحزم وأمانة في كل زمان وفي كل مكان وفي كل ناحية من نواحي الحياة وهو لا يلبس ولا يأكل ولا يشرب ولا يستعمل من الآنية والأثاث الا كل ما هو عربي أياً كان القطر الذي صنعه أو أنتجه الا إذا إضطر من هذا كله الى شيء ليس في الأقطار العربية منه.

١٢ـ قوام النهضة الرجل والمرأة على السواء كل بما هو ميسر له.

والعصبة تعتمد في بلوغ أهدافها على التنظيم الشعبي الشامل للجنسين وتستند فيه بالدرجة الأولى الى الشباب.

فهرس الأحزاب والهيئات

فهرس الأعلام

ح

خ

د

ر

ز

س

ط

ع





الأستاذ
قصة حياة ميشيل عفلق

هذا الكتاب هو أول عن حياة مؤسس حزب البعث. يروي فيه كاتبه زهير مارديني سيرة حياة ميشيل عفلق أو «الأستاذ» كما يطلق عليه أنصاره ومريدوه.

يسلط الكتاب الضوء على الرجل وحزبه وعصره بلغة سلسة، وموضوعية مكّنته من عرض وتناول مجمل القضايا والملابسات التي رافقت حياة ميشيل عفلق الحزبية والفكرية والصراعات التي عاشها حزب البعث وعاشتها سورية منذ فترة الانتداب الفرنسي مروراً بالوحدة السورية المصرية والانفصال وثورة الثامن من آذار التي قادها حزب البعث وتسلّم على أثرها السلطة في سورية.

ISBN 1 - 869844 - 79 - 3